الدكتور أحمد زياد محبّك

حكايات شعبية

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
١٩٩٩ز

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

مقدمة

للحكاية الشعبية قيمةٌ كبيرة، فهي مادة خصبة لبحوث شعبية واجتماعية وتاريخية وفكرية ودينية وأدبية وثقافية وإنسانية، وقد عنيت بها شعوب كثيرة، جمعاً وتوثيقاً ودراسة، وتكاد في العصر الحاضر تنسى، بسبب ما استجد من وسائل الترفيه والتسلية والتعليم، ولقد كانت إلى وقت غير بعيد الوسيلة الأولى لذلك كله.

وليست الغاية من تدوين هذه الحكايات إحياءها، وإنما حفظها وتوثيقها، ووضعها مادة أمام الدارسين، فقد يتيح هذا الحفظ إمكان توظيفها في أشكال جديدة، ولذلك قد تبدو في بعض الحكايات عناصر أو مفاهيم أصبحت غير مناسبة لهذا العصر، ولكن هذا لا يحول دون حفظها تدويناً وتوثيقاً لما لها من أهمية وقيمة.

ويضم هذا الكتاب بين دفتيه أكثر من مئة وخمسين حكاية شعبية، مروية بالعربية الفصيحة، كما سمعت من غير تعديل في شخصياتها أو حوادثها أو مغزاها، ولا تغيير في بنيتها العامة، ولكن تم الحرص على روايتها بالعربية الفصيحة لأنها الوسيلة الأرقى والأبقى، وليست الغاية من توثيق الحكايات دراسة اللهجة العامية، التي هي لهجة متغيرة، ودرسها لا يخدم العربية الفصحى في شيء، بخلاف الشعوب الأوربية التي دون كل شعب منها حكاياته باللهجة العامية التي هي لغته القومية، وليس علينا أن نقلدهم،

لأن اللغة العربية هي لغة العرب جميعاً، وهم شعب واحد، ومهما تعددت لهجاتهم أو اختلفت فهي ترجع في جذورها إلى العربية الفصيحة، ومهما ابتعدت عنها فلا يمكن أن تستقل، أو تتحول إلى لغة، بخلاف اللهجات الأوربية التي تحولت إلى لغات لأن كل لهجة ترجع إلى لغة وهي خاصة بشعب دون آخر، ولذلك كله لا مسوغ لتدوين الحكايات الشعبية العربية باللهجات العامية، والضرورة كل الضرورة في تدوينها بالعربية الفصيحة.

وتمّ تصنيف الحكايات في نوعين، الأول حكايات طويلة، والثاني حكايات قصيرة، والمعيار في هذا التصنيف ليس الحجم أو عدد الصفحات، وإنما البنية العامة، بما فيها من حوادث وشخصيات. وقد تتابعت الحكايات داخل كل نوع من غير أن تخضع لترتيب معين، كي تحافظ على إدهاشها للقارئ، وجعل كل نوع في قسم، وكان البدء بالدهاليز، واحتوت على ثلاثة، وقد ذيلت كل حكاية بتعليق، قد يطول أو يقصر، وفق ماتوحي به الحكاية نفسها، والغايّة منه فتح آفاق على جوانب مختلفة في الحكاية، ولقد تم وضع مدخل للحكايات تضمن الكلام على التراث الشعبي عامة والحكاية الشعبية خاصة.

ومعظم هذه الحكايات سمعت في مدينة حلب وريفها، من عجائز متقدمين في العمر، وأكثرها -ولا سيما الطوال- من رواية جدتي لأبي، وقد توفيت عام ١٩٧٠ وكان لها من العمر خمسة وثمانون عاماً، وقد سمعتها عنها مرات عديدة، ويرجع اهتمامي بهذه الحكايات وتدويني لها إلى عهد بعيد، وقد تراكمت عندي مع الزمن.

وثمّة روايات لبعض هذه الحكايات في معظم أرجاء الوطن العربي، قد تتفق معها أو قد تختلف،

وبعضها له روايات في بقاع مختلفة من العالم، ومن هنا تأتي قيمة الحفظ والتدوين والتوثيق، إذ تعني التواصل واللقاء، ولا تعني البتة شيئاً من الإنغلاق، وسيكون للحكايات الشعبية مستقبلاً عن غير شك قيمة لا يمكن التنبؤ بها الآن، وحسبها أنها نتاج وجدان شعبي صادق وعفوي، ومثل هذا النتاج جدير من غير شك بالحفظ والتدوين، بل جدير بالقراءة والإفادة منه والدرس.

أحمد زياد محبك

❑❖❑

مدخل

التراث الشعبي

إن التاريخ الحقيقي لحياة الشعوب، في طبيعة تفكيرها، ونمط تعبيرها، وأشكال انفعالها، وأساليب فعلها، وفي همومها وآمالها، وشقائها وطموحاتها، مايزال تاريخاً غير مكتوب إلى اليوم.

والدراسات التي يظنها المرء قريبة من الشعب، مثل دراسة الآداب والفنون، والتاريخ وسير الرجال، هي دراسات أكثر بعداً عن الشعب، على الرغم مما تبدو عليه من قرب في الظاهر.

إن تاريخ الأدب يعنى بأشكال وأنواع هي من نتاج فئة من الشعب، وليست نتاج الشعب نفسه، ولا شك في أن تلك الفئة هي جزء من الشعب، ولكنها لاتعبر في الأغلب عن وجهة نظره، ولا تمثله في ثقافتها المتميزة، ومزاجها الخاص، والأدب ليس بصادر عن الشعب، وإنما هو موجه إليه، فليست الغاية منه هي التعبير عنه، وإنما التأثير فيه، فالأدب يراد به إلى التغيير، أو الدعاوة لفكرة أومذهب، أو الشهرة على الأقل. وقد تبدو في الأدب صورة ما للشعب،

ولكنها ليست صورة موضوعية، ولا حقيقة، وإنما هي صورة من وجهة نظر خاصة، ذاتية، وهي صورة منعكسة في الأدب انعكاساً، وليست متحققة فيه، والباحث هو الذي يستنبطها، وهي بعد ذلك صورة عامة، ذات ملامح باهتة، هي مايعبر عنه عادة بـ "روح العصر":

وأما التاريخ، فقد كان، ومايزال إلى اليوم، معنياً بسير العظماء، وتاريخ حياتهم، وأثرهم في الحياة العامة، ودورهم في مجتمعاتهم، وحتى حين يحاول التاريخ العناية بجماهير الشعب، ذات الدور الحقيقي في صنع التاريخ، يظل مهتماً بأفراد متألقين، يرسم من خلالهم صورة عامة للناس، لا تظهر فيها معاناتهم الحقيقية، ويبدو أن التاريخ الحديث قد أخذ يتجه نحو التاريخ العام، الذي يعنى بتاريخ الحضارات، وبظواهر التاريخ وقضاياه العامة، مثل الحروب والثورات والتغيرات الاقتصادية.

إن التاريخ الحقيقي للشعب، في همومه وعذابه وآلامه وشقائه، وفي أفراحه وطموحاته وآماله وكفاحه، وفي تفكيره وانفعاله، وفي فعله وتعبيره، لايمكن أن يتحقق إلا بالبحث في نتاج يقدمه الشعب نفسه.

والنتاج الذي يقدمه الشعب نفسه، هو النتاج الذي كان، إلى عهد قريب، منبوذاً من أكثر دارسي الأدب، والباحثين في التاريخ، بل كان مزدرى وممقوتاً، إنه النتاج الذي يوصف عادة بأنه نتاج غير راق ولا متطور ولا رفيع،

وأنه نتاج "العامة" والذي لا يحظى بشيء من الرعاية والاهتمام، بل لا يلقى الاعتراف، وإن كان في حقيقته ليس كذلك، بل إنه في أهميته وقيمته، على النقيض من ذلك كله.

ولابد من أن يلاحظ أن موقف الازدراء من نتاج الشعب ليس موقفاً أصيلاً ولا قديماً في المجتمع العربي، وإن هو إلاّ موقف طارئ.

لقد عني الدارسون الأوائل بالمرويات الشعبية، وحفظوها، وصنفوا فيها، وأبرزوا قيمتها، مثلها في ذلك مثل الأدب الذي يبدعه كبار الأدباء، أو الأقوال التي يقولها كبار الفلاسفة، ولا يذكر في هذا المجال أفذاذ عنوا بالمرويات الشعبية، أمثال أبو عبيدة معمر بن المثنى (توفي ٢٠٩هـ) والأصمعي(٢١٦هـ) والأصفهاني (٣٥٦هـ)، فحسب، وإنما يذكر غيرهم أيضاً، من كبار الأدباء، عنوا بالمرويات الشعبية، أمثال الجاحظ(٢٥٥هـ)، وابن عبد ربه (٣٢٧هـ)، وأبي علي القالي (٣٥٦هـ).

ومما لاشك فيه أن العناية اليوم بالنتاج الشعبي ليست كالعناية به في القديم، ولا سيما في الأساليب والمناهج، ولكن عناية الأقدمين به، تظل ذات دلالة على موقف سليم.

وإذن فالنتاج الذي يمكن من خلاله معرفة الشعب

معرفة صحيحة، ويمكن به كتابة تاريخه الحقيقي، هو نتاج الشعب نفسه، ويتمثل في كل مايقوله الناس ويفعلونه، في حياتهم اليومية، تجاه موقف ما، استجابة منهم لذلك الموقف، استجابة عفوية، تامة، وتعبيراً عن موقف منه أيضاً.

ويمكن أن يلاحظ في النتاج الشعبي نوعان، النوع الأول قولي، والنوع الثاني فعلي.

ومن النوع الأول، القولي، الحكم والأمثال والأغنيات والحكايات والنكات والتحزورات والدعاوات ونداءات الباعة وأسماء المحلات ومايكتب من كلمات أو جمل أو تعليقات أو أبيات على المناديل والثياب وجدران البيوت من الداخل، وعلى الأبواب وشاهدات القبور، وعلى وسائط النقل، وغير ذلك.

ومن النوع الثاني، الفعلي، الاحتفالات في الأعياد، والمناسبات والطوارئ من زواج ووفاة وولادة، والرقص وألعاب الأطفال، وعادات الزيارة والولائم، وأزياء الملابس، وأثاث البيت وزينته، وغير ذلك.

والنوعان في النتاج الشعبي، من قولي وفعلي، متكاملان، بل متداخلان، إذ كثيراً مايصحب أحدهما الآخر ويشاركه.

وأبرز مايتسم به النتاج الشعبي هو عفويته وشموله،

فهو موقف عفوي، يصدر فوراً من غير تخطيط ولا دراسة، ولكنه موقف أصيل، يحمل الفكر والانفعال، معاً، ويمثل شعوراً جمعياً، وهذا مايضمن له سرعة الانتشار والقبول من الجميع، فيحقق بذلك الشمول، فإذا هو كلي، عام، مشترك.

والنتاج الشعبي في حقيقته إبداع جماعي، قد يكون مبدعه الأول فرداً، وقد يكون نتيجة لحادثة وقعت فعلاً، ولكنه لا يظل كذلك، إذ مايلبث أن يصبح ملكاً للجميع، يتناقلونه، ويضيفون إليه، بل يبدعونه ثانية، حتى يبدو في أصله غير حقيقي، فيتخذ عندئذٍ طابعه الشعبي، وينسى مبدعه الأول، كما تنسى حادثته الحقيقية الأولى، وإن ذكرت فكأنها خرافة لا حقيقة.

ولأن النتاج الشعبي تعبير عفوي، فهو مؤقت، ومتغير، وليس ذا شكل أو قالب ثابت، وهو متجدد دائماً، تموت فيه أشكال، وتولد أشكال.

والنتاج الشعبي مايزال إلى اليوم، وإن كان يبدو أنه قد مال إلى الضعف، فالإذاعة والتلفزيون والصحف وغيرها من وسائل الإعلام، قللت من دوره، وحلت محله، في بعض جوانبه.

ولكن لا يمكن للنتاج الشعبي أن يموت، فهو مستمر، دائماً، ولكن في أشكال جديدة مختلفة، ويكفي للمرء أن يذكر النكتة، التي هي حية دائماً والتي هي دائماً دليل

حياة.

وإن حيوية النتاج الشعبي واستمراره، تبرز خطأ المصطلح الشائع في الدراسات العربية. وهو "التراث الشعبي"، إذ يدل هذا المصطلح على القديم من النتاج الشعبي فحسب، وكأنه نتاج قد انقطع، أو كأن القديم منه وحده الجدير بالدراسة، على حين أن النتاج الشعبي نتاج حي متواصل، ولايمكن أن تقتصر قيمته على القديم منه.

وإن كلمة "فولكلور" Folklor الإنكليزية، التي استعملها أول مرة وليم طومس W.Thoms سنة ١٨٤٦ لا تعني مايعنيه مصطلح "التراث الشعبي"، وإنما تعني في اللغة "حكمة الشعب"، أو "المعرفة الشعبية"، وهي تعني في الاصطلاح النتاج الشعبي كله.

وقد اقترحت في اللغة العربية بعض المصطلحات البديلة من مصطلح "التراث الشعبي" مثل: "المأثورات الشعبية"، و"المردَّدَات الشعبية"، و"الفنون الشعبية" و"الشعبيّات" ولكن لم تحظ هذه المصطلحات من القبول والانتشار مثلما حظي به مصطلح "التراث الشعبي".

ولدعم انتشار مصطلح "التراث الشعبي"، وتأكيد وحدته في الأقطار العربية، يبدو أنه لابد من القبول به، ولكن لابد أيضاً من تأكيد أن معناه يجب ألا يقتصر على القديم من النتاج الشعبي، وإنما يجب أن يشمله كله، قديمه وحديثه.

وإن "التراث الشعبي" لايقل في أهميته التاريخية والعلمية عن أهمية الحفريات والآثار، والوثائق والمحفوظات، بل لا يقل في أهميته عن التقارير الحية والإحصاءات، فهو يقدم مادة أوليّة، عفوية ووصادقة، تساعد في معرفة لا تغيب عنها أدق التفاصيل، في عمق ووضوح، وفي نبض ودفء حي.

ولقد لفتت أهمية "التراث الشعبي" أنظار الباحثين العرب، حوالي منتصف هذا القرن، فبدؤوا العناية به، وكان أول ما أولوه اهتمامهم هو السير الشعبية، وكان رائد هذا الاتجاه هو الدكتور عبد الحميد يونس، ثم أخذوا بعد ذلك بالاهتمام بجوانب أخرى، ولكن اهتمامهم مايزال إلى اليوم منصباً على القديم من "التراث الشعبي" وعلى الجانب القولي منه خاصة.

وإن دراسة "التراث الشعبي" لا يمكنها أن تنهض نهوضاً صحيحاً، بل لا يمكنها أن تبدأ بداية سليمة، قبل تدوين ذلك التراث، ورصده وتسجيله، في جوانبه كلها، وفي معناه العام الشامل.

ولابد من التأكيد على ضرورة تسجيل "التراث الشعبي" باللغة العربية الفصحى، لا باللهجة العامية، كي لا يكون في ذلك تشجيع اللهجة العامية، ولتحقيق انتشار التراث الشعبي بين أقطار الوطن العربي جميعاً، وهو في حقيقته تراث واحد مشترك، وإذا ما ظهرت فيه بعض السمات

الخاصة بقطر أو بآخر، فإن سمات أخرى عامة أكثر وأهم تظهر في جميع أشكال التراث في الوطن العربي، بل إن جزئيات خاصة يتكرر ظهورها في التراث الشعبي في كل قطر، سواء في الحكاية والمثل والأغنية، أم في العادات والأزياء والتقاليد، مما يؤكد وحدة ذلك التراث.

إن "التراث الشعبي" هو الصورة الحقيقية للشعب، وهو بالنسبة إلى الشعب العربي، تراث شعبي واحد مشترك، يؤكد وحدة الشعب العربي، ويدعمها.

□□□

الحكاية الشعبية

الحكاية الشعبية هي أحدوثة يسردها راوية في جماعة من المتلقين، وهو يحفظها مشافهة عن راوية آخر، ولكنه يؤديها بلغته، غير متقيد بألفاظ الحكاية، وإن كان يتقيد بشخصياتها وحوادثها، ومجمل بنائها العام.

وغالباً ماترويها العجائز لأحفادهن، في ليالي الشتاء الطويلة، قبل الذهاب للنوم، وقد يرويها غير العجائز، في مواقف تقتضيها، للعظة والاعتبار وضرب المثل، ولكن الحكاية لا تسرد على الأغلب إلا ليلاً، في جو يتم التهيؤ له، فالجدة تقعد على حشيّة، ويقعد الأولاد أمامها في استعداد للتلقي.

وتلقى الحكاية بلغة خاصة متميزة، ليست لغة الحديث العادي، مما يمنحها قدة على الإيحاء والتأثير، وغالباً مايكون الإلقاء مصحوباً بتلوين صوتي، يناسب

المواقف والشخصيات، وبإشارات من اليدين والعينين والرأس، فيها قدر من التمثيل والتقليد.

ويتم التلقي بإصغاء حاد، قد يتخلله الضحك، أو الفزع، كما يقتضي الموقف، ولكن في تقدير واحترام، وتصديق واندهاش، ومن غير مقاطعة.

وغالباً ماتسبق الحكاية بمدخل، يدعى "الدهليز" وهو حكاية قصيرة جداً، ذات فكرة هزلية، سخيفة ضاحكة، يلقى بلغة محفوظة، مسجوعة أو منظومة، ولا علاقة له بالحكاية التي تلقى بعده.

ومن أمثلة ذلك، الدهليز التالي: "طلعت والدنيا دغشة، لأعلق للتبن جحشة لقيت على غفلة قدامي، الحيط ينقب الحرامي، لا حني ولحته، من عزمي وقعت تحته، شوفوا رقبتي، ما أحمرها، من الكفّ اللي سلخته".

*

ولكل حكاية اسم، هو عنوانها، ويستمد من عنصر بارز فيها، من الشخصيات أو الحوادث، وهو اسم ثابت، قليلاً ما يتغير، وبعض العنوانات تطلق على عدة حكايات، مثل حكاية "الأخوات الثلاث".

وتبدأ الحكاية ببداية ثابتة محفوظة، مثل:"كان

ياماكان، ياقديم يازمان، نحكي إلا ننام، إلا نصلي على محمد بدر التمام، كان في قديم الزمان...."

وكثيراً مايتم في الحكاية القطع، بالوقوف في موضع من الحكاية، والعودة إلى الوراء لسرد حديث عن شخصية، أو حادثة، يدعي الراوي أنه نسي سردها، بقولهن: "فاتني أن أحكي لكم..."، وإن كان يعمد إلى مثل ذلك، على الأغلب، لأن الحكاية مبنية على القطع، الذي يمكن أن يصطلح عليه في الحكاية الشعبية بالفوت.

وقد يخلط الراوي حكاية بحكاية، فيضع نهاية حكاية ما، موضع حكايته التي يرويها، أو قد تقترب الحكاية من نهايتها، فيشعر بحاجة المتلقين إلى سماع المزيد، فيصل حكاية بحكاية، وغالباً مايتنبه المستمعون إلى ذلك، فيقال عن الرواية عندئذٍ بأنه قد "وصل الحبل بالحبل".

وأحياناً يبتسر الراوية الحكاية، فيقفز سريعاً إلى نهايتها، لأنه يجد لدى المتلقين، مايحمله على مثل ذلك الابتسار، من ملل أونعاس.

وأحياناً أخرى يشرك الراوية المتلقين في حوادث الحكاية، وشخصياتها، فيخرج عن السرد ويفاجئ المتلقين، فيشبه أحدهم بإحدى الشخصيات، أو يدخله

في الحكاية، ويعطيه دوراً فيها، على سبيل المزاح.

وتختتم الحكاية بخاتمة محفوظة وثابتة، مثل قول الراوية:"توتة توتة، خلصت الحدوتة"، ثم يلتفت إلى المتلقين فيسألهم: "مليحة إلا مفلوتة؟!"، أي" هل الحكاية جيدة أم هل هي سيئة!"، فيجاب بقول المتلقين:"مليحة، يسلم تمك"، أي" جيدة، حفظ الله فمك".

*

والحكاية تقدم قصة ذات بداية ونهاية، متكاملة، وتمتاز بالتماسك وقوة الحبك والبناء، وهي تعتمد على حوادث كبيرة فاصلة، وغالباً ماتكون غريبة ونادرة، وهي حوادث كثيرة وكبيرة، وليس فيها شيء من الوقوف على الحوادث الصغيرة والتفصيلات، أو شيء من الاهتمام بالمواقف النفسية والانفعالات.

والحكاية تمتد طويلاً في الزمان، وتشغل حيزاً كبيراً في المكان، فتتغير فيها المواضع، وتتبدل العهود، ولا تنتهي الحوادث حتى يستقر كل شيء، وتتحقق الاحتمالات والتوقعات كافة، وينال كل ذي حق حقه، بما يرضي الجميع، ولذلك غالباً ماتكون النهاية هي الموت، بعد السعادة والاستقرار، فيقال في الختام عن شخصيات الحكاية: "وعاشوا في ثبات وتبات، وأنجبوا

البنين والبنات، حتى أتاهم هادم الملذات، ومفرق الجماعات، فنقلهم من وسيع القصور، إلى ضيق القبور، فسبحان الحي الذي لا يموت".

وعلى الأغلب لا يحدد الزمان، ولا المكان، فالزمان هو "قديم الزمان، وسالف العصر والأوان". والمكان هو "بلد من بلاد الله الواسعة"، وقد يحددان تحديداً عاماً، كبغداد، مثلاً، أيام هارون الرشيد، وقد يشبهان بالزمن الحاضر، وبالمدينة التي تلقى فيها الحكاية، على سبيل التقريب والتوضيح، أو ضرب المثل.

ويتم تجاوز الأبعاد الزمانية والمكانية في سرعة كبيرة، من غير مبالاة بالعقبات والصعاب، فالأيام تمر كالظلال، حتى قبل أن تعد، فيقال: "عدوا البيض في المقلاة، ولا تعدوا أيام الحبلى"، دلالة على سرعة مرّ الأيام، والبلاد تطوى طيّ البساط، والركبان"، تحملهم بلاد، وتحط بهم بلادّ، حتى يبلغوا البلد المقصود.

والشخصيات في الحكاية واضحة مجددة، وهي على الأغلب شخصيات نمطية، تتحدد بموقعها في الأسرة، أو بمكانتها في المجتمع، كالأب والابن والزوج والكنّة والحماة، أو كالملك والوزير والتاجر والسياف والخادم والفقير، ولا توصف الشخصيات، ولا تحدد ملامحها الجسمانية أو النفسية، إلا إذا كان فيها عيب، من عور أو عرج أو قصر، مثلاً، أو بخل أو جبن أو

خبل، وغالباً ما يكتفى بصفة واحدة، تتحدد بها الشخصية.

وعادة ماتوجد شخصية محورية، أو شخصيتان، وتوجد من حولها شخصيات ثانوية كثيرة، وإذا كانت الشخصيات الثانوية ثابتة ومسطحة، فإن أغلب الشخصيات المحورية نامية ومتطورة.

وتقدم الحكايات أنواعاً كثيرة من الشخصيات، في غنى وتنوع كبيرين، فهي تقدم الأب المغرور والأم العطوف، وزوجة الأب الظالمة، والابنة الوفية، والأخت المشفقة، والأخ الغادر، والزوجة اللعوب، والصديق الوفي، والجار الغني، والكنة التي تكيد لحماتها، والحماة التي تبغض كنتها، كما تقدم الملك الجائر الظلوم، والسلطان العادل الحكيم، والوزير الذكي الماكر، والنديم الوفي المخلص، وابن الملك الذي يهوى ابنة الوزير، وبنت الملك التي يهواها شحاذ فقير.

وهي تقدم تلك الشخصيات، وغيرها، في توازن وانسجام غريبين، هو توازن الحياة وانسجامها، على الرغم مما يبدو فيها، في الظاهر، من تعدد وتناقض واختلاف.

ويلاحظ أن الحكايات تقدم غالباً الشخصيات القلقة

المضطربة، ولكنها تنتهي إلى الخلاص مما هي فيه، والتحول إلى الأفضل.

ومن ذلك حكاية الملك المغرور، الذي سأل بناته الثلاث أن تصف كل واحدة منهن حبها له، فتملقت اثنتان منهن غروره، فرضي عنهما، وزوجهما من وزيرين من وزرائه، وأبت الثالثة أن تتملقه فغضب عليها، وزوجها من فقير، يعمل وقاداً في حمام، فصبرت على الفقر والذل والهوان، ثم ساعدتها الجن، فاغتنت هي وزوجها، وابتنت قصراً، ودعت إليه والدها، فتعرف إليها ورجع عما كان فيه من غرور.

وتقدم الحكايات الشعبية شخصيات غير بشرية كثيرة، ذات دور فريد ومتميز، وغالباً ماتكون وفية للإنسان، مخلصة له، تساعده على الخلاص، حين لا يجد المساعدة عند البشر.

ومن تلك الشخصيات السمكة التي تقدم الرزق الوفير للصياد، على شرط أن يطلقها من الشبكة، ويعيدها إلى البحر، والأفعى التي تقدم العون والخير لمن يعينها ويساعدها، والطائر الذي يقدم نفسه للإنسان، كي يذبحه ويصنع من دمه وريشه ولحمه مرهماً يشفي الجراح.

كما تقدم الحكايات الشعبية شخصيات بشرية

مسخت بفعل السحر وحولت إلى حيوان أو نبات أو جماد، ولا تنتهي الحكاية، حتى يعود المسخ إلى ماكان عليه، في وضع أكرم من قبل، وأفضل ولكن بعد معاناة.

ومن تلك الشخصيات ابن السلطان الذي مسخ طائراً أو حصاناً، والأخ الذي مسخ غزالاً، والأخت التي مسخت هرة، والأخوة الذين مسخوا شجرات، وأهل البلدة الذين مسخوا حجارة.

كما تقدم الحكايات الشعبية شخصيات أخرى غريبة، كالغول والعفريت والمارد والجني، وأكثرها يخدم الإنسان، ويساعده.

وتعتمد الحكايات الشعبية على كثير من الأدوات والوسائل التي تحدث في الحكاية تغيراً، تقوم عليه نهايتها، من ذلك كرة الخيطان التي تتدحرج فتدل من يتبعها على موضع يطلبه، وعود الثقاب الذي يحضر باشتعاله جني؛ يخدم من أشعله، والخاتم الذي يوضع في صحن الطعام، فيتعرف بوساطته الأب إلى ابنته، أو الحبيب إلى حبيبته، بعد فرقة طويلة وغياب.

ومثل تلك الأدوات والوسائل، وغيرها من الجزئيات الثابتة، تتكرر في كثير من الحكايات، تكرار غريباً، فيه كثير من الإقناع والإدهاش، على الرغم من تكراره،

وهو مايمنح الحكايات جميعاً، وحدة متماسكة، وطابعاً خاصاً، هو إحدى ميزاتها.

وتظهر في الحكايات جمل وتعابير جاهزة محفوظة، هي كالمرتكزات، يستعين بها الراوية في السرد، وأغلبها جمل وصفية، تصلح في مواضع مختلفة، منها وصف الأرض المنقطعة بالجملة التالية: " أرض لا طير فيها يطير، ولا وحش فيها يسير".

وتتضمن كثير من الحكايات أمثلة وحكماً ومواعظ ومواويل، وبعضها بني خاصة على تلك المواد، وبعضها الآخر يحشد منها حشداً هائلاً.

*

ويمكن تمييز أنواع كثيرة في الحكايات الشعبية، بحسب موضوعها، أو طولها، أو بنائها، أو غايتها، كالحكايات الدينية، وحكايات الجن والعفاريت، وحكايات السحر والخوارق، وحكايات الانتقاد الاجتماعي، وحكايات الحيوان، وحكايات العظة والاعتبار، وحكايات الفكاهة والتندر، وكالحكايات الطويلة، والحكايات القصيرة، والحكايات القصيرة جداً، وكالحكايات ذات القصة الواحدة، وهي كثيرة، والحكايات ذات القصتين، أو الأكثر من ذلك، متداخلة، أو متفرعة، أو متلاحقة، وكالحكايات الخاصة

بالأطفال، وحكايات الكبار.

وهي أنواع كثيرة، بعضها يتداخل في بعض، وكثير من الحكايات يمكن تصنيفها في أكثر من نوع، ولذلك يبدو التصنيف أمراً لا يخلو من تعسف.

والحكايات عامة شائقة، ليس للأطفال فحسب، بل للكبار أيضاً، وحكايات الصغار نفسها تعبر عن الكبار، وتتضمن تجاربهم، وتحمل خلاصة خبرتهم.

ومن الحكايات الخاصة بالأطفال، والتي تعبر عن أحاسيس الكبار وانفعالاتهم حكاية "أنف القاضي"، وهي تتحدث عن بنت صغيرة، عثرت بفلس صغير، فاشترت به دبساً، وضعته في صحنها الصغير، ثم زارتها الذبابة، تطلب منها أن تعيرها غربالاً، فدلتها على موضعه في مطبخها الصغير، وماكان من الذبابة إلا أن لعقت الدبس، حين رأته في الصحن، وتركت بدلاً منه القذر، وشكت البنت الصغيرة أمرها إلى القاضي، فسخر منها، لصغرها، وصغر بيتها وأدواتها، ثم قال لها: "حيثما رأيت الذبابة، فاقتليها إذا استطعت"، وحطت ذبابة على أنف القاضي، فخلعت البنت الصغيرة نعلها ، وضربت به الذبابة.

ولئن دلت الحكاية على شيء فهي تدل على إحساس الضعيف بضعفه، وعدم توقعه من القضاء أن

ينصفه، وأنه ليس له إلا أن ينتصف لنفسه بنفسه، وقد تم التعبير عن الإحساس بالضعف بالرمز إليه بالصغر في الجسم والمسكن والأدوات.

*

وكثير من الحكايات تعبر عن قضايا في الواقع يعاني منها الفقراء والمحرومون، وتحمل توقهم إلى العدل والحرية والرخاء، ولكن لا يتحقق لهم ذلك في الحكاية إلا بالمعجزات والخوارق، مما يدل على إحساسهم باستحالة الوصول إلى العدل والحرية والرخاء في الواقع، وهو مايجعل للحكاية دوراً في خلاصهم مما هم فيه من ضيق ومعاناة، فكأن الحكاية حلم، يتحقق فيه مالا يمكن أن يتحقق في الواقع، والحكاية بذلك تخفف من الإحساس بالظلم والقهر، ولا تنسّي شيئاً من ذلك الإحساس، ولا تشير إلى شيء من محاولة الرفض والتغيير، وأكثر الحكايات تقوم على موقف سلبي، عماده الصبر والانتظار، والتعلق بالآمال والأحلام، والتي تتحقق أخيراً من غير كدح ولا عناء، ولا سعي إلى التغيير، وإنما بالمصادفة، والمعجزات.

ومن الحكايات التي تمثل ذلك حكاية (عمود الذهب) وهي تتحدث عن امرأة تلح على زوجها الفقير أن يشتري لها الحلي والأساور والعقود الذهبية، كي تتحلى بها، كما تتحلى زوجات الأغنياء، ويعدها الزوج

عدة مرات أن يشتري لها ماتريد، ولكنه لا يفي بوعده، لأنه لايستطيع، لفقره، ثم يعدها أن يشتري بدلاً من ذلك داراً، ويتحقق الوعد، إذ تعرض في السوق دار تسكنها الجن، ويمكن من يريد شراءها أن يسكنها سبعة أيام، ليجربها، ويقرر بعد ذلك، شراءها، أوتركها، وينقل الزوج الفقير زوجته وأولاده إلى تلك الدار، وتنعم الزوجة برحابة الدار، وجمالها، وبما فيها من أثاث ورياش وفراش، وفي نهاية الأيام السبعة، يدعوها الزوج إلى العودة إلى الدار القديمة، ولكن الزوجة تدعوه إلى كنز في الدار، تمكنت بجرأتها ورباطة جأشها من هزيمة الجني الذي يرصده فأصبح الكنز ملكها، وتحققت لها الأحلام كلها.

وتعبر الحكايات عامة عن فلسفة بسيطة، لا تعقيد فيها، ولا عمق، هي فهم الإنسان للحياة فهماً أولياً، في أثناء بحثه عن التلاؤم مع الواقع، ورغبته في تحقيق الراحة والاستقرار، وهي فلسفة توسطية، عمادها اعتبار الفضيلة وسطاً بين رذيلتين، مع ميل إلى القبول والرضى والمصالحة، والاقتناع بالبساطة والكفاف، وهي فلسفة لا تخلو من ذكاء وتألق، وتمتاز بالبساطة، والقدرة على التأثير.

*

ولا يعرف واضح الحكاية الأول كما لايعرف راويها

الأول، إذ أنها لا تلقى شيئاً من التوثيق في الرواة، وإذا ما ذكر أحد منهم، فغالباً مايذكر الراوية الأخير، الذي هو أحد أفراد الأسرة ولاسيما الجدة.

وتحمل بعض الحكايات طابع بيئتها وملامحها، فمن الممكن أن يلاحظ في بعض الحكايات، مثلاً، البحر والبحارة والسفن، وفي حكايات أخرى الأسواق والتجار والبضائع، مما يوحي بإمكان نسبة حكاية ما إلى بيئة ما، ولكن لا يمكن في الواقع الجزم بتلك النسبة، كما لا يمكن تخصيص نوع من الحكايات ببيئة ما، فالحكايات سريعة الانتشار، سهلة التناقل.

وكثيراً ماتروى حكاية في بلد ما، وتشبهها شبهاً كبيراً حكاية أخرى، تروى في بلد آخر، وبين البلدين بعد كبير، واختلاف في اللغة والثقافة، وقد يفسر ذلك التشابه بوحدة التجربة الإنسانية.

ومن ذلك حكاية الملك المغرور الذي تمت الإشارة إليها من قبل، فهي تشبه شبهاً كبيراً مسرحية (الملك لير) لمؤلفها (وليم شكسبير)، وهي مبنية على حكاية شعبية.

ومن ذلك أيضاً حكاية رواها الأخوان (غريم) تتحدث عن امرأة عاقر، كانت تعيش هانئة مع زوجها، وتمنت ذات يوم أن ترزق ولداً، ولو كان بطول الإصبع

الواحدة، ورزقت بمثل ذلك الولد، وأخذ يعمل مع والده في الحقل، وهو بذلك الطول، وذات يوم اشتراه من والده -عنوة- رجلان شريران، ولكن الولد هرب منهما، وضاع في سنابل القمح، ورعته بقرة، وصار في جوفها، ثم ذبحت البقرة، وألقيت أحشاؤها على المزابل، والتهم ذئب الأحشاء، والولد في داخلها، فأخذ يحدث الذئب عن بيت المؤونة، في مسكن أبويه، ويغريه بدخوله، وطمع الذئب، فدخل بيت المؤونة، وتناول كثيراً من الطعام، حتى أصبح لا يستطيع الحركة، وعندئذٍ أخذ الولد ينادي أبويه، وهو في بطن الذئب، فحضر الأبوان، فقتلا الذئب، وخلصا الولد.

وتشبهها حكاية تتحدث عن امرأة عاقر، تمنت الأمنية نفسها، في ظروف مشابهة، ورزقت بمثل ذلك الولد، وأخذ يعمل مع والده في الحقل، وذات يوم كان والده يحرث فيه الحقل، وهو يسير إلى جانبه، انقلب عليه التراب الذي يشقه سن المحراث، ومات تحته.

*

إن الحكاية الشعبية تسعى دائماً إلى تحقيق الشمول الكلي، بالتعبير عن جوهر التجربة الإنسانية، منطلقة من الخاص إلى العام، غير متخلية عن تفرد التجربة، مستعينة إلى ذلك بالحدث الكبير الفاصل، وبالشخصية النمطية المحددة، وبالفكرة الواضحة،

وبالتعبير العفوي البسيط، مما يتيح لها سهولة السيرورة والانتقال، فإذا هي تعبير عن تجربة عامة شائعة شاملة، تحمل وجدان الجماعة، وتمثل روحها، وأحاسيسها وانفعالاتها، وإذا كل رواية لها هي تعبير فرديّ جديد، يكسب الحكاية وهج الانفعال، وحدة الشعور، وقوة التعبير.

إن الحكاية الشعبية تفي وفاءً كبيراً بحاجة الإنسان إلى التعبير عن نفسه، بحكاية تجربته، ومنحها شكلاً فنياً، ذا استقلال يعادل التجربة، ويوازيها، ويحمل إمكانات إقناع الآخرين، والتأثير فيهم.

*

وتبدو الحكاية الشعبية مرتبطة بأشكال التعبير الشفوي في المجتمع، وقد أخذت مثل تلك الأشكال تفقد مكانتها في العصر الحديث، بسبب انتشار أشكال تعبير جديدة، تعتمد الكلمة المكتوبة، والصورة المتحركة، وتمثلها الصحف ووسائل الإعلام، التي أخذت تحل محل أشكال التعبير الشفوي.

ولكن على الرغم من ذلك كله تظل الحكاية الشعبية محتفظة بإمكانات كبيرة، تساعد على التعبير عن الوجدان الجماعي، تحمل هموم الناس، وتزودهم بخبرات وتجارب وثقافات، تمس وجدان الفرد، وتنتمي

إلى ذاته، وترتبط بها، لتمنحه الإحساس بالانتماء إلى الجماعة، والانسجام معها، وهو غاية ماتسعى إليه فنون القول.

ولقد غدت الحكاية الشعبية مادة أولية، تستثمرها كثير من الأشكال والأنواع الأدبية والفنية، تستلهمها، وتبنى عليها، أغنيات ومسرحيات وروايات وتمثيليات وبرامج شتى.

والحكايات الشعبية غنية بعد ذلك بما يخدم الباحثين في المجالات الإنسانية والتراثية والأدبية والفنية.

*

ولقد جمع المختصون في الغرب، منذ القرن الماضي، من الحكايات الشعبية، مايملأ عشرات المجلدات.

لم يتنبه العرب إلى أهمية الحكايات الشعبية، وضرورة حفظها، إلا بعد منتصف هذا القرن، فأخذت تظهر مجموعات تسجل الحكايات الشعبية في أجزاء مختلفة من أقطار الوطن العربي، وإن كانت حركة الجمع ماتزال تسير بطيئة مترددة.

والإشكال الذي يواجهه جامع الحكايات الشعبية في الوطن العربي هو اللهجات المحلية، ويمكن تجاوز مثل

ذلك الإشكال بتدوين الحكاية باللغة الفصحى، ولكن من غير إجراء تعديل في بنائها وتركيبها العام، والحفاظ ما أمكن ذلك، على أسلوب الجملة فيها، وهو مايعمد إليه بعض الذين تصدوا لجمع الحكايات الشعبية.

*

وإن كثيراً من الحكايات الشعبية متشابهة، بل متماثلة، في أجزاء من أقطار الوطن العربي، وليس فيها إلا اختلاف في جزئيات ثانوية، نتيجة لتقادم الزمان، وتعدد الرواة، وهو مايطرأ على الحكاية الواحدة، في المكان الواحد.

ومثل ذلك التشابه لا يرجع إلى تشابه الحكايات الشعبية في مواضع مختلفة من العالم، فحسب، بل يرجع أيضاً إلى وحدة الحكاية الشعبية في الوطن العربي، وهي وحدة يمكن تلمسها في عدد غير قليل من الحكايات الشعبية المتشابهة، على الرغم من قلة ماجمع من حكايات شعبية في الوطن العربي، وحيت يتم جمع عدد أكبر من تلك الحكايات، يمكن عندئذٍ تأكيد تلك الوحدة، وتوثيقها، وإبراز سماتها العامة.

وتتضح أهمية الحكاية الشعبية، وهي جزء من التراث الشعبي، حين يذكر المرء محاولات العدو الصهيوني

طمس التراث الشعبي في فلسطين، لأن في ذلك التراث برهاناً على أصالة الشعب العربي في فلسطين.

*

ومن ذلك كله تتأكد ضرورة تسجيل الحكايات الشعبية، وحفظها، قبل أن تنسى وتندثر، فيضيع بضياعها تراث لا يمكن تعويضه، هو التراث الذي يحمل ملامح الشعب، ويعبر عن همومه ويمثل وجدانه العام.

❐❖❐

دهاليز

عود على البدء

كان كتكتان

طف سلح بالدكان

لقى طابة خيطان

مسح بها ورماها على الجيران

قال لهم ياجيراني

عطوني خيطاني

قالوا له لا نعطيك خيطانك

حتى تسلم على حيطانك

قال له سلامة ياحيط

قال له أنا الفارة نقبتني

قال لها سلامة يافارة

قالت له أنا القطة أكلتني

قال لها سلامة ياقطة

قالت له أنا العصا قتلتني

قال لها سلامة ياعصا

قالت له أنا السكينة قطعتني

قال سلامة ياسكينة

قالت له أنا الحداد طرقني

قال له سلامة ياحداد

قال له أنا ربي خلقني

تعليق:

هذا النص هو دهليز يفتتح به الراوي سهرته، ثم يتبعه ببعض الحكايات، وهو دهليز قصير محفوظ، والغاية منه، مثله في ذلك مثل معظم الدهاليز، إثارة الاهتمام وجذب انتباه المتلّقين، والتأثير فيهم.

وهو يعتمد على التتالي المنطقي الرياضي، بالانتقال مما يشبه النتيجة إلى مايشبه السبب، وهو يبدأ من الأدنى، فينتقل شيئاً فشيئاً في تدرّج بطيء، ولكنه رياضي ومنطقي حتى يبلغ الأقوى والأعظم والأعلى، إذ يبدأ بالجدار وهو جماد، ثم يمرّ بالحيوان، حتى يبلغ الإنسان، ثم يرقى من خلاله إلى الله.

والدهليز ينتهي عند خالق الكون، وهو الله عز وجل، أي إنه ينتقل من مؤثر إلى مؤثر، ومن فاعل إلى فاعل، ومن محرّك إلى محرّك، حتى يصل إلى المحرّك الأول للكائنات كلها، وخالقها، وهو الله تعالى، وبذلك يضع القارئ في تسلسل منطقي أمام السبب الذي لا سبب له، وهو الخالق عز وجل.

ومن هنا كانت الحكايات كلها تبدأ وتنتهي بصيغ مختلفة متعددة، ولكنها جميعاً تبدأ وتنتهي بذكر الله تعالى،

لتجعل الحكاية شكلاً من أشكال الفعل والتحرك والعمل الإرادي داخل الإرادة الكلية المطلقة وهي إرادة المولى عز وجل.

وبذلك فالدهليز يذكر بقوة الله وهي القوة الأولى والعظمى والفاعلة والمحرّكة، ثم تأتي الحكايات لتؤكد أنها شكل من أشكال الحركة، داخل إرادة الله.

❐❖❐

بنت الجيران

كان كتكتان، طف على أراضي الشام، نصب المرايا، علّق الميزان، لاقى عجوز مغطاية بإزار، ثلاثة أشكال، رز ومحشي وباتنجان، قالت له: يابني عندك فستق ولبان، قال لها: عندي فستق ولبان، يلبق للصبايا، لا يلبق للعجايز، قالت له: عندي صبية لبيّة، تحاكي الشمس المضية، تقول للقمر غيب، لأقعد محلّك رقيب، قال لها: ياخالتي، يافتاحة الفال، دلّيني على المكان، قالت له: ما أدلّك على المكان، حتى تحطّ في هذا الجيب ميّة، وفي هذا الجيب ميّة، وتلف لفّة مغربيّة، وتركب بغلة زرزورية، وتلحقني للحارة الفلانية، حطّ الولد في هالجيب ميّة، وفي هالجيب ميّة، ولحقها للحارة الفلانية، دقّ الجرس، ردّ الورق، طلعت جارية نارنجية، على رأسها طست وإبريق وصينية، دخل في أول دهليز، مافي مثله بالتمييز، دخل في ثاني دهليز، مافي مثله بالاسكندرية، دخل في ثالث دهليز، أكل وانبسط، وحمد الله، قالت له: ياعمي، افتح كتابك، قال لها: مابفتح

كتابي إلاّ ببوسة، قالت له: تضرب، في أي كلام كنا، وبأي كلام صرنا، ونادت الجواري، جاءت واحدة نارنجيّة، وواحدة بإيدها بابوجيّة، ضربوه على ذقنه، طيروا أسنانه، فاق في نصف الليل، لاقى القمر، ونجم سهيل، قال: ياقلب بقيت تعشق، قال له: أعشق وأتمعشق، ساعة العشق لها نيران، وأنفق الزمان، وهو بيحلم ببنت الجيران، نحكي إلى ننام، إلا نصلّي على محمد بدر التمام.

تعليق:

يعبّر الدهليز عن حلم بالمرأة، بسبب الحرمان منها، وصعوبة الوصول إليها، وهو يدل على مشروعية الحديث عن هذا الموضوع أمام المتلقين، سواء أكانوا كباراً أم صغاراً.

ووظيفة الدهليز هي التمهيد للحكاية بنص افتتاحي متميز، يدهش المتلقي، ويثير اهتمامه، ويشده لمتابعة الحكاية. وقد حقق الدهليز وظيفة بما في اللغة من سجع عفوي، وبما في الجمل من توازن وإيقاع، كما حققها من خلال الانتقال من حالة إلى حالة انتقالاً غير متوقع ولا معقول، ومن خلال المفاجأة بأن كل ماتقدم من حالات لم يكن سوى حلم.

وافتتاح الحكاية بدهليز موضوعه المرأة يذكر بالشاعر الجاهلي الذي كان يستهل قصائده غالباً بالغزل، ليستثير في نفسه الشاعرية، وليحرّض المتلقي، وليعبر، قبل ذلك كله، من غير شك، عن حالة خاصة وعامة في آن، فيحقق التواصل.

❑❑❑

فرش معكوس

أنا من بني شحشبو، الكذب مابعرف أكذبو، ربيت البرغوث حتى صار قدّ الأرنبو، لما أسرجوا يخوض البحر من مشرقو لمغربو، ومايطمّو إلى ركبو.

عن طاق عن طرنطاق عن خروف محشي برقاق معلّق على باب الزقاق، شدّوا من دانوا يشرّ دهانو.

طلعت هيك لاقيت أرض مغراق، وأربع قراقير، والقملة شاحطة الخنزير، والعصفور براس الجبل، يدركل علينا الشعير.

قمت بالليل دغشة، لأعلق للتبن جحشة، لقيت المزابل تعوي على الكلاب، والحيط ينقب الحرامي، لاحني ولحتو، ومن عزمي وقوتي وقعت تحتو ولولا حسين ابن أختو، مايخلصني من تحتو، كنت دبحتو، شوف رقبتي ما أحمرها، من الكف اللي سلختو.

تعليق:

الفرش هو نفسه الدهليز.

وهذا الفرش مدخل جميل جداً يقوم على مغالطات لا معقولة، إذ يعكس الأمور، فيحدث الإدهاش، ويثير الشعور بالمفاجأة، وينبّه المتلقي ويعدّه لسماع الحكاية.

وهو فرش ساخر، يثير قدراً غير قليل من الضحك بفضل مافيه من تناقض.

❐❖❐

الحكايات الطويلة

ساقية من عسل
وساقية من سمن

جرت من باب القصر الملكي ساقيتان، إحداهما من عسل، والأخرى من سمن، فرحاً بشفاء ابن الملك من مرض عضال، ألم به سنوات طويلة، وانداحت الساقيتان في شوارع البلدة وطرقاتها، وأقبل الناس على جمع السمن والعسل في الجرار، ولم يبق أحد في المدينة، لم يختزن من السمن والعسل.

ولكن عجوزاً تقيم في طرف البلدة، تناهى إليها الخبر متأخراً، ولما خرجت من بيتها تحمل جرتيها، كانت الساقيتان قد نشفتا، ولم يبق فيهما شيء، فراحت تتبعهما، وتجمع ماعلق بحوافهما، وماتبقى في زواياهما، حتى بلغت منبعهما، عند باب القصر، فاكتفت بما ملأت به جرتيها من سمن وعسل، وحملت إحداهما على رأسها، واحتضنت

الأخرى إلى صدرها، وراحت تتدحرج في مشيتها، عائدة إلى بيتها، وقد نال منها التعب، والإرهاق.

وكان ابن الملك في شرفته، يرى إليها، فلم يعجبه صنيعها، وظن فيها الطمع والجشع، فلقد ظلت الساقيتان من الصباح إلى المساء، أفلم يكفها ماقد نالت؟ فما كان منه إلا أن حمل حصاة، وقذف بها الجرة التي على رأسها، فسقطت على الأرض، وتحطمت، وساح منها العسل، فقهقه بصوت عال، ضاحكاً منها، فالتفتت إليه، وأخذت تتأمله ملياً، ثم ماكان منها إلا أن رمت الجرة التي كانت تحتضنها، وقالت: "أسأل الله تعالى أن يوقعك في حب سلمى، مثلما أوقعت الجرة".

فأسرع إليها ابن الملك، ملهوفاً، وسألها: "ومن هي سلمى؟"، فقالت له: "صبية، عيناها عيناك، وفمها فمك، وأنفها أنفك، تشبهك في جمالها وملاحتها، إذ رآها من يعرفك حسبها أنت، وإذا رآك من يعرفها حسبك إياها"، فتلهف ابن الملك إلى لقائها، وقال لها: "هلا دللتني عليها، ياخالة"، فقالت له: "املأ لي الجرتين، أولاً"، فأمر الخدم، فملؤوا لها سبع جرار عسلاً، وسبع جرار سمناً، فقالت له: "إنها في بلد بعيد، بعيد جداً، وراء بغداد، يدعى شيراز..".

وهمت العجوز بالانصراف، ولكن ابن الملك لحق بها، وتوسل إليها أن تدله على طريق الوصول إليها، فقالت له: "إنها متزوجة يابني، وزوجها كبير الصاغة في شيراز، وهو

يغار عليها غيرة شديدة، وقد وضع عليها سبعة أقفال، فليس إليها من سبيل".

فذهل ابن الملك، وأحس بخفق قلبه يزداد، وشعر برغبة كبيرة في الوصول إلى سلمى، ولقائها، أياً كان الثمن، فلقد وقع في حبها، وكأنما أجاب الله دعاء تلك العجوز.

ولم يلبث ابن الملك إلا أياماً، تجهز فيها بالخدم والأموال، ثم شد الرحال إلى شيراز، فلما بلغها نزل فيها متنكراً في زي تاجر، وظل يطوف في أسواقها وطرقاتها، ويتعرف على تجارها وأمرائها حتى اهتدى إلى كبير الصاغة فيها، فقصد إليه ذات مساء، وأقبل عليه وحياه، فدهش الصائغ لمرآه، بل ذهل، ولولا الثياب التي يرتديها، ولولا يقينه من أنه قد وضع على زوجته سبعة أقفال، لحسبه زوجته نفسها، فكل شيء فيه يشبهها: الأنف والعينان والوجه والفم، بل الحديث والكلام.

وقدم الشاب إلى الصائغ جوهرة نادرة، طلب منه أن يصوغ عليها خاتماً، يزين به بنصره، لا يصغر عنه، ولا يكبر، ثم قدّم له ثلاث جواهر هدية، فوق أجرته وطلب منه أن ينجزه في الصباح، وكان الصائغ يعد نفسه في الحقيقة لإغلاق الدكان، والذهاب إلى البيت، ولكنه أمام جود الشاب، لم يستطع الاعتذار، فوعده أن ينجزه له.

وأغلق الصائغ دكانه، ومضى إلى البيت، فتناول قليلاً من العشاء، وحدث زوجته بأمر الفتى الشاب، ووصفه لها، وأخبرها بما بينها وبينه من شبه، وأكد لها أن ذلك الفتى يكاد يكون هي نفسها، ثم أخبرها بأمر الخاتم، والمجوهرات، ورجاها ألا تشغله في شيء وأكب على صوغ الخاتم، وظل يعمل فيه حتى الصباح.

وكانت الزوجة تساهر زوجها، وترقبه وهو يصوغ الخاتم، وهي تتخيل ذلك الفتى الشاب، وتتمنى لو تراه، وقد شغلت به شغلاً.

ولما كان الصباح، انطلق الشاب إلى الصائغ، الذي كان ينتظره في دكانه بقلق واهتمام، فقدم إليه الخاتم، فجربه، فوجده صغيراً، فرده إليه، وطلب منه أن يحتفظ به لنفسه، ثم قدم له جوهرة أخرى، أروع من الأولى، وأثمن، وطلب منه أن يصوغ عليها خاتماً آخر يريده في المساء، ثم قدم له ثلاث جوهرات هدية، بالإضافة إلى أجرته.

فأغلق الصائع الدكان، من الداخل، حتى لا يشغله أحد، وأكب على صوغ الخاتم، بدقة وعناية واهتمام، فأمضى فيه معظم يومه، حتى إذا حل المساء، قصده الشاب فوجده في انتظاره، فلما قدم إليه الخاتم، جرّبه، فوجده أكبر من بنصره، فرده على الصائغ، وطلب منه أن يحتفظ به لنفسه، ثم قدم له جوهرة ثالثة، أروع من الأولى والثانية، وأثمن، وطلب منه أن يصوغ له عليها خاتماً،

يريده في الصباح، ثم قدم له ثلاثة جوهرات هدية، بالإضافة إلى أجرته.

وأقفل الصائغ الدكان، ومضى إلى بيته، وهو في قلق وخجل شديدين، فقص على زوجته ماكان من أمر الشاب، ورده الخاتمين عليه، وتقديمه له الجوهرات الثمينة، هدايا له، فدهشت الزوجة لكرم الشاب، وجوده، وطيبه، ثم تمنت على زوجها أن يسمح لها بتجريب الخاتم الذي صاغه له، وكان أصغر من بنصره، فقدمه إليها، فوضعته في إصبعها، فإذا هو يناسبها، وقد تألق في أنملها وازدان، فسألت زوجها أن تحتفظ به لنفسها، فقال لها: "هو لك"، فحملت الخاتم، ومضت تساهره، وتناجيه، وتتخيل الفتى الشاب فيه، وتتمنى لو تلقاه.

ومضى الزوج في صوغ الخاتم، فأكب عليه، معظم الليل، وهو يوليه من العناية والاهتمام جل مايستطيع، حتى أنهاه.

وفي الصباح قصد الدكان، وقعد ينتظر الفتى، فلما أطل عليه، رحب به، وقدم له الخاتم، وهو قلق مضطرب، فوضعه الفتى الشاب في بنصره، فجاء موافقاً له، فشكره، وأثنى عليه، ثم قدم له اثنتي عشرة جوهرة كبيرة، هدية، فدهش الصائغ، ودعا الشاب إلى مشاركته العشاء، فوعده بالحضور.

وفي المساء قدم الصائغ لضيفه أطايب الطعام، مما أشرفت على إعداده زوجته، نفسها، وأمرت الخدم أن يعنوا به العناية كلها، ثم لما كانت السهرة، أرسلت إليهما مع الخادم كأسين من الشراب، ووضعت في أحدهما منوماً، ونصحت الخادم أن تقدمه إلى زوجها.

وما إن رشف الزوج شيئاً من كأسه، حتى استغرق في نوم عميق، وقبل أن يتم الضيف كأسه، دخلت عليه سلمى زوجة الصائغ، فدهش كلاهما، وأخذ كل منهما بيد الآخر، وراح يتملى ملامحه، ويطيل فيه النظر، وهو معجب به، مفتون.

باح كل منهما للآخر بهواه، من قبل أن يراه، وأمضيا معاً ليلة فيها الأنس والنعيم، حتى طلع الفجر، وأشرف الزوج على أن يفيق، فكان لابد من الفراق، وخاف الفتى الشاب ألا يستطيع إليها الوصول، فسألها ماذا يفعل، فنصحت له بالنزول في الغد إلى البازار ، وحضور المزاد، فإن داراً مجاورة لها سوف تباع، وماعليه إلا أن يزيد في ثمنها، حتى يرسو البيع عنده، وعندئذ يمكن لهما أن يتواصلا من خلال ثغرة يحدثانها في الجدار الذي يفصل بين الدارين.

وكان للعاشقين مادبراه، فقد اشترى الشاب الدار، وأحدث في جدارها خرقاً، يفضي إلى غرفة في دار الصائغ، مهجورة، فكانا يلتقيان، ويتواصلان، وينعمان معاً

بطيب اللقاء، والصائغ لا يشك في شيء، وكيف يشك، وهوا لذي وضع على زوجته سبعة أقفال؟!

وكان الفتى الشاب مايفتأ يزور الصائغ في دكانه، فيجلس معه ويسامره، وكان الصائغ يدعوه أحياناً إلى داره، فيلبي الفتى، وقد توطدت بينهما صداقة متينة، والصائغ لا ينتبه إلى مايدور وراءه في الخفاء، وإن كان قد عرف أن الفتى الشاب هو ابن ملك، وقد استغرب منه طول مقامه في البلد، ولكنه سوغه بالنزهة والفرجة والاستجمام.

ثم حان يوم كان فيه على الأمير أن يعود إلى بلاده، فقد أرسل إليه والده يعلن عن عزمه على التخلي عن العرش، وتوليته إياه، فحدث سلمى بالأمر، فقالت له: "أرحل معك"، وحين سألها عن زوجها، قالت له: "أتخلى عنه"، ثم عمدت إلى سيف زوجها، وكان قد صاغ قبضته بنفسه، ورصعها بأغلى الجواهر، فقدمته إلى عشيقها، وقالت له: "اذهب إلى زوجي، فشاوره في شرائه".

وحمل الأمير السيف ومضى به إلى الصائغ، فعرضه عليه، يسأله رأيه، فيه، فهو يريد شراءه، وقد ادعى أن أحد التجار قد عرض عليه شراءه، وما إن رأى الصائغ السيف حتى دهش، ولكنه ماكان ليشك في إخلاص زوجته، وهو الذي وضع عليها سبعة أقفال، فأخذ السيف بين يديه، وقلبه وتملاه، وأدام فيه النظر، وتفحصه، وهو بين شك ويقين، فكان كلما دقق فيه، ازداد به تعرفاً، ولكنه أنكر

الأمر، ونصح للأمير بشراء السيف.

وما إن انصرف الأمير حتى أغلق الصائغ دكانه، وأسرع إلى بيته، وما إن وطئت قدمه أرض الدار، حتى صاح بزوجته، طالباً منها أن تحضر له سيفه، فتظاهرت بالتوعك، وأنكرت عليه صياحه، وقالت له:"سيفك في موضعه، فاطلبه تجده"، ومضى إلى حيث كان قد وضع سيفه، فوجده في مكانه، فخجل وتخاذل، وكتم الأمر، ووارى شكه واضطرابه.

وفي يوم آخر، قدم الأمير على الصائغ، يعرض عليه عباءة يشاوره في شرائها، وما إن رأى الصائغ العباءة حتى عرف فيها عباءته، فأخذها منه،وتفحصها، وتملاها، فازداد يقيناً بأنها عباءته، ولكنه تجاهل الأمر، وأخفى اضطرابه، ونصح للأمير بشرائها، ثم أغلق دكانه، وأسرع إلى بيته، وفعل مثل مافعل من قبل، حين رأى السيف، ولكنه خرج ثانية مخذولاً، فقد رأى عباءته في موضعها، وكانت زوجته سلمى هي التي دبرت الأمر، مثلما دبرته من قبل.

ومرت بضعة أيام، كانت الزوجة تتظاهر فيها بالتوعك والمرض، وكان الزوج يعرض عليها إحضار الطبيب، فكانت تنكر عليه أن تسمح لرجل أن يراها، فيزداد بذلك يقيناً بوفائها وإخلاصها، وإن كان يحس أن ثمة أمراً ما غريباً، يشعر به، ولا يستطيع تحديده.

وذات يوم دخل الأمير على الصائغ في الدكان، يصطحب معه جارية، جاء يشاوره في شرائها، وما إن رأى الصائغ الجارية حتى عرف فيها زوجته، وقد صبغت وجهها، وتنكرت في زي الجواري، فتقدم منها، وأخذ يتأملها، وهو في قلق واضطراب وغضب كبير، ولكنه ملك نفسه، ووارى مايجيش في داخله، ثم عمد إلى المثقب الذي يثقب به اللآلئ، فحمله، وتقدم منها، فأحدث في خديها جرحين خفيفين، وقال لصاحبه الأمير:"إن من عادة المرء إذا اشترى جارية، أن يفعل بها مثل ذلك، علامة"، ثم نصح له بشرائها، وبارك له فيها، وكان الزوج يريد بالجرحين، ترك أثر فيها، يفحمها به، حين يعود إلى البيت.

ولما مضى الأمير مع الجارية، أغلق دكانه، وأسرع إلى البيت، ولكن زوجته كانت سبقته، فغسلت الصبغ الذي دهنت به وجهها، ومدت الفراش، واستلقت فيه، وما دخل الزوج، ونادها، حتى أخذت تلطم وجهها، وتحدث فيه جروحاً بأظافرها، متظاهرة بالفزع الشديد، من دخوله المفاجئ عليها، وهي في المرض.

ولما رآها الزوج مجرحة الخدين بأظافرها، لم يستطع أن يتهمها بشيء، فصمت، وخرج مخذولاً ولكنه أدرك الحقيقة وعرف الأمر.

وأخيراً حان يوم رحيل الأمير، وكان من قبل قد كشف عن شخصه، وزار ملك البلاد، وتعرف إلى كبار الرجال،

فتهيأت شيراز لوداعه، ونصبت الأقواس، ورفعت الأعلام، ولم ينسَ الأمير صاحبه الصائغ، فمر به في دكانه، قبل يوم من رحيله، يودعه، وقدم إليه هدايا لا تقدر بثمن، فحزن الصائغ لفراق صاحبه، وندم لشكوكه فيه، وأسف لسوء ظنه في زوجته، وعاد إلى يقينه بوفائها وإخلاصها.

وحين عاد الزوج إلى البيت في المساء، وأخبر زوجته بعزم الأمير على الرحيل، وصارحها بألمه لفراقه، فأبدت تأثراً خفيفاً لسفره، ولامته إذ لم يسمح لها بأن تراه طوال إقامته في البلد، ثم توسلت إليه أن يسمح لها بمشاركته في وداعه، فأبى، فعرضت عليه أن يأذن لها فقط بالإطلال من نافذة بيتها كيما تراه من بعد، قبل ذهابه، وهو الذي طالما حدثها عن شبهه بها، فوافق على أن لا تطيل المكث في النافذة.

وكانت سلمى قد هيأت كل شيء، ورتبت الأمور خير ترتيب، فما إن خرج موكب الأمير، وانضم إليه الصائغ لوداعه، حتى رأى زوجته إلى جانب الأمير، فلم يصدق ما رأى، وهو الذي أحكم إغلاق الأقفال السبعة عليها قبل خروجه، كعادته كل يوم، والتفت إلى نافذة بيته، فرأى زوجته واقفة فيها، ولا يظهر من وراء خمارها سوى عينيها، فاطمأن قلبه، ولكنه أعاد النظر إلى موكب الأمير، فإذا زوجته هي بنفسها إلى جانب الأمير، ورجع ببصره ثانية إلى نافذة بيته، فإذا هي تطل من النافذة، فحار في أمره،

ولم يستطع أن يغادر الموكب، إذ كان عليه أن يبلغ معه حدود البلدة.

ولما بلغ الأمير حدود البلدة، ودعه صديقه الصائغ، وعاد إلى بيته كالريح، وارتقى درجات السلم وهو يلهث، وأقبل على النافذة، وإذا فيها دمية خشبية، على هيئة زوجته، وشكلها، قد ألبستها مثل ثيابها، ووضعتها أمام النافذة لخداعه.

وطاف الصائغ في أرجاء الدار ينادي "سلمى... سلمى... سلمى"، ولكن ما من مجيب.

تعليق:

حكاية مسرفة في الخيال، تشبع لدى العامة أوهامها وأحلامها، وتنبه في المتلقي ذكاءه وتحفزه، وتسرح به في عالم من الجمال والعواطف والمغامرة.

وهي تؤكد قوة الحب وانتصاره على الذهب والأموال، كما تؤكد تغلبه على القيود والحدود والأغلال وهو بعد ذلك كله قدر لا مفر منه ولا مهرب.

لقد ارتحل الشاب من بلد إلى بلد، حتى يلتقي بمن يهوى، وقد ظفر المحبان باللقاء على الرغم من الأقفال، وكان ذلك كله مقدراً لهما.

والحكاية تنتصر للمرأة، وتبرز دورها على الرغم من الأسوار والأبواب المغلقة، محققة بذلك انتقاماً لبنات جنسها.

ويلاحظ أن الحب يتحقق في الحكاية خارج حدود الوطن، وفي بلاد الأعاجم، مما يدل على فقدان الحب والحرمان منه داخل الوطن.

❑❑❑

الفتى نديم الملك

كان أحد الملوك قد رأى حلماً غريباً، أفاق عليه مزعوجاً، فأمر الحكماء والعرافين بالاجتماع وطلب منهم تفسيره، وكان قد رأى كلمة "لا" مكتوبة على أحد الألواح، ثلاث مرات، فقدمت له تفسيرات كثيرة، لم يقتنع بأحدها، مما زاد في قلقه واضطرابه، فما كان منه إلا أن صرف الحكماء والعرافين، وطلب من الوزير أن يجد له تفسيراً مناسباً، وإلا قطع رأسه، فاستمهله الوزير، فأمهله ثلاثة أيام.

ومضى الوزير إلى بيته مهموماً، يفكر ويتأمل، ويشاور ويسأل، ويقلب الأفكار، ويناقشها، وهو لا يستقر على قرار، وظل على هذه الحالة طوال المدة، ولم يصل في نهايتها إلى تفسير معقول، يفضي به إلى الملك، فما كان منه إلا أن خرج من بيته، يجر خطواته جراً، وهو لا يعرف ماذا يفعل؟ هل يعتذر إلى الملك؟ أم هل يسأله الإمهال؟ وكان يمشي بادي القلق، متعثر الخطا، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، مطرقاً، لا يرى ما أمامه، حائر اللب، شارد التفكير، وإذا فتى دون سن الشباب، يعترضه ويسأله عما

به، فنظر الوزير إليه، مدهوشاً لجرأته، مأخوذاً بوسامته، وهو لا يستطيع الجواب، فأعاد عليه الفتى السؤال، فرجاه الوزير أن يكف عنه، وحاول صرفه، ولكن الفتى ألح عليه، فوجد الوزير نفسه مسوقاً إلى البوح بما في نفسه، والاعتراف، فحدثه بأمر الحلم، واشتغاله في تفسيره، فأبدى الفتى دهشته من الوزير، وعجب له، كيف يشغل بهذا الحلم، هذا الاشتغال كله، وهو حلم واضح التفسير، ثم قال له، وهو يبتسم:

– مثل هذا الحلم، لا يستحق مثل هذا الاهتمام، ومانفسيره سوى: أول لا، كل جسمك فيه شعر إلا راحة كفك، وثاني لا: ابن ابنك لك، وابن بنتك لا، وثالث لا عقلك يعجبك، عقل غيرك لا.

ودهش الوزير لروعة التفسير، وأسرع إلى قصر الملك، من غير أن يودع الفتى، أو يشكره، ولما دخل على الملك، ألقى عليه تفسير الحلم، وهو مزهو معتد، فأعجب الملك بالتفسير أي إعجاب، ولكنه أنكر على الوزير أن يكون هو نفسه صاحب التفسير، وأمره أن يعترف، ويصرح عمن فسره له، وحاول الوزير التملص وراوغ، ولكنه لم يجد في النهاية بداً من أن يحدث الملك بأمر الفتى، فروى له ماكان، فأمره الملك أن يحضره، فصعق الوزير، وطاش صوابه، فهو لا يعرف الفتى، بل لا يذكره، ولو رآه، ولكنه لم يجد بداً من الاستجابة، فطلب من الملك الإمهال،

فأمهله ثلاثة أيام.

ورجع الوزير على الفور إلى الموضع الذي صادفه فيه الفتى، ونظر حوله، فرأى مقهى، يطل على الطريق، فقعد أمام باب المقهى، وأخذ يرقب الطريق، لعله يرى في الناس المارين ذلك الفتى، ومضى اليوم الأول، فلم يمر أحد يشبه ذلك الفتى في شيء، فقلق الوزير، ومر اليوم الثاني، مثل الأول، فازداد قلقه، وثارت شكوكه، ومر اليوم الثالث، من غير أن يرى أحداً ولو فيه بعض الشبه بذلك الفتى، فماكان منه إلا أن مضى إلى قصر الملك، يجر خطاه جراً، مهموماً مكدوداً، لا يعرف ماذا يفعل؟

وبينما الوزير في الطريق إلى الملك، وهو على تلك الحالة من الهم والانقباض وإذا الفتى نفسه أمامه، يحييه، فذهل الوزير، ولكنه ملك نفسه، وأمسك بيد الفتى على الفور، وأسرع به إلى الملك، من غير أن يحدثه بشيء، والفتى يساير الوزير، وهو لا يعلم على ماذا هو مقبل.

ولما أدخل الوزير الفتى على الملك، وقدمه إليه على أنه الفتى الذي فسر له الحلم، دهش له الملك، وأخذ بوسامته، وعندئذٍ حياه الفتى تحية إعظام وإجلال، فأعجب الملك بطلاقته وحسن تحيته، فرحب به، وأدناه منه، وعينه على الفور نديماً له، وأفسح له أفضل موضع في مجلسه.

ومنذ ذلك الحين غدا الفتى مرافق الملك، في كل آن،

يأنس به، يطمئن إليه، ويشاوره في كثير من أمره، ويرتاح إليه، ويبوح له بأسراره، ويصحبه في زياراته وجلساته، ويقربه منه، ويدنيه، ويعزه ويكرمه، بل ويقدمه على وزرائه، وكبار رجال بلاطه، وهو مايزال بعد فتى، حتى إنه كان يوكل إليه النيابة عنه، وتمثيله في كثير من الاحتفالات والمناسبات، حتى عرفه أهل المملكة، وطار صيته في البلاد، وعم ذكره في كل مكان، وشهر بما عرف عنه من وسامة وذكاء، وإخلاص ووفاء.

وفي أحد الأعياد خرج الملك في موكب مهيب، يطوف في طرقات العاصمة، وشوارعها، وقد احتشد الناس في الشوارع والنوافذ والأسطحة، ينظرون إلى الملك ويرسلون إليه التحيات، ويهتفون بحياته، وكان الملك يتقدم هذا الموكب، على جواد مطهم، يتلوه وزيره الأول، ثم نديمه، وكان لايحظى باهتمام الناس أحد بعد الملك، غير الفتى، نديمه، بل إن بعضهم كان لا يعير الملك من الإلتفات والإهتمام، مثل ماكان يعير النديم.

وبينما كان الموكب يسير، كانت تقف في إحدى النوافذ فتاة حسناء، وما إن مر أمامها الملك، حتى أشارت إليه بإصبع من يدها إشارة خاصة، فهمها الملك.

ولما مر الوزير، أشارت له بأصبعين من يدها، إشارة خاصة، فهمها الوزير، ولما مر الفتى، أشارت إليه أيضاً بثلاثة أصابع من يدها، إشارة ثالثة خاصة، فهمها الفتى.

وبعد مضي يوم على الاحتفال، تزيى الملك بزيّ تاجر غريب وخرج من القصر خلسة، في وقت محدد، من غير أن يشعر به أحد، ومضى إلى البيت الذي رأى الفتاة في نافذته، ودق الباب، فخرجت له خادم عجوز، فأشار أمامها بإصبع من يده، مثل الإشارة التي كان قد رآها من الفتاة، فرحبت به الخادم وقادته إلى غرفة، رجته، أن ينتظر فيها قليلاً، وهي لا تعرف من يكون، ولم تلبث أن رجعت إليه تحمل دجاجة مشوية، ورغيف خبز، وكأس لبن، وضعتها بين يديه، وأخبرته أنها سترجع إليه بعد ساعة، ثم خرجت.

وما إن خرجت الخادم، حتى شمر الملك عن ساعديه، وأتى على كل ماوضعته الخادم بين يديه من طعام، فالتهم الدجاجة، والرغيف، وشرب كأس اللبن، وقعد ينتظر، وهو يمني نفسه، وبعد طول انتظار، دخلت عليه الخادم، فنظرت، فرأته قد التهم كل شيء، فأظهرت بعض الامتعاض، واصطنعت الأسف، ثم اعتذرت إليه، وأخبرته أن السيدة مريضة، وأنها ترغب في زيارته، في موعد آخر، فغضب الملك، ولكنه لم يجد غير الخروج، فحمل نفسه، وخرج ليعود إلى القصر، مغيظاً يجر أذيال الخيبة.

وفي اليوم التالي، تزيى الوزير بزي تاجر، وخرج إلى نفس البيت، فاستقبل بمثل ما استقبل به الملك، ففعل مثل مافعل الملك أيضاً، فلقي مالقيه الملك، فخرج مغيظاً، يجر

أذيال الخيبة.

وفي اليوم التالي استأذن الفتى الملك في الذهاب لعمل له خارج القصر، لن يتأخر فيه، فأذن له الملك، فخرج على الفور إلى البيت الذي رأى الفتاة في نافذته، وقرع الباب، فخرجت له الخادم، فقال لها: فلان، نديم الملك، فرحبت به، وقادته إلى الغرفة حتى كانت قد قادت إليها من قبل الملك ثم الوزير، وقدمت إليه مثل ماقد قدمت إليهما، ثم خرجت. ونظر الفتى إلى الطعام أمامه، ولم يلبث أن عمد إلى رغيف الخبز فقطعه قطعاً قطعاً، وإلى الدجاجة، فعرّقها تعريقاً، فعزل عظمها عن اللحم، وفتت اللحم، وزعه فوق الخبز، ثم صب كأس اللبن فوق الفتات، ثم غسل يديه، وقعد ينتظر، ولما دخلت الخادم، ورأت مافعل، أخبرته أن سيدتها بالانتظار، وقادته على الفور إلى مخدعها.

وفي المخدع التقته الفتاة، فرحبت به أروع ترحيب، ثم صرفت الخادم، وأغلقت الباب وراءها، فقد وفرت لديها كل ماسيحتاجانه، وأخذت تمر بهما الساعات، وهما في اجتناء ووصال، حتى حل المساء، فرجا النديم فتاته أن تسمح له بالعودة إلى القصر، على أن يعود إليها في اليوم التالي، فأبت عليه إلا أن يبقى الليل عندها، فلم يجد بداً من الاستجابة لطلبها، ولما كان الصباح، رجاها أن تسمح له بالعودة إلى القصر، فلم تسمح له، وهكذا ظلت تمنعه من تركها، حتى مرت بهما سبعة أيام، فأخذ الفتى يتوسل إليها

ويرتجيها، ويعدها أن يعود إليها، حتى سمحت له، فخرج إلى القصر على الفور.

وكان الملك قد قلق على النديم أشد القلق، وثارت فيه شكوكه وظنونه، فلما دخل عليه بعد ذلك الغياب الطويل، تلقاه بالغضب الشديد، وسأله أن يعترف أين كان، فادعى زيارة أهله، فلم يصدقه، فذكر السفر، فكذبه، فذكر المرض، فرده، ثم ماكان منه إلا أن اتهمه بالخيانة، والتعاون مع الأعداء، ورمى به في السجن، حتى تحين محاكمته، ولم يجدِ شيئاً ذكاءُ الفتى، كما لم تنفع في شيء شفاعة الوزير، ولا توسله ولا رجاؤه في أن يعفو عن النديم.

ولبث الفتى في سجنه شهراً أو يزيد، قلقت الفتاة في الأيام الأولى عليه، وكانت تنتظر عودته، ثم شكت فيه، ولم تلبث أن وصمته بالغدر والخيانة، وتناسته، واصطنعت السلوى عنه، ولكنها لم تستطع أن تنساه، وكانت تتوقع دائماً أن يعود إليها، وترتجيه ولو طيف خيال.

حتى كان يوم أعلن فيه الملك خيانة الفتى النديم، وأرسل في أنحاء المملكة الرسل، يعلنون الحكم عليه بالإعدام، ويذيعون في الناس جريمته، ويدعونهم إلى اجتماع في يوم محدد، ليشهدوا إعدامه، في إحدى الساحات الكبرى.

وفي اليوم المحدد ألبس الفتى النديم ثياب الإعدام،

وعلق في صدره بيان ذكر فيه جرمه، وهو الخيانة العظمى، وسار به الجند في موكب، يطوف به في الشوارع والطرقات، وقد احتشد الناس ليروا إليه، وفيهم النادم عليه، والآسف على شبابه، وفيهم الشامت به، والناكر له، وفيهم المتفرج الذي لا يبالي شيئاً، وهو يمرّ بهم متحملاً كلماتهم النابية، وإهاناتهم وشتائمهم ونظراتهم، من غير أن يبدي انفعالاً ما، حتى مر به الموكب بالنافذة التي كان رأى فيها الفتاة من قبل، فنظر إليها، فرآها فيها، وهي تنظر إليه، دامعة العينين، وكانت قد أدركت مما صار إليه حاله مبلغ صدقه ووفائه، ولما أصبح تحت نافذتها، قذفته برمانة، أصابته، ثم وقعت على الأرض، فانكسرت، وانفرطت حباتها وتناثرت، فنظر إليها وظل صامتاً، لا يريم، فلم تلبث أن قذفته بزجاجة عطر، فارتطمت بالأرض، وتحطمت، وانتشر شذاها، فنظر إليها ثانية، وابتسم، وأومأ إليها برأسه.

ولما بلغ موكبه ساحة الإعدام، حيث كان ينتظره الملك نفسه، ليشهد مع الوزير تنفيذ حكم الإعدام فيه، مضى بخطوات واثقة إلى منصة الإعدام، رافع الرأس، من غير أن يبدي انفعالاً، حتى بلغها، وإذا الملك يرسل وراءه الجند، فأحضروه بين يديه، فسأله الملك إن كان يطلب العفو، فأجابه أن "لا" فغضب الملك، ولكنه ملك نفسه، وأدناه منه، بحيث لا يسمعهما أحد، ثم سأله: "أريد أن أعرف أين كنت

خلال الأيام السبعة التي غبت فيها عن القصر، قبل أن تشنق"، وعندئذ اعترف الفتى بالحقيقة، فدهش الملك، وأعلن على الفور العفو عن النديم، ففرح الناس بذلك فرحاً، ومشى موكب الملك، والنديم إلى جانبه، وأخذ يطوف بالشوارع والطرقات، والناس يحيون الملك والنديم، وقد تغير كل شيء.

وفي القصر خلا الملك بالنديم، وسأله أن يشرح له سرّ احتفال الفتاة به، واستقبالها إياه، على حين كانت قد رفضت استقباله، وهو الملك، وكان الملك قد اعترف للنديم بماكان من أمره في زيارته لها، فطلب النديم من الملك الأمان، فأعطاه الأمان، فأخبره بأنه كان قد قسم الخبز، وفتت اللحم، وسكب اللبن، وهو يعني بذلك أنه لن يبوح بشيء، ولو فتت لحمه، وأريق دمه، فأعجب الملك بذكائه، ولكنه سأله: "كيف بحت لي إذن بماكان؟"، فأجابه بأنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن قذفته الفتاة بالرمانة فانفرط حبها، وهي تعني أن أفرط القضية، وبعد أن رمته بزجاجة العطر، وهي تعني أن أنشر الخبر، ولا تبق الأمر مكتوماً، فازداد إعجاب الملك بالنديم، وأدرك سر اعتذار الفتاة عن استقباله، وهو الذي التهم الطعام والشراب، ولم يفقه من الأمر شيئاً.

ثم ماكان من الملك إلا أن عين النديم وزيراً له، ثم أرسل وراء الفتاة، فزوجه إياها، وأقام لهما في القصر

الأفراح، فالتقى المحبان، بعضهما ببعض فسعدا باللقاء، وعاشا في هناءة وسرور، بعد فراق وطول عذاب، وهوان.

تعليق:

حكاية بديعة فيها اللغز والرمز والخيال والعاطفة والملك والمرارة والعذاب والوصال والسعادة.

وأبرز مافي الحكاية الفتى، الذي هو محض فتى من العامة، ولكنه يمتاز بالشباب والذكاء والوسامة والشجاعة والتضحية والوفاء، ولذلك كله كان جديراً بأن يحقق حلم العامة في دخول قصور الحكام ومنادمة الملك والتفوق عليهم بذكائه والظفر بأكثر النساء جمالاً وذكاء.

ويظهر اللغز الجميل في حلم الملك، وعجز الحكماء عن حله، وتمكن الفتى من فك رموزه، كما يظهر الرمز الشعري الجميل في تفتيت الفتى لحم الدجاجة، وسكبه اللبن وعدم تذوقه شيئاً، وفي رمي الفتاة للفتى بالرمانة وزجاجة عطر.

والحكاية مملوءة بمواقف الحب والبطولة والتضحية والوفاء، وهي تنجح في تطوير الحوادث وتصعيد المواقف حتى تبلغ بها أزمة خانقة ثم يأتي الحل منطقياً مقنعاً، وذلك كله في حبكة قوية متماسكة، قادرة على شدّ انتباه القارئ، وإثارة مشاعر الخوف لديه من ظلم الملك والإشفاق على الفتى والإعجاب بمواقفه النبيلة.

والحكاية تدل على ترف الملوك وانصرافهم إلى التفكير بأوهامهم وأحلامهم الخاصة، بعيداً عن قضايا الناس ومشكلاتهم، ويمكن أن تعد الفتاة فيها رمزاً للوطن، ولا يظفر بها لا الملك ولا الوزير، وإنما يظفر بها الفتى الذي هو من عامة الناس، لأنه الأولى بها، والأحق، والأجدر.

والحكاية يمكن أن تروى للفتيان والفتيات لتشحنهم بعواطف الحب السامية والبطولة الذكية في عالم من

الخيال والسحر والجمال لا إسفاف فيه ولا فحش، بل فيه الشعر والسمو.

إن كل عناصر الحكاية تؤكد نجاحها وقوتها وتماسكها، وهي مثل رائع للحكاية الشعبية.

❑❑❑

التاجر حسن

كان في قديم الزمان تاجر كبير، ولم يكن له سوى ابن وحيد، اسمه حسن، فلما كبر التاجر وشاخ، لزم البيت، وحل ابنه محله في السوق، يبيع ويشتري.

وكان حسن فتى شاباً، مليح الوجه، حلو الحديث، جذب إليه كثيراً من المشترين، وذات يوم قصده درويش يرتدي مسوحاً غريبة، اشترى منه بعض القماش، ثم قعد عنده، وقد أعجبه منه حديثه، وراقه بيعه.

وبينما كان الدرويش عنده، كانت وفود المشترين تقدم عليه، حتى امتلأت خزانته بالنقود، وهو لا يعرف كيف وفد عليه الرزق؟ حتى إذا حل المساء، وجد أنه باع في السويعات التي مكث فيها الدرويش عنده، ماكان يبيعه من قبل في أيام، فلما حان له أن يغلق الدكان، دعا الدرويش إلى زيارته في اليوم التالي، فوعده الدرويش بذلك.

ولما كان اليوم التالي، حضر الدرويش، فحضرت معه وفود المشترين، تقصد الدكان أفواجاً أفواجاً، ودام الأمر

على هذه الحالة عدة أيام، يأتي الدرويش إلى دكان حسن التاجر، فيبيع في ساعات مكثه لديه، مايبيعه في أسبوع، حتى ضج أصحاب الدكاكين المجاورة، فعقدوا العزم على مراجعة والد حسن في الأمر.

وأغلق التجار جميعاً دكاكينهم، وحملوا مفاتيحها، وقصدوا إلى دار والد حسن، فلما خرج إليهم ألقوا المفاتيح بين يديه، وأعلنوا اعتزالهم التجارة، فاستضافهم، ودعاهم إلى التحاور، فلما عرف منهم أمر الدرويش، وعدهم أن يمنع ابنه من النزول إلى السوق، وقرر أن يتخذ أجيراً، يعمل في الدكان، بدلاً من ابنه.

ونفذ والد حسن وعده، فانقطع حسن عن النزول إلى السوق أياماً، كان الدرويش يقصد فيها الدكان فلا يجده، فيعود أدراجه، حتى علم ذات يوم أن والد حسن، هو الذي منع ابنه من النزول إلى الدكان، بسببه هو، فقصد على الفور إلى دار والد حسن، فلما خرج له، عرفه بنفسه، وطلب منه أن يأذن لحسن بالعودة إلى الدكان، فرفض الأب طلبه، فنظر فيه الدرويش نظرة، فإذا هو معلق بين السماء والأرض، فأخذ يصيح، ويقطع الوعود بالسماح لابنه بالعودة إلى الدكان، فنظر فيه الدرويش نظرة، فإذا هو على الأرض.

وهكذا رجع حسن التاجر إلى الدكان، وأخذ الدرويش يزوره كل يوم، فيقعد عنده، فيبيع في حضوره، مالا يبيعه

في أيام، حتى ذاع صيت حسن التاجر في البلد، وملأت شهرته الآفاق، وتناقل حديثه الغادي والرائح، فبلغ ابنة السلطان، فقررت النزول إلى السوق لشراء بعض الثياب من دكان حسن التاجر.

ونادى منادي السلطان في أصحاب الدكاكين، أن يرسل كل منهم في الغد أخته أو ابنته لتحل محله في الدكان، فقد عزمت ابنة السلطان على النزول إلى السوق.

فلما سمع حسن التاجر منادي السلطان شاور الدرويش في الأمر، فقال له:"اترك الأمر لي". ثم نصح له أن يكتحل، في اليوم التالي، وأن يتزيى بزي فتاة، وليقعد في الدكان، مدعياً أنه أخت حسن التاجر، ثم همس له: "فلتعلم أن ابنة السلطان ماقصدت السوق إلا من أجلك، فكن ذكياً".

وفي اليوم التالي اكتحل حسن التاجر، ووضع الخمار وتزيى بزي فتاة، وقعد في الدكان، ينتظر قدوم بنت السلطان.

ودخل موكب بنت السلطان السوق، يحف به الخدم والعبيد، هي في هودجها كالقمر، حتى إذا بلغت دكان حسن التاجر، نزلت إليه، فقام يحييها، ويرق لها في الحديث، جاعلاً من نفسه أخت حسن التاجر، ولقد دهشت بنت السلطان لجمال الأخت، وقدرت أن أخاها مثلها في

الحسن، فتمنت لو تراه.

وأطالت بنت السلطان المكث عند حسن التاجر، وهو يحادثها ويؤانسها، ويسليها، وهي تنتقي أفخر الثياب، حتى إذا أرادت دفع ثمن ما اشترت، قال لها حسن التاجر، وهو يصطنع دور الأخت:

- أنا لا أعرف الأسعار، وسوف أسأل أخي، وغداً آتيك لأخذ الثمن.

فأطرقت بنت السلطان، وتأملت ملياً، ثم أدركت أن من يحدثها هو حسن التاجر نفسه، لا أخته، ولم تلبث أن انقادت إلى نظراته، فحددت له موعد اللقاء، وعرفته بمداخل القصر، وطريقه إلى جناحها فيه.

ولما كان اليوم التالي تنكر حسن التاجر، ومضى إلى القصر، في الموعد المضروب له، فأذن له بالدخول، فسلك طريقه إلى جناحها، وإذا هو أمام درج، وقف على كل درجة جندي، فاضطرب، وتردد، ولكنه ذكر أنه في زي فتاة، فمر بهم، وقلبه يخفق، حتى بلغ نهاية الدرج، فمضى على الفور إلى الباب الذي كانت قد دلته عليه، فقرعه، فإذ هي في الانتظار.

وأمضى العاشقان ساعات وساعات، يأنس كل منهما بالآخر ولا يستطيع عنه البعاد، حتى دخل الليل، فكان لابد من انصراف حسن التاجر، فخرج مثلما دخل، بحذر شديد.

وتكررت زيارة حسن التاجر، لبنت السلطان، حتى أخذ يزورها كل يوم، يحمل إليها أثواب الحرير، متنكراً في زي فتاة، يأتيها في الصباح، فلا يخرج إلا في المساء.

وكان يقعد في الدكان بدلاً من حسن التاجر صاحبه الدرويش، فكان يبيع ويشتري، محققاً الأرباح، ومنافساً أصحاب الدكاكين الأخرى.

ومرة ثانية اجتمع أصحاب الدكاكين وتشاوروا في الأمر، فعقدوا العزم على مراجعة والد حسن، فأغلقوا دكاكينهم، وحملوا مفاتيحها، ومضوا إليه، فلما خرج لهم، ألقوها بين يديه، فعجب لهم، فأخبروه أن ابنه لا ينزل إلى الدكان، وأن الدرويش هو الذي يحل محله، فلا يرد عليهم أحد من المشترين، فأنكر والد حسن ذلك، فأخبرهم أن ابنه ينزل كل يوم للسوق، وعندئذ ثارت شكوك التجار وقرّروا أمراً.

وما كان من التجار إلا أن اختاروا واحداًمنهم، رصد دار والد حسن، حتى إذا خرج حسن التاجر في الصباح، تبعه من وراء وراء، حتى رآه يدخل بيتاً، فكمن له خارجه، وماهي إلا برهة حتى خرجت فتاة، تمشي على عجل، فلبث ينتظر، وانتظر طويلاً، فلم يخرج أحد، فحدس أن الفتاة التي خرجت ليست إلا حسناً، وقد تنكر، فأعاد رصده في اليوم التالي، وحدث نفس ماحدث، فلما خرجت الفتاة، تبعها، وقد أيقن أنها حسن متنكراً، وإذا الفتاة تدخل قصر

السلطان، ورجع الرجل إلى التجار يخبرهم، فتشاوروا، فقرروا إخبار السلطان.

فما كان من السلطان إلا أن أخلى غرفة ابنته، وملأها بالهشيم، ثم أحرقه، فامتلأت الغرفة بالدخان، ولما جاء حسن متنكراً، مرّ بالجند كعادته، ورقي الدرج، حتى بلغ الباب، فقرعه، ثم دخل، فاحتواه الدخان، ودمعت عيناه، وأطبق عليه الجند، فاقتادوه إلى السلطان.

وعلى الفور أمر السلطان بقطع رأسه، ولكن التاجر حسن رجا السلطان أن يأذن له بالكلام، فأذن، فأخبره، أن له شريكاً في الجرم، ولابد أن ينال معه العقاب، وإذا سأله السلطان من يكون أجابه بأنه الدرويش، من قبل قد أوصاه إنْ هو وقع في مأزق أن يقول مثل ذلك، وعندئذٍ أمر السلطان على الفور بإحضار الدرويش، ودلهم التاجر حسن على بيته.

وذهب نفر من الجند إلى بيت الدرويش، يطلبونه، فلما دخلوا عليه، رأوه يتنزه في حديقة قصره، فبهتوا لفخامة مارأوا، ثم أخبروه أن السلطان يطلبه، فاستأذن منهم أن يسمحوا له بارتداء ثيابه، فسمحوا له، فقادهم إلى غرفة كي ينتظروه، فدخلوا الغرفة، فإذا هي مليئة بأفخر الثياب العسكرية، وأرقاها، ودعاهم إلى ارتداء مايشاؤون ثم تركهم وخرج، فأقبل الجند على ارتداء الحلل العسكرية الفخمة، والتقليد بالسيوف المرصعة بالجواهر، وتعليق الأوسمة على

الصدور، ولكن ماهي إلا هنيهة، حتى غلبهم النعاس، وأخذتهم سنة من النوم، فناموا، ورجع الدرويش، فرآهم ممددين على الأرض، وقد أغفوا فتركهم وخرج، متوقعاً وصول فريق آخر من الجند.

لقد أحس السلطان بتأخر جنده، فأرسل فريقاً آخر، فلما دخلوا على الدرويش، رأوه في حديقة قصره، متكئاً في مجلسه، وأمامه فواكه مما تشتهيه الأنفس، والغانيات تتبختر حوله، يقمن على خدمته ومنادمته، على حين كانت جوقة من المغنيين والمغنيات تؤدي أجمل الأغاني، وقد انفلتت ثلة من الراقصات، تتمايل على أعذب الألحان، فبهت الجند لما رأوا، وأخذهم الطرب، فوقفوا مشدوهين، يتأملون مايرون، فلما أتم الجوق غناءه، رحب الدرويش بالجند، ودعا كل واحد إلى انتقاء غادة من الغيد، والمضي بها، إلى حيث يشاء، في حديقة القصر، فتهافت الجند على مخاصرة الغيد، والاختلاء بهن تحت الظلال، وعلى المروج، ونظر إليهم الدرويش، وهو يتوقع وصول فريق ثالث.

وكان السلطان قد أحس أيضاً بتأخير الجند، فأرسل آخرين، فأتوا إلى القصر، حيث دلهم التاجر حسن، فإذا هم في اصطبل، ودخلوا أحد الأكواخ، فإذا هم في مستودع للتبن، ونظروا، فرأوا رفاقهم الجند، مستلقين على أكوام التبن، وهم في أسوأ حال، فواحد ملتف ببردعة حمار، وآخر

معلق في عنقه عنان بغل، وثالث مرتد كيس شعير، فصاحوا بهم، فنهضوا، فرأوا ماهم فيه، فدهشوا، ومضوا يبحثون عن الدرويش، وإذا هم في مضمار الاصطبل، حيث تروض الخيول، ورفاقهم الجند مستلقون في هذا المضمار، فوق التراب والطين، وهم في أسوأ حال، فواحد مستلق إلى جانب حمار، وآخر يعانق بغلاً، وثالث قد توسد ذراع كلب ونام، وصاح بهم الجند، فنهضوا مذعورين، وقد بهتوا لما رأوا ثم مضوا يبحثون عن الدرويش.

ولما رأى الجند الدرويش هجموا عليه، فسلّم لهم، فقّيدوه، ووضعوه في كيس، وحملوه إلى السلطان، ولما صاروا إليه، قصوا عليه ماكان من أمرهم، واعتذروا لتأخرهم ثم ألقوا بين يديه ماحملوه، وإذا هم يلقون مجموعة عظام بالية نخرة، فغضب السلطان وثار، وقرر أن يذهب بنفسه لإحضار الدرويش، فنزل عن كرسي الحكم وصار إلى حديقة القصر، فإذا الدرويش فصاح الجند: الدرويش، الدرويش.

وبهت السلطان، فأمر، وهو يتلعثم، بقطع رأسه، فقاطعه الدرويش محتجاً، وقال له:

– لا يحق لك أيها السلطان أن تصدر حكماً في الناس وأنت جنب، فلا بد لك من الاغتسال أولاً.

وذهل السلطان، وقال للدرويش:

– أنت على حق.

والتفت إلى الجند يأمرهم أن يعدوا موكبه للمضي إلى الحمام، ولكن الدرويش أشار إلى البركة في حديقة القصر، وقال له:

– أمامك البركة، فهي أقرب، هيا فانزل فيها، واغتسل.

وماكان من السلطان إلا أن خلع ثيابه جميعاً، أمام الجند، فقد وقع تحت تأثير الدرويش، ثم أسرع إلى البركة، وألقى بنفسه فيها، وإذا هو في أرض عراء، لا طير فيها يطير، ولا وحش فيها يسير، فمشى على غير هدى، لا يعرف إلام يصير، حتى نال منه العطش والتعب، فرأى نبع ماء، فأقبل عليه، فعب منه وشرب، فأحس على الفور بشيء من التغير، فإذا هو امرأة، بشعر طويل، وثديين ممتلئين، فحار في أمره، ولم يعرف ماذا يفعل، فمشى حتى بلغ غابة، مليئة بالأشجار، فدخلها، فسمع صوت ضربات الفأس، فمضى إلى حديث الصوت، وإذا حطاب شاب، يكسر جذع شجرة يابس، وما إن رآه الحطاب، حتى أقبل عليه، ومخايل الإعجاب به، تلوح عليه، وهو ينظر إليه نظرات رغبة واشتهاء، فاضطرب السلطان وحار، ولكن ذكر أنه امرأة، فرضي وسلم، فلما عرض عليه الحطاب أن يتزوجه، قبل، في صمت، ومضى يسير وراء الحطاب، ويطيعه في كل ما يأمره به، فكان يجمع الحطب أكواماً أكواماً، وينقله إلى كوخه البعيد، ويعدّ الطعام، ويجلب

الماء، ويشعل النار، ويهيئ الكوخ، ويغسل الثياب، ويقوم بواجب المرأة تجاه زوجها.

ومرت به الأيام والشهور، وهو زوجة للحطاب، حتى كبرت بطنه، واستدارت، وتحرّك الجنين في أحشائه، واستيقظ ذات صباح، وهو في المخاض، وبعد عناء، وضع ولداً، سمّاه "حسن"، ومرت الأيام، وكبر الولد، وحمل السلطان ثانية، ووضع صبياً آخر، سماه "حسين"، ولم تزل الأيام تمر، حتى وضع السلطان ولداً ثالثاً، سماه "حسون"، وكان خلال ذلك كله مايفتأ يساعد الحطاب، في الذهاب إلى الغابة، وتكويم الحطب، ونقله، وإعداد الطعام، وغسل الثياب.

وذات يوم كان السلطان يحمل كومة حطب، ويهبط بها على صخرة ملساء، وإذا قدمه تزل، فسقط، ووقع على الأرض، واصطدم رأسه بحجرة، ولكن لم يلبث أن نهض، فإذا هو خارج من البركة، فنظر، فرأى الجند والدرويش والتاجر حسن مازالوا جميعاً واقفين، فصاح بهم:

– ماتعبتم من الوقوف طوال هذا العمر؟ أنجبت أنا حسن وحسين وحسون، وأنتم مازلتم واقفين؟!

فضحك الجند، وصاحوا "السلطان" جن، جن السلطان، وثبّت الدرويش على السلطان الجنون، وأكده، لخروجه من البركة عارياً، ثم أمر بخلعه، فوافق الجند في الحال، ثم

اقترح مبايعة التاجر حسن سلطاناً، فبايعوه، فارتقى التاجر حسن العرش، وتزوج ابنة السلطان، وأصبح هو السلطان، وقرّب إليه كلاً من أمه وأبيه، فأما الدرويش فودعه وارتحل إلى بلاد لا يعلمها إلا الله.

تعليق:

حكاية بعيدة الخيال، تحقق أحلام العامة في الوصول إلى سدّة الحكم، وتشبع لديهم الشوق إلى سماع الغرائب والعجائب، وهي تقدم شكلاً بديعاً من أشكال السحر الجميل، لتأكيد الذات، وتحقيق وجودها، والانتقام من السلطان والزواج من ابنته، على نحو مايرد في كثير من الحكايات الشعبية، ولكن في شكل فني بديع.

والحكاية تكاد تنقسم إلى قسمين، في القسم الأول منهما يعلو نجم الشاطر حسن، ويتألق، حتى يدخل قصر السلطان، ويلتقي ابنته، وفي القسم الثاني يضعف السلطان، فيكون النيل من جنده وحرسه، ثم يسقط في البركة ويخرج منها عارياً مجنوناً، ويكون الختام بإقصائه عن الحكم وتولي الملك من بعده الشاطر حسن.

ويمتاز هذا العرض بالمنطقية، والقوة، والتماسك، بعضه يقود إلى بعض، في تسلسل متصاعد، وفق مراحل ثلاث دائماً، حتى يكون الظفر في النهاية بابنة السلطان وسدة الحكم.

ويرجع الفضل في تحقيق ذلك كله إلى الدرويش، وهي شخصية أسطورية بديعة تمثل السحر أو الرصد أو الحظ، وفي الحالات كلها هو ذو قوة لا تقف في وجهها أية قوة، وهو قادر على تحويل الأشياء، كما هو قادر على التحول، وذلك كله لتحقيق الحلم الجميل بالزواج من ابنة السلطان، والظفر بالحكم، لا لنفسه، وإنما للشاطر حسن، وكأن الدرويش بذلك قوة مطلقة متخيلة، يحلم بحضورها كل محروم ومظلوم.

وحكاية سقوط الملك في البركة، وتحوله داخلها إلى امرأة، وزواجه وإنجابه ومضي بضع سنين عليه، ثم خروجه منها عارياً بعد هنيهة من الزمن، وهي حكاية عجائبية، تعدّ رحلة في عالم الغيب والسحر والخيال، وهي رحلة لا معقولة منحت الحكاية جمالها، وكانت حكاية داخل الحكاية، وقد حققت قدراً كبيراً من السخرية من الملك والنيل منه.

والحكاية مملوءة بتفاصيل ممتعة، تخلق مناخ الحكاية وأجواءها، وتثير الخيال، وتشد المستمع، منبهة فيه الشوق إلى المتابعة ومعرفة المصير، عبر المتعة والتسلية، ومن خلال أشكال من التنكر والسحر والإيقاع والمغامرة.

وعلى الرغم من أن شخصية الدرويش هي الشخصية المحركة للحكاية كلها، وهي التي تحظى باندهاش المتلقي، لما فيها من قوة عجيبة، ومالها من سحر غريب، تظل شخصية ثانوية بالقياس إلى شخصية الشاطر حسن، فهو محور الحكاية، وهو الذي يغامر فيها ليصل إلى ابنة السلطان ويظفر بالحكم، ويظل السلطان كالقدر بالنسبة إلى الشاطر حسن، أو كالخادم أو التابع أو الكنز المرصود.

❑❖❑

عمود من الذهب

كانت أسرة منكودة ، شقية الحظ، بائسة فقيرة، فالأب يخرج إلى العمل، قبل شروق الشمس، ليعود بعد غروبها، متعباً مكدوداً، وهو لا يستطيع أن يوفر لعياله إلا بعض الحاجات، فكأنه في سعيه وراء الرزق، إنما يسعى على قدميه، وراء فرس هارب منه، والأم توقظ من بعد خروجه الأولاد، فترسل بعضهم إلى الكتّاب، وترسل بعضهم إلى الأزقة والحارات للعب، ثم تخرج هي لتطوف على جاراتها، تسمع قصة من هنا، وحديثاً من هناك، وتنال خلال ذلك فضلاً من طعام، لتعود إلى البيت، قبل الغروب، فتعد للأفواه الجائعة، والأجساد المتعبة، مايمسك عليها رمقها، ويحفظ لها الحياة.

وعلى هذه الحالة، كانت تمر بالأسرة الأيام، رتيبة مملّة، لا سبيل فيها إلى الخلاص، ولا حيلة، بل إنها لتنحدر بالأسرة من فقر قاس مرّ، إلى فقر أقسى وأمرّ.

وذات يوم رأت الأم جارة لها في طوق ذهبي، يحلّي

عنقها، وهي الجارة التي كانت تشمخ عليها دائماً بغناها، وتفخر أمامها بما لديها من حلي وثياب، والتي لم تكن مثلها في الجمال، فحنقت وتألمت وتذكرت أبويها اللذين زوجاها لرجل فقير معدم.

ولما رجع الزوج من عمله في المساء، تلقته باللوم والعتاب، وأثقلت عليه، وهي تندب حظها، وتبكي جمالها الضائع، الذي لا يزينه عقد، مثل عقد جارتها، فأدرك الزوج سرّ غضبها، وعرف أمرها، فقال لها:"غداً آتيك بعقد ذهبي"، فجن جنونها، وفرحت فرحاً، ونسيت حالة زوجها، وغفلت عما هم فيه من بؤس وشقاء، وغدت في فجر اليوم التالي إلى جارتها تزف لها وعد زوجها، وتكيد لها، وتباهي أمامها بجيدها الذي يليق به عقد رائع، ثم طلبت منها أن توسع لها طوق ثوبها، ليكشف عن صدرها، ويغدو العقد فيه أكثر بروزاً وظهوراً، بل أكثر بهاء وروعة.

ورجعت إلى البيت تنتظر أوبة زوجها في المساء، ولما سمعت صوته في الباب، أسرعت إليه بالتهليل والترحيب، وهي تتوقع أن يضع الطوق في عنقها، قبل أن يخطو داخل الدار، ولكنها فوجئت به لا يحمل شيئاً، فوجمت، وأطرقت، في خيبة كبيرة، فلم يجد الزوج بدّاً من مداراتها. فأخبرها أنه رأى أن يشتري لها زوجين من الأساور، تحلّي بهما معصمها، فالأساور في يدها أحلى وأجمل، ففرحت بوعده، ونامت هانئة، وهي تحلم بالأساور.

وأسرعت في اليوم التالي إلى جارتها، لتخبرها بالأساور التي سيشتريها لها زوجها، وتباهى بها أمامها، وترتجيها أن تقص لها أكمام ثوبها، كي تكشف عن معصميها، فتظهر أساورها، فاستجابت الجارة إلى طلبها، وقد أدركت حماقتها، وكانت تضحك منها.

وفي المساء كانت تنتظر زوجها، واستقبلته في الباب بفرح كبير، وهي تتوقع أن يقدم لها الأساور، ولكنها فوجئت به لا يحمل شيئاً، ولكي يتخلص الزوج من غضبها ونكدها، أقنعها بأنه سيشتري لها بدلاً من الأساور خلخالين، تزين بهما قدميها، فإذا مشت سمع الجيران لها رنيناً، فصدقت وعده، ورأت أن الخلخالين في قدميها أحلى، وأجمل، وأكثر إغاظة لجارتها.

ومنذ الفجر، أسرعت إلى جارتها تخبرها بوعد زوجها، وتؤكد لها أن الخلخالين في قدميها، أجمل من الطوق في عنقها، أو الأساور في معصمها، ثم رجتها أن تقص لها طرف ثوبها، كي يكشف عن قدميها، فيظهر الخلخالان، فأجابت الجارة طلبها.

وفي المساء، انتظرت زوجها، بلهفة كبيرة، ولما دخل عليها لا يحمل شيئاً، خاب أملها، وقعدت حزينة، ولم يجد الزوج بداً من وعد آخر، ينسيها ماهي فيه، ويجد فيه عذراً، من غير أن يذكرها بما هم فيه من بؤس مدقع، فقال لها: "لقد رأيت أن نشتري داراً نرتاح فيها، وهي أفضل من

الأساور والخلاخيل والعقود"، فصدقت وعده وفرحت لذلك.

وخرج الزوج إلى عمله في الصباح، وبينما هو في بعض الطريق، إذ سمع رجلاً ينادي معلناً عن دار كبيرة، ذات غرف كثيرة، مفروشة، بأثمن الأثاث، معروضة للبيع، ولا يطالب شاريها بثمنها إلا بعد أن يسكنها سبعة أيام، فأصغى الرجل إلى المنادي، وتتبع الصوت، حتى رأى المنادي فسأله عن الدار، فدلّه عليها، وأعطاه مفاتيحها على الفور، وأكد له أنه لن يطالب بثمنها قبل أن تمضي على سكناه فيها سبعة أيام، ففرح الرجل، وأخذ المفاتيح، وطار بها إلى زوجته.

واستغربت الزوجة عودة زوجها، ولكنها ما إن رأت المفاتيح في يده، حتى جن جنونها، فأخذت تزغرد وتنادي الجارات، كي يودعنها، ويشاركنها في نقل ما لديها من متاع إلى الدار الجديدة التي اشتراها لها زوجها.

وتلقفت المفاتيح، وأسرعت إلى ماعندها من فرش عتيقة تطويها، وماليديها من كراسٍ محطمة تحزمها، ومافي مطبخها من أوانٍ مكسرة تجمعها، وبدأت تهيئ نفسها للانتقال، ولكن زوجها أخبرها أن الدار مفروشة بفاخر الأثاث، وطلب منها ألا تحمل شيئاً معها البتة، فليس عليها سوى الذهاب إلى الدار، وسكناها، فلم تكد تصدق ماسمعت، فأيقظت الأولاد، ومنعتهم من الذهاب إلى ماكان يذهب إليه كل واحد منهم من قبل، ثم قادتهم أمامها،

وخرجت وراء زوجها، تحمل صرة ثيابها، التي أبت إلا حملها معها ومضت قاصدة الدار الجديدة.

وكانت الجارات قد سمعن زغاريدها، وأصواتها، وجلبتها وضجيجها، فوقفن في نوافذهن، يرين إليها، وهي تخرج مع زوجها وأولادها إلى الدار الجديدة، فأخذت تخطر أمامهن، مزهوة بنفسها، وهي تشير إليهن بيدها، مودعة وتدعوهن إلى زيارتها في الدار الجديدة، وهن يتهامسن عليها، ويتغامزن، غير مصدقات مايسمعن، ومايرين.

ولما بلغ الزوج بأسرته الدار الجديدة، فتح الباب، وأدخلهم فيها، ثم تركهم ومضى إلى عمله، من غير أن يدخل الدار.

ودهشت الزوجة لما رأت، بل ذهلت، دار كالقصر، بل كجنة الفردوس، باحتها واسعة، فيها بركة كبيرة، تترقرق فيها المياه، تلعب فيها الأسماك، وتحوم على حوافها الطيور، وتظللها شجيرات الورود والياسمين، فتنشر عبقها الناعم اللذيذ، وحول الباحة الواسعة، تمتد الغرف، وهي كثيرة، بشرفاتها، ونوافذها، وقد بدت من وراء النوافذ الستائر الرقيقة الهفهافة، تداعبها النسمات، فتميس، وفي صدر الدار إيوان، تظلله واقية من الخشب الساج، حفرت فيه أحلى النقوش وطعمت بالعاج، وقد مدت في صدر الإيوان أريكة، وبسطت في أرضه سجادة، على حين ترك بابا الغرفتين المطلتين على الإيوان مفتوحين، فبدا أنهما غرفتان

للزوار، مفروشتان بأفخر الأثاث.

والتفتت المرأة إلى أولادها، وضمتهم إليها، وقالت:"انظروا ماذا اشترى لنا أبوكم". وقد ذهلت بما رأت، ودهشت، وملكت عليها الدار عقلها، فنست أن زوجها معدم فقير، وأنه لا يستطيع شراء غرفة من هذه الدار، فليس لديه من ثمنها شيء، ولو درهم.

ثم أخذت تدخل الغرف غرفة غرفة، تتأملها، وتؤخذ بما حوت من فراش وديباج وأثاث وسجاد، ومما لم تكن تحلم به من قبل، أو تفكر فيه، أو تتمناه، أو لم تكن في الحقيقة تسمع به، أو تعرفه، أو تراه.

ولما اهتدت إلى الحمام فرحت بها، فأدخلت فيها الأولاد، فغسلتهم، وحممتهم، وأخرجتهم كالورود، وألبستهم مما في الخزائن، من فاخر الثياب، ثم ارتدت هي أجمل مارأته، ونشرت حولها العطور، وماست، وتبخترت، وخطرت في باحة الدار، تتمتع بالأزهار والطيور، وتتمنى لو شهدت جاراتها ماهي فيه.

ثم لما كان الغداء، أعدّت لأولادها أطيب ألوان الطعام، مما لم تكن قد ذاقته من قبل، أو كانت تسمع عنه في أحاديث الجارات، مما كن هن أنفسهن لا يذقنه إلا في الولائم والمناسبات، فكانت تأكل وتطعم أولادها وتتمنى أن يشاركهم زوجها الطعام، ولكنها كانت تؤمل عودته في

المساء.

وأقبل المساء، ولكن الزوج لم يأتِ، فتسلت عنه وأولادها بالقعود في الإيوان، والتفرج على البركة والأشجار والتمتع بالنسمات العليلة، تنفح عبق الأزهار.

ثم نعس الأولاد فحملت كل واحد إلى سرير، وغطته بأفخر الأغطية، واطمأنت عليه، ثم قعدت وحدها تنتظر زوجها، ولما تأخّر، وغلبها النعاس، قصدت مخدعها، فإذا سريرها من خشب ساج، وإذا كلتها من لؤلؤ وحرير، وإذا فراشها من دمقس الشام، تفوح في غرفتها الأطايب والبخور، وما هي إلا برهة حتى غلبها النعاس، فنامت.

ولم تكد تغفى، حتى سمعت صوتاً أجش، غريباً يخيف، يهتف بها سائلاً:"أقوم؟" فلم تجب، فتكرر السؤال، بصوت راعب: "أقوم"؟ فلم ترد، فتكرر ثالثة: "أقوم"؟، وعمّ الصمت، وعادت إلى النوم.

ثم استيقظت في الصباح، على صوت الأطيار، وقد تسلل النور من خلال نافذتها، رقيقاً هادئاً، تلونه الستائر بأزهى الألوان، فتمطت في فراشها، ولم تنهض، وأمضت فترة الضحى مسترخية، ناعمة بالدفء والنعومة والطيب، حتى غمر نور الشمس الزجاج، فنهضت وأعدت لأولادها الفطور، وأخذت تمضي معهم الساعات في تفرج على الغرف، والتسلي باللعب في باحة الدار، ثم أعدت لهم عند

الظهر غذاء شهيّاً، وهي ناعمة مطمئنة، وإن كانت قد شغلت قليلاً على زوجها.

وفي المساء، انتظرت زوجها، وقد داخلها القلق، وساورتها الشكوك، وذكرت الصوت الأجش الغريب، وسهرت، وطال بها السهر، وقد نام الأولاد، وظلت وحدها، حتى غلبها النعاس، فلجأت إلى فراشها، ونامت، وإذا الصوت الأجش الغريب، الذي سألها في ليلة أمس، يسألها الليلة السؤال نفسه، ثلاث مرات، من غير أن تجيب، وقد فزعت فزعاً، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى النوم.

وأمضت اليوم الثالث، وهي تنعم بما هي فيه من أسباب النعيم، ولكنها شغلت على زوجها وقلقت، ولما كان المساء، ذكرت ذلك الصوت، وفكرت، فحسبت أنه رجل علم بغياب زوجها، فهو يريد بها أذى، فملكت نفسها وعزمت على تحدّيه، فعمدت إلى هراوة غليظة، جعلتها إلى جانبها في السرير، وأمسكت بها، بحيث تستطيع أن تهوى بها على مصدر الصوت، ثم أغمضت عينيها، وباتت تنتظر الصوت، وقلبها يخفق بشدة، ويدها تقبض على الهراوة، بقوة.

وطرق سمعها الصوت، أجش غريباً يخيف:"أقوم"؟ فلم تتحرك، وشدت يدها على الهراوة، وسألها ثانية: "أقوم"؟ وحبست أنفاسها، فسألها ثانية:"أقوم؟" وطوحت بالهراوة بقوة، مغمضة العينين، تجاه الصوت، فاصطدمت بجسد صلد،

ثم سمعت صوت شيء ثقيل، يقع على الأرض.

فقالت تحدث نفسها: "لقد قتلته"، ثم نهضت بهدوء، ونزلت من السرير، وإذا عمود طويل، ممدد على الأرض، فدنت منه، فإذا هو أصفر اللون، فمالت عليه، بخوف، ثم جسّته، فإذا هو صلد، رطب، له بريق، فتملت فيه، وتأكدت منه، فإذا هو ذهب، وعندئذٍ أدركت سر الدار، فهي مسكونة بالعفاريت، عافها أهلها، وهم راغبون في بيعها، بمافيها، بأبخس الأثمان، وما العفاريت في الحقيقة إلا كنز مرصود لصاحبه، وهي صاحبة هذا الكنز، كما أدركت سرّ غياب زوجها، فهو ينتظر مضي الأيام السبعة، كي يعيدها إلى الدار القديمة،ويرد المفتاح إلى أصحابه، وما عليها هي إذن غير الانتظار، كي تكسر قطعة من عمود الذهب، لتدفع ثمن الدار، وماكان منها إلا أن عمدت إلى ملاءة الفراش، فجذبتها، وغطت بها العمود، وأوت إلى الفراش، ونامت فيه إلى الصباح.

وأخذت تمضي الأيام التالية في سعادة ونعيم، وهي وأبناؤها، تمتع نفسها بما كانت تحلم به، وتتمناه، بل بما هو أكثر مما كانت تحلم به أو تتمناه.

وفي صباح اليوم الثامن حضر زوجها، فاستقبلته بترحيب كبير، فأبدى تجهماً وأسفاً، ثم رجاها أن تتهيأ والأولاد لمغادرة الدار، وأخذ يشرح لها حقيقة الدار، وهي تصغي إليه بصبر كبير، ثم ذكرها بحالهم، وبماهم عليه

من فقر، وعاتبها في طلبها أن يشتري لها عقداً، كما لامها في تصديقها وعده، ثم اعتذر لها، وأكد لها أنه من الممكن أن يعيشوا في الفقر، بسعادة وهناءة، إن هم قنعوا بماهم فيه، ولم يتطلعوا إلى ماعند الآخرين.

وكانت الزوجة ماتزال تتحمل الحديث الطويل، بصبر، حتى لم يبق لدى الزوج شيء يقوله، وعندئذٍ قادته إلى مخدعها، ثم وقفت به أمام العمود المغطى، وطلبت منه أن يكشف عنه الغطاء، فتردد، ثم فعل، فإذا هو أمام عمود من الذهب، فدهش لما رأى، فروت له ماكان، ثم طلبت منه أن يكسر من العمود قطعة، ليمضي بها إلى السوق، فيبيعها، ليدفع لأصحاب الدار ثمنها.

ففرح الزوج بما رأى، وهنأ زوجته، وبارك لها في صبرها، وقد أدرك أن الأسرة قد ودعت عهد الفقر والبؤس والحرمان، وأنها دخلت في حياة السعادة والهناءة والنعيم.

ولما حمل الزوج قطعة من الذهب، وهم بالمضي بها إلى السوق، نادته زوجته، وهو في الباب، فالتفت إليها يسألها عما تريد، فقالت له: "لا تنسَ أن تشتري لي العقد الذي وعدتني به"، فضحك وقال لها: "سأشتري العقد والأساور والخلاخيل، وأنت لا تنسِ دعوة جاراتك إلى زيارتك، في الدار الجديدة"، ثم خرج، وأغلق الباب وراءه.

تعليق:

تعبر الحكاية عن حلم الفقراء بالخلاص من الفقر،

وهو محض حلم، لا يحمل شيئاً من الوعي بالفقر والإدراك لأسبابه ومعرفة سبل الخلاص الواقعية. فالحكاية تتوهم الخلاص في شكل ساخر وأهم عماده الحظ والسحر والجن، وليس الفعل الواقعي الصحيح.

والحكاية تجمع الوهم الجميل، والخيال الخصيب، إلى السخرية المرة، والألم الفاجع، فتصور حرمان المرأة من أسباب المتعة والزينة والحياة الرغدة، ثم تصورها وهي تنعم بأقصى أشكال المتع من طعام وشراب وسكن وفراش وأثاث ورياش وحرير وذهب محققة أبعد أشكال الوهم والحلم.

والحكاية تؤكد عدة قيم في المرأة، فهي صابرة على فقرها، وهي شجاعة في مواجهة المجهول، وهي حكيمة في تصرفها، وهي ذات حظ جميل، ولكنها في الوقت نفسه تصورها جاهلة بواقعها تحلم بالعقود والحلي والأساور متناسية فقر زوجها.

وهكذا فالحكاية ترد الغنى ووفرة المال إلى الحظ والسحر والجن، وتنسى استغلال الأغنياء وسيطرتهم على الأموال وتحكمهم في الأسواق والأسعار والأجور.

والحكاية تقوم على بنية ثلاثية تتكرر في كثير من الحكايات كما تقوم على فكرة الدار المسكونة بالجن والعفاريت، والكنز المرصود لصاحبه.

❐❖❐

الأخوات الثلاث

كان في أحد البلاد ملك شاب، وسيم الطلعة، قوي الساعد، ولكنه سريع الغضب، حاد الانفعال، وذات يوم أراد أن يتعرف على أحوال الناس، فأمر ألا يضاء في الليل مصباح، وخرج مع الوزير، متنكراً وبدأ يدور في الأحياء، يتنصت على الأقوال، من وراء الأبواب، ولفت نظره ضوء بيت في طرف البلدة، فمضى إليه، حتى إذا بلغه وقف تحت شباكه المضاء، وأخذ يصيخ السمع إلى مايدور في داخله، وهو في أشد الغضب لمخالفة أصحاب البيت أمره، في إضاءة المصباح.

وكان في البيت ثلاث أخوات، صبايا، فقيرات، يعملن في غزل القطن، من أجل تأمين لقمة العيش، فقد توفي عنهن والدهن، ولم يترك لهن من المال شيئاً، ولذلك أضأن المصباح، ليعملن، مخالفات أمر الملك، وبينما كان الملك يصغي إلى مايدور في بيتهن، تحت الشباك، كن يتحدثن ويتمازحن ولقد تأوهت الكبرى منهن، وقالت:

– لو يتزوجني الفران عند الملك، لشبعت من الخبز.

ثم تأوهت الوسطى، وقالت:

– آه لو يتزوجني اللحام عند الملك، لشبعت من اللحم.

فضحكت الصغرى، ساخرة منهن، وقالت باعتداد:

– أنا، والله، لا أتزوج إلا الملك الشاب، أضربه على خده، فيدير لقدمي القبقاب.

ولما سمع الملك قولها، أخذه الغضب، وهم باقتحام الباب، والدخول عليهن، ولكن الوزير طيب نفسه،ورجاه أن ينتظر إلى الصباح، ثم عرض عليه أن يرسل وراءهن، لينظر في الغد في أمرهن، وعندئذ طلب الملك من الوزير أن يضع على الباب علامة ليستدل بها الجند على البيت.

وفي صباح اليوم التالي، أحضر الجند الأخوات الثلاث، فأمرالملك أن يدخلن عليه واحدة واحدة، بادئاً بالكبرى، وكانت أمه حاضرة في مجلسه، فلما رأتها دهشت لجمالها، وتمنتها زوجة لابنها الملك الشاب، على الرغم من مظهرها الزري، وثيابها البالية، ولكن أملها خاب، فلقد سأل الفتاة عن أمنيتها، فصرحت أنها تتمنى أن يزوجها من الفرّان، الذي يعمل في قصره، فأمر لها بذلك، وخرجت محملة بالهدايا.

ثم دخلت عليه الوسطى، فأعجبت الأم بجمالها

الإعجاب كله، على الرغم من مظهرها الدال على فقرها، وتمنتها زوجة لابنها، ولكن أملها خاب، حين سمعتها تتمنى من الملك أن يزوجها من اللحام في قصره، ولقد أجاب الملك طلبها، وأمر لها بذلك، فخرجت محملة بالهدايا.

وأخيراً دخلت الصغرى، فبهتت الأم أمام جمالها الفتان، وعزمت أن تتخذها لابنها زوجة، أياً كانت أمنيتها، ثم قوى عزمها حين سمعتها تجيب الملك بجرأة يشوبها الخفر والحياء، ولا تخلومن دلال ودلع:

- أنا لا أتزوج إلا الملك الشاب، أضربه على خدّه، فيدير لقدمي القبقاب.

ولم يكد الملك يسمع قولها، حتى أمر السياف بضرب عنقها، وقد طاش صوابه، وثار غضبه، وهم بها السياف، ولكن الأم تدخلت، ورجت ابنها أن يمهل الفتاة، فهي صغيرة لا تعقل، فلعلها تراجع نفسها، وتغير قولها، فإن لم تفعل، فليقطع عندئذ رأسها، فأمهلها الملك ثلاثة أيام، ثم توسلت إليه أمه أن يسمح للفتاة أن تقيم عندها، الأيام الثلاثة، فاستجاب الملك لطلب أمه، ومنحها ماسألت.

وكانت الأم قد أعجبت بالصغرى إعجاباً فاق إعجابها بشقيقتيها، فأخذتها إلى غرفتها، وأمرت بها الخدم، فأخذت إلى الحمام، فغسلت، وخرجت ترتدي أبهى الثياب، وأفخرها،

تفوح منها روائح العطور، وهي تتخطر في مشيتها، رشيقة، فاتنة، تحلّي جيدها أغلى الجواهر، لو رأتها أختها لما عرفتها، ولظنتها إحدى أميرات القصر.

ولقد صرحت الأم لها بأنها تتمناها زوجة لابنها ولكنها أكدت لها أنها لا تستطيع أن تفعل أكثر مما فعلت، فالملك الشاب سريع الغضب، حاد الانفعال، وليس أمامها سوى ذكائها، وقدرتها على لفته إليها، وإثارة اهتمامه بها، ثم أخبرتها أن ابنها يخلو بنفسه كل يوم، قبل المساء، في شرفة القصر، فما عليها إلا أن تنزل هي إلى حديقة القصر، لتتمشى أمامه، وتبرز له.

ولما كان الأصيل نزلت الفتاة إلى حديقة القصر، ومضت تتثنى بين الزهور، كأنها إحداها، ويمر بها النسيم، فيحمل في كل الأنحاء شذاها، وهي في رشاقة حركاتها، ورقة لفتاتها، كأنها نسمة من النسمات، تمر بالأطيار، فتتغرد لها الأطيار، وتطوف بالأزهار، فتعطف عليها الأزهار.

وكان ذلك كله يجري تحت بصرالملك الشاب، وهو في شرفة القصر، ففتن بتلك الأميرة الرشيقة، فأرسل الخدم ليدعوها إليه، ولما مضى إليها الخدم، لم يعثروا لها على أثر، إذ كانت قد رجعت إلى غرفتها التي خصتها بها أم الملك، كما رجعت إلى ثيابها البالية القديمة.

وفي أصيل اليوم التالي خرجت الفتاة إلى حديقة القصر، بأبهى مما خرجت به أمس من ثياب، فتثنت بين الزهور، وتمايلت تحت الظلال، ونشرت في الأجواء أروع العطور، وشدت بأعذب الأشعار، وجرت وراء الفراشات، أرق من الفراشات.

وكان الملك الشاب في شرفة قصره، كعادته، يراها ويسمعها، وهو بها موله مفتون، لا يعرف من هي؟ ولا من تكون؟ حتى إذا أرسل وراءها الخدم، غابت عن العيون.

وفي غرفتها بشّرتها أم الملك بافتتان ابنها بها، وصارحتها بأن ابنها قد باح لها بما في قلبه من حبّ لأميرة يراها، ولا يعرف من هي، وهنأتها بما أحرزت من نجاح، ثم تمنت لها أن تحقق في اليوم الأخير، ماتتمناه لها.

وفي اليوم الثالث هيأتها الأم بأروع مما هيأتها به من قبل، فخرجت إلى حديقة القصر تتهادى في مشيتها، تسحب وراءها ذيل ثوبها الأبيض، ممشوقة القوام، دقيقة الخصر، بجيد أتلع، وشعر مرسل، تنشر حيثما مشت غيمة من عطر.

وكان الملك الشاب في شرفة القصر، ينتظر، وما إن رآها حتى ناداها، ولما رنت إليه دعاها، فلبت الدعاء، وصعدت إليه في شرفته، وجلست تحادثه وتسامره، وهو يقدم لها أشهى الفواكه، وأطيب الشراب، وقد ذهل بحلو

حديثها، عن رقيق جمالها، وهو بها موله مفتون، يقبل حيث لثمت من كأس الشراب، ويستقبل نظراتها ببوح وهيام.

ومرة كان يناولها كأس الشراب، فتعمدت إفلاتها، من غير أن تشعره بذلك، فانصب بعض الشراب على طرف ثوبها، فأسرع إلى منديله الخاص، يمسح به طرف ثوبها، فماكان منها إلا أن طلبت منه أن يسمح لها بالاحتفاظ بمنديله، فقدمه إليها هدية.

وطال بهما السمر والحديث، والأكل والشراب، حتى حل المساء، فاستأذنت منه بالانصراف، ووعدته أن تلقاه، فأبى إلا أن يودعها حتى باب الحديقة، ومضى يهبط معها على درج القصر، وبينما كانا يهبطان عليه معاً، افتعلت زلة القدم، من غير أن تشعره بذلك، فسقط قبقابها من قدمها ووقع إلى أسفل الدرج، فأسرع الملك إليه، فالتقطه، ثم صعد إليها، وانحنى ووضعه أمام قدمها الصغيرة، مسحت على خده الناعم الأسيل، بأناملها البضة الرقيقة، فتناولها بين يديه.

وأمام الباب، كان الوداع.

ولما كان الصباح، عقد الملك مجلسه، ودعا إليه الفتاة، فدخلت عليه، مع الأم، في هيئتها الأولى، وهي الفقيرة، التي كانت تغزل القطن، فلما سألها عن أمنيتها،

أعادت عليه الجواب بأن تتزوج الملك الشاب، تضربه على خده فيدير لقدمها القبقاب، فغضب الملك وأعاد عليها السؤال، فأعادت عليه الجواب نفسه، وعندئذ ثار ثائره، وأمر السياف أن يضرب عنقها على الفور.

ولكن الملك فوجئ بها وهي ترفع بأناملها البضة الرقيقة، منديله الخاص، وماتزال به آثار من بقع الشراب، فدهش الملك وسألها:

– ماهذا.؟

فأجابت: "أنا التي أحضرت لها يوم أمس، من أسفل الدرج، القبقاب، وأنا التي مسحت على خدك بأناملي".

فأسرع إليها الملك، يعانقها، ويضمها إليه، على مرأى من الجميع، ثم التفت إلى أمه، فشكر لها حسن تدبيرها، وأعلن في المملكة عزمه على الزواج من تلك الفتاة، فأقيمت في المملكة الأفراح، وقرب الملك إليه الفران واللحام، وجعلهما من خالص ندمائه، وكبار مرافقيه، وأفرد لكل منهما جناحاً في قصره.

تعليق:

حكاية جميلة، أشبه بالفانتازيا، تحلّق بالمتلّقي إلى عوالم من الفن والجمال والذكاء، تتحقق فيها الآمال والأمنيات بيسر ورخاء، كما في الأحلام.

وهي كما يبدو ذات هدف تربوي، ولعلها على الأغلب

موجهة إلى الفتيات، لتعلمهن الطموح إلى الزواج من أكثر الشباب فتوة وقوة، ولتعلمهن سبل الذكاء، وأساليب الإيقاع بالرجال، ولكن بالرشاقة والخفر والدلّ، وليس بالمكر أو الخبث أو الاحتيال.

والملك الشاب ههنا ليس محض ملك، إنما هو رمز للقوة والشباب، وأبعد مايمكن أن تتطلع إليه الفتاة من عزة وجاه.

والحكاية تدلّ بصورة غير مباشرة على حلم الفقيرات بالزواج من الملك والعيش في القصور، ولذلك فهي ترسم صورة لمثل تلك الحياة لتثير الخيال، وتشبع الرغبة.

❐❖❐

الفأرة والذهب

يحكّى أن ثلاث أخوات فقيرات، ماتت أمهن، فلم تترك لهن سوى المغزل، فكن يغزلن عليه القطن، من أجل أن يعشن، وكن يرسلن كل يوم أختهن الصغرى إلى السوق، لبيع ماغزلن من قطن وشراء مايحتجن من طعام.

وذات يوم ذهبت الصغرى إلى السوق، كعادتها، فرأت فيه فارة في قفص، يعرضها رجل للبيع، فأعجبت بها، وبخفة حركاتها، وزقزقتها، فاشترتها بثمن ما باعت من قطن، وحملتها إلى البيت فرحة بها، ولكنها فوجئت بأختيها تعنفانها في شرائها الفارة، وتغلظان لها في القول ثم تقدمان على طردها من البيت.

فخرجت حزينة باكية، تحمل القفص، وفيه فارتها، تنط وتزقزق فسارت على غير هدى، لا تعرف إلى أين تلجأ، فقادتها خطاها إلى قبر أمها، فقعدت في جواره، وراحت تتأمل الفارة، وماهي إلا برهة، حتى أخذتها سنة من النوم، فأغفت، ولما نهضت، وجدت فارتها قد وضعت قطعتين معدنيتين، فحملتهما، وراحت تتأملهما، ولا تعرف ماتفعل

بهما؟

وبينما هي على هذه الحالة، مر بها رجل يحمل على رأسه طبقاً فيه زبيب، ينادي لبيعه، فلما رأته، عرضت عليه القطعتين، ورجته أن يعطيها بهما قليلاً من الزبيب، فلما رأى الرجل القطعتين فرح بهما، فتلقفهما، وناولها الطبق كله، ثم لما عرف أمرها، خلع عباءته، وغطاها بها، ووعدها أن يأتيها بخيمة تنصبها على قبر أمها، لتنام فيها، واعتذر لها لعدم قدرته على إيوائها، لأنه مثلها مشرد، ليس له بيت.

ولماكان اليوم التالي وضعت الفارة قطعتين أخريين، فأعطتهما الفتاة للرجل، فجاءها بطعام وشراب وكساء وفراش، صار دأب الرجل، يمر بها كل يوم، مساء، فيأخذ القطعتين، اللتين تضعهما الفارة، ويزود الفتاة بكل ماتحتاجه، وهي لا تعلم أن القطعتين المعدنيتين، هما ليرتان ذهبيتان.

وذات يوم مرّ موكب ابن السلطان بالمقبرة، فرأى الخيمة منصوبة فيها، فعجب لأمرها، وأرسل الجند لاستطلاعها، فعاد إليه بالفتاة والفارة، فلما سألها عن أمرها، حكت له حكايتها كاملة، وعرضت عليه القطعتين، فأخذهما منها، ومضى يتأملها، غير مصدق، ثم عرض عليها أن يصحبها إلى قصره، لتقيم عنده، فترددت في أوّل الأمر، ثم قبلت.

وفي القصر، أفرد لها ابن السلطان جناحاً، وخصها بالخدم، يسهرون على راحتها، ويوفرون لها أسباب العيش الهنيء، واستمرت فارتها تضع لها كل يوم قطعتين من الذهب، يأخذهما ابن السلطان.

وكانت الحالة قد تردّت بأختيها، فباعتا المغزل، وأكلتا بثمنه أياماً، ثم اضطرتا إلى سؤال الناس لقمة العيش، فكانتا تطوفان في الطرقات تطلبان من الناس العطاء، وتعودان إلى البيت، في المساء، لتجتمعا بعد تشرد، وتقتسما ما التقطتا.

وذات يوم كانت الصغرى في نافذة القصر، تتفرج على البلد والناس، وتتذكر شقيقتيها، رأت بائسة فقيرة، تتجول بين الناس، وتمد يدها بالسؤال، فراحت تتأملها، حتى إذا دنت من القصر، عرفت فيها أختها، فأسرعت إلى الخدم تأمرهم بإحضارها.

ولما دخلت عليها أختها، رقت لحالها، وحزنت لما صارت إليه، فأعطتها بعض الثياب، وحثتها على المضي لإحضار أختها، كي تقيما معها، في جناحها بالقصر.

ولما حضرت أختاها، وشاهدتا ماتنعم به أختهما من عزة ورفاهية، داخلهما الحسد، وعشش في قلبيهما البغض للفارة، والحقد على أختهما، التي نالها من الحظ، بسبب الفأرة، مالم ينلهما، فأضمرتا لها الأذى، ولكنهما أظهرتا

الحب والوداد.

ومرت عليهما أيام كانتا تنعمان فيها بما تغدقه عليهما الأخت من خيرات، وبما ترفل به ثلاثتهن من نعيم، ولكنهما كانتا تتحينان الفرص، كي تغدرا بها، وذات يوم سافر ابن السلطان إلى بلد قريب في زيارة قصيرة، فاغتنمت الأختان الفرصة، واقترحتا عليها أن يذهبن إلى الحمام، فوافقت.

ومضت الأخوات إلى الحمام، فأمضين فيه وقتاً، ثم ادّعت إحدى الأختين أنها نسيت في البيت شيئاً، وأن عليها أن تذهب لإحضاره، فخرجت من الحمام، وأسرعت إلى القصر، ثم عمدت إلى الفأرة، فخنقتها، ثم رجعت إلى الحمام.

ولما خرجت الأخوات من الحمام، ورجعن إلى القصر، أسرعت الصغرى إلى الفارة تطمئن عليها، فوجدتها مخنوقة، فعرفت على الفور أن أختها هي التي قامت بخنقها، فحزنت، وبكت بكاءً مراً، وعمدت إلى ركن في حديقة القصر، فحفرت فيه حفرة، دفنت فيه الفارة، والتقطت من الأرض غصناً يابساً، فغرسته فوق قبرها علامة، حتى يرجع ابن السلطان، فيراها.

ولبثت بضعة أيام تكظم غيظها، وتخفي حزنها أمام أختيها، حتى رجع ابن السلطان، فأخبرته بما كان، فزود

أختيها بالمال والثياب، وطلب منهما أن تغادرا القصر، على أن تزورا أختهما حين ترغبان.

وأخذت الأخت بعد ذهابهما تزور كل يوم قبر فارتها وتبكيها بدموع غزيرة، وذات يوم فوجئت بالغصن اليابس الذي غرسته فوق القبر، علامة، قد بزغت فيه براعم صغيرة، وماهي إلا بضعة أيام حتى أورق الغصن وأزهر، ففرحت به فرحاً، ودعت ابن السلطان إلى زيارته ومشاهدته، فلبى دعوتها، ولما رأى الغصن، أعجب به الإعجاب كله، وبينما هو يتأمله، هبت نسمة خفيفة، فتمايل الغصن، وسقطت منه بضع زهرات، التقطها ابن السلطان، فإذا هي لؤلؤ ومرجان، فأخذ يقلبها، ويتأمل فيها، فرحاً، وهنأ الصغرى بما تحظى به.

ومنذئذ أخذ ابن السلطان يزور الغصن كل يوم، وقت الأصيل، فيقعد أمامه بعض الوقت، ويمضي في تأمله، مستروحاً بأطيب النسمات، والفتاة تطوف بين يديه وتقدم له أشهى الفواكه، وأطيب الشراب، حتى إذا هم بالقيام، دنت من الغصن، وعطفت على أعواده وأزهاره، تداعبها بيدها، وتقول لها:

هزّي لولو ومرجان

حتى يفرح ابن السلطان

ويميل الغصن، فتتساقط بضع زهرات، يلتقطها ابن

السلطان، فإذا هي لؤلؤ ومرجان.

وهكذا عادت الفرحة إلى قلب الصغرى، وسعدت بوفاء فارتها لها، وارتفعت مكانتها عند ابن السلطان، فقربها منه، فهنئت برغد الأيام، ولكنها ذكرت ثانية أختيها ورقت لحالهما، وتمنت لو تستطيع الوصول إليهما، وظلت ترسل الخدم في السؤال عنهما أياماً، ولكنها لم تفلح في العثور عليهما.

ولكن ذات يوم فوجئت بإحدى أختيها، تزورها، فرحبت بها، وفرحت لزيارتها، فأكرمت وفادتها، وقدمت لها الطعام والثياب، وسألتها عن أختها، فأخبرتها أنها مريضة، لا تستطيع الحراك، وبالغت في وصف مرضها، فتألمت لحالها، وأغدقت عليها مما عندها، ثانية، من طعام وشراب، ثم رافقتها إلى الباب تودعها، وقبل أن تخرج الأخت سألتها إن كانت ماتزال تزور قبر الفارة، كل يوم، وتبكيها، كعادتها، وكانت تسخر منها، فلم تنتبه إلى قصدها، ومضت تحدثها عن الغصن الذي غرسته فوق قبرها، وعن أزهاره، وبما يتساقط منه كل يوم، من لؤلؤ ومرجان، ودعتها إلى رؤيته، فوعدتها أن يكون ذلك في زيارة أخرى.

وأخذت الأخت تتردد عليها بين الحين والحين، فتظهر لها الحب والوداد، وإن كانت تضمر لها الحسد والبغض، وكانت الصغرى تستقبلها وتفرح بها، وفي كل يوم تصحبها

إلى الغصن لتزوره، وتراه، ولما زارتها الأخت التي كانت مريضة، على زعم الأخت الثانية، فرحت بها، وأكرمتها وكانت هي التي خنقت الفارة، فلما دعتها إلى زيارة الغصن ورؤيته، ترددت، ثم قبلت، ومضت، ولما مثلت أمامه، أخذ منها الحقد كل مأخذ، وودت لو تقلعه، ولكنها صبرت نفسها.

ومرة زارت الأختان شقيقتهما الصغرى، ثم قصد ثلاثتهن الغصن للفرجة عليه، فغافلت إحدى الأختين شقيقتهما، على حين شغلتها، الأخرى بأمر ما، ثم عمدت إلى قليل من الملح، كانت تحمله تحت ثوبها، فرشته فوق الغصن، ثم ودعت الأختان شقيقتهما، وخرجتا، وهما تعدانها بأن تزوراها باستمرار.

ولما كان أصيل ذلك اليوم نزل ابن السلطان، كعادته، إلى حديقة القصر، ليتأمل الغصن، وإذا به يفاجأ بالفتاة أمام الغصن تبكي، وتلطم خديها، فدنا منها، وضمها إلى صدره، وأخذ يواسيها، ثم أخبرها أن الجاني لن يفلت من العقاب، ولما سألها فيمن تشك، أكدت له أنها لا تشك في غير أختيها، ولكنها تأسف إذ لا تعرف أين هما؟ ولا أين تقيمان؟ فأكد لها أنه قادر على إحضارهما على الفور، فقد شك فيهما من قبل، وأرسل وراءهما أحد الجند، ليتعرف موضع إقامتهما، وأنه ليعرفه، ثم سألها إن كانت توافق على عقابهما، فأجابت أن نعم.

وفي اليوم التالي مثلت الشقيقتان أمام ابن السلطان، وإلى جانبه كانت تقعد أختهما الصغرى، فتميزتا من الغيظ وودتا لو شقت الأرض وابتلعتهما، ولما سألهما ابن السلطان عن سبب فعلتهما، أنكرتا أول الأمر، ثم لم تلبثا أن أقرتا، واعترفتا بما تحملانه لأختهما من بغض وحسد، فلما سمعت الصغرى كلامهما حزنت أشد الحزن، وخرجت وقد تركتهما لابن السلطان، يوقع بهما مايشاء من عقاب.

وعندئذٍ أمر ابن السلطان بتعطيش الخيول وتجويع الكلاب، ثلاثة أيام، ثم عمد إلى الأختين فربط كل واحدة بذيل فرس، وأطلق الفرسين يجران الأختين، ثم أطلق في أثريهما الكلاب.

ورجع إلى الصغرى، فأعلن خطبته لها، فأعدت، وجهزت، ثم أقيمت الأفراح، فتزوجها، وغدت أميرة القصر، وعاشت مع ابن السلطان في هناءة وسرور.

تعليق:

تدل الحكاية على فقر العامة وسوء حالهم وجهلهم وتعلقهم بالأوهام والأحلام لحلّ مشكلاتهم، كما تدل على توهمهم الخلاص متحققاً في الحظ أو السحر، وهو خلاص لا يتحقق في النهاية إلا بفضل قوة كبيرة تتمثل في الملك القادر على فعل كل شيء، ويظل قصر الملك وأسلوب العيش فيه هو النمط المتصور للخلاص المنشود.

ويزداد الأمر سوءاً حين يغيب الوعي، فيكون الحسد والبغض، فيكيد الأخ لأخيه، وتنقم الأخت على أختها، ومرجع ذلك إلى توهم الخلاص في الحظ ومساعدة الملك، وليس في الكدح والعمل الجاد وتحدي قوى الظلم والاستبداد.

إن الأخت الصغرى تحقق خلاصها الفردي المحدود بفضل مصادفة سحرية غريبة، متمثلة في الفأرة التي تضع كل يوم ليرتين ذهبيتين، وبمساعدة مباشرة من الملك، لا لأجل الأخت الصغرى نفسها، وإنما لأجل الليرتين الذهبيتين اللتين تضعهما الفأرة.

ولذلك يبدو طبيعياً كيد الأختين لأختهما الصغرى وحسدهما، فهما تكدّان، وتعملان، وتتعبان في غزل القطن، ولا تحققان خلاصهما، بسبب مجتمع ظالم، لا يقدر الجهد ولا العمل.

إن الحكاية تؤكد حلم العامة بعيش القصور، كما تؤكد غياب وعيهم، وتوهمهم أن لا خلاص إلا بالحظ، أو السحر، وبتدخل الملك نفسه.

ومهما يكن من أمر، فالحكاية جميلة، وهي تدلّ على خيال واسع، ولعل أجمل مافيها الفأرة التي تضع ليرتين ذهبيتين، وتحولها بعد خنقها إلى شجيرة تثمر اللؤلؤ والمرجان، وتبدو هذه الفأرة رمزاً للحظ أو السحر.

❒❖❒

حكاية الصديق

كان الابن الوحيد لأبويه، فعنيا بتربيته، والسهر عليه، والاهتمام به، حتى أصبح رجلاً، فسعيا في تزويجه، وبعد بحث طويل عن فتاة تليق به، اهتدت الأم إلى بنت من إحدى قريباتها، زوجته إياها، وأملت في هذه البنت أن يسعد الابن بها.

ومرت الأيام الأولى من الزواج في فرح وسرور، اشترك فيه الأهل والأقارب والأصحاب، ولكن لم تمضِ بضعة أيام، بعد أفراح الزواج، حتى تكشفت الحقائق وبان الخلاف.

فالعروس تنام إلى الظهر، ولا تساعد حماتها في شيء، فلا تخرج من غرفتها إلا لتناول الطعام، وقضاء الحاجة، ثم تعود إليها، لتحبس نفسها فيها، من غير أن تشارك حماتها في إعداد الطعام، أو تهيئة البيت.

ولما كانت الأم تحب ابنها، فقد رضيت بهذا الوضع، وصبرت، مؤملة أن يحين يوم تغدو فيه كنتها أفضل مما

هي عليه، ولكن الأيام كانت تكشف عن ازدياد الكنة عزلة، وانصرافاً عن عمها وحماتها، وكأنها لا تعرف في البيت أحد سوى زوجها.

وكان الابن لا يطلع على شيء مما يجري في البيت، فهو يخرج إلى عمله في الصباح، ولا يعود إلا في المساء، وأمه لا تحدثه بشيء.

وذات يوم خرج العم كعادته إلى السوق، فاشترى شِوَاء، ورجع إلى البيت، فأخذت الحماة تعمل في غسله وتنظيفه، ولما صار الظهر، خرج العم إلى المسجد للصلاة، فرأت الحماة أن تنادي كنتها لتساعدها في تهيئة الشواء، وتتسلى معها.

فنادت الحماة الكنّة، مرة، ومرتين، وثلاثاً، فلم تسمع جواباً، فقلقت على كنتها، فدقت عليها باب الغرفة، وبعد طول انتظار، خرجت لها الكنة، في قميص النوم، وهي تفرك عينيها، ثم تمطت طويلاً، وتثاءبت، وقالت بلهجة ممطوطة:

- آوه، شيء مزعج، ماعرفت كيف أنام

فعجبت الحماة، وسألتها:

- خير يابنتي، ماذا أزعجك؟

فتمطت الكنة، وقالت:

- كنت في حلم مزعج.

فسألت الحماة بقلق.

- خير، خير يا ابنتي، احكي لي.

فتثاءبت الكنة، وقالت:

كنت شايفتك دبّة

طالعة من القبة

وأربعة شايلينك

ع التربة

فبهتت الحماة وذهلت، ولم تجد ماتقول.

ورجعت إلى المطبخ، وقد اسودت الدنيا في وجهها، لا تعرف ماذا تفعل، إلا أنها ملكت نفسها، وكتمت غضبها، ومضت تتابع تهيئة الشواء.

وبعد قليل رجع العم من الصلاة، فوجد الحماة تعمل وحدها، فسألها أن تنادي الكنة، لتساعدها، فوارت غضبها، وأخفت حزنها، وأكدت له أنها تريد أن ترتاح في غرفتها، ولا تريد أن تزعجها، فأنكر عليها العم ذلك، وأبدى رغبته في أن يرى كنته تساعدها في العمل، ففي ذلك مايسره، ومالبث أن ناداها، مرة ومرتين، فلم يسمع جواباً، فقلق وطلب من الحماة أن تذهب لتنظر مابها، ولكن الحماة تلكأت، وداورت، فمضى هو بنفسه إلى غرفتها، يدق عليها الباب، وحاولت الحماة ثنيه، ومنعه، ولكنه كان مصمماً، فقد شغل

باله، ومضى يدق الباب.

وبعد انتظار، خرجت له الكنة في قميص النوم، تفرك عينيها وتتثاءب وتتمطى وتبدي انزعاجاً، وتتأوه فشغل العم، وقلق، وسألها:

- خير، يا ابنتي.

فأجابته بجفاء:

- أف، لا أعرف كيف أنام.

وأراد العم الكلام فقاطعته قائلة:

- كنت في منام، ولكن كل لحظة يأتي الإزعاج.

فعجب العم، وسألها:

- خير يا ابنتي، احكي لي.

فتمطت، وتثاءبت، وقالت بصوت يغلب عليه القرف والنعاس:

- كنت شايفتك خنزير.

معلق بجنزير

وأربعة شايلينك

ع البيت الصغير

فصعق العم، وأظلمت الدنيا في عينيه، ولم يعرف ماذا يفعل، ولكنه فضل الصمت على الفضيحة، ورجع إلى

الحماة، يواري ألمه، كي لا يخجل، ولكن الحماة جابهته بالحقيقة، فاعترف، وباح لها بما قالته كنته له، فاعترفت هي بدورها بماكان معها، ثم تشاورا في الأمر، فعزما على ألا يقولا لابنهما شيئاً.

لما حضر الابن في المساء، اجتمع الأربعة على المائدة، وتناولوا جميعم الطعام، وإن كان الأب والأم لم يستطيعا في الحقيقة تناول شيء، غير بضع لقيمات، وقد لاحظ الابن ذلك في والديه، فصمت، ثم خلا بأبيه، فسأله، وألح عليه في السؤال، فحكى له الأب ماكان.

وعندئذٍ طلب الولد من أمه أن تضع له قليلاً من الشواء في رغيف، ففعلت، فجعله في صرة ثم حمله إلى غرفته، وطلب من زوجته أن تتهيأ لزيارة أهلها، فأدركت على الفور أن في الأمر شيئاً ما، فاعتذرت، وأكدت أنها ليست في شوق لأهلها، وادعت التوعك والمرض، ولكن الزوج أصر، فلم تجد بداً من الانصياع، فخرجت معه لزيارة أهلها.

واستقبل العم صهره بالترحيب، وقدم الصهر لعمه ماحمله من شواء، فشكره، ثم اجتمعت الأسرة كلها، العم والحماة، والصهر، والزوجة، وأخواتها، وإخوتها، وتنوعت الأحاديث واختلفت الموضوعات، حتى وجد الصهر وقتاً مناسباً للحديث، فتحدث، وهو يقول:

– كنت اليوم مع أحد أصحابي، وقد حكى لي ماجرى مع أمه وزوجته.. ثم سرد الصهر القصة من أولها إلى آخرها، ولكنه نسبها إلى صديق له، وكان يتبسط في الحديث، ويتوسع في التفاصيل، وزوجته تضيق به، وتتململ من حديثه، وتشكو من طول السهرة، وتدعي التوعك، وتظهر النعاس، وتطلب العودة إلى البيت، على حين كان العم يستنكر فعل تلك المرأة، الطائشة، اللعوب، ويزري بها، وينعتها بأبشع النعوت، ويلحق بها الشتائم، وبأبويها اللذين لم يحسنا تربيتها، وهو يظهر غضباً وانفعالاً شديدين، كما كانت الحماة لا تفتأ تشيد ببناتها، وتثني عليهن، وتذكر زواجهن الموفق، وأخلاصهن لأزواجهن، والزوجة خلال ذلك تنفعل وتغتاظ.

حتى إذا انتهى الصهر من حكايته سأل العم قائلاً:"مارأيك ياعمي بمثل هذه الزوجة؟". فنهض العم، وأقسم الإيمان المغلظة أن مثل تلك الزوجة لا تستحق غير الطلاق، ولو أنها كانت ابنته أو زوجته أو كنته لطلقها على الفور.

وعندئذٍ قال الصهر بهدوء:"هي ابنتك وهي طالق"، فصعق العم، وذهل، ولكنه نفى أن تكون ابنته كذلك، وثارت الأم، وثارت الأخوات، وأكد الجميع أن ابنتهم ليست كذلك، ولكن الصهر أكد لهم أن تلك الحكاية هي حكايته هو، لا حكاية الصديق، وماعليهم إلا أن يسألوا ابنتهم.

ونظر الجميع إلى ابنتهم، فصمتت، ثم انفجرت باكية، وركضت إلى زوجها تقبل يديه، وتعتذر له، ولكنه أكد أنه لن يقبل بغير حكم أبيها فيها، وحكمه فيها قد صدر، وهي لابد طالق، وقبل الأهل بطلاقها وتم التفريق بينهما.

تعليق:

تكشف الحكاية بعض حالات الزواج وانتهاءها بالتفريق، والسبب الظاهر هو كسل الزوجة وعدم قيامها بأعمال البيت وسوء معاملتها لحماتها وحميها، ولكن السبب الخفي هو عدم تلاؤمها مع حماتها وحميها، ومرجع ذلك إلى عيشهم جميعاً في سكن واحد.

إن لدى كل زوجة رغبة في أن تكون وحدها سيدة البيت، ولا قبل بوجود من ينافسها في بيتها وزوجها ومعيشتها، وهي حين تعيش مع حماتها وحميها في سكن واحد تضطر إما إلى التنازل والخضوع والتخلي عن بعض سيادتها على البيت وإما إلى اصطناع الشقاق والخصام والنكد، مما قد ينتهي بها إلى الطلاق.

والحكاية تحمّل الزوجة وحدها المسؤولية عن النهاية المفجعة، وتقدّمها في صورة سلبية مدانة، لتبرّر الطلاق، ولا تشير في شيء إلى مسؤولية أي من الزوج أو أبوية.

ولكأن الحكاية موجهة إلى البنت قبل الزواج، كي تؤكد لها ضرورة التعامل مع حماتها وحميها بما هو لائق، خلافاً لما تعاملت به تلك المرأة التي في الحكاية.

ولكأن الحكاية تخوّف البنت من مصير الزواج المخفق، كما ترسم صورة منفّرة للزوجة، لردع البنت سلفاً، قبل دخولها حياة الزوجية.

وثمة ذكاء واضح في عرض الزوج مشكلته على حميه، وهوعرض غير مباشر، عماده الرمز والتلميح،

ويحمل كل المبررات الاجتماعية لاتخاذ قرار الطلاق.

والحكاية قوية البناء محبوكة بعناية، والشخصيات فيها مرسومة بدقة، وإن كانت أحادية الجانب، ولعل في هذا سرّ نجاح الحكاية، وقوة تأثيرها.

ويلاحظ أن الزوج في الحكاية هو الولد الوحيد لأبويه، مما يدل على إثارة الحكاية مشكلة مثل هذا الولد، الذي يعلق أبواه كل حياتهما عليه، ويكون أملهما الوحيد، ويزيد هذا من منافستهما للزوجة، كما يزيد بالنتيجة تفاقم المشكلة.

وفي هذا أيضاً مايؤكد دقة الحكاية في اختيارها العناصر والجزئيات، وقوة ربط بعضها ببعض، لتقود إلى نتيجة منطقية.

❑❖❑

حماة من خشب

يحكى أن شاباً عزباً أنهى دراسته القانون، وتسلّم منصب القضاء، في بلدة بعيدة عن بلدته، وكان تعيينه في القضاء الشرعي، فكان يقعد للنظر في دعاوى الزوجات وشكاواهن على أزواجهن، وفي كل يوم تأتيه النسوة، يشكون له حماواتهن، وسوء معاملتهن، ومايكون بهن من

خرف، ومن تدخل في شؤون المنزل، ومن مضايقة ومعاندة، فيحكم للزوجات على الأزواج.

ولكنه لاحظ بعد حين أن أكثر أسباب الدعاوى التي تقدمها النساء على أزواجهن، هي الحماوات، فشك في الأمر، وقال:"لا يخلوالأمر من مبالغة"، فأخذ يتروّى في حكمه ويتريث، خشية أن يكون في رأيه شيء من الجور، وهو شاب عزب، قليل الخبرة في أمور الزوجات والحماوات، ولذلك قرر أن يجرب الأمر بنفسه، حتى يكون حكمه عن بيّنة.

وكان يتيم الأبوين، وحيداً في البلدة، لا أحد له فيها، سوى من تعرّف إليهم من الأصحاب، فطلب من هؤلاء المساعدة على الخطبة والزواج، وماهي إلا أيام حتى اهتدى إلى فتاة توسّم فيها الخير والصلاح، فقرر خطبتها، وقعد إلى والدها يحدثه، فأخبره أن له أماً عجوزاً، قد أسكنها في غرفة، خاصة في داره، وأنها لا تغادر غرفتها ألبته، فهي قعيدة، تظل أبداً أمام النافذة، تصلّي لله، وتسبّحه، وأنّه لا يكلّف زوجته من أمرها شيئاً، فهو يتكفّل أمر إطعامها حين يعود إلى البيت، ووافق الوالد على الخطبة، وعقد القران ثم صار الزفاف.

وكان الشاب قد أوصى أحد النجارين أن يصنع له دمية من خشب، على هيئة امرأة عجوز، وأن يجعل رأسها على نابض، يتيح له الحركة المستمرة، وقد حمل هذه

الدمية، ووضعها في غرفة خاصة، في داره، وجعلها تجاه النافذة، ثم وضع على رأسها ملاءة بيضاء، وجعلها في هيئة من يصلي لله، ويسبّح.

وبعد انتهاء أيام الزواج الأولى، وفي صباح يوم، قال لزوجته، قبل أن يخرج إلى عمله: هذه هي أمي، ترينها من وراء زجاج النافذة، لا تخرج إليك، ولا تذهبين إليها، وأنا أتكفّل بها حين أرجع"، فقالت له زوجته:"لا تقلق، إن أمّك مثل أمي، بل هي أغلى عندي، وإني أخدمها بعيوني "فشكر لها عواطفها، ثم تركها، وخرج.

ولما عاد في المساء، سأل زوجته عن أمه، فأجابته: "لقد سررت بها السرور كله، فوجهها يفيض تقوى وورعاً، وبركاتها تحل على الدار،وكم أتمنى لو تنزل إلي للتسلي معي"، فقال لها الزوج: "لا، دعيها لصلاتها وعبادتها"، ثم استأذنها، ومضى إلى أمه، فأمضى عندها بعض الوقت، ثم خرج.

وكان هذا دأبه، يوصي زوجته بأمه كل يوم، قبل أن يخرج، ويسألها عنها حين يعود، وكانت زوجته تمدح أمه، وتثني عليها، ولكنها شيئاً فشيئاً أخذت تضيق بها، وتتذمر، وتبدي عجبها من طول مكثها أمام النافذة، وعدم مغادرتها لموضعها، كما أنها ضاقت برأسها الذي ماتنفك تهزّه، لا تفتر ولا تتعب، وكان زوجها يجيبها بما يقنعها، فتصمت مكرهة.

وذات يوم كان الطعام الذي أعدته زوجته كثير الملح، بشكل لا يطاق، فعاتبها في ذلك، فقالت له: "لا تعاتبني، ولكن عاتب أمك، فقد نزلت هذا اليوم من غرفتها، وتدخّلت في أمر الطبخ، وهي التي وضعت الملح في الطعام، وقد قلت لها إنك لاتحب الملح الكثير في الطعام، ولكنها رفضت إلا أن تضع الملح هي بنفسها". وماكان من الزوج إلا أن وارى امتعاضه وصمت.

وفي يوم آخر، رجع إلى البيت، فوجدها لم تنته من الغسيل الذي كانت قد بدأت به قبل خروجه في الصباح، فعاتبها في ذلك، فقالت له: "إن أمك قد نزلت هذا اليوم أيضاً، وأخذت تتدخل في كل شيء، تطلب مني أن أغسل كل قطعة مرتين وثلاثاً، فتأخرت في الغسيل، وماكان من الزوج إلا أن وارى غضبه، وصمت أيضاً.

وهكذا أخذت الزوجة، كلما أخطأت في شيء، أو قصرت، تلقي السبب في ذلك على حماتها، وكانت في كل مرة ترتاح إلى ذلك وتفرح، إذ تظن أن زوجها قد صدّق ادعاءها، وأنها نجت من اللوم والعتاب، وتظن أنه يدخل على أمه فيلومها ويعاتبها.

وكانت في كل مرة تعمد إلى الكيد لحماتها، فتشير إليها بيديها ورأسها إشارات تقلدها فيها، وتريد إغاظتها، ولكنها كانت تزداد هي نفسها غضباً وغيظاً، حين ترى حماتها لا تغضب، ولا تكف عن هز رأسها، في ثبات

واستقرار.

وذات يوم رجع الزوج إلى البيت، فرأى زوجته تبكي، وتلطم وجهها، فسألها عن أمرها، فانفجرت صائحة بغضب: "أمك، أمك، انظر إليها، إنها تكيد لي، وتغيظني بهز رأسها". وحاول الزوج تهدئتها، ولكنه لم يفلح، وأصرت على الذهاب إلى أهلها، لتشكو الأمر إلى أبيها.

وماكان من الزوج إلا أن استجاب إلى طلب زوجته، فأخذها إلى أهلها، فروت لأبيها ماتعانيه من مضايقة حماتها وكيدها، وحاول الزوج الدفاع عن أمه، وتأكيد صلاحها وتقواها، وأنها لا تغادر سجادة صلاتها، ولكن الأب لم يستجب لقوله، وغضب لابنته، غضباً شديداً، ثم قال له:"إن أمك تغيظ ابنتي، وتكيد لها، وأنا لن أردها إليك إلا إذا خرجت أمك إلى بيت خاص، بعيد عن بيت ابنتي". وأخذت الزوجة تبكي وتندب، وتبالغ في الأمور، حتى إنها قالت لأبيها:"ولا أخفي عنك يا أبي أن حماتي قد أقدمت على ضربي وشدّ شعري، وتمزيق ثيابي، وهذه آثار أظافرها في جسمي". وهنا أظهر الزوج غضباً شديداً، وفزع لزوجته، وهب واقفاً، ثم قال: "والله ماكنت أعرف بمثل هذا من قبل، وأنا لا أقبل به من أمي، وأنا ذاهب الآن لقتلها والخلاص منها" ، وفتح الباب وخرج.

ولحقت به زوجته، ووالدها، فأدركاه، وهو يحمل عصاً غليظة، ويهم بالدخول بها على أمه، فتوسلوا إليه ألا يفعل،

وذكّراه بأنها أمه، وأنه قاضٍ يعرف الحلال والحرام، ولكنه بالغ في إظهار غضبه، واندفع داخلاً على أمه، فدخلا وراءه، وهوى بالعصا الغليظة على الدمية، فطار الرأس، ونفر النابض، وسقطت الملاءة، وبان الخشب.

ثم مضى بعد ذلك إلى المحكمة وأصدر حكماً بطلاق زوجته، بصفته قاضياً، ثم أعلن استقالته ، وتخليه عن القضاء، وندم على ما أصدر من قبل من أحكام، ظلم فيها أزواجاً كثيرين، حين صدق شكاوى زوجاتهم من حماواتهن.

تعليق:

حكاية طريفة، ذات بعد اجتماعي، لا تخلو من مبالغة، بقصد قوة الإقناع والتأثير.

وهي مبنية علي العداء المستحكم بين الحماة وكنتها، بسبب رغبة الزوجة، دائماً في الاستقلال بعيشها وحياتها وسكنها، وتدخل الحماة دائماً في شؤون كنتها، ولاسيما حين تشاركها السكن.

وفي الحكاية قدر غير قليل من المبالغة، لتوضيح شخصية الكنة التي تضيق ذرعاً بحماتها، وتعميق ملامحها وترسيخها، والحكاية تميل إلى تحميل الكنة المسؤولية كلها، بل تبالغ فتجعلها أسيرة الوهم، كما تدفع بها إلى الكذب، كي تدينها.

وفكرة الدمية من خشب تمثل الحماة، فكرة طريفة جداً، وهي التي منحت الحكاية تميزها وخصوصيتها، وهي لا تخلو من ذكاء.

والحكاية موجهة علي مايبدو للأزواج الشباب تحثهم على التنبه والروية واليقظة، وتضرب لهم مثلاً قوياً بشاب غرّ.

ويرجح أن تكون الحكاية من صنع حماة تأذّت من كنتها، وفاصطنعت ذلك المثل للكنة الكاذبة الواهمة المبالغة في تذمرها من حماة لا تؤذيها في شيء، وليست إلا دمية.

وثمة فكرة ثانوية تستفاد من الحكاية، وهي ضرورة خبرة الحياة وأهميتها حيث لاتنفع الدراسة وحدها، وقد بدا ذلك واضحاً في شخص القاضي الشاب.

ومهما يكن، فالحكاية تعكس واقعاً اجتماعياً متخلفاً، تشغله قضايا الحماة والكنة، وتستنفد طاقاته، وتمثل مشكلة كبيرة من مشكلاته.

❒❖❒

علبة الأضراس

يروى أن ابن أحد التجار كان والده قد أرسله في تجارة، إلى بلاد بعيدة، ليكسب رزقاً، وليتعلم أصول التجارة، ويتعرف إلى البلاد والعباد، وكان فتى شاباً، عزباً، ما إن نزل في إحدى المدن، حتى قادته خطاه إلى المبغى، ولما كان ابن التاجر، يحمل معه كيس نقود، فقد استطاع أن ينتقي أجمل العاهرات ويمضي ليلة معها، ينفق عليها، بكرم وسخاء.

يبدو أن العاهرة قد وجدت فيه بعض ماتصبو إليه، فقبلت منه كل ما أنفقه في ليلته، ولكنها رفضت أن تأخذ ما اتفقت عليه معه من أجر، وتوسلت إليه أن يعود إليها في المساء، وكان الفتى قد أعجب بها، بل فتن وسحر، فهي المرأة الأولى التي يتعرف إليها، وقد وجد فيها كل مالا يعرفه في المرأة، فوعدها أن يجيء.

ولما كان المساء، أنهى علاقاته مع التجار، وأسرع إلى المبغى، محمّلاً بالهدايا، فاستقبلته، خير استقبال،

ورحبت به، خير ترحيب، وأمضيا الليلة معاً، ولما كان الصباح قالت له ماقالته بالأمس، فأجابها على سؤالها، ولبى رغبتها.

واستمر الحال بالفتى، على هذا المنوال، أشهراً طوالاً، أصبح فيها خدين العاهرة، وقد محضته هي الحب، وإن لم تستطع أن تمحضه الوفاء، وقد عرّفته إلى كبار التجار من رواد المبغى، وساعدته في سيرورة تجارته ورواجها، وتوسطت له لدى أصحاب الخانات، حتى كبرت تجارته واتسعت، وزادت أمواله ونمت.

ولكن ذات يوم، وصله نبأ بمرض والده، ودعوته له إلى العودة إلى بلاده، كي يراه قبل وفاته، فاغتم للنبأ، واكتأب، خوفاً على أبيه من طرف، وحزناً لفراق خدينته، من طرف آخر، ولكنه اضطر للرحيل، فحمل بضائعه على الجمال، وجمع أمواله في الأكياس، ولم ينبئ خدينته إلا قبيل الرحيل، فأوقف الجمال، ومرّ بها يودعها، فأظهرت حزناً لفراقه، وألماً لِمَا سيكون من بعاد، ولكنه وعدها بالعودة، فور شفاء والده، وأكد لها أنه رجل أسفار، فطلبت منه أن يقدم إليها شيئاً تذكره به، فسألها أن تطلب ماتريد، فلو سألته بضائعه وجماله وأمواله، لمنحها إياها، وما أبقى غير راحلته، ولكنها أكدت له أنها لا تطمع في شيء، ولا تريد سوى واحد من أضراسه، للذكرى، ومد يده إلى ضرسه، وشده بقوة، وقدمه إليها، فأخذته منه شاكرة، وودعها

ومضى، وهو يحلم بالعود القريب.

ولما بلغ بلاده، ألفى والده على فراش الموت، ولم يطل به المقام قربه، حتى وافاه الأجل، فكفنه، وواراه التراب، ثم حل محل والده في السوق، وأصبح كبير التجار، ملأ السوق ببضائعه، وتقاطر إليه التجار من كل حدب وصوب، وأمواله ماتفتأ تنمو تزيد، وتجارته تتسع، حتى ملأت الآفاق.

وكان في أثناء ذلك يذكر خدينته، ويحن إليها، ويشتاق، ويفكر في الرحيل إليها، حتى كان يوم، بعد عام أو بعض عام، حمل بضاعته إلى تلك البلد، وما إن نزل فيها حتى أسرع إلى المبغى، وكان الوقت مساءً، فقرع على خدينته الباب، فأطلت عليه من نافذة غرفتها، تسأله عما يريد، فدهش، وقال لها:"أنا فلان"، فلم يظهر عليها تأثر ما، وسألته ثانية عن غايته، فزاد عجبه، وحسر عن رأسه عمامته، وقال لها: "أنا فلان، لم أغب عنك سوى عام، وبعض العام"، فلم تجب بشيء، فألح عليها، وذكّرها بما كان بينهما من حب ووصال، فازداد إنكارها، ثم لم تلبث أن سألته إن كان يستطيع أن يذكّرها بدلالة أو إشارة أو علامة تعرفه بها، فقال لها: "نعم، نعم، ضرسي، قدمته لك قبيل الرحيل"، فضحكت ثم قالت: "انتظر قليلاً"، فخفق قلبه، وفرح، وأدرك أنها لابد ستعرفه، ووقف ينتظر، ثم فتح الباب، وظهرت له هي نفسها، ولكنها متبدّلة، مربدّة الوجه،

فاضحة الثياب، ومدت له يدها بعلبة، وهي تقول له:"خذ، افتحها"، وتناول منها العلبة، مدهوشاً، وهو ينظر إليها، ولهان، ثم فتح العلبة، بيد مرتعشة، وإذا هو أمام كومة من الأضراس، فدهش، وعلاه الخبال، ونظر إليها فاغر الفم، لا يعي مايقول.

تعليق:

حكاية تربوية، ذات بعد اجتماعي، تتوجه إلى الشباب، ولاسيما الأغرار، كي تحذرهم من المومسات، وتنصح لهم.

والحكاية تنجح في تصوير الشاب الغر، وانسياقه وراء متعه وملذاته، وانخداعه بكلام العاهرة، بسبب قلّة خبرته، كما تنجح في اختياره من وسط التجار الأغنياء، وتقديمه غنياً قادراً على الإنفاق.

والحكاية لا تدين شخص العاهرة، بقدر ماتدين موقعها الاجتماعي، وتغريرها بالشباب، وإفسادها لهم، كما تكشف الحكاية أساليب خداعها وتضليلها، وتنجح في اختيار علبة الأضراس رمزاً لخداعها الرجال وعدم وفائها، وقد منحت هذه العلبة الحكاية بعدها الفني، وكانت المحور الذي بنيت عليه.

والحكاية لاتخلو من جرأة، ولكنها موظفة لغاية نبيلة، وهي تحذير الشباب، والحرص على إبعادهم عن مواطن الرذيلة.

والحكاية تعبر عن واقع اجتماعي متخلف، ينتشر فيه البغاء، كما تكشف بصورة غير مباشرة عن واقع التجار ورواج بضاعتهم وكسب الأموال من خلال علاقات يكون للعاهرة فيها دور.

ومهما يكن، فالحكاية قوية التأثير والإقناع، وشخصياتها قليلة، وهي مرسومة بدقة والتطور فيها

والتحول مدروسان بعناية.

❐❖❐

ذكاء الزوجات

يحكى أنه كان لإحدى الأسر الفقيرة ثلاث بنات، وكن على قدر كبير من الجمال، ولكن لم يكنّ على مثل ذلك القدر من الذكاء، وقد تم زواجهن جميعاً باكراً، واحدة إثر الأخرى، وكان زوج الأولى سمّاناً، وزوج الثانية بائع صابون، وزوج الثالثة بائع حناء، وقد سعدت كل واحدة منهن في الأيام الأولى من الزواج، وهنئت باهتمام زوجها بها، وتمتعت بما يملكه من وسائل الغنى والترف، مما لم تحظَ به من قبل في بيت أهلها.

وكان زوج الأولى، السمان، يحب المامونية[١]، ويطلب منها أن تعدّ له كل صباح صحن مامونية، حتى أنها ملت وضجرت من تكرار الطبخ، كل يوم، ففكرت، ثم اهتدت إلى حل، وكان زوجها قد اختزن في الدار أكياساً من الدقيق والسكر وصفائح من السمن، مما يبيعه في دكانه، فعمدت إلى ماكان اختزنه، فأفرغت أكياس الدقيق في البئر التي

---

(١) المأمونية : نوع من الطعام، يصلح للفطور، تشتهر به مدينة حلب، ويصنع من السمن والسكر والسميد (الدقيق الخشن).

في الدار، ثم أفرغت بعدها أكياس السكر، ثم صبت صفائح السمن جميعاً، ثم أخذت تخبط الدلو في البئر خبطاً، وفي الصباح كالعادة، طلب منها زوجها أن تهيئ له صحن مامونية، فأسرعت إلى البئر، وسحبت الدلو، فسألها زوجها عما تفعل، فطلبت منه أن ينتظر، ثم صبت الدلو في الصحن، وقدمته له، ونظر فيه، ثم سألها: "ماذا فعلت؟!"، فأجابته: "لقد مللت من طبخ المامونية كل يوم، فطبخت لك منها في البئر مالا ينفد، تأكل منه كل صباح"، وأسرع الزوج إلى غرفة المؤونة، لينظر إلى ماكان قد اختزنه من السمن والسكر والدقيق، فوجد الغرفة فارغة، فعرف ماصنعت، وما كان منها إلا أن صحبها معه إلى بيت أهلها، في المساء، وقعد إلى أمها وأبيها يحدثهما عما فعلت، فأنكرا عليه شكواه، ولا ماه، وحمدا لابنتهما ذكاءها، وأثنيا عليها، واتهماه بسوء الفهم، وقلة التدبير، وعاتباه، وعنّفاه، فغضب، وترك زوجته، وخرج.

أما الابنة الثانية، التي كان زوجها بائع صابون، فقد لاحظت أن فناء الدار مايزال ترابياً، غير مرصوف بالبلاط، وكانت تتعب في كنسه كل يوم، كما كانت تعاني من الغبار الذي تثيره الريح، ففكرت، وتأملت في أكياس الصابون المودعة في إحدى الغرف، ثم مالبثت أن اهتدت إلى حل ذكي، فعمدت إلى أكياس الصابون، وأخذت تفرغها جميعاً في فناء الدار، ثم أخذت تصف قطع الصابون في

أرض الدار، وترص بعضها إلى جانب بعض، حتى فرشت أرض الدار، جميعها، ولكن السماء لم تلبث أن تلبدت بالغيوم، وزمجر الرعد، وهطل المطر، ولما كان المساء دخل الزوج، عائداً من عمله، وما إن وضع قدمه على أرض الدار حتى انزلق، ووقع على قفاه، وحاول النهوض، فانزلق ثانية ووقع، وتنبه إلى الأرض، فوجدها مفروشة بالصابون، فعجب للأمر، ونادى زوجته، فأسرعت إليه، ولكنها قبل أن تبلغه، وقعت هي الأخرى، ثم نهضت بصعوبة، ولمّا سألها عما فعلت أخبرته أنها بلّطت فناء الدار، فأدرك مافعلت، ثم ماكان منه إلا أن أخذها إلى بيت أهلها، ليشكو لوالديها فعلها، ولكن والديها دافعا عن ذكائها، وحسن تدبيرها، واتهماه بالإنكار وسوء النية، فترك زوجته وخرج، وقعدت الابنة الثانية، إلى جانب أختها، تعيد كل منهما على الأخرى قصتها، وتتبادلان المديح، وتذكران الأزواج، وسوء تقديرهم زوجاتهم.

أما الابنة الثالثة، وكان زوجها بائع حناء، فإنها لاحظت مع قدوم فصل الشتاء أن سقف بيتها ما إن تسقط بعض حبات المطر حتى يكف، فخرجت إلى السطح، فوجدت فيه بعض الشقوق، فتأملت فيه وفكرت، ثم اهتدت إلى حل، وماكان منها إلا أن عمدت إلى أكياس الحناء التي كان يختزنها زوجها في البيت، فحملتها إلى السطح، وأخذت تفرشه بها، وتندّيه وترصّه، وتسدّ به الشقوق، وهي

تحسب أنها تطليه بالإسمنت، وتلوم زوجها في سرّها، وتتهمه بقلة الذكاء، ولما انتهت، نزلت من السطح، مزهوة بمافعلت، ولكن السماء لم تلبث أن تلبدت بالغيوم، وقصف الرعد، وهطل المطر غزيراً، وفي هذه الأثناء رجع زوجها إلى البيت، ولما دخل إلى الدار، رأى الحناء تسبح في الفناء، مع المطر المنساب، ولما سأل زوجته عما فعلت، أخبرته مزهوة، فأدرك مبلغ خسارته، وماكان منه إلا أن مضى بها إلى أهلها، وأخبر والديها وأختيها، بما فعلت، ففرح الجميع بذكائها، وأنكروا عليه سوء تقديره، ولاموه وعنفوه، فترك زوجته، وخرج.

وانضمت البنت الثالثة إلى أختيها، ومضت كل واحدة منهن تعيد على الأخرى حكايتها، آسفات على ذكائهن، وحسن تدبيرهن، ناعيات على الأزواج الذين لا يقدّرون ذكاء الزوجات.

تعليق:

حكاية اجتماعية طريفة، غالباً ماتروى على سبيل المزاح والتسلية، وهي ناجحة في فن السخرية وإثارة الضحك، ولكنها لا تخلومن دلالات اجتماعية.

ولعل أول ماتدل عليه هو جهل المرأة، وحرمانها من التعليم، وزواجها في وقت مبكر، مما يقودها إلى أفعال ومواقف ليست ناجمة عن غباء، كما يبدو الأمر في الظاهر، وإنما هي ناجمة في الحقيقة عن قلة خبرة.

كما يلاحظ أن الأخوات الثلاث هن من أسرة فقيرة،

وقد تم تزويجهن إلى ثلاثة رجال أغنياء، تاجر سمن، وتاجر صابون، وتاجر حناء، فكان هؤلاء الرجال قد اشتروا الزوجات الفقيرات بأموالهم، فعمدت الزوجات إلى تبديد أموال الأزواج المكدّسة انتقاماً.

ولا بد من أن يلاحظ أيضاً دافع الزوجات إلى مافعلن، ألا وهو شح نفس الأزواج، على الرغم من غناهم، فأحدهم يلح على طعام واحد لايكاد يغيره، والآخر لايطلي سطح بيته ماجعل الماء يكف منه، والثالث لا يفرش فناء داره بالبلاط مما يعرضه للتحول إلى طين.

وهذا كله يؤكد أن الزوجات لم يفعلن مافعلن عن غباء، إنما عن ردة فعل على شح نفس الأزواج وبخلهم.

كما تدلّ الحكاية على مجتمع لا تعمل فيه المرأة، وتعيش فيه عالة على زوجها، وهي لاتخرج من بيتها، ولا تتصل بالناس، ولذلك لا تحسن التصرف، وهي تعاني بعد ذلك كله من الطلاق، وتصبح بسببه قعيدة البيت، لاهمّ لها سوى الثرثرة، واجترار الحديث عن أسباب طلاقها، لملء فراغات كثيرة في النفس والوقت والمجتمع.

وعلى كل حال فإن تصرّف الزوجات لا يخلو من مبالغة، كما لا يخلومن بعض الجهل وعدم الدراية وسوء التدبير، وهذا مامنح الحكاية طرافتها، وقدرتها على تحقيق عنصر السخرية وإثارة الضحك.

وللحكاية روايات أخرى مختلفة، يبلغ في بعضها عدد الزوجات سبعاً، لكل منهن حكاية مختلفة.

❑❖❑

حماة ولو من غير كنّة

يحكى أن أماً كانت قد ربت ابناً لها وحيداً، بعد وفاة أبيه، وعنيت به، ومنحته حبها وعطفها وحنانها كله، فقد كان بالنسبة إليها كل شيء في حياتها، وشب هذا الابن، وكبر، وكان برّاً بأمّه، وفياً لها، يعمل دائماً على إسعادها، ونيل رضاها.

ولما بلغ الابن مبلغ الرجال، وآن له أن يتزوج، عرضت عليه أن تخطب له بعض من تعرف من بنات الجيران، ولكنه اعتذر لها، وطلب منها تأجيل موضوع زواجه.

ومرت الأيام، فعرضت عليه ثانية موضوع زواجه، فاعتذر لها كذلك، وطلب تأجيله، ولكنها ظلت تلح عليه، وتحاوره، وتحاول إقناعه، وهو يعتذر ويؤجل، حتى ضاقت أمه به، فسألته عن السبب الذي يمنعه من الزواج، فلم يرد أن يعترف لنا، ولكنها أصرت إلا أن تعرف السبب، فأقر لها بأنه لا يريد الزواج، مادامت هي على قيد الحياة، إذ إنها تكفيه مؤونة العيش، فهي تطبخ له طعامه، وتغسل

ثيابه، وتسهر عليه في حالة صحته ومرضه، ولا يريد لها كنة تعكر عليها صفو عيشها، فلامته أمه في ذلك، وعاتبته، وأكدت له أنها ستُسَرّ بكنتها، وستعيش معها بأهنأ مما تعيش الآن، ولكنه رد عليها ذلك كله واعتذر.

ولكن الأم لم تفتأ تحاول إقناع ابنها، بضرورة زواجه في حياتها، وهو يعتذر ويؤجل، حتى كان يوم ذهبت فيه أمه في زيارة إلى بعض أقاربها في الريف، ومكثت عندهم شهراً وبعض الشهر، وفي غيابها قرر ابنها أن يوهمها، حين تعود، بأنه قد تزوج، ليجربها، ويختبر إمكان عيش الكنة معها، فلجأ إلى إحدى الغرف، فعلق الستائر على نوافذها، من الداخل، وجدّد طلاءها من الخارج، ووضع على بابها قفلاً، وأغلقها.

ولما رجعت الأم من زيارتها، فوجئت بما نال تلك الغرفة من تغيير، فأخبرها أنه تزوج في غيابها، فغضبت وثارت، إذ كيف يتزوج من غير أن تعرف ذلك، ومن غير أن يشاورها في عروسه، بل من غير أن تكون هي خاطبتها له.

وأجابها الابن بما يقنع ويرضي، وأكد لها أن عروسه جميلة وغنية، وذات حسب ونسب، فهي من أسرة مرموقة، ووالدها من كبار التجار، فطلبت منه أن تراها، وأن تدخل إلى غرفته لترى مافرش فيها من أثاث، فاعتذر لها، ورجاها أن تؤجل ذلك بضعة أيام، وأكد لها أنه لا يريد أن يكون

بينها وبين زوجته في الأيام الأولى من الزواج لقاء، حتى لا يكون بينهما فيما بعد خصام، وتوسل إليها أن تنتظر ريثما تستقر العروس في البيت، وتطمئن وظل يحاورها في ذلك ويداورها حتى سلمت له، وإن لم تكن مقتنعة.

وفي اليوم التالي ذهب الابن إلى عمله، وما إن ذهب، وحتى مضت الحماة إلى باب غرفة الكنة، وقرعت عليه قرعات خفيفة، ولكنها لم تسمع جواباً، فقالت: لعلها ماتزال نائمة، فانتظرت بعض الوقت ثم أعادت عليها القرع، ثم أخذت تناديها، وتعرب لها عن حبها وفرحها وتمنيها أن تراها، ولكنها لم تلقَ جواباً، فقالت: "لعلها ماتزال تحس بالغربة، فلأتركها هذا اليوم، ولابد أنها ستحدثني غداً، وستخرج إلي".

ولما كان اليوم الثاني أسرعت إليها بعد خروج ابنها، وأخذت تقرع عليها الباب وتنادي، ولما لم تلقَ جواباً، ضاقت بها، وبدأ الغضب يتسلل إلى نفسها، فأخذت تلوم وتعاتب وتعنف معرّضة بكنتها معيّبة عليها سفهها وعجبها بنفسها، وعدم إجابتها نداء حماتها، ثم تركتها وقررت شكايتها لابنها في المساء.

ولما رجع ابنها في المساء شكت له صمت زوجته، وعدم إجابتها نداء حماتها، فتوسل إلى أمه ألا تكلف نفسها أمر الحديث معها، ورجاها أن تتركها وشأنها، فضاقت الأم بموقف ابنها، وصمتت على امتعاض واستياء.

ولما كان اليوم الثالث أسرعت إلى غرفة كنتها، بعد خروج ابنها، وأخذت تخبط عليها الباب خبطاً، وتناديها، وتقذع لها في القول وتفحش، وتسبها وتشتمها، وتؤكد لها أنها ليست دونها في الأصل أو الجمال، ولما لم تسمع منها جواباً، أدركت أن كنتها تريد بصمتها إغاظتها والكيد لها، فانفجر غضبها وأخذت تعول وتبكي وتنادي الجيران كي يروا إلى الكنة التي تشتم حماتها وتضربها، ثم تدخل إلى غرفتها، وتغلق على نفسها الباب، ولا تأبه بأحد.

وأسرعت الجارات إليها، فرأينها ممزقة الثياب، مقطعة الشعر، ملطمة الخدين، فاستنكرت الجارات ذلك، وأدركن أن الكنة هي التي ضربت حماتها، فأرسلن على الفور وراء الابن كي يحضر، ويرى مافعلت زوجته بأمه.

ودخل الزوج، فتلقته الجارات باللوم والعتاب والتعنيف، إذ كيف يسمح لزوجته بأن تجرؤ على أمه، وعبن عليه عدم وفائه لأمه التي ربته خير تربية، وتعبت لأجله، وضحت.

وكان الزوج يسمع ذلك كله وهو صامت لا ينطق بشيء، حتى أنهت النسوة كل ما لديهن من عتاب ولوم، وعندئذ أعطى مفتاح الغرفة لأمه، وطلب منها أن تدخل على زوجته، مع النسوة، ليؤدبنها، ولما فتحت أمه الباب ودخلت، ودخلت وراءها النسوة، ذهلت الأم، وذهلت النسوة، ثم نظرن جميعاً إلى الأم، وخيم الصمت.

تعليق:

حكاية طريفة، لا تخلو من مبالغة وإدهاش، ولكنها تدل على حقيقة نفسية اجتماعية، تتمثل في غيرة الحماة من كنتها، ورغبتها في معرفتها حق المعرفة، وأن تتدخل في أمور حياتها، وأن يكون لها دور أساسي في إختيارها وترتيب أمور بيتها وعيشها وحياتها، وهي جميعاً ظواهر اجتماعية تدل على غياب استقلال الفرد، كما تدل على حرمان المرأة من تحقيق ذاتها، وهي صبية شابة في ظل زوجها، ثم تسعى بعد ذلك إلى تحقيق ذاتها بقوة في كهولتها في ظل ابنها، ويكون ذلك التحقيق لذاتها على حساب كنتها، وبقدر كبير من التدخل غيرة وانتقاماً، ولكن بصورة غير واعية، وبدعوى رغبتها في تحقيق مصلحة ولدها.

والحكاية تفضح الحماة، وتدينها، وتكشف دواخلها، وهي مثال نادر في الحكايات الشعبية، إذ يسعى معظمها إلى إدانة الكنة بخلاف هذه الحكاية.

وتبدو الحكاية قوية البناء، قوية التأثير، وهي لا تخلو من ذكاء، وحسن اختيار للعناصر والجزئيات والشروط، ولعل أبرزها فكرة الكنة المتوهمة والتي لاوجود لها في الحقيقة، وهي فكرة ذكية، وعليها بنيت الحكاية.

ولعل الحكاية من صنع كنّة أرادت أن تتوجه بها إلى كل حماة، وهي في الأحوال كلها تدلّ على مجتمع متخلّف، تطغى فيه مشكلة الحماة والكنة، وتدل على غياب الحرية الحقيقية للجميع، سواء في ذلك الزوج والكنة والحماة.

❒❖❒

الكأس والمنديل

يحكى أن أحد الملوك سمع بجمال زوجة وزيره، وحسنها الباهر، فثارت في نفسه الرغبة في لقائها، فادعى ذات يوم المرض، وأرسل إلى الوزير يسند إليه أمور الحكم، ويعتذر عن النزول إلى الديوان، ثم خرج من القصر سراً، ومضى إلى بيت الوزير.

ودهشت زوجة الوزير لزيارة الملك، ولكنها مضطرة إلى الترحيب به، وهمت أن تطلب من الخدم أن يهيئوا له جناحاً خاصاً به، ولكنه رجاها أن تبقي زيارته سراً، وألا تخبر بها أحداً، ثم طلب منها أن تضيفه في غرفة زوجها، فقادته إلى حيث طلب، وهيأت له أطايب الطعام والشراب.

وأخذ الملك يتبّسط شيئاً فشيئاً في الحديث معها، ويثني على أثاث غرفة زوجها، وحسن إعدادها الطعام، ثم أخذ يثني عليها هي نفسها، ويعرب عن حسده لوزيره على تنعمه بجمالها.

ثم طلب منها أن تسمح له بالاتكاء على فراش

زوجها، فاضطرت إلى السماح له بذلك، فاتكأ عليه، وأخذت تقدم له مالذ من الفواكه، تريد إشغاله بالطعام، عما في نفسه من غرض، أدركت أنه يسعى إليه.

ثم طلب منها أن تحضر له كأس شراب، مشعشع بالثلج، فأحضرت له كأس من زجاج فخم رقيق شفاف، فأبدى إعجاباً شديداً بالكأس، وقد تناوله منها بمنديله الخاص، ثم أعاده إليها، فتناولته، ورمت به على الفور إلى الأرض، فتحطم، وتناثر زجاجه.

ودهش الملك لما فعلت، وسألها عن سبب ذلك، فأجابت: "بعد أن تشرب منه السباع، لا يجوز أن تلغ فيه الكلاب"، فثار غضب الملك، ونهض على الفور، ومضى خارجاً، لا يلوي على شيء.

وبعيد العصر، فض الديوان في القصر، ورجع الوزير إلى بيته، فطلب الطعام والشراب ثم قصد إلى فراشه لينام، فعثر بمنديل الملك، فدهش، ولكنه كظم مابنفسه، وخبأ المنديل في مكان أمين، وقرر أن يهجر زوجته، ولم يصارح بالأمر أحداً.

ومرت الأيام، والوزير والملك في القصر يلتقيان، يسيّران معاً أمور البلاد، ويتجنب كل منهما نظرات الآخر.

وامتدت الأيام، فإذا هي أشهر، تكاد تصير إلى عام، ضاقت فيها نفس الزوجة، فشكت أمرها إلى أخيها، وحدثته

بماكان من زيارة الملك، كما حدثته عن هجر زوجها لها، ورجته أن يرفع الأمر إلى الملك والوزير، وهي لا تعلم من أمر المنديل شيئاً، وقد أكدت لأخيها براءتها.

وقصد شقيق الزوجة القصر، وطلب الإذن في المثول أمام الملك والوزير، ولما صار أمامهما وجد رجال القصر حاضرين، وفيهم كبار القضاة والعلماء والقادة، فحار في أمره، كيف يعرض الموضوع على الملأ، وتردد، ولكنه لم يلبث أن تحدث إلى الملك، فقال: " لقد أجّرت الوزير أفضل بستان، كثير الأشجار، طيب الثمار، فصد عنه، وقابله بالهجران.".

وأدرك الوزير مراده، فرد على الفور، قائلاً له: "بستانك داسه من داس، فخرّب فيه الأساس.".

وفطن الملك إلى المقصود بذلك كله، فقال: "ماداسه أحد، ولكن مرّ في سمائه نسر، والبستان مافسد".

وانتهى اللقاء، وعاد كل إلى بيته.

وواصل الوزير زوجته، واطمأن إلى براءتها، ووصفت نفسه نحو الملك، وأخذت نظرات كل منهما تلتقي بنظرات الآخر، ولا ترتد، ولاسيما بعد أن أعاد الوزير إلى الملك المنديل.

تعليق:

تدل الحكاية على براءة المرأة ونقائها، وقدرتها على

صون نفسها، ودرء كل مايحيط بها من مكر، بفضل ذكائها وحسن تدبيرها، كما تدل على مافي قصور الحكام من فساد، إذ لا يتورع الملك عن محاولة تدنيس عرض وزيره، بل يسعى إلى ذلك عن قصد، وسبق إصرار.

والحكاية تعتمد على الرمز، واضحة مباشرة سواء بين زوجة الوزير والملك، أو بين شقيق الزوجة وكل من الملك والوزير.

والحكاية ذات هدف تربوي تعليمي، فهي تزرع الثقة في نفس المرأة، كما تنبه الذهن على الرموز وطرق استخدامها.

❐❖❐

ثمن الذهب

كان لأحد الرجال بنت وحيدة، ذات جمال باهر، رباها خير تربية، ونشّأها أفضل تنشئة، ولما بلغت سن الزواج، أخذت الخاطبات بالتوافد عليها، ولكنهن كنّ يرجعن خائبات، لأن والدها كان يطلب فيها وزنها ذهباً، فانصرفت الخاطبات عنها، وأصبحت لا يطرق بابها أحد.

وذات يوم تقدم إلى خطبتها شاب أعلن عن استعداده لدفع مايعدل وزنها ذهباً، على شرط أن يأذن له أبوها باصطحابها إلى بلده، فهو غريب، وألا يسأل بعدئذ عن ابنته أبداً، فوافق الأب ودفع الشاب مايعدل وزن البنت ذهباً، ثم ارتحل بها إلى بلده.

وتم الزواج من غير احتفال ولا زوار ولا مهنئين، وأقامت الزوجة في بيت زوجها هانئة مسرورة بما يوفره لها زوجها من أسباب الراحة والنعيم، وكان يخرج كل يوم إلى عمله في الصباح، يقفل الباب عليها، ولا يرجع حتى المساء، وكانا لا يزورهما أحد، ولا يزوران أحد.

ومرت الأيام، فحملت الزوجة، وتتابعت الشعور، فوضعت ولداً،وهي في الدار وحدها، من غير أن يعينها أحد، أو تشرف عليها قابلة، فتكفلت بكل شيء بنفسها، ثم رجع زوجها في المساء من عمله، فرأى الطفل الوليد، فحمله وخرج به، ثم رجع من غيره، فسألته الزوجة عن طفلها، فأجابها بأنه قد باعه، ثم أكد لها أنه سيبيع كل ولد تضعه، حتى يسترد الثمن الذي دفعه فيها، فغصت الزوجة بدموعها، ولم تجب بشيء.

ومرت الأيام، وتلتها الشهور، وإذا الزوجة قد حملت ثانية، ثم وضعت طفلاً ثانياً، ففعل الزوج مافعله من قبل بالولد الأول.

ومرت شهور أخرى، حملت فيها الزوجة مرة ثالثة، ثم وضعت بنتاً تشبهها في حسنها وجمالها، ودخل عليها الزوج، فتوسلت إليه زوجته أن يترك الطفلة لها كي تأنس بها وتتسلى، ولكن الزوج لم يبال بها، فحمل الطفلة وخرج بها، ثم رجع من غيرها، ليخبرها بأنه قد باعها أيضاً.

وغصت الزوجة بدمعها، ولم تجب بشيء، ولكنها قررت أن تمنع نفسها من الحمل، حتى لا يكون مصير الأولاد الآخرين مصير من سبق، وظلت على هذه الحالة من الصبر والصمت، يخرج زوجها كل يوم في الصباح، فيقفل عليها، ولا يرجع حتى المساء، لا تزور ولا تزار، ولا ترى أحداً، ولا يراها أحد.

ومرت الشهور تلتها السنون والأعوام، إذا زوجها يخبرها ذات يوم بضيقه بها، وعزمه على الزواج من غيرها، متذرعاً بعدم حملها، مؤكداً حاجته إلى الولد، فأكدت له الزوجة موافقتها على كل مايراه، فطلب منها أن تبحث عن زوجة تليق به، فأجابته بأنها لم تخرج من البيت قط، ولا تعرف أحداً، ثم أشارت عليه أن يختار هو الفتاة التي تروق له، ثم وعدته أن تقوم بدورها في إتمام الخطبة والسعي في أمور الزواج.

وبعد بضعة أيام رجع إليها الزوج باكراً، فطلب منها أن تخرج معه، فخرجت، فدلها على بيت، وطلب منها أن تزور أهله، وتخطب ابنتهم، وأوصاها أن توافق على مايطلبون من أمور.

ودخلت الزوجة إلى البيت الذي دلها عليه، فاستقبلتها فيه بعض النسوة، فأخبرتهن بأنها جاءت تخطب إليهن ابنتهن، تريدها لزوجها، فبرزت لها فتاة دون الخامسة عشرة من عمرها، ذات حسن وجمال، خفق لها قلبها، ودهشت لمرآها دهشاً عظيماً، ثم سألت الأهل عن طلباتهم وشروطهم، وأكدت لهم استعداد زوجها للوفاء بكل مايطلبون.

وسارت الأمور على مايرام، فتمت الخطبة، وحان

موعد الزفاف، والزوجة تسعى في ذلك كله، وتساعد زوجها، صابرة صامتة، لا تبدي انزعاجاً ولا قلقاً ولا غضباً.

وفي ليلة الزفاف أُحضِرَت العروس في أبهى زينتها، وكان يصحبها أخواها، وهما يفوقانها في الحسن والبهاء، وطلب الزوج من زوجته أن تنهض لاستقبال عروسه وأخويها، وأن تقودهم إلى مخدعه، فنهضت الزوجة، فاستقبلت العروس وأخويها، وقادتهم جميعاً إلى مخدع زوجها، ثم تركتهم وهمت بالرجوع، وإذا زوجها يدخل عليها ويطلب منها البقاء، ليقدم لها العروس معرفاً بها، بوصفها ابنتها، ويقدم لها شقيقي العروس بوصفهما ولديها.

وعانقت الأم ابنتها، العروس، وضمت إليها ولديها، ثم ضم الزوج إليه زوجته وأولاده، وشكر للزوجة صبرها، وبارك فيها وأكد لها أنها تستحق أن يدفع فيها مايعادل وزنها ذهباً.

تعليق:

تؤكد الحكاية قيمة الصبر، فهو المعيار الوحيد الذي تقوّم به المرأة، ولكنه معيار صعب وقاس جداً، ويدلّ على مدى مايلحق المرأة من حيف وظلم لتؤكد جدارتها بأن تكون زوجة، والرجل وحده هو الذي يطلب منها تلك الجدارة، وهو الذي يمتحنها، في هذا دلالة واضحة على ظلم المجتمع للمرأة.

وتدل الحكاية على دور التربية وأهميتها في إعداد الفتاة لتكون امرأة المستقبل، كما تدل على أن القيمة العليا هي للإنسان، ولا يمكن أن يعدله شيء، حتى الذهب نفسه،

وقد تمّ اختياره هنا لأنّه أغلى المعادن وأكثرها ندرة ولثباته وعدم تحوّله.

وواضح لجوء الحكاية إلى المبالغة والافتعال، لتخلق الأثر النفسي والتربوي، وهي موجهة على الأغلب للفتيات لتعلمهن الصبر وتعدّهن للمستقبل.

❐❖❐

الوصية

كان لأحد الرجال ثلاثة أولاد، وكان على قدر كبير من الغنى، فلديه الأراضي والماشية والديار، وكان أولاده يسألونه دائماً أن يقسم فيهم أمواله، قبل وفاته، ولكنه كان لا يستجيب إلى طلبهم، ويعدهم بأن كل مايملكه هو لهم، وأنه قد رتب الأمور، وأعد وصيته، وأنه أودعها خزانته، وما عليهم ألا أن يفتحوها بعد وفاته، ليجدوا واكل شيء قد أعد خير إعداد.

ومضى الأولاد ينتظرون مرور الأيام، وحتى وافت المنية والدهم، فواروه التراب، وأسرعوا إلى الخزانة يفتحونها، وإذا بهم يدهشون لما يرون، فليس ثمة غير قبضة من تراب، وعظمة نخرة، وورقة بيضاء،وقد كتب أمام كل واحدة اسم أحدهم، فلم يفهموا مما رأوا شيئاً، وحاروا في أمرهم، كيف يقتسمون أملاك أبيهم؟

وكاد الخلاف يدب في الأخوة، ولكن أحدهم اقترح مشاورة صديق لأبيهم، فرجعوا إليه يستشيرونه في الأمر،

فنصح لهم بالتوجه إلى حكيم في أحد البلاد، ليعرضوا أمرهم عليه.

وسار الثلاثة إلى بلد ذلك الحكيم، وبينما هم في بعض الطريق، رأوا نخلة عالية، تتدلى منها عثاكيل التمر، فتسلق أحدهم النخلة، وقطف عثكولاً من التمر الناضج، وأقبل ثلاثتهم عليه، وإذا أول تمرة فيه مرّة لا تذاق، وكذلك حال الثانية، فالثالثة، حتى لم يبق في العثكول غير ثلاث، ذاقوها فإذا هي حلوة فاقتسموها.

ثم مضوا في الطريق، وماهي إلا بضعة فراسخ، حتى رأوا واحة، فنزلوا بقربها، وكان ماؤها أبيض رقراقاً، فأدنوا منها إبلهم، ودعوها إلى الشرب، فلم تشرب، فحاولوا الشرب منها، فإذا ماؤها ملح أجاج، فعافوها، ومضوا في طريقهم قاصدين بلد الحكيم.

وما إن قطعوا فراسخ أخرى، حتى رأوا حصاة صغيرة، تذروها الريح، فتعلو، فإذا هي قصر مشيد، ثم ماتلبث أن تهوي، حصاة صغيرة، تدوسها الأقدام، فعجبوا مما رأوا، وكانوا قد وصلوا بلد الحكيم، فدخلوها، ومضوا إلى حيث دلهم الناس، حتى بلغوا داره، فدقوا عليه الباب، فخرج لهم غلام قادهم إلى غرفة التقوا فيها بشيخ عجوز، متهدم، ذي لحية بيضاء، يبدو أنه في التسعين، فحسبوه الحكيم، فحيوه، وأخبروه أن لديهم حاجة، فأخبرهم أنه ليس هو الحكيم، وإنما أخوه الأكبر، وماعليهم إلا أن ينتظروه حتى

يجيء.

ولبث الإخوة ينتظرون، فدخل عليهم رجل قوي مشدود القامة، مهيب الطلعة، متقدم في العمر، ولكنه محتفظ بقوته وحيويته، يبدو كأنه في الستين، وما إن دخل حتى نهض له الشيخ العجوز، وقبل يده، وحياه، ثم قدمه إلى الإخوة على أنه أخوه الحكيم، فعجبوا له، وحيوه، وهم دهشون، ثم عرضوا عليه أمرهم، وسألوه تفسير ماترك لهم والدهم.

أطرق الحكيم قليلاً، ثم أخبرهم بتفسيره، فأما كومة التراب فتشير إلى مايملك والدهم من أرض، وأما العظمة النخرة فتشير إلى مايملكه من ماشية، وأما الورقة البيضاء فتشير إلى مايملكه من ديار مسجلة في الأملاك، وماعليهم إلا أن يقتسموها، كما هي موزعة.

وأعجب الإخوة بتفسير الحكيم، كما أعجبوا بقسمة والدهم لهم، ثم أخبروا الحكيم بما رأوه في الطريق، وسألوه تفسيره، فأخبرهم أن التمر الكثير، الذي لم يجدوا فيه حلوا سوى اثنتين أو ثلاث، فمثله كمثل الأصحاب، وهم كثير ولكن المخلص فيهم قليل، وأن الماء الرقراق الصافي، مالح الطعم، فمثله كمثل المرء، يعجبك مظهره، يخدعك به عن فعاله وخلقه، التي لا توافق مظهره، وأن الحصاة التي تعلو فتشيد قصراً، ثم تسقط فتهدمه، فمثلها كمثل الكلمة، تحلو وترق، فتبني بيتاً، وتغلظ وتقسو فتخرب مابنت، فأعجب الأخوة بتفسيره، وشكروه عليه، وهموا بالانصراف.

ولكن الأخوة التفتوا إلى الحكيم، قبل مضيهم، يسألونه عن حاله، كيف يكون أكبر من أخيه، في حين يبدو أخوه هو الأكبر، فأخبرهم الحكيم أن أخاه غارقاً في الهموم، يفكر فيما مضى، وفيما سيأتي ويطيل التفكير، أما هو فيرمي الهموم جانباً، ولا يفكّر إلا فيما هو فيه، فأعجبوا بحكمته، وعادوا إلى بلدهم هانئين بما أفادوه من حكمة.

تعليق

حكاية تربوية، تتوجّه إلى الناشئة، لتثير لديهم ملكة التفكير، من خلال ألغاز تطرحها، ثم تجيب عنها بعد حين. وهي تؤكد في أثناء ذلك قيماً خلقية متعددة، يتعلق بعضها بالصداقة والكلمة الطيبة والمظهر، وتمثلها الثمرات والحصاة والماء، ويتعلق بعضها الآخر بحكمة عامة، مفادها الرضا بالواقع، وعدم القلق.

والحكاية ذات بنية ثلاثية تتكرر في الإخوة الثلاثة، وفي وصية الأب ذات الجوانب الثلاثة، وفي الأمور الثلاثة التي شاهدها الإخوة في أثناء الطريق، وعلى الرغم من وفرة العناصر في الحكاية فهي بسيطة وسهلة الحفظ.

والحكاية تقوم على فلسفة عمادها الظاهر والباطن. فثمة دائماً ظاهر عادي وبسيط، ولا يمكن فهمه وحده، ولابد من إدراك ماوراءه، حتى يتحقق فهمه فهماً صحيحاً، وهو غالباً مايخفي وراء الظاهر البسيط باطناً ذا قيمة كبيرة ودلالة عميقة.

وثمة حكايات كثيرة تنحو هذا المنحى، ولعل مثل هذه الحكايات متأثرة بما ورد في القرآن الكريم من قصة موسى والرجل الصالح في سورة الكهف من الآية ذات الرقم ٦٤ إلى الآية ذات الرقم ٨١، وفيها يرى موسى ثلاث ظواهر غريبة مايفتأ يسأل صاحبه عنها، وفي النهاية يخبره الرجل الصالح بتفسيرها، فيدهش، ويدرك أن وراء

الظاهر باطناً أهم منه وأغنى.

❐❖❐

الخمخوم

كان لامرأة عجوز حفيد وحيد، يدعى "الخمخوم" وكان أقرع، تلمع قرعته تحت الشمس، وكان أخن يصدر صوته من أنفه، لا يكاد أحد يفهم مايقوله، وكان لا يحسن عمل شيء، وضعته جدته عند حداد، فقرض إصبعه، ولم يطق على العمل صبراً، ووضعته عند خياط، فما استطاع مرّة ضم خيط في إبرة،وكيف يطيق صبراً على عمل، ودأبه أن يأكل، حتى ينتفخ بطنه، فليس له إلا أن يحمل معه أطباق الخبز، حيثما ذهب، ليلتهمها رغيفاً رغيفاً.

وكان آخر عمل جهدت العجوز في وضعه فيه، هو البناء، فقد مرّت بورشة بنائين، فتوسلت إلى رئيسها أن يقبل عنده الخمخوم أجيراً، فلما سأله عما يستطيع أن يعمل، فأجابه على الفور: "الأكل"، فضحك منه طويلاً، ثم وجهه إلى بئر، وطلب منه أن ينضح الماء للعمال، فاطمأنت العجوز إلى أنها وجدت عملاً لحفيدها، وشكرت رئيس الورشة، ثم مضت.

ومضى الخمخوم إلى البئر يحمل أطباق الخبز، فوضعها إلى جانبه، وبدأ العمل، فكان إذا خرج له الدلو يتقاطر منه الماء، بش له وفرح به، وقال:"أهلاً"، ثم رفعه إلى فمه، وظل يعب منه حتى ينزله فارغاً، ثم يتناول وراءه رغيفاً، وظل هذا دأبه، يشرب دلواً، ويأكل رغيفاً، حتى أتى على ماعنده من خبز، فانطلق إلى رئيس الورشة يعلن له عن انتهاء عمله، فما كان من الرجل إلا أن صرفه، طالباً منه أن يزيد في الغد عدد الأرغفة.

ولما كان اليوم التالي، هيّأت له جدته ضعف ماكانت تهيئه له من قبل، وانطلق الخمخوم إلى عمله، فرحاً به، وأكب على الأرغفة، يلتهمها بنشاط كبير، ويشرب من البئر ماشاء أن يشرب، حتى أتى على كل ماحمل من أرغفة، فمضى إلى رئيس الورشة يطلب منه أجرته، فسخر منه المعلّم، وقال له: "أعطيك أجرتك آخر الأسبوع"، ففرح الخمخوم بوعد المعلم، وأخذ يزيد من نشاطه، ويضاعف من عمله، ويقبل عليه، بتناول مزيد من الأرغفة، وشرب مزيد من الدلاء، حتى ازداد في الأسبوع وزناً، على حين شقيت جدته في تهيئة الخبز له.

حتى إذا انتهى الأسبوع أقبل على معلمه يطالبه فحار المعلم في أمره، كيف يعطيه أجراً، وهو الذي لم يفعل شيئاً؟، ونظر حوله، فرأى بعيداً عن الورشة خم دجاج، فقال له: "انظر إلى هناك"، فنظر الخمخوم، فقال له:

"اذهب إلى هناك، وأدخل الخم، ثم خذ بيضة واحدة، أجراً لك"، فسأله الخمخوم:"بيضة واحدة؟"، فقال المعلم: "نعم، بيضة واحدة، ولا تعد في الأسبوع القادم"، فسأله: "وهل تعده عطلة؟"، فقال المعلم: "نعم"، فسأله:"وتعطيني في نهايته أجري؟"، فقال المعلم، وقد نفذ صبره: "نعم، نعم".

وضحك الخمخوم، ثم انطلق إلى الخم، حتى إذا بلغه، دخله، وهو يمنّي نفسه ببيض كثير، ولكنه فوجئ بالخم خاوياً، فأخذ يبحث في نواحيه، فلم يعثر على شيء، فأعاد البحث، ونبش أكوام التبن والأقذار، فرأى بيضة غريبة، صفراء اللون ، أكبر من البيض، وأثقل، فحملها، وأسرع بها إلى جدته، وهو ينادي طوال الطريق: "أخذت أجرتي ياجدتي، أخذت أجرتي، ياجدتي".

فلما سمعت الجدة، فرحت به، فهذه أول أجرة له في حياته، ولكن لما دخل عليها بالبيضة الصفراء، ولم تميزها جيداً، غاض فرحها، وخاب أملها، وأخبرته أن البيضة فاسدة، وأن من الخير له أن يرميها، فخرج الخمخوم غاضباً، مصمماً على الذهاب بها إلى الملك، ليشكو له أمره، فلما بلغ قصره، منعه الحرس من الدخول، فأخذ يصيح وينادي، حتى سمع الملك، فنظر من نافذة القصر فضحك لمرأى الخمخوم، وأشار إلى جنده أن اسمحوا له بالدخول.

ودخل الخمخوم على الملك، فشكا له أمره، وعرض

عليه البيضة، فلما رآها الملك، دهش لمرآها، وفرح بها، فقد كانت ذهباً، فتلقفها من يده، وسأله في لهفة عما يطلبه من ثمن لها، فقال الخمخوم ببلاهة: "لا أريد ثمنها"، فعرض عليه الملك أن يتمنى شيئاً ليحققه له، فقال له على الفور: أريد فرناً وجرناً وخراباً"، فعجب الملك من طلبه وسأله لم يريد ذلك؟ فأجابه: "الفرن للخبز آكله، والجرن للماء أشربه، والخراب لحاجتي أقضيها فيها"، فضحك الملك منه وأمر الجند أن يهيئوا له ماطلب.

وخلال يومين أشيد فرن، في ظاهرالبلدة، وحفر إلى جانبه بئر، وتم تسييج مايحيط بهما من أرض، وسلم ذلك كله للخمخوم، فكان يمضي يومه بين البئر والفرن، في أكل وشرب، هانئاً بالنعيم ومرت الأيام وهو على هذه الحالة، ليس له عمل غير الأكل والشرب، وقضاء الحاجة بين فرن وجرن وخراب، حتى جاء يوم مل فيه عيشه، وأراد التنزه، فطلب من عمال الفرن أن يهيئوا له للغد أرغفة كثيرة، ففعلوا ذلك، فلما كان الغد، حمل الأرغفة على ظهر حمار، ومضى بها إلى ضفة نهر قريب، وأخذ يلتهم هناك الأرغفة، ويشرب من ماء النهر، مايشاء، ناعماً بتجديد المكان، حتى إذا انتهى من الأرغفة التي حملها امتلأت بطنه وانتفخت، وأراد الرجوع، أحس بالتعب الشديد، ولم يستطع الحمار حمله، لثقله، فأخذ يمشي والعرق يسح منه، ويغسله غسلاً.

وبينما هو في بعض الطريق، مرت به أفعى، ورجته أن يخبئها، فعجب لأمرها، فتوسلت إليه، وشرحت له أن ثعباناً يلاحقها، فحار في أمره، ماذا يفعل؟ فماكان منه إلا أن فتح فمه، وقال لها: "هيا، ادخلي"، حتى إذا دخلت في فمه ابتلعها، فلما مر به الثعبان غضبان يصل صليلاً، سأله إن كانت الأفعى قد مرت به، فأجابه: "نعم" ودله على طريق بعيدة، وقال له: "ذهبت من هنا"، فغدا الثعبان في الطريق فلما ابتعد، دق الخمخوم على بطنه، ودعا الأفعى إلى الخروج، فخرجت، ثم سألته عما يتمناه، حتى تحققه له، فسخر منها، وقال لها: "وماذا تستطيعين أن تفعلي؟"، فأعادت عليه السؤال، فقال لها ساخراً، ومتحدياً: "أتمنى أن تحمليني إلى الخراب"، وإذا الأفعى تدخل تحته، وتنطلق به زاحفة، وهو فوقها يختال، كأنه في هودج.

وفي تلك الأثناء، كانت ابنة الملك في بستان قريب، تمرح بين الأشجار مسلية نفسها، فمر بها الخمخوم وهو على ظهر الحية، فضحكت لمرآه، ضحكاً شديداً، وقذفته بتفاحة كانت في يدها، فغضب منها وماكان منه إلى أن شتمها، ودعا عليها أن تغدو لتوها حاملاً.

ومرت الأيام، وإذا بطن الفتاة قد تكوّرت، وأخذت تنتفخ قليلاً قليلاً، وبدأت علامات الحمل تظهر عليها، وأدركت الفتاة على الفور أن دعاء الخمخوم قد استجيب، فأسرعت إلى أمها تخبرها، وحارت الأم في أمر ابنتها، وهي تعلم

براءتها وتوقن أن أحداً لم يمسها، وبعد تردد، عرضت الأمر على الملك، فغضب وثار، ولكن الأم أكدت له صدق ابنتها، فقرر عندئذٍ تزويجها من الخمخوم.

وأرسل الملك في طلب الخمخوم، فلما مثل بين يديه أمر به الخدم أن يأخذوه إلى الحمام، وفي الحمام غسلوه وهو يصرخ ويصيح، ويرفض الماء والصابون، ثم ألبسوه أفخر الثياب، وهو ضائق بها، نافر منها، ثم أدخلوه على الملك، وهو في هياج شديد، يريد العودة إلى الخراب، فلما أخبره الملك أنه يريد تزويجه ابنته، فزع فزعاً شديداً، والتزم الباب، وفر راكضاً، لا يقدر على اللحاق به أحد، يرمي طوال الطريق ماكُسِيَ به من ثياب.

حتى إذا بلغ الخراب، دخلها شبه عار، معفراً بالتراب وهو فرح بخلاصه، مطمئن إلى بلوغه مأمنه، ولكنه أحس أن شيئاً سلساً ناعماً قد تمزق وانسحق تحت قدميه، حين وطئ أرض الخراب، والتفت ينظر، وإذا ثعبان هائلٍ، قد داس بقدمه رأسه، فذعر الخمخوم وتراجع، وعرف أنه الثعبان الذي كان قد خدعه بإخفائه أنثاه الأفعى في بطنه، وخاف من شره، إذ أدرك أنه ماجاء إلا لينتقم منه، ولكن الثعبان انتفض مرتين أو ثلاثاً، ثم همد ميتاً، فتنفس الخمخوم الصعداء.

وإذا الأفعى تدخل عليه، فتحييه، وتشكر له إنقاذها، وتخليصها من شر الثعبان الماكر، الذي كان يريد إرغامها

على الزواج منه، وهي لا تحبه ولا تريده، وسألته مرة ثانية عما يريد، ففرح بها وقال لها، بصوته الأخن:"أنا مثلك يريدون تزويجي ابنة الملك، وأنا لا أريد"، فضحكت منه طويلاً، وقالت: "يالك من أبله، لماذا ترفض؟"، فقال لها:"أنا أقرع، وخمخوم وفقير، وهي بنت ملك"، فقالت له: "اترك الأمر لي"، ثم طلبت منه أن يغمض عينيه هذه الليلة وينام، وألا يفكر في شيء.

ومضى الخمخوم كعادته إلى طرف في الخراب، واستلقى على أكوام من التبن وأغمض عينيه ونام.

وفي الصباح استيقظ وإذا الخدم بين يديه، وقد تحولت الخراب إلى قصر كبير، وهو في سرير ذهبي، مغطي بكلة لؤلؤية ونهض وتأمل نفسه في مرآة كبيرة، تغطي الجدار ، فرأى نفسه في حلة مزركشة، من أفخر الثياب، وعلى رأسه جمة من الشعر الأشقر، وقد تدلت منها طرة على جبينه ولما التفت إلى الخدم يناديهم، أحس لصوته قوة وفخامة، لا يحظى بها أقوى الرجال ثم أحضر له طعام الفطور، فدهش له طويلاً وتملاه، وإذا فيه أطايب الطعام، وأشهاه.

ثم لما كان الضحى مثل بين يديه كبير الخدم، وأعلمه أن موعد زيارته للملك قد حان، وأنه قد أعد له موكبه، فنزل الخمخوم من قصره، ومضى إلى قصر الملك، في موكب مهيب، وكان الملك في انتظاره، فرحب به أعظم ترحيب، وقربه منه، وأدناه، وأنزله في ضيافته ثلاثة أيام، وقد خصه

بجناح في قصره.

ثم كانت الخطبة فالزواج، في احتفال دام سبعة أيام مع سبعة ليال، هنئ فيها الخمخوم بابنة الملك، ونعم، ونسي قرعته وشقاءه، ولكنه في صباح اليوم الثامن أفاق حزيناً، فسألته زوجته عما يحزنه، فأخبرها أنه ذكر جدته، فحن إليها، وأنه يريد رؤيتها، فنصحت له بالمضي إليها لإحضارها كي تقيم معهما في القصر.

وانطلق الخمخوم إلى جدته، حتى إذا دخل عليها لم تعرفه، فأخبرها بأمره، وبما صار إليه من نعيم، ثم حملها إلى قصره، وأفرد لها جناحاً فيه، وعين لها الخدم يسهرون على راحتها، فأمضت بقية عمرها هانئة بما توفر لحفيدها من نعيم، وماتت مطمئنة راضية، هادئة البال، فسبحان مغير الأحوال.

تعليق:

تدل الحكاية على شعور الفقراء ببؤسهم وإحساسهم بسوء حظهم، كماتدل على حلمه بالخلاص والوصول إلى أعلى أشكال السعادة، في ظنهم، وهي الظفر بابنة السلطان.

والحكاية تدل على رغبة في الانتقام للفقراء البائسين إذ يواتي الحظ ذلك الخمخوم فيصل إلى الزواج من ابنة السلطان، وتتضح هذه الرغبة في الانتقام من خلال تصوير ابنة السلطان، وقد أصيبت بالاكتئاب فهي لا تتكلم، ولا يكون شفاؤها إلا على يد الخمخوم، تأكيداً لحاجة السلطان إلى الشعب.

وثمة شعور داخلي بالألم، وإحساس عميق باستحالة تحقيق ذلك كله، ولهذا ظهرت العجائب والقوى الغريبة القادرة على الفعل كالأفعى، مما يدل على معاناة الفقير، وإدراكه أنه بحاجة إلى معجزة حتى يحقق خلاصه.

وبذلك فالحكاية تعبير عن حلم، وهي تنضح بالمرارة والمعاناة، ولقد اتخذت الأسلوب الساخر. لتؤكد أن شرّ البلية مايضحك. ولتدل من خلال السخرية أيضاً على النقمة والمعاناة.

❐❖❐

الطائر الأبيض

في بركة القصر، كانت ابنة الملك الوحيدة، تستحم كل يوم، ومرة افتقدت سوارها الذي تركته على طرف البركة، فلم تجده، ومرة أخرى فقدت منديلها، وثالثة فقدت مشطها، ثم انتبهت إلى أن طائراً أبيض يسرقها أشياءها، وهي تستحم، فعجبت منه.

وذات ليلة، وهي في مخدعها، فوجئت بالطائر الأبيض يحط في نافذتها، ولم يلبث أن نزع ريشه، وهبط إليها، فإذا هو فتى وسيم، حلو الحديث، سامرها طوال الليل، وباح لها بحبه، ونام معها، ثم غادرها في الصباح، قبل أن تستيقظ.

وبينما كانت المربية تصلح لها فراشها، كعادتها كل صباح، وجدت تحت وسادتها صرة نقود، فأخذتها، وكتمت الأمر.

وقد داخل حب الفتى قلب الفتاة، وهو مايفتأ يزورها كل مساء، ليغادرها في الصباح، وحبه في قلبها ينمو

ويكبر، وهي لا تعرف من هو؟ ولا تستطيع أن تبوح لأحد بشيء.

كما ألفت المربية أن تجد كل صباح صرة نقود تحت وسادة الفتاة، فتأخذها في كتمان، ولا تخبر أحداً.

وجاء يوم لم تستطع فيه الفتاة أن تبقى على صمتها، فباحت لأمها بأمر الفتى، الطائر، فأوصتها أمها أن تطلب منه هدية، وإن هو جاء، تتعرف بها عليه.

وإذ سألته، أخبرها أنه يترك لها كل صباح صرة نقود، تحت الوسادة، فأدركت عندئذٍ أن المربية هي التي تسرقها الصرة، فأمرتها أن تترك إصلاح الفراش، فثار الغيظ في صدر المربية، وكانت قد عرفت أمر الطائر الذي يزورها كل مساء، فقررت أن تكيد لها.

وذات يوم نزلت الأم والبنت والمربية إلى الحمام، فاغتنمت المربية الفرصة، وادعت أنها نسيت شيئاً في البيت، واستأذنت في الرجوع إلى القصر، ثم عمدت إلى زجاج، فحطمته، وهشمته، ثم فرشت به أرض الغرفة التي يهبط فيها الطائر، ثم رجعت إلى الحمام، وأخذت تغري البنت والأم بالبقاء في الحمام حتى يدخل المساء.

ولقد كان لها ذلك، فقد دخل الليل، وأقبل الطائر كعادته، وهبط في النافذة، فجرّحه الزجاج المحطم تجريحاً، وما إن رجعت البنت إلى القصر، حتى أسرعت إلى

غرفتها، ففوجئت بخيط دم يمتد من النافذة إلى أسفل الجدار، فأدركت فعلة المربية، وكتمت غيظها.

ومرت الأيام والطائر لا يزورها، وهي تنتظر في شوق، حتى برّح بها الحنين، وأمضّها الانتظار، فانزوت، وانطوت على نفسها، في كرب وضيق، فاعتلّت ومرّضت، وكادت تشرف على الهلاك.

وإذ أُعجز الاطباء شفاؤها، أخبروا الملك أن داء ابنته في فؤادها، لا في جسمها، وأن لاشفاء لها سوى التسلية والسلوان ولما سألها أبوها عن أمرها، باحت له بمكنونات صدرها، فأمر الملك ببناء حمام، تقعد فيها، لتستقبل الزائرات، وليكن أجر الاغتسال فيها حكاية غريبة، تسلّي بنت الملك.

وتناقل الناس خبر الحمام، فأقبلت النساء عليها من كل صوب، حتى وصل الخبر إلى القرى المجاورة، والأرياف، وكانت إحدى النسوة قد سمعت بالحمام، فأسرعت إلى جارتها تخبرها، وترتجي عندها قصة، فاتفقتا على أن تقصدا المدينة، في الصباح، للذهاب معاً إلى الحمام، ونامتا مبكرتين، وقد علقت إحداهما جرساً في بيتها، مربوطاً بحبل ويتمد إلى بيت جارتها، حتى تنبهها في الصباح الباكر.

وحدث أن مرّت أثناء الليل، قطة بالحبل، فاهتز، وقرع

الجرس، فنهضت التي علقت الجرس في بيتها، ومضت في لهفة إلى خارج البيت، وإذا رأت القمر يتوسط السماء، حسبته الشمس، لغفلتها وظنت أن جارتها قد غدرت بها، فسبقتها، وماكان منها إلا أن انطلقت في الفلاة، متجهة نحو المدينة، ولكنها مالبثت أن أدركت خطأها، فلما أرادت العودة إلى قريتها، ضلت الطريق، فخافت الليل والوحش والصمت، فقررت أن تصعد إلى شجرة، لترقد فيها.

وعلى غصن مريح، نالها شيء من النعاس، ولكنها انتبهت إلى أن الأرض قد شقت، وخرج منها خلق غريب، وإذا جوقة من المغنيين تقعد في شكل حلقة، يتوسطها سرير رقد فيه فتى ملفوف الجسم بالضمادات، يبدو عليه الكرب والضيق، وبين يديه سوار ومنديل ومشط، ولم تلبث الجوقة، أن غنت غناءً حزيناً، بكى له الفتى الشاب، وهو يقول:

بحق من هذا سوارها

أبكوا على حالي وحالها

ثم أمر الجوقة، أن تنصرف، فانصرفت، ثم غاب، وقد أخذت الشمس في السطوع،

ونزلت المرأة من مرقدها على الشجرة، وقد ملأ النور الكون، فدهشت لعجب مارأت، وانطلقت إلى المدينة، تمني

نفسها بالحمام، ففي جعبتها قصة ستعجب من غير شك ابنة الملك.

ولقد وقعت القصة من بنت الملك موقع الدواء من الداء، فهي قصتها، ولم تلبث أن انطلقت مع المرأة، إلى حيث رأت مارأت، وصعدتا معاً الشجرة، وباتتا تنتظران الليل، وظهور الفتى وطال بهما الانتظار، ولكن ما إن توسط القمر السماء، حتى حدث ماحدث بالأمس، ومع الصباح اختفى كل شيء، ورجعت المرأة إلى قريتها، فرحة بما أجزلت لها بنت الملك من عطاء، على حين مضت بنت الملك حزينة مكتئبة، لا تعرف كيف يكون لها الوصول إلى فتاها، وما الدواء الذي يمكن أن يشفيه.

وبينما هي في بعض الطريق، سمعت حمامتين تتناجيان، فتقول إحداهما للأخرى: "كم أنا حزينة لجراح الفتى؟"، وتجيبها أليفتها، "قد يزداد حزنك إذا علمت أن شفاءه بنا"، وتسألها صديقتها: "ولكن كيف؟"، فتجيبها: "إن شفاءه في لحمنا ودمنا، وذلك بأن تأخذنا بنت الملك، فتذبحنا، وتعتصر دمنا، ثم تحرق ريشنا ولحمنا، وتعجن الرماد بدمنا، وتصنع منه مرهماً، تمسح به جراح الفتى، فيشفى"، وتجيبها صديقتها: "إني لأفرح إذ شفاؤه فينا، هيا، فلنمكّن بنت الملك من أنفسنا".

وكانت بنت الملك قد أصغت إلى تحاورهما، ففعلت بما سمعت، ومضت فتنكرت في زيّ طبيب، وأخذت تدور

في الممالك والبلاد، تنادي على دواء لكل العلل والأمراض، ومافتئت تحملها بلاد، وتضعها بلاد، حتى بلغت بلد الفتى، وكان مرورها بقصره، فناداها أهله، وهي الطبيب، فصعدت، فرأت الشاب، فعرفته، وهو لايعرفها.

وأمرت في الحال أن ينقل الفتى إلى الحمام، وهناك غسلت له جروحه، وهي متنكرة، ودهنتها بما صنعت من دم الحمامتين ورمادهما، وأقامت عنده تسهر على علاجه، حتى شفي، وزال عنه السقام.

ولما سألها الفتى ماتطلب من جزاء، رفضت أن تأخذ أجراً، ولكنها رجته، وهي ماتزال متنكرة، أن يمنحها منديله، هدية، وكان هو نفس المنديل الذي سرقها إياه، وهي تستحم في بركة القصر، فتردد الفتى، في البدء، ولكنه لم يلبث أن قدّمه إليها، فشكرته، ورجعت قافلة إلى بلدها.

وفور وصولها، عمدت إلى نافذة مخدعها، فأصلحتها، وكنستها، وفرشتها، بالدمقس، ومضت تنتظر زيارة الفتى.

ومامرّ إلا يوم أو يومان، وإذا الطائر يهبط في النافذة، مع المساء، كعادته من قبل، وكانت الفتاة ترقد في سريرها، وقد ارتدت لمقدمه أجمل ماعندها من الثياب،
وتزينت بأغلى الحلى والأساور، وحملت المنديل في يدها، وما إن هبط من النافذة، حتى امتشق حساماً مصلتاً، يريد

قتلها، لإيقاعها به من قبل، كما اعتقد.

ولكنها رفعت يدها تريه المنديل، فعرفها، ودهش لأمرها، فقصت عليه ماكان، وعرفته بأبيها الملك، وتمت خطبتها إليه، ولم تلبث أن زفت في أروع احتفال وعاشا معاً في سعادة وهناءة.

تعليق:

جميل جداً أن يتجلى المحب على حبيبته في هيئة طائر، رمز الحرية، وطالما حلم الإنسان بالتحليق، بمافي التحليق من علو يؤكد النزعة الغريزية، ولكن في تساميها الجليل، وقديماً تحدثت الأساطير عن تجلي رب الأرباب زيوس، على إحدى نساء الأرض في شكل طائر البجع، وطالما حلم الإنسان بالطيور، رمز التواصل واللقاء.

ومن الجميل أيضاً أن يتعامل ذلك المحب الطائر مع أشياء المرأة الخاصة من سوار ومشط ومنديل، في مداعبة ناعمة بريئة.

ولكن لابد بعد ذلك من أن يحاط ذلك كله بقدر غير قليل من التنغيص والعذاب، تأكيداً لما في الحياة من منغصات، ولكن العبرة بالخواتيم، التي هي دائماً سعيدة.

ويلاحظ الفارق بين الأميرة وخادمتها، وماهو الفارق الطبقي، إنما هو على مستوى آخر، إذ تتعلق الأولى بالحب والطائر والسمو، وتكابد العذاب حيث يكون مطهر الروح على حين تتعلق الثانية بالمال، وتصطنع الدسائس والمكر، وتجعل الآخرين يتعذبون، دليلاً على طوية غير نقية.

ومن هذا التناقض تكون الحياة في صراعها الدائم، وتحركها الأزلي الأبدي.

والحكاية في مجملها حلم جميل، أو فانتازيا رائعة، وليس وراءها أكثر من السمو والتحليق والعيش في عالم

الأحلام والعواطف والعذابات الحلوة التي تصفو معها الروح وتصل إلى السعادة المطلقة.

ما أحوج الإنسان إلى تأمل هذا العالم، من خلال الكلمة، أو الصورة، أو الأغنية، أو الموسيقا، ففيها إشباع حقيقي لقوة لا غنى عنها، وهي الخيال الحرّ كالطائر الحرّ الذي لم يقتبس اسمه إلا من حريته المبدعة.

❐❖❐

قلعة من رؤوس

كان لتاجر كبير ابن وحيد، وكان يصطحبه معه دائماً إلى الدكان، فيرى أباه وهو يبيع ويشتري، بسماحة كبيرة، قانعاً بالربح القليل، وكان إذا طلب منه أحد قرضاً منحه إياه، من غير أن يكتبه، حتى إنه كان يمنح قروضه لمن لا يعرفه، وكلما راجعه ابنه في ذلك، قال له: "افعل الخير يابني، ثم ارم به في البحر"، حتى إن الابن كان يضيق بطيب والده، وجوده.

وذات يوم أرسله أبوه في سياحة إلى بلاد بعيدة، ليعرف الدنيا، ويرى الحياة. فحملته الأسفار من بلاد إلى بلاد، حتى حطت به في بلد، سار فيه يتفرج على منازله ومبانيه، وإذا هو أمام قلعة رصفت واجهتها بالجماجم، فعجب مما رأى، وأخذ يسأل الناس عن شأن القلعة، فما ظفر من أحدهم بجواب، فأدرك أن للقلعة سراً، وقرّر الإقامة في البلد، لمعرفة السرّ.

ونزل في خان، وأخذ يطوف في الطرقات، حتى رأى دكان حلاق، دخلها، وقعد ينتظر دوره ويصغي إلى أحاديث

الناس، فما ورد في حديثهم ذكر للقلعة، فلما كان دوره، أخذ يحدث الحلاق، ويسامره، ولما انتهى، أجزل له العطاء.

وأخذ يتردد على الحلاق كل يوم، يحلق لحيته عنده، ويعطيه، فيكثر له في العطاء، ويحدثه فيتبسط معه في الحديث، ويمكث عنده، فيطيل المكث، ثم دعاه إلى الغذاء، حتى تعرف إليه، وقويت بينهما أسباب الصداقة، فجعل الحلاق يدعوه إليه، فيزوره في بيته، ويحدثه بدخيلة نفسه، ويكشف له الحلاق عن همومه، حتى وثق كل منهما بالآخر.

وذات يوم رأى الشاب الفرصة مواتية، فسأل صديقه الحلاق عن سر القلعة، فنصح له الحلاق بالعدول عن معرفة سرها، وحذره منه، ورجاه ألا يلح عليه فيه، ولكن الشاب أبى، وألح في السؤال، فراوغه وموّه عليه، ثم رأى أخيراً أن لابد له من إجابة صديقه، فروى له سرّ القلعة.

ففي القلعة ترقد الأميرة بنت السلطان، وهي قلعتها، خصها بها أبوها، مع الخدم، أما الجماجم جميعاً، فهي رؤوس خاطبيها، أو بالأدق هي رؤوس أزواجها، ذلك أن كل زوج يدخل عليها في المساء، يعلق رأسه على سور القلعة في الصباح، ولا أحد يعرف السبب، سوى أن الخدم يدخلون عليها في مخدعها في الصباح، فيرون رأس الزوج مقطوعاً.

فلما سمع الشاب قصة القلعة، ثار في نفسه العجب، ورغب في المغامرة، وأعلن عن عزمه على خطبة الأميرة، والدخول عليها، زوجاً، أياً كان الثمن، فحذره الحلاق، ونصح له، وتوسل إليه، ورجاه، ولكن من غير جدوى، فقد عزم الشاب، وصمم، وعندئذٍ اشترط عليه الحلاق أن يناصفه في كل مايحصل عليه، فوافق الشاب.

ومضى الحلاق، فسعى لدى السلطان، يخطب ابنته لصديقه الشاب، ثم لازمه في كل ما كان عليه أن يقضيه، فاشترى له فاخر الثياب، وأعده لليلة الزفاف وكان لا يفارقه قيد أنملة، حتى كانت ليلة الزفاف، فأعد له أروع احتفال، ورافقه إلى باب القلعة، ثم ودعه وتمنى له التوفيق.

ومضى الشاب وحده، يرقى الأدراج، إلى مخدع الأميرة، حتى إذا بلغه، دخل عليها في غرفتها، فرآها ترقد على فرش من دمقس، في سرير من عاج، تعلوها كلة خيوطها من ذهب وحرير، فدنا منها، فغمرته روائح العطور الفاغمة، فلما نظر إليها، خفق قلبه، وهو يرى إلى عينيها ذواتي الأهداب السود الطويلة، وإلى شعرها المرسل على صدرها، وتملّى فمها الصغير، وأنفها الدقيق، وصدرها الناهد، وهو يعلو ويهبط في نفس دافئ هادئ، فقد كانت تنام كالطفل الغرير، فلم يشأ أن يوقظها، وراح يتأمل محاسنها، كأنه في معبد، حتى أخذته سنة من النوم، فأغفى، وهو راكع أمام سريرها.

وعندئذ نهض من وراء السرير عفريت هائل، انتضى حساماً مصلتاً ورفعه إلى فوق، ليهوي به على رأس الشاب، ولكنه انشطر فجأة إلى نصفين، بهراوة غليظة، ووقع على الأرض، من غير أن يمس الشاب بأذى.

وكان الحلاق قد دخل القلعة، وراء الشاب، متسللاً، من غير أن يشعر به أحد، وتتبعه، حتى دخل غرفة الأميرة، فدخل وراءه، ووقف خلف الباب، فلما أغفى الشاب، ورأى العفريت يهم به، التقط هراوة، وشطر بها العفريت، ثم تسلل خارجاً، مثلما دخل من غير أن يشعر به أحد.

ولما وقع العفريت على الأرض، تآكل وذاب، ولم يبق منه أثر، وعندئذ تململت الأميرة في سريرها، وفتحت عينيها، ثم نهضت، فرأت الشاب راكعاً أمام سريرها، وهو في إغفاءة، فأقبلت عليه، مفتونة بوسامته، وهو أول شاب تلقاه، فأيقظته، وأخذته بين يديها، ولما أفاق الشاب، ضمها إليه، وأمضيا معاً بقية الليل، في اجتناء ووصال، حتى إذا أقبل الفجر، أغفى كل منهما، وهو يوسد الآخر ذراعه.

ومع الصباح دخل الخدم على الأميرة، كعادتهم، وهم يتوقعون أن يروا رأس الزوج مقطوعاً، مثلما ألفوا، ولكنهم فوجئوا به نائماً مع الأميرة، فارتدّوا خجلين، ثم أسرعوا إلى إخبار السلطان، فقدم بنفسه إلى القصر، فرحاً بسلامة صهره، وبخلاصه من مقتل أزواج ابنته.

وأقيمت الأفراح، واحتفل الناس في البلد بزواج بنت السلطان، وانتهاء سر القلعة، فرفعت عنها الجماجم، وزينت بالأعلام والمشاعل، ودامت الأفراح سبعة أيام، مع سبع ليال، لم ينس فيها الحلاق صديقه الشاب، فقد زاره، وهنأه بزواجه، وبارك له فيه، وحمل أغلى الهدايا له ولعروسه.

ومرت أيام وشهور، كانت ساعاتها هناءة للزوجين، وكان الشاب لا ينقطع فيها عن زيارة صديقه الحلاق، وذات يوم رغب الشاب في العودة إلى الأوطان، فشاور السلطان في ذلك واستأذنه في أخذ زوجته معه، فأذن له، وأعد للزوجين موكب الوداع، وحملت الجمال الهدايا، وأثمن الرحال، وخرج الجند في وداعه، والأميرة إلى جانبه، حتى بلغوا حدود البلاد، عادوا راجعين.

وكان في موكب وداعه صديقه الحلاق، الذي أبى إلا أن يظل مرافقاً له، حتى يبلغ به حدود بلاده، فسارت بهما الإبل معاً، ينزل الحلاق حيث ينزل الشاب، ويرحل حين يرحل، حتى دخلا صحراء قاحلة، فنزلا في أرض قفراء، ليتناولا شيئاً من الطعام، فدعا الحلاق صديقه وزوجته إلى تناول الطعام، على كثيب من الرمل، بعيداً عن الخدم المرافقين، فاستجاب الشاب إلى طلب صديقه وبعدوا جميعاً عن الخدم.

وعندئذٍ ذكر الحلاق صديقه الشاب بما اشترط عليه، فلم يكد يذكر الشاب، فذكره بأنه اشترط عليه أن يناصفه

مايحصل عليه، فذكر الشاب الشرط، واعترف بموافقته عليه، وقال له على الفور: "لك نصف أموالي فخذها"، فأبى الحلاق، فعرض عليه أمواله كلها، فرفض، فحار الشاب، واستفسر من الحلاق عما يريد، فصرح له بأنه يريد أن يشاطره زوجته، فدهش الشاب من صديقه الحلاق، وأنكر عليه ذلك، وذكره بما بينهما من صداقة وإخاء، فأبى إلا أن يكون له شطرها، فنظر الشاب حوله، فوجد نفسه وحده، لايملك فعل شيء، فعرض على صديقه أن يتخلى له عن زوجته وأمواله، فأبى وقال: "لا أريد إلا شطرها"، فاستسلم الشاب لطلب الحلاق.

وعندئذٍ عمد الحلاق إلى حبل، فعلّق به الأميرة من قدميها في نخلة، جاعلاً رأسها إلى الأسفل، ثم أوقد ناراً تحتها، وألقى فيها بعض البخور، مما كان يحمله في كيس صغير، ثم شهر سيفه، ورفعه إلى أعلى، وهم بشطرها إلى نصفين، وصاح: "الله أكبر"، وإذا عفاريت صغيرة، تتدلق من فمها، فتلقفها النار، فتذوب فيها، كالملح، وتحترق".

ثم التفت الحلاق إلى صديقه الشاب، وقال له: "خذ زوجتك، مباركة لك"، فدهش الشاب لما رأى، وعانق الحلاق، وراح يقبّله، ثم قام كلاهما بإنزال الأميرة، التي بدت أحلى مما كانت عليه، وأجمل وأروع، فقد كانت مرصودة لذلك العفريت، يقتل كل رجل يريد زواجها، ليحتفظ بها خالصة لنفسه، وقد أودع فيها تلك العفاريت الصغيرة،

فخلصه منها الحلاق.

ثم عاد الجميع إلى حيث كان الخدم، فحمل الحلاق صديقه الشاب وزوجته على راحلتهما، وامتطى هو راحلته، ثم ودعهما، ومضى متمنياً لهما حياة سعيدة، وابتعد عنهما قافلاً إلى بلاده، ولكن ما إن ابتعد عنهما بضع خطوات حتى ناداه الشاب قائلاً: "بالله عليك، هلا خبرتني أيها الرجل من تكون؟"، فالتفت إليه الحلاق، وهو يبتعد، ثم أجابه: "أنا الخير الذي كان يفعله أبوك، ويرميه في البحر".

تعليق:

تؤكد الحكاية أن فعل الخير لا يضيع، إذ يُجزى صاحبه خير جزاء، ولو تأخر، فما على المرء إلا أن يفعل الخير، في كل حين وآن، وأن من غير أن يرتقب الجزاء.

والحكاية تظهر مايمر به الشاب الغرّ من تجارب قاسية تكسبه عبرة وحنكة وخبرة، وماعليه إلا أن يتزود بالصدق والجرأة، أن يحسن معاشرة الناس، ويجيد اختيار الأصحاب، فالمرء بمن حوله من صحب وخلان.

والحلاق رمز لفعل الخير، الذي ساعد الشاب، وكان صديقاً صدوقاً، والعفريت رمز للشر، وهو مهما استفحل وقوي فمآله إلى زوال، بفضل التعاون والصدق والإخلاص.

والحكاية موجهة إلى الشباب، وهي تعدّهم للمستقبل، وتبين لهم ماقد يعترضهم من صعاب وتزودهم بقدر كبير من الثقة والتفاؤل، وتزين لهم ضرورة فعل الخير.

والحكاية منسجمة وعناصرها متماسكة، وفيها خيال مبدع.

❑❖❑

بنت الملك

كان لأحد الملوك ثلاث بنات، يحبهن حباً كبيراً، إلا الصغرى منهن، فقد كن كلما جلب لهن شيئاً، شكرنه وحمدنه، وقلن له:"أدامك الله يا أبي" إلا الصغرى، فكانت لا تقول شيئاً من ذلك، وإذا ماعاتبها والدها، قالت له: "هو من عند الله". وكان يغضب منها، ويحاول أن يثنيها عما هي فيه، فلا تستجيب له، فيتهددها، ويتوعدها، فلا تخشى، وتظل على قولها.

وذات يوم غضب منها غضباً شديداً، فقرر تزويجها لوّقاد في الحمام، على حين زوج ابنتيه الكبرى والوسطى لاثنين من كبار وزرائه، وزودهما بالهدايا والعطايا، وحرمها هي من كل شيء، ولقد زاد في غضبه ونقمته عليها أنها تقبلت ذلك كله برضى وصمت، ولم تبد أسفاً ولا حزناً ولا ندماً، وكانت إذا لامها أحد على ذلك، قالت: "هو من عند الله".

ولقد كان مسكنها مع زوجها الوقاد في القمين، حيث أخذت تشارك زوجها فراشه الخشن، قريبة من أكوام

الأقذار، قانعة بما هو دون القليل، صابرة على حظها، جاهدة على إسعاد زوجها ما استطاعت، من غير ضيق ولا تذمر ولا ألم.

ومرّت عليها أيام، وإذا هي حامل، ففرحت بحملها، على الرغم مما هي فيه، وأخبرت زوجها، ففرح مثلها، وإن كان لا يريد مثل هذا الحمل المبكر، وأخذت تعد الليالي والأيام، وهي تكر عليها سريعة، حتى اقترب أوان وضعها، فتوسلت إلى زوجها أن يسأل أصحاب الحمام أن يسمحوا لها بدخول الحمام ليلاً بعد إغلاقها، لتضع فيها، إذ لا مكان لها في القمين، لتلد فيه، ففعل ذلك، ووافق أصحاب الحمام.

وذات ليلة أحست أنها في المخاض، فأخذها زوجها إلى الحمام، وأدخلها فيها، ووقف خارجاً ينتظر، وهي وحدها، تعاني آلام الوضع، بصبر وصمت، وبينما هي في المخاض، دخلت عليها أربع نسوة، حيينها أحسن تحية، وهن يحملن لفائف للوليد، وغسلنه وقمطنه، ثم ألبسنها أجمل الثياب، وودعنها وهممن بالخروج، فسألتهن من يكن؟ فأخبرنها أنهن بنات أصحاب الحمام، فشكرت لهن سعيهن وتمنت لهن تحقيق الآمال.

ثم خرجت ففرح بها زوجها، ودهش لما هي فيه من ثياب، ولما قُمِّطَ به الوليد، فأخبرته أن بنات صاحب الحمام هن اللواتي عنين بها، ثم عاد بها إلى القمين، لتنام مع

الوليد، إلى جانب الأكوام من الأقذار مما يوقده.

ومرت عليها الشهور والأيام، وهي تعنى بوليدها، وترعى زوجها، حتى أحست ذات يوم بأنها حامل، فأخبرت زوجها، ففرح بحملها، وأخذا يعدان معاً أيام الحمل، حتى حان وقت وضعها، وأدخلها ثانية الحمام، فوضعت فيه، وكان ماكان في وضعها من قبل، إذ حضرت أربع نسوة عنين بها وساعدنها، ثم خرجن. وأضحى القمين ضائقاً بأربعة اشخاص، الأب والأم، والوليدين، ولكن صبر الأم وحسن مداراتها، كان ينسي كل ضيق.

ومرت الشهور والأيام، فإذا هي حامل، وكان أيضاً ماكان من قبل، ولكن قبل أن تخرج النسوة اللواتي ساعدنها في المخاض، أخبرنها أنهن في الحقيقة لسن إلا ملكات من بنات الجن، فقد أشفقن لحالها، ورثين لها، ثم باركن صمتها، وقدمن لها خاتماً، قلن لها افركيه، حين تشائين فيخرج لك عفريت يحقق كل ماتطلبين.

ففرحت بهن فرحاً، وأسرعت إلى زوجها تهنئه بالوليد الجديد، تقدمه إليه، وتعرض عليه الخاتم، ومالبثت أن باردت إلى فركه، فبرز لها عفريت سألها عما تريد، فتمنت عليه أن يشيد لها قصراً تجاه قصر والدها، وأن ينقلها مع زوجها إليه، وأن يعد لزوجها محلاً كبيراً في سوق التجارة، فنفذ العفريت في الحال كل ما تمنت وإذا هي وزوجها وأولادها في قصر منيف، والخدم بين يديها، يأتمرون

بأمرها، ومضى زوجها إلى محله التجاري يشتري ويبيع وإذا هو بين عشية وضحاها كبير التجار.

وأطل الملك ذات يوم من شرفة قصره، فرأى القصر الذي نهض تجاهه، فسأل لمن يكون هذا القصر؟ فأخبر بأنه لكبير التجار، فرغب في التعرف إليه، فأرسل في طلبه، وماهي إلا أيام حتى توطدت بين الملك وصهره الوقاد كبير التجار المودة، فأضحى أثيراً لديه، يدنيه منه، ويرفع من مكانته، ويخصّه بالاحتفالات والدعوات وهو لا يعرف من يكون.

ولما أدركت بنت الملك أن الوقت قد حان للكشف لأبيها عما آلت إليه، طلبت من زوجها أن يدعو أباها الملك إلى القصر، وأمرت الخدم أن يعدّوا أطايب الطعام، ثم قامت هي نفسها بإعداد نوع يحبه والدها، وحين دخل الملك مع وزرائه إلى قاعة الطعام، وأخذ موضعه من المائدة، لاحظ النوع الذي يحبه، فمال إليه، وأخذ يتناوله متحسراً متألماً، وهو يحدث مضيفه عن ابنته التي كانت تعدّ له مثل هذا النوع، والتي ظلمها فزوجها من وقاد، وتخلّى عنها، وماعاد يسأل عنها، وكان المضيف يسمع من غير أن يتكلم.

ثم قام الملك بدعوة من مضيفه بجولة في القصر تعرف فيها إلى أرجائه ونواحيه، وخلال تجواله قدم له مضيفه ثلاثة أطفال، وهم أولاده، فأعجب الملك بجمالهم

وذكائهم، ثم مال على أكبرهم وقبله، وقد تحرّك في نفسه شيء من الحنين، ثم سأله وهو يداعبه: "من أين لك هذا الجمال؟"، فأجاب الولد على الفور: "هو من عند الله"، وكانت أمه قد أوصته بذلك، فلما سمع الملك الجواب، صعق، والتفت إلى مضيفه يسأله:"بالله عليك، هلا أخبرتني من تكون أم هذا الولد؟".

وعندئذٍ برزت له ابنته، وقالت: "هذه أنا يا أبي"، فكاد الملك ينكرها، ولكنه فتح لها ذراعيه، وضمها إلى صدره، والدموع تنحدر من عينيه، ثم أمر بتعيين صهره وزيراً عنده، وقرب منه ابنته، وأعاد إليها ماكانت فيه من عزة، وأسف على مافرط، وندم.

تعليق

تعالج الحكاية مشكلة العلاقة بين الآباء والبنين، من زاوية خاصة، وهي رغبة الآباء دائماً في سماع كلمة طيبة من أبنائهم، وغالباً مايقع الآباء، ولاسيما العجائز، في شرك الأبناء الذين يكيلون المديح والثناء لآبائهم، فيكرمون مثل هؤلاء الأبناء على حين يسيئون إلى الأبناء الذين لا يعرفون المداهنة والتملق.

والحكاية تؤكد أن الوفاء لا يكون بالضرورة بالكلام المعسول إنما هو بالمواقف النبيلة، وفي الحكاية خيال شعبي جميل ومواقف ذكية، وهي تدل على حلم الفقراء أيضاً بالزواج من بنات الملوك والوصول إلى سدة العرش.

والحكاية تشبه إلى حد كبير الحكاية التي بنيت عليها مسرحية شكسبير "الملك لير"، والمجال مفتوح للمقارنة.

❑❖❑

الفقير والوزير

كان أحد الرجال فقيراً معدماً، وكان ذا عيال كثير، يعمل من الصباح إلى المساء، عتالاً يسوق حماره، يحمل عليه للناس أشياءهم، كي يفوز بقليل من الدراهم، يشتري بها لعياله الخبز والإدام، وكان في كثير من الأيام لا يحصّل غير ثمن الشعير للحمار، ويعود إلى البيت، ليمضي الليل مع العيال، غرثى جائعين.

وذات يوم فتح الله عليه برزق كثير، فاشترى لأهله ألواناً من الطعام، وملأ كيس الحمار بالشعير، وقصد بيته، وبينما هو في بعض الطريق عرضت له حاجة، فانتحى جانباً، تاركاً الحمار، ثم قضاها.

ولما رجع لم يجد الحمار، فتلفت يبحث عنه، فلم ير له أثراً، فأخذ يفتش عنه، فطاف في الأزقة، ودار في الحارات، وهو ينادي، ويسأل عنه، حتى تورمت قدماه، ولكن في غير جدوى، فما كان منه إلا أن حدج السماء بنظرة شزراء، ثم صاح في غضب:

- يارب، كل الأيام لا أرزق إلا بالقليل، ويوم رزقت

بالكثير ضاع الحمار؟!..

ومضى إلى الملك، مغاضباً، يريد أن يشكو الله إليه، فمنعه الحرس من الدخول، فأخذ يصرح ويصيح، حتى سمع الملك الصوت، فأطل من نافذة القصر، فرأى ذلك البائس الفقير، فأشار إلى الحرس أن اسمحوا له بالدخول، فدخل، والغضب بادٍ عليه، ليعلن أنه يريد رفع شكوى ضد الله، فضحك الملك طويلاً، وطيّب خاطره، ثم سمع حكايته، فأمر له بعطاء جزيل، فخرج فرحاً به مسروراً.

وكان الوزير إلى جانب الملك، يسمع ويرى، فحزّ في نفسه أن يحظى هذا الفقير، بذاك العطاء، فمال على الملك، وأوغر صدره عليه، موحياً إليه أنه ليس إلا محتالاً، اختلق تلك القصة، ليظفر بالمال، ثم طلب من الملك أن يرسل وراءه، فإن لديه سؤالاً يريد أن يمتحنه به، ليكشف احتياله، فأرسل الملك الجند وراء الفقير، فأحضروه، فدخل مذعوراً، فأخبره الملك أن الوزير يريد أن يسأله سؤالاً، إن عرف الجواب، أجزل له العطاء، وإن لم يعرف، قطع رأسه.

فاضطرب الفقير واغتم، ولكنه امتثل، وأعلن استعداده، لسماع السؤال، وعندئذٍ سأله الوزير: "أين أول الدنيا؟ وأين آخرها؟"، فأجابه على الفور: "عند أقدام الملك، أولها وآخرها". فسر الملك بالجواب، ونظر إلى الوزير، فإذا هو صامت لا يريم، فأمر للفقير بعطاء كبير، فأخذه الفقير وخرج فرحاً، والوزير يتميز من الغيظ.

ولكن لم يلبث الوزير أن مال على الملك، وأكد أن ذلك الفقير محتال، ثم طلب منه أن يرسل وراءه، فإن لديه سؤالاً آخر يريد أن يمتحنه به، فأرسل الملك الجند وراءه، فأحضروه، فدخل، وقد أدرك أن الوزير هو الذي يكيد له، ويؤلب الملك عليه، ولما عرض عليه الملك الشرط، أن يعرف الجواب، أو يقطع رأسه، أعلن القبول، فليس له في الأمر حيلة.

وعندئذٍ سأله الوزير:"في أي جهة وجه الله؟"،فأطرق الفقير قليلاً، ثم طلب من الملك أن يأمر الخدم كي يحضروا له شمعة، فلما أحضرت أشعلها، ووضعها أمام الملك، ثم سأله:"أين وجه هذه الشمعة؟". فأجاب الملك: "في كل الجهات"، فالتفت الفقير إلى الوزير، وأجابه: "وكذلك وجه الله، فهو في كل الجهات". فأعجب الملك بجوابه أي إعجاب، وأجزل له العطاء، فأخذه وخرج، مزهواً بنصره، فرحاً بالعطاء، والوزير في ضيق شديد، وغضب كبير.

ولكن لم يلبث الوزير أن حزم أمره، ومال على الملك، وطلب منه أن يأمر بإحضار الفقير، فإن لديه سؤالاً أخيراً، يريد أن يمتحنه به، فأجاب الملك طلب وزيره، وأرسل وراء الفقير، فأدخله الجند، وهو في قلق كبير، فقد أيقن أنه هذه المرة أمام امتحان قد يخسر فيه حياته، ولكنه ملك نفسه، وصمم على تحدي الوزير، ولما أعاد عليه الملك الشرط، أكد بحزم قبوله، واستعداده لسماع السؤال.

وعندئذٍ تحرك الوزير، وزها بنفسه، ثم ألقى سؤاله: "ماهو عمل الله؟". فتبسم الفقير، والتفت إلى الملك يسأله أن يعطيه الأمان، فأعطاه الأمان، فطلب منه أن يأمر الوزير بخلع ثيابه، فأمر الملك وزيره بذلك، فدهش الوزير، وارتبك، وراوغ، يحاول التملص، ولكن الملك أشار عليه أن أفعل، ففعل، وعندئذٍ خلع الفقير ثيابه، وألقاها على الوزير، ثم طلب من الملك أن يأمر الوزير بارتداء ثيابه، هو الفقير، فأمر الملك الوزير أن يرتدي ثياب الفقير، فتردد الوزير واضطرب، ثم تبسم، واصطنع المزاح، ولكن الملك نظر إليه يحذره، فلم يجد بداً من الانصياع، فلبس ثياب الفقير، وعندئذٍ لبس الفقير ثياب الوزير، ثم التفت إلى الملك يسأله أن يأمره وزيره بالنزول عن كرسيه، فأمره الملك أن ينزل عن الكرسي، فارتبك، وحار في أمره، ولكن الملك عاجله أن افعل، فنزل، وعندئذٍ ارتقى الفقير إلى جانب الملك، وقعد على كرسي الوزير، ثم التفت إلى الوزير، وقال له: "انظر، هذا هو جواب سؤالك، إن عمل الله أن يرفع أناساً، وأن يضع آخرين".

فأعجب الملك بذكاء الفقير، وقال له: "لقد ثبتتاك فيما أنت فيه، فأنت منذ اليوم وزيري"، فبهت الوزير، وصعق، وقبل أن ينطق بشيء، أمر الملك الجند أن يسوقوه إلى السجن، ثم التفت إلى الفقير، وقد غدا وزيره، يهنئه، ويبارك له، وقد أدرك أن في شعبه من هو أذكى من ذلك الوزير المحتال، وأجدر بالوزارة منه.

تعليق:

تؤكد الحكاية أن ثمة تفاوتاً كبيراً في الحظوظ بين الناس، فهذا وزير وذاك فقير، وليس مرجع ذلك إلى ذكاء أو غباء، وإنما مرجعه إلى مشيئة الله عز وجل، فربّ ذكي فقير، ورب وزير ليس بالقدر نفسه من الذكاء.

وتؤكد الحكاية أن على المرء أن يسعى ويعمل، ولا يستسلم لما هو فيه، بدعوى أنه قدره، إذ إن انتقاله إلى وضع آخر أفضل هو قدره أيضاً.

والبنية الثلاثية واضحة في الحكاية، وتتمثل في الأسئلة الثلاثة التي يطرحها الوزير، وفي هذه الأسئلة قدر غير قليل من الألغاز ، وهي تعلم الناشئة، وتنبه تفكيرهم، وتدرّبهم على حسن الإجابة.

وإذا كان الفقير قد أضاع في بداية الحكاية حماره، فقد تولى الوزارة في نهاية الحكاية، مما يدل على قيام العدل، ومثل هذه النهاية تدل على عمقها وبصورة غير مباشرة على أن الأجدر بأمور الحكم هو الأذكى، ولكن ذلك نادراً مايتحقق، وبذلك تحمل الحكاية في داخلها نقمة خفيّة.

❒❖❒

الغزالة

كان لأحد الملوك ثلاث بنات وثلاثة صبيان، وقد عني بتربيتهم، وحرص على أن يغرس فيما بينهم المودة والتفاهم، ولما حضرته المنية أوصى أبناءه الثلاثة أن يزوجوا شقيقاتهم لأول خاطب يطلب الزواج منهن، فوعده الإخوة بتحقيق ذلك، وبعد وفاته تولى الابن الكبير الملك، وعين أخاه الأوسط وزيراً للميمنة، والصغير وزيراً للميسرة، وسارت لهم الأمور على خير مايرام.

وذات يوم تقدم إليهم رجل رث الثياب، زريّ الهيئة، يطلب الزواج من أختهم الكبرى، ولما سأله الأخ الكبير عن عمله، أجاب بأنه يعمل وقّاداً في حمام، في بلد بعيد، فغضب الأخ، وأقسم لن يزوجه أخته، ولو سلخوا جلده، وشايعه الأخ الأوسط وأقسم لن يزوجه إياها ولو فرموا لحمه، وتدخل الأخ الصغير، فذكّر أخويه بوصية الوالد، وطالبهم بتنفيذ وعدهم له، فأحس كل من الأخوين بالإحراج، واضطرا للموافقة، وفي أيام تم تجهيز البنت الكبرى، وزفافها إلى الغريب، الذي لم يلبث سوى أيام، حتى

أخذها معه إلى بلاده البعيدة.

وفي يوم آخر قدم غريب آخر، فكان من أمره ماكان من أمر الأول، ثم قدم غريب ثالث، فكان من أمره أيضاً ماكان من أمر الأولين، وهكذا تزوجت الأخوات الثلاث على كره من الأخوين، الكبير والأوسط، وبموافقة من الأخ الصغير، تنفيذاً لوصية الوالد.

وبدأ الأخوان الكبير والأوسط يحّسان بالضيق من أخيهما الصغير، وأخذا يكيدان له، حتى أصبح لا يطيق الإقامة معهما في القصر، فقرر اعتزال الحكم والتخلي عن المشاركة فيه، وماكان منه إلا أن هجر القصر، وتاه في البلاد، لا يستقر به المقام في بلد، حتى ينتقل إلى سواه، وكان دائماً يتمنى أن يدخل بلداً تكون فيه إحدى شقيقاته، لعله يلتقي بها، ويطمئن على حالها، وهو لا يعرف في أي البلاد مقرهن.

وذات يوم، وهو في الفلاة، يسير وحده تائه الخطا، لاحت له غزالة، اقترب منها، فلم تجفل، فاقترب أكثر، فإذا هي تنطلق وتحييه بفصيح الكلام، فدهش لأمرها، وقد فتنته بحور عينيها، وجيدها الأتلع، وشعر بالأنس في قربها، وأخذ لا يفارقها، يسير حيث تسير ويقيم حيث تقيم.

ولما تأكدت الغزالة من تعلقه بها، عرضت عليه صحبتها، ووعدته بأن تحقق له مايتمناه، فوعدها أن يظل

وفياً لها مدى العمر، ثم تمنى عليها أن تحمله إلى شقيقته الكبرى، فطلبت منه أن يبقي أمرها سراً، وألا يبوح بشيء عنها، مهما حاولت أخته وزوجها استدراجه إلى ذلك، ثم حملته على ظهرها وقفزت بضع قفزات، وإذا هو أمام قصر شاهق، قعد في ظله، لا يعرف ماذا يفعل، وهو غير مصدق أن تكون أخته فيه، ولما طال قعوده، أخذته سنة من نوم، فأغفى ونام.

وخرجت إحدى الجواري في القصر، فرأت شاباً وسيماً، بهي الطلعة، يشبه سيدتها الشبه كله، فأسرعت إلى سيدتها تخبرها بأمره، وقد وصفته لها، ثم قالت: "عينه عينك، ووجهه وجهك، ولاشك أنه أخوك أوابن عمك"، فدهشت السيدة، وأرسلت الخدم لإحضاره ولما دخل عليها أسرعت إليه تعانقه وتبكي، وتعجبت لتمكنه من حضوره إليها، وسألته إذا كانت الغزالة قد أحضرته، فنفى ذلك، فحذرته منها، فأكد أنه لم يلتق بغزالة، ولا يعرف من أمرها شيئاً.

وأعدت الأخت لأخيها أطايب الطعام، وفرحت به، وسعدت بلقائه، ثم فجأة عمّ الكون قتامة سوداء، وقصف الرعد، وزمجر، فسرى الخوف في أوصال الأخت، فعجب أخوها للأمر، فأخبرته أن زوجها قادم، فسألها:"ومن زوجك؟!"، فأجابته: "ملك الجان الأحمر"، ثم نفخت على أخيها فحولته إلى قطعة حلوى صغيرة، خبأتها في ثوبها.

ودخل الزوج غاضباً، وبادر إلى سؤالها عمن في

زيارتها من الإنس، فأنكرت فأكد لها أنه يشتم رائحة الإنس، ولا داعي للإنكار، فأقرت بوجود أخيها، فازداد غضبه، وأكد أنه سوف يسلخ جلده، إن كان أخاها الأكبر، وسيمزق لحمه، إن كان أخاها الأوسط، أما إذا كان أخاها الأصغر، فإنه يرحب به خير ترحيب، فاطمأنت الأخت، وأعادت أخاها إلى حالته الأولى، فرحب به زوجها، وعانقه، ثم سأله إن كانت الغزالة قد أوصلته إلى القصر، فنفى ذلك، فاطمأن إليه، ودعاه إلى الحلول في القصر ضيفاً.

وأقام الأخ في قصر أخته أياماً، سعد فيها بلقاء أخته، ولما عزم على الرحيل زوده زوج أخته بثلاث شعرات، أوصاه أن يحرقها إذا ماوقع في مأزق.

وخارج القصر، وجد الغزالة في انتظاره، فامتطى ظهرها، فقفزت ثلاث قفزات، فإذا هما في الغابة حيث كانا من قبل، وسألته الغزالة إن كان قد حدث أخته أو زوجها عنها، فنفى ذلك، وأكد إخلاصه لها، ووعدها ألا يتخلى عنها أبداً.

ثم طلب منها أن تحمله إلى أخته الوسطى، ففعلت، وكان من أمره معها ماكان من أمره مع أخته الكبرى، وقد عرف أن زوجها ملك الجان الأخضر، وقد زوده قبل وداعه بثلاث شعرات، أوصاه فيها، أن يحرقها إذا وقع في مأزق.

ثم زار أخته الصغرى، فكان من أمره معها أيضاً

ماكان من أمره مع أخته الكبرى والوسطى، وقد عرف أن زوجها ملك الجان الأزرق، وقد زوده قبل وداعه بثلاث شعرات، أوصاه أن يحرقها إذا ماوقع في مأزق.

وقد أوصته أختاه الأخيرتان كما أوصته أخته الكبرى بالحذر من الغزالة، وأنكرتا عليه أن تكون هي التي حملته إليها، ولكنه نفى ذلك، وأكد أنه لا يعرف الغزالة.

وكان لما خرج من قصر أخته الصغرى قد وجد الغزالة بانتظاره، فامتطى ظهرها فقفزت ثلاث قفزات، فإذا هما معاً في الغابة، حيث كانا من قبل.

وأعادت عليه الغزالة سؤالها، إن كان على استعداد للبقاء معها، والوفاء لها، فأكد ذلك، ووعدها ألا يتخلى عنها مدى العمر كله، وكان مايزال ممتطياً ظهرها وهي تسير به، فقفزت فجأة قفزة قوية، فحلق في الهواء، ثم وقع، فإذا هو في خضم البحر.

وبهت، وكاد يشرف على الغرق، ولكنه أخذ يسبح نحو الشاطئ، بكل ما أوتي من قوة، حتى بلغه بعد عناء شديد، فألقى نفسه على الرمال، ونام.

ولما استيقظ رأى حمامتين تختصمان، وكل منهما تقول للأخرى:" الطاقية لي، الطاقية لي"، ثم تنبهت إحداهما إليه، فقالت للأخرى:"تعالي نحتكم إلى هذا الإنسي"، ثم قدمتا إليه، وطلبتا منه أن يحكم بينهما في طاقية اختلفتا

فيها لمن تكون، فقد ورثتا عن أبيهما بساطاً، وعصاً، وطاقية، وقد أخذت إحدهما العصا، وأخذت الأخرى البساط، ثم اختلفتا في الطاقية، فوعدهما أن يحكم بينهما، وماكان منه إلا أن التقط من الأرض حجراً وقذفه بقوة، ثم طلب من الحمامتين أن تسرعا إلى الحجر، ومن تحضره منهما، تكون لها الطاقية.

وأسرعت الحمامتان وراء الحجر، وقد تركتا عنده الطاقية والبساط والعصا، فمد البساط وقعد فوقه، ووضع الطاقية على رأسه، ثم حمل العصا، وأشار إلى البساط

طالباً منه أن يوصله إلى حيث الغزالة، تاركاً الحمامتين.

وحط به البساط في قصر الغزالة، فمضى إليها في مخدعها، والخدم لا يرونه، لأنّ الطاقية على رأسه، فلما صار أمامها، وضع الطاقية، فسألته عن سبب مجيئة إليها، فأكد لها وعده بعدم التخلي عنها، فسرت به، وصدق عندها وفاؤه، فجعلت له جناحاً خاصاً في قصرها، ليقيم فيه.

ثم سلمته أربعين مفتاحاً، لأربعين غرفة، وأذنت له في دخولها جميعاً، ماعدا غرفة واحدة، رجته ألا يدخلها أبداً، فأمضى في القصر أياماً وهو يتفرج على الغرف وماضمته من جواهر وعقود، ونفسه تراوده بفتح الغرفة الأربعين.

وذات يوم وجد نفسه مدفوعاً إلى الغرفة الأربعين،

ففتحها ودخل، وإذا رجل معلق من يديه في جدارها، وهذا الرجل طوله شبر واحد، ما إن رآه حتى أخذ يتوسل إليه راجياً منه أن يفك قيده ويطلقه، فأشفق عليه، فأطلقه، فإذا الغزالة قد حلت محله على الفور.

وهم بقتل الرجل القصير، ولكن هذا ضحك ساخراً، وقال له: "هيهات لا يمكنك قتلي، فروحي محفوظة في قلب فيدوس، صاحب سبعة رؤوس"، وأخذت الغزالة تبكي وتتوسل إلى الفتى ترجوه أن يبذل جهده كله ليحصل على روح الرجل القصير من قلب فيدوس، وعلىالفور مدّ الفتى البساط، وطلب منه أن يحمله إلى حيث فيدوس.

وحطّ به البساط في ظاهر بلدة، قرب بيت صغير، قرع بابه، فخرجت له عجوز، طلب منها شربة ماء، فعجبت لأمره وأدركت أنه غريب، ثم أخبرته أن الماء قد نضب من آبار البلدة كلها، وأن سواقيها قد جفت، والناس ينتظرون وصول ابنة الملك إلى فيدوس حتى تصل المياه إلى الآبار والسواقي، فقد تسلّط على البلدة، وسد بقدمه نبع الماء في الجبل، وقد اعتاد الناس أن يقدموا له في كل ربيع أجمل فتاة في البلدة، فيشغل بافتراسها عن سد النبع ، فينبجس الماء، ويتدفق نحو البلدة ليملأ آبارها وسواقيها، وقد وقع اختيار الضحية هذا العام على ابنة الملك.

ولما علم الفتى بذلك، أسرع إلى البلدة، فرأى فيها هرجاً ومرجاً، وفيها أناس يندبون ويبكون، لتقديم ابنة الملك

ضحية، وأناس يرقصون ويغنون، فرحاً بقرب وصول الماء إلى آبارهم، ثم رأى موكباً يخرج من قصر الملك، وفيه فتاة صبية، في أبهى حلة، يقودها فارس ملثم، فأدرك على الفور أنها ابنة الملك، تقاد إلى حيث فيدوس، فتتبع الموكب إلى أن غادر البلدة، وأخذ يصعد الجبل، ولما اقترب الموكب من القمة توقف المرافقون، ومضى الفارس الملثم، يقود ابنة الملك وحدها، إلى حيث فيدوس، فلما ابتعد بها عن الأنظار، برز له الفتى، مشهراً سيفه، طالباً منه ترك ابنة الملك، ليتولى هو بنفسه قيادتها، فتركها الفارس على الفور، ومشى بها إلى فيدوس.

ولما بلغ مغارته، ناداه طالباً منه الظهور، فعجب فيدوس للأمر، وهو الذي لم يعتد على ذلك من قبل، فرد عليه طالباً منه ترك الضحية وحدها، ولكن الفتى أصر طالباً منه الظهور، فمد فيدوس رأسه من المغارة، فهوى عليه بالسيف، فقطعه، فغضب فيدوس، ومد رأسه الثاني، فهوى عليه بالسيف أيضاً، وهكذا حتى أتى على رؤوسه السبعة، ثم التفت إلى ابنة الملك، وطلب منها أن تعود من حيث جاءت، وألا تخشى شيئاً.

ثم دخل المغارة ، فشق صدر فيدوس، وأخرج قلبه، وفتحه، فعثر فيه على صندوق صغير، فخبأه تحت قميصه، ورجع إلى البلدة.

وكان الماء قد انبجس من النبع، وجرى ممتزجاً بدم

فيدوس، ليملأ السواقي والآبار، وفرح به الناس فرحاً شديداً، ثم ازداد فرحهم حين رأوا ابنة الملك قادمة من الجبل سليمة معافاة، وأقام الملك الزينات، وأعلن الأفراح، ودعا الناس جميعاً إلى ولائم أقامها في الساحات، ثم أعلن أنه سيزوج ابنته من قاتل فيدوس، وتقدم شبان كثيرون، يدعي كل منهم أنه هو الذي قتله، ولكن ابنة الملك كانت تكذبه، فيرتد مدحوراً.

وبينما هي جالسة في شرفتها، إلى جانب أبيها، تنظر إلى الناس مقبلين على الولائم المقامة في الساحات، رأت الفتى، فعرفته على الفور، وأشارت إليه، وهي تقول لأبيها: "هذا هو قاتل فيدوس".

وأرسل الملك على الفور جنده، فأحضروا الفتى، فسأله إن كان هو حقيقة قاتل فيدوس، فأجاب: "نعم"، فشكره الملك على ذلك، وأخبره أنه يرغب في تزويجه ابنته.

وجددت الأفراح، كما جددت الولائم، وتزوج الفتى ابنة الملك، وسعد بها، كما سعدت به، ومرت عليهما أيام وشهور، كادت تصير إلى عام، حملت فيها الزوجة، وبدأت تستعد لاستقبال المولود.

وذات يوم عثرت الزوجة على العلبة الصغيرة، وكان الزوج قد خبأها في مكان أمين، فعجبت لأمرها، ولما سألته عنها، تذكر الغزالة والرجل القصير، فراوغ في الجواب، ثم

ألحت عليه أن يفتح العلبة، واضطر أمام إلحاحها إلى فتح العلبة، فطار منها عصفور صغير، وأدرك على الفور خطر ما أقدم عليه، فأشعل ثلاث شعرات، فحضر على الفور زوج أخته الكبرى، فطلب منه أن يحضر له ذلك العصفور، فأحضره إليه، فأعاده إلى العلبة.

ومرة أخرى ألحت عليه، ففتحها، ومرة أخرى استنجد بزوج أخته الصغرى، فأعاد إليه العصفور، وكرة ثالثة أعاد الأمر نفسه، ثم أدرك أن إرادته قد ضعفت، وأنه يوشك أن يودي بالغزالة، فعزم أمره على الرحيل.

وذات صباح، وبينما زوجته في المخاض، قدم لها عقداً، وطلب منها أن تلبسه للمولود في عنقه إن كان أنثى، وفي معصمه إن كان ذكراً، ثم مدّ البساط، وقعد فوقه، وطلب منه أن يوصله إلى حيث الغزالة.

وحط به البساط أمام الغزالة، والرجل القصير يضربها بالسوط، وعلى الفور فتح العلبة، وأمسك بالعصفور، فأخذ القصير يرجو منه إطلاقة، في حين أخذت الغزالة ترجوه أن يبادر إلى فصل رأسه عن جسده.

وكادت نفس الفتى أن تضعف، ولكنه أسرع ففصل رأس العصفور عن جسده، فوقع الرجل القصير على الأرض، جثة هامدة، لا حياة فيها، ثم نظر إلى الغزالة المقيدة إلى الجدار، وإذا هي صبية حسناء، في ربيع

العمر، فبادر إلى فك قيودها، وإطلاقها.

ولما لامته الغزالة على تأخره عنها، اعتذر لها، وأكد عزمه على البقاء بجانبها، فأخبرته أنها ملكة على سبعة بلاد، وأن ذلك الرجل القصير هو الذي مسخها غزالة، ثم حملته، وحطت به في قصرها، فإذا هي ملكة متوجة، يحف بها الخدم والوزراء.

ولما عرضت عليه الزواج منها، وافق، فتزوجته، وتنازلت له عن الحكم، وأصبح ملكاً يتصرف في شؤون البلاد والعباد.

أما ما كان من أمر زوجته، ابنة الملك التي أنقذها من فيدوس، ثم تركها وهي في المخاض فقد وضعت ولداً ذكراً، ربته في حجر جده الملك، وكان لا يعرف لنفسه أباً سواه.

ثم كبر الولد، فوضعت أمه في معصمه الطوق الذي كان قد أهداها إياه أبوه، وأخذت تبدو على الولد ملامح الذكاء.

وذات يوم كان يلعب مع ابن الوزير، فإذا ابن الوزير يعيب عليه أنه لا يعرف من أبوه، فأنكر ذلك، ولكن ابن الوزير أكد له أن من يدعوه أباه ليس إلا جده لأمه.

وسأل الولد بعض المقربين عن الأمر، فأكدوا له ماقاله ابن الوزير، فماكان منه إلا أن ترك القصر، وهام على وجهه في البلاد، يبحث عن أبيه.

وتقلبت به البلاد، كما تقلبت به الأعمال، حتى بلغ

البلد الذي يحكمه أبوه، ففتح فيه مطعماً، وأخذ يصنع أطايب الطعام، حتى بلغت شهرته قصر الملك، فجرب طعامه يوماً، فأعجب به، وأصبح الملك لا يتناول طعاماً إلا من صنعه، وكان لا يتردد أحياناً عن زيارته في مطعمه مساءً لتناول طعام العشاء، وقضاء السهرة معه.

وكان يحدث زوجته عنه، ويصفه لها، حتى أنها عشقته على السماع، وأخذت تتمنى لقاءه، ثم قررت أن تصل إليه، مهما كلفها الأمر، فأرسلت وراء البنائين، فطلبت أن يحفروا لها نفقاً تحت الأرض يصل مابين قصرها ومطعمه، وأن تشاد وراء المطعم غرفة خاصة ليتم لهما اللقاء، ولما تم لهما ذلك، أخذت تزوره كل مساء، تأنس بحديثه، وترتاح إلى لقياه.

وذات يوم قدم إليه الملك مساءً، لتناول طعام العشاء، وتزجية الوقت، وبينما هما معاً، وإذا الملك يسمع قرعاً على باب في عمق المطعم، فسأل عن الأمر، فأجاب الولد أن الخدم والطباخين يغسلون الصحون والقدور، ثم توجه نحو الباب وهمس طالباً عدم إحداث الضجيج، معلناً عن وجود الملك في المطعم.

ومرت ساعة وبضع الساعة، وإذا القرع يتكرر ثانية، فدهش الملك، فعلل الولد ذلك بما علله في المرة الأولى، ومرت ساعة أخرى، وإذا القرع يتكرر ثالثة، فشك الملك في الأمر، وقام إلى الباب بنفسه، ففتحه، وإذا زوجته وراء

الباب، ودخل الغرفة فرأى النفق، وعرف حقيقة الأمر، فاقتاد زوجته والولد إلى القصر، وأمر الجلاد بضرب عنق الولد على الفور.

وتوسلت إليه الزوجة، ترجوه العفو عن الولد، وأكدت له براءتها وبراءته معاً، ولكن الملك لم يصغ إليها، وأشار إلى الجلاد، يأمره بتنفيذ مهمته.

وتقدم الجلاد، يصحبه الخدم، فبادر هؤلاء إلى خلع قميص الولد عن جسده، وأحضروا الأغلال لتقييد يديه، فرأى الملك العقد الذي أهداه إلى زوجته في معصم الولد، فأشار إلى الخدم أن كفوا عنه، ثم بادر إليه يسأله عن حقيقة أمره، فروى له الولد حكايته بالتفصيل، فعرف فيه الملك ابنه، فضمه إليه وعانقه، وعفا عنه.

ثم أرسل إلى زوجته أم الولد التي كان قد خلصها من فيدوس، وكان أبوها قد توفي، وكانت قد ورثت العرش من بعده، فأحضرها إليه، وأفرد لها جناحاً خاصاً في القصر وضم بلادها إلى بلاده، وعين ابنه حاكماً عليها، وقد أصبح ملكاً على ثمانية بلاد.

ثم سمع ببلد مجاور لبلده يقتتل فيه أخوان على الحكم، فخشي أن يكونا أخويه، فأرسل إليهما يدعوهما إليه، فإذا هما أخواه، فلما عرفاه اعتذرا له، وتنازلا له عن الحكم،

فضم بلادهما إلى بلاده، وعينهما وزيرين له، وعاش يحكم في الناس بالعدل، إلى أن وافاه الأجل.

تعليق

حكاية متميزة، تتضمن حكايات وعناصر كثيرة، ركبت بإتقان، وهي تعالج مشكلة الأخ الأصغر، يقسو عليه إخوته، فيغترب، ويضيع، ويعاني ويتشرد، ولكن الفوز يكون له في النهاية.

ويظهر السحر في الحكاية كما يظهر ملوك الجان، مما يثير الخيال، ويعبر عن تعلق الإنسان بالعجائب، وميله دائماً إلى تجاوز المعقول والواقع.

وتبدو معاناة الغزالة من السحر موازية لمعاناة الأخ الأصغر، وهي التي تساعده على لقاء إخوته، وهو الذي يساعدها على الخلاص من السحر، فإذا هما متضافران، والعقبى في النهاية لهما.

وفي الحكاية عناصر مكرورة في حكايات كثيرة، منها الأبواب الأربعون، والعصا والبساط والطاقية، والشعرات الثلاث، والسرداب يبنى بين قصرين ليصل بين عاشقين، وهي كلها عناصر مكرورة، ولكن ضمتها هذه الحكاية بإحكام، ووظفتها خير توظيف.

وفي الحكاية أيضاً حكايات جزئية، ولكنها ليست منفصلة ولا مستقلة، وإنما هي مرتبطة بالبنية العامة، منها حكاية الوحش الذي يمنع الماء عن البلد، وحكاية الولد التائه يلتقي به والده، ويعرفه بعلامة في يده، والحمامتان المختصمتان. وتظهر في الحكاية واضحة البنية الثلاثية، في الإخوة الثلاثة، والأخوات الثلاث، والشعرات الثلاث.

والحكاية طويلة في الزمان، ممتدة في المكان، متعددة في الشخصيات، مليئة بالعجائب والخوارق والمفاجآت، حافلة بالتحول والتغير.

وعماد الحكاية تفرق الشمل ثم التئامه بعد معاناة

ومصاعب وعقبات كثيرة، وهو التئام يؤكد في النهاية، الانتصار للعلاقة الأسرية الحميمة.

❑❖❑

الحلاق

يحكى أنه كان في أحد البلاد حلاق فقير الحال، حسن الأخلاق، ورث مهنة الحلاقة عن أبيه وجده، فكان يتقنها أيما إتقان.

وذات يوم دخل عليه رجل غريب، فقص له شعره، وحلق له لحيته، ورش له العطور، فأعجب به الغريب، وأجزل له العطاء، وأخذ يتردد عليه كل يوم، ليحلق ذقنه، وفي كل يوم يعطيه، ويضاعف له في العطاء.

ودخل الغريب على الحلاق يوماً وهو يأكل، فحياه، فرد عليه، ولم يدعه إلى مشاركته في الطعام، فدهش الغريب، وسأله عن سبب عدم دعوته إياه، فأجاب بأنه لا يريد أن يكون بينهما خبز وملح، حتى لا يتحمل أحد منهما تبعة ذلك، وما يقتضيه من تضحية ووفاء، ولكن الغريب أنكر الأمر، وأكد رغبته في مشاركته الطعام، ثم أخذ يأكل معه.

ومرت الأيام، والصلة تزداد بين الرجلين قوة، حتى

إنهما أخذا يأكلان معاً، ويمضيان معاً أوقاتاً طويلة.

ثم انقطع الغريب عن الحلاق يومين أو ثلاثة، فقلق وتمنى لو يعرف بيته، ليزوره، ثم دخل عليه الغريب، ذات يوم شاحب الوجه، ذاوي العود، بادي الهم، كاسف البال، فأسرع إليه الحلاق ويسأله عن حاله، فأجاب بأنه رأى في الطريق امرأة بهره جمالها، فوقع في هواها، ولا شفاء له إلا بالزواج منها، فطمأنه الحلاق، ووعده بالمساعدة، ثم سأله إن كان يعرف دارها، فأجاب الغريب أن نعم، فما كان من الحلاق إلا أن أغلق دكانه، وطلب من الغريب أن يدله على بيتها، ليسعى له في الزواج منها.

وسار الغريب، والحلاق يسير إزاءه، وإذا هو يتجه إلى الحي نفسه الذي يسكن هو فيه، ففرح الحلاق بذلك، واستبشر، وتمنى أن تكون المرأة ممن يعرف من الجيران، كي يستطيع التوسط لدى أهلها، ليزوجوها من صاحبه.

ولكن قلب الحلاق خفق فجأة، وامتقع لونه، وكاد يغشى عليه، فقد أشار الغريب إلى بيته هو نفسه، ولما سأله عن ملامح المرأة، وصفاتها، أجابه الغريب بما يؤكد أن المرأة هي زوجته نفسها، فغالب الحلاق انفعاله، ثم طمأن الغريب إلى إمكان تحقيق مرامه، ووعده بالمساعدة، ثم ودعه، ورجع إلى بيته، وقد اسودت الدنيا في عينيه.

ولما دخل الحلاق على زوجته، طلب منها أن تهيّئ

نفسها وولديها للذهاب إلى أهلها، وعند أهلها أعلن أن الديون تراكمت عليه، وأنه لا سبيل إلى وفائها إلا بالرحيل إلى بلد آخر للعمل فيه، ثم أكد عزمه على طلاق زوجته، فدهشت لذلك زوجته، وتوسلت إليه ترجوه أن يصحبها معه، أو أن يتركها إلى أن يعود، ووعده أهلها بمساعدته، ولكنه رفض إلا الطلاق، ثم ودّع ولديه، وهما يبكيان ويتعلقان به، وخرج، وقد طلق زوجته.

وفي اليوم التالي باع الحلاق داره، وقرر أن يتخذ من دكانه مأوى له، يأكل فيه وينام، ولما دخل عليه الغريب، يسأله عن مساعيه، أظهر الجلد، وأجابه بأن زوج المرأة قد توفي عنها منذ مدة قريبة، ولابد من الانتظار حتى انقضاء مدة العدة.

وتكدر عيش الحلاق، وأصبح في أسوأ حال، شحب لونه، واصفر جلده، وعلاه الاكتئاب، ولكنه كان لا يبدي من أمره شيئاً، ولاسيما أمام صاحبه الغريب.

وبعد انقضاء مدة العدة مضى الحلاق إلى أهل مطلقته، وأخبرهم أنه ينصح لها بالزواج من صاحب له يعرفه، كي يضمن لها السعادة، ويكفل لولديه حسن التربية، وأخذ يزكي صاحبه، ويشيد بأخلاقه الحميدة، فدهش الأهل لسعيه، وأنكروه، ولكن ظل يحاورهم، حتى أقنعهم بالأمر كله.

ثم أخذ الحلاق يساعد صاحبه الغريب، ويعينه على تجهيز نفسه للزواج، فينزل معه إلى السوق لشراء الأثاث والثياب والهدايا، ولا يتردد في تقديم النصح والمشورة، وصاحبه الغريب يسأله عن الأمور كلها، ويستعين به على قضائها، إلى أن كان الزفاف، فأرسل الحلاق إلى صاحبه مع أحد الخدم هدية الزواج.

ومرت الأيام، والغريب هانئ بزواجه، وهو ما يفتأ يزور صاحبه كل يوم، ليعرب له عن سروره بالزواج، واطمئنانه إلى زوجته، وسعادته بها، ويشكر له مساعيه، والحلاق يتميز قهراً وألماً، ولكنه يكظم ما بنفسه ويكتمه.

وذات يوم دخل الغريب على الحلاق ليخبره بعزمه على الرحيل إلى بلاده، واصطحابه زوجته ولديها من الزوج السابق، ثم كرر شكره له على مساعيه، ودعاه إلى زيارته في بلده، وودعه، فعانقه الحلاق، والدموع تتفجر من مآقيه.

وفي اليوم التالي لمغادرة الغريب البلد، باع الحلاق دكانه، وأدوات الحلاقة، وقرر أن يسوح في البلاد، فقد عز عليه المقام.

وأخذ الحلاق ينتقل من بلد إلى بلد، ضائق النفس، كاسف البال، شارد اللب، لا يلوى على شيء، ليله حزن، ونهاره اكتئاب، حتى بلغ بلد صاحبه الغريب، فقصد إليه،

فوجده في محل للتجارة، وهو في أفخم حال، وأبهى مظهر، فرحب به صاحبه خير ترحيب، وتعجب لحاله، ثم دعاه إلى منزله فاعتذر، ووعده أن يزوره كل يوم في متجره، وعرض عليه مبلغاً من المال يساعده به، فأبى أن يأخذ شيئاً.

وأخذ الحلاق يتردد كل يوم على متجر صاحبه، يقعد عنده ساعة أو بعض الساعة، ثم يمضي ليتوه في دروب البلدة، مشرد الخطا، تائه الفكر.

وذات يوم، وهو قاعد مع صاحبه في متجره، دخل ولدان إلى المتجر، ما إن لمحاه، حتى أسرعا إليه، وهما يهتفان: "بابا، بابا"، وارتميا في حجره، وحاول الحلاق أن يشيح عنهما بوجهه، ولكن عاطفة الأبوة غلبته، فعانقهما وهو يبكي.

وبهت الغريب لما رأى، فسأل صاحبه الحلاق تفسير ذلك، فلم يجب بشيء، ونهض يهم بالانصراف، ولكن صاحبه أقسم عليه إلا أن يطلعه على حقيقة الأمر، فروى له الحكاية من أولها إلى آخرها.

ودهش الغريب لما سمع من الحلاق، ثم اعتذر إليه، وأسف لما كان منه، وآلى عليه إلا أن يصحبه إلى بيته، وهناك عرض عليه الزواج من أخته، فوافق.

وخلال أيام، تم زواج الحلاق من أخت صاحبه

الغريب، وقد اشترى له داراً، ورد عليه ولديه، وأوصى أخته بهما خيراً، وجعله شريكاً في متجره، وتنازل له عن نصف أمواله.

ولكن الحلاق لم يكن له طمع في شيء من المال، وقد اطمأنت نفسه بعض الاطمئنان إلى ما صار إليه، فرأى أن يعود إلى بلده، فحمل زوجته وولديه، وودع صاحبه، ورجع إلى بلده، واشترى لنفسه دكاناً فيه، وعاد إلى عمله القديم.

تعليق:

تقدم هذه الحكاية مثلاً عجيباً للصداقة والتضحية فيه قدر كبير من المبالغة، وليس ثمة قيمة عليا وراء ذلك كله، سوى محض الصداقة والتضحية وكأن ذلك الرجل الذي حل على الحلاق ضيفاً ليس سوى القدر.

وكل ما تفعله الحكاية هو إثارة الشعور بالحزن والإحساس بالألم لتضحية الحلاق الكبيرة، وما تحمله من مكابدة وتشرد وعناء، وهو حزن لا يهذب طبعاً، بل يكاد يجعل المرء ينفر من ذلك الشكل من أشكال الصداقة والتضحية.

وعلى الرغم من انتهاء الحكاية بشيء من السعادة، وذلك بزواج الحلاق من أخت صديقه، فهي غير مقنعة، ولا تعوض الحزن السابق، ولا تجزي عن التضحية الكبيرة التي قدمها الحلاق.

وفي الحالات كلها تظهر المرأة لا حول لها ولا طول ولا قرار ولا رأي، بل لا تكاد تظهر، وإنما يطلقها هذا ويتزوجها ذلك، لمجرد أن هذا قد رآها فأحبّها، وهي لا تدري من أمره شيئاً.

ويبدو الهدف من الحكاية غائماً، ولا يعقل أن يكون تمجيد الصداقة أو التضحية، بل لعله إدانة الحب الذي قاده

على مثل تلك المواقف.

والحكاية تقوم على عنصر المصادفة المتمثل في حب الضيف زوجة صديقه الحلاق من غير أن يعرف، وهو عنصر يضعف من بناء الحكاية، كما يضعف من قوتها أيضاً كتمان الحلاق مشاعره، وتضحيته الكبيرة لأجل صديقه.

❐❖❐

المال والبنون

كان لرجل عجوز ثلاثة أبناء، أفنى عمره في تربيتهم، والعمل على إسعادهم، وقد سعى إلى تزويجهم جميعاً، ثم قسم فيهم أمواله، كي يباشر كل واحد منهم حياته مستقلاً، وأبقى الرجل لنفسه داراً صغيرة، أقام فيها وحده، يمضي فيها بقية عمره، قانعاً بالقليل، هانئاً بقيامه بواجبه نحو أولاده، وقد تمنى عليهم أن يزوروه بين حين وحين، كي يسعد برؤيتهم.

ولقد أخذ الأولاد بالتردد على أبيهم، كما أوصاهم، ولكن مع الأيام زادت مسؤولية كل واحد منهم، كما زاد اهتمامه بالحياة، واشتغاله بها، فقلّت زيارتهم لأبيهم، ثم نسوه، حتى بات وحيداً، وهو الذي قسم فيهم ما كان يملك من أموال، وما هي إلا سنة أو سنتان، حتى قل ما ادخره لنفسه، وبات مهدداً بالجوع والحرمان، فحار في أمره، ولم يجد ما يفعل؟! فقصد أولاده واحداً واحداً، يسألهم عن أحوالهم، من غير أن يبدي لهم شيئاً من الضيق، فأبدوا كثيراً من الجفاء، فلما عاتبهم في إهمالهم إياه، أنكروا عليه

ذلك، ولاموه، إذ يكفيهم -كما ادعوا- ما هم فيه من مسؤولية، وانشغال بأسرهم وأحوالهم.

ورجع الأب من لقاء أولاده مخذولاً، نادماً على تفريطه بما كان لديه من مال، آسفاً على ما كان له من عزّة وجاه، ومضى إلى بيته، لا تحمله قدماه، من الحزن والألم، وقبع في ركن داره، يقتصد في طعامه وشرابه، وهو في كرب وضيق، والأيام تمرّ به قاسية مؤلمة، حتى أمسى في أسوأ حال، فقد بلي ما كان عنده من ثياب، وكاد ينفد ما بقي لديه من مال، وهزل جسمه، وتغير لونه، ودب فيه العجز، فلم يجد بداً من أن يقصد أحد أصحابه، ليجد شيئاً من العزاء، والنصيحة.

وحين لقيه صاحبه، ورأى ما صار إليه من حال، عاتبه ولامه على تفريطه بأمواله ثم نصح له أن يعمد إلى أرض غرفته، التي هو فيها، فيحفر فيها حفرة، ثم ينزل فيها جرة فارغة، ويجعل فوهتها مع مستوى الأرض، ثم يرمي فيها ما يكنسه كل يوم من أرض الغرفة، وفناء الدار، من غبار وتراب، حتى إذا امتلأت، إلا قليلاً، سد فوهتها بالاسمنت، وغطاها بالحصير، ووعده صاحبه أن يزوره، حين تمتلئ، ليخبره بما يجب عليه فعله، بعد ذلك.

ورجع الأب إلى بيته، وقام على الفور بتنفيذ ما نصح له به صاحبه، ولم تمض بضعة أيام، حتى امتلأت الجرة، أو كادت، بما كان يرميه فيها من غبار وتراب، مما يكنسه

من فناء الدار، فسد فوهتها، وغطاها بالحصير، وقعد ينتظر صاحبه.

ولما زاره صاحبه، عرض عليه ما فعل، ففرح بذلك، وأخبره أنه سيمر بأبنائه واحداً واحداً، ليؤكد لهم أن أباهم مازال بخير، وأنه يملك من المال أكثر مما أعطاهم، وأنهم قصروا في حقه تقصيراً، ثم نصح لصاحبه أن يتوقع زيارتهم، وطلب منه أن يعمد إلى الحصير، فيكشف طرفها أمام أبنائه، واحداً واحداً، وينقر على موضع الجرة، ليوهمهم لأنه مازال يملك قدراً جيداً من المال، قد خبأه في هذه الجرة، وأنه لهم، إن هم عنوا به.

وفي اليوم التالي دُقّ الباب، فأدرك على الفور أن القادم ابنه، فرحب به، وقاده إلى غرفته، وكان الولد مدفوعاً بطمع شديد، إلى معرفة ما يملك أبوه، فبعد قليل من السؤال عن الصحة والحال، والاعتذار عما كان من تقصير، سأل أباه إن كان في حاجة إلى شيء، فانتفض الأب غاضباً، وأكد أنه بخير، وليس بحاجة إلى أحد، ثم رفع طرف الحصير، عن موضع الجرة، ونقر عليها، فرنت رنيناً، فقال له:

"أتسمع؟ إني مأزال أحتفظ بجرة من المال."

فطمع الولد، ورغب في أن يحظى بالجرة، دون إخوته، أو بأكبر قدر مما فيها، فبادر إلى إرسال زوجته، لتكنس

لأبيه البيت، وتسهر على رعايته، وتحمل له الطعام، وبدأ يزوره كل يوم.

وفي اليوم الثاني، زاره ولده الثاني، فكان مثله مثل أخيه، وكذلك كان شأن الولد الثالث، ومنذئذ أخذ الأولاد يهتمون بأبيهم، ويعنون به أشد العناية، بدافع من الطمع بماله.

وذات يوم زاره صديقه، ليطمئن عليه، فرآه في أحسن حال، وهو في ثياب جديدة نظيفة، بيته مفروش ومكنوس، والطعام عنده كثير، ومظاهر النعيم بادية عليه، فهنأه، بما هو فيه، على حين شكر الرجل لصاحبه نصيحته.

وهكذا أمضى الأب بقية عمره، هانئاً باهتمام أولاده به، حتى وافته المنية، فأسرع أولاده في تجهيزه ودفنه، وباتوا ينتظرون مضي يوم أو يومين، حتى يقتسموا ما في الجرة، ولما كان اليوم الثالث، بادروا إلى إخراجها، وهمّوا بكسرها، ولكن بدأت علائم الاختلاف تظهر عليهم، فكل واحد يدعي أنه عني بوالده أكثر من الآخر، وأن من حقه أن يحظى بقدر أكبر مما في الجرة، وبينما هم في خلاف ونزاع، دخل عليهم صديق أبيهم، وكان يتوقع ذلك منهم، فباغتهم، فخجلوا، ثم اعترفوا بما هم فيه من خلاف، وسألوه رأيه، فنصح لهم أن يلجؤوا إلى شيخ في البلدة، كي يقسم الجرة فيهم.

ومضى الأولاد إلى الشيخ، فحدثوه عن أمرهم، فوعدهم

أن يأتيهم في المساء، ليقسم الجرة فيهم، ثم مضى إلى السوق، فاشترى أمتاراً كثيرة من القماش، ولما كان المساء، ذهب إلى الأولاد، يحمل ما اشترى، وهو يتوكأ على عصا غليظة، ولما دخل عليهم أخبرهم أنه سيضع الجرة على رأسه، وأن كبيرهم سيضربها بعصاه، وليس لهم بعدئذ سوى أن يلتقطوا ما في الجرة، وقد تناثر على الأرض، ولكل واحد منهم ما يستطيع التقاطه، وامتعض الأولاد من طريقة الاقتسام، ولكنهم رأوا لا مفر لهم من القبول.

ولجأ الشيخ إلى القماش، فلفه على رأسه، طمعاً في أن يحظى بقدر أكبر مما سيتساقط من الجرة، فإذا حول رأسه لفة عريضة جداً، كان الأولاد ينظرون إليها مستائين، ثم وضع الجرة على رأسه، ودعا الأولاد إلى التحلق حوله، ثم ناول عصاه إلى كبيرهم، وأمره بضرب الجرة، فحمل الكبير العصا، ولوَّح بها، ثم ضرب الجرة ضربة عنيفة، فانفجرت، وتناثر ما فيها، من تراب وغبار، ملأ الغرفة، وسد على الأولاد والشيخ العيون والأنوف والآذان، فعلا الصراخ والسعال واللغط والضجيج، ومضوا يبحثون عن الباب، وبعضهم يصطدم ببعض، وكان آخر من خرج الشيخ، فقد كان أكثرهم حظاً مما في الجرة.

تعليق:

تدين هذه الحكاية عقوق الأبناء لآبائهم، وتكشف ما قد يكون عليه بعض الأبناء من تقصير تجاه والديهم، فلا يعنى الولد بأبيه، ولا يبرّه إلا بقدر ما يستفيد منه.

ومرجع هذه العلاقة غير السليمة إلى المال، الذي يفسد بين الأب وأبيه والأخ وأخيه.

ومما لاشك فيه أن الحكاية تدين المال، كما تسخر من الطامعين فيه والمتعلقين به.

والحكاية لا تخطو من كآبة وحزن، غايتها الإصلاح والإرشاد، من خلال تقديمها النموذج السلبي.

❑❖❑

الحظ المقسوم

يحكى أن فتى من أمراء العرب كان شقياً، يعاقر الخمر، ولا يتورع عن ارتكاب المحرمات، كثير اللهو والمجون، وكان ذات يوم منطلقاً في الصحراء على ظهر فرسه، يقصد الصيد، فإذا هو بين جبلين، أمام رجل عجوز، ذي لحية بيضاء، ينتقل بخطوة واحدة من هذا الجبل إلى ذاك، ثم ينحني على الأرض، فيقتلع نبتة صغيرة، ثم ينتقل إلى الجبل الآخر، ليضع هذه النبتة، إلى جانب نبتة أخرى هناك، وكان ما ينفك ينتقل بين الجبلين، فدهش الفتى لمرآه، ولما اقترب منه، سلم عليه وسأله عن عمله، فأجابه الشيخ العجوز: "أزوج بنت المشرق لابن المغرب، وابن المشرق لبنت المغرب، وأركّب حظّ هذا على حظّ هذه، وحظّ هذه على حظ ذاك". فقال له الفتى: "أريد أن تنظر لي حظي أين يكون؟ "، فقال له الشيخ العجوز: "حظك في مضارب الشرق، وضعتها أمها هذه الساعة، وهي بنت فلان، وأمها فلانة، فشكر له الفتى الجواب،

وأسرع إلى تلك المضارب، وفي نيته فعل شيء ما، فقد قرر من قبل ألاّ يتزوج ألبتة.

ولما بلغ المضارب، وجد القوم في فرح وابتهاج، بمناسبة المولودة، فنزل فيهم، فرحبوا به، وأكرموا وفادته، ولما كان الليل، تسلل إلى خيمة البنت، فدخلها، حتى بلغها، فانتفى سكينة، وطعن بها صدر الطفلة، وشقّه، وخرج، ثم مضى بعيداً عن مضارب القوم، مرتاحاً إلى خلاصه من حظه المقسوم.

ولما كان الصباح، أفاق القوم، فرأوا الطفلة في رامة من دمها، فلجؤوا إلى امرأة عجوز، تمارس الطب عندهم، فعملت على خياطة الجرح، ودهنته بما تصنعه بنفسها من مراهم، وما هي إلا أشهر وأيام، حتى شفي الجرح، وكتبت للبنت السلامة والنجاة.

ومضى ذلك الفتى يسدر في فجره وفسوقه، حتى كان يوم توفي فيه أبوه، وهو أمير، فحزن لموته أشد الحزن، وأحس بحقيقة الحياة، ورأى نفسه أمام المصير، فاستغفر ربّه وتاب، وأقلع عن الغيّ والفساد، وقد أسندت إليه الإمارة من بعد والده.

ومرت الأيام، وهو مشغول بالإمارة، وبالضيوف، وبالقبائل التي تفد عليه، ولكنه أحس ذات يوم بحاجة إلى زوجة، يطمئن إليها ويرتاح، ويحس في قربها بالسعادة

والرضا والأمان، فأخذ يبحث عن زوجة صالحة، ومضى يفكر بمن يعرف من الأهل والأقارب، ولكنه لم يهتد إلى بغيته.

وذات يوم خرج إلى الصيد، وابتعد عن مضارب قبيلته، وتاه في الصحراء، فرأى من بعيد خيمة وحيدة، فلجأ إليها، فاستقبله صاحب الخيمة وزوجته، وكانا عجوزين، خير استقبال، وشاركتهما في الاستقبال فتاة صبية، هي ابنتهما.

وأضافه القوم، على الرغم من فقرهم، وأكرموا وفادته، وكان قد أعجب بالفتاة الإعجاب كله، فقرر خطبتها، وحدث والدها في الأمر، فوافق، فنقلهم جميعاً إلى مضارب قبيلته، وفي بضعة أيام تمت الاستعدادات للزواج.

وليلة الزفاف، دخل الفتى على عروسه، ولما خلال بها، رأى أثر جرح غائر في صدرها، فسألها عنه، فروت له ماكان يرويه لها أهلها عن فتى غريب، نزل في ضيافتهم يوم ولادتها، ثم غدر بها، فعرف فيها على الفور حظه المقسوم، الذي كان الشيخ العجوز قد أخبره به.

واستغفر الفتى لذنبه، وعاش مع زوجته، في هناءة وسرور، وأنجبا البنين والبنات.

تعليق:

تؤكد الحكاية قوة القدر الذي لايمكن أن يردّ، وهي تقدم لذلك مثلاً فيه قدر غير قليل من المبالغة، ولكنها

مبالغة فنية جميلة.

والحكاية تهدف إلى الوعظ، وتسعى إلى النصح بالتسليم للقدر، والقبول بما هو مقسوم، كما تلمح إلى أنه لا مفر للمرء ولا ملجأ له إلاّ إلى بارئه، ليجد الراحة والاطمئنان.

وهي تدل على مجتمع لا دور فيه للمرأة ولا خيار، ولا فعل، فالدور كل الدور للرجل وحده.

ولعل أجمل مافي الحكاية هو الشيخ العجوز الذي يزاوج بين نبتة في هذا الجبل وأخرى في ذاك، وهي صورة مبتكرة، ترمز بالشيخ إلى القدر، كما ترمز بالنبتتين إلى الزوجين.

❑❖❑

الغولة والإخوة الثلاثة

يحكي أن غولة سكنت في مغارة قريبة من إحدى القرى، فأخذت تغير كل يوم على بيت، فتهدد صاحبه إذا هو لم يخرج لها بأنها سوف تنفخ على بيته فتهدمه، وتلتهمه هو وزوجته وأولاده، وكانت بيوت القرية كلها مبنية من الطين، فكان صاحب البيت يخاف، فيخرج إلى الغولة، فداء زوجته وأولاده، فتلتهمه، حتى إنها أتت على بيوت القرية كلها، والتهمت كل رجالها، ولم يبق سوى الأطفال والنساء.

وكان يسكن في طرف من أطراف القرية ثلاثة إخوة، أحدهم يعمل صانع منا خل، واسمه منيخلان، والثاني يعمل قزازاً، واسمه قزيزان، والثالث يعمل حداداً، واسمه حديدان، وكانت الغولة قد بدأت بهم أول الأمر، ولكن أحداً منهم لم يخرج، لأنهم كانوا واثقين أن بيوتهم لن تتهدم.

ولما لم يبق في القرية بيت إلا مرت به، والتهمت صاحبه، عادت ثانية إلى بيوت الإخوة الثلاثة، وقررت أن تلجأ إلى الحيلة، كي تلتهمهم واحداً واحداً.

وفي اليوم الأول قرعت الباب على أصغرهم، وهومنيخلان، ودعته للخروج إلى كرم التين، ليشاركها في قطافه، فأدرك أنها تنوى التهامه، فوافق على الدعوة، وطلب منها أن تسبقه، ووعدها أن يلحق بها.

وأسرع منيخلان إلى أخويه يخبرهما بالأمر، فمضى الثلاثة إلى الكرم، وقد هيؤوا كتلاً صغيرة من الطين، جعلوها على هيئة التين، ثم بحثوا عن أكبر شجرة في الكرم، وعلقوا تلك الكتل على أغصانها، ورجعوا إلى بيوتهم.

وجاءت الغولة إلى الكرم، وأخذت تنتظر وصول منيخلان، ولما تأخر عليها، ويئست من مجيئه، قامت، فبحثت عن أكبر شجرة في الكرم، وأخذت تلتهم ما تجده على أغصانها من طين، وهي تظنه تيناً، حتى أتت عليه كله.

ورجعت إلى منيخلان، وأخذت تقرع عليه الباب، فلما أطل عليها من نافذة بيته، بدأت تلومه على عدم حضوره، وتؤكد له ظفرها بالتين وحدها، فأخذ يضحك، وهو يخبرها أن ما التهمته طين، وما هو بالتين، فتنبهت إلى حماقتها وغفلتها، وأخذت تهدده وتوعده، وتطلب منه النزول إليها، وإلاّ، فإنها ستنفخ على بيته حتى تهدمه، فسخر منها وقال لها: "انفخي كما تشائين، فإني لا أخاف".

وأخذت تنفخ على بيته، ولكنه بيته لم يتهدم، لأنه مبني من النسيج الذي يصنع به المنخل، وكله ثقوب وثغرات، الريح تنفذ من خلاله، ولا تؤثر فيه.

وفي يوم آخر قرعت الباب على الأخ الأوسط، وهو قزيزان، فخرج لها، فدعته إلى الحقل، لالتهام الخيار، فوافقها على الدعوة وطلب منها أن تسبقه، ثم أسرع إلى أخويه يخبرهما بالأمر، ومضى الإخوة إلى الحقل، فقطفوا الخيار كله، ووضعوا بدلاً منه الكوسا، ثم رجعوا إلى بيوتهم.

وقدمت إلى الحقل، وأخذت تنتظر، ولما تأخر عليها قزيزان، ويئست من حضوره، قامت، فالتهمت كل ما في الحقل من كوسا، وهي تحسبه خياراً، ثم مضت إلى قزيزان وأخذت تقرع عليه الباب، فأطل عليها، من نافذته، فبدأت تلومه على عدم حضوره، وتؤكد له أنه خسر كثيراً، فأخذ يضحك، وهو يخبرها أنه جنى الخيار كله، وأن ما أكلته ليس خياراً، وإنما كوسا.

وثار الغضب في نفس الغولة، وطلبت من قزيزان أن ينزل إليها، وإلاّ فإنها ستنفخ على بيته حتى تهدمه، فسخر منها قزيزان، وقال لها: "انفخي كما تشائين، فإني لا أخاف".

وأخذت تنفخ على بيته، ولكن بيته لم يتهدم، لأنه مبني من القزاز، يصد الريح، ولا تستطيع أن تؤثر فيه شيئاً.

وفي يوم ثالث قرعت الباب الأخ الثالث، وهو حديدان، ودعته إلى الغابة، لقطع الأشجار، وصنع الحطب، فوافقها، وطلب منها أن تسبقه، ووعدها أن يلحق بها.

وأسرع حديدان إلى أخويه يخبرهما بالأمر، ومضى الإخوة الثلاثة إلى الغابة، اقتطعوا بعض الأشجار، وصنعوا كومة من الحطب، قعد حديدان في داخلها، وقام الأخوان بحزمها بالحبال، ثم رجعا إلى البيت.

وقدمت الغولة إلى الغابة، فرأت كومة الحطب، جاهزة محزومة، ففرحت بظفرها بها دون حديدان، فحملتها على ظهرها، ومضت بها نحو بيتها، وفي الطريق أحست بثقلها، ولكنها عللت ذلك بكبر الكومة وكثرة ما فيها من حطب، ثم أخذ حديدان يخزها بمسلة في يده، فتتحمل الوخز، متوهمة أن أعواد الحطب هي التي تخزها، ومضت على الفور إلى بيت حديدان.

وكان حديدان قد قطع الحبل الذي حزمت به كومة الحطب، وأسرع إلى بيته، فلما قرعت عليه الغولة الباب، وأطل عليها من نافذته، فأخذت تلومه لأنه لم يحضر إلى الغابة، وتذكر له ظفرها بكومة حطب، وتؤكد خسارته، فأخذ يضحك منها، ويذكرها بالوخز وثقل الحمل، ويؤكد لها أنه كان مختبئاً في كومة الحطب.

وعندئذ غضبت الغولة غضباً شديداً، وطلبت إليه

النزول، وإلاّ فإنها ستنفخ على بيته، لتهدمه، فسخر منها حديدان، وقال لها: "انفخي كما تشائين، فإني لا أخاف".

وأخذت تنفخ على بيته، ولكن بيته لم يتهدم، لأنه مبني من الحديد، والريح لا تؤثر فيه، وكانت الغولة في غضب شديد، فظلت تنفخ طويلاً طويلاً، إلى أن انفجرت وماتت.

تعليق:

حكاية طريفة، فيها قدر غير قليل من التسلية والإمتاع، وهي كما يبدو موجهة إلى الأطفال، ولكنها لا تخلو من رمز جميل.

والحكاية تؤكد إمكان الانتصار على الخطر أياً كان شكله أو حجمه أو أسلوبه، إن لم يكن بالصدام المباشر، فبالذكاء والحيلة، وبالثقة بالنفس والعزيمة، والتعاون وحسن التدبير.

إن كل أخ من الإخوة الثلاثة يلجأ إلى الحيلة في مواجهة الغولة، وينجح ثلاثتهم في التصدي لها، حتى يكون لهم النصر عليها، في الوقت الذي خاف كل الرجال، واستلموا لها.

ويلاحظ أن بيوت الإخوة الثلاثة هي أضعف بيوت أهل القرية، فبيوتهم من منخل وزجاج وحديد، وأقوى منها في الحقيقة بيوت أهل القرية هي من حجر وطين. وهذا يؤكد أن القوة ليست في المادة وإنما في الإنسان، وليست في جسده وإنما في عقله.

كما يلاحظ أيضاً أن المنخل والزجاج والحديد عناصر يمكن أن توحي بشيء من الصناعة والمهارة الإنسانية في مجتمع ريفي بيوته كلها من حجر وطين، وهذا يعني بصورة غير مباشرة الانتصار للصناعة من خلال مهارة الإخوة الثلاثة وذكائهم.

ويمكن أن تعد الغولة رمزاً مطلقاً لأي شكل من أشكال القهر والظلم والقمع والإرهاب.

وعلى كل حال، يمكن أن تقرأ الحكاية كما هي في الظاهر من غير أن تحمل أي قدر من الرمز أو الإيحاء، وتظل محتفظة بجمالها وجاذبيتها وقوة تأثيرها.

ومرجع جمال الحكاية عفويتها، وذكاء الإخوة في مواجهة الغولة، وقدرتهم على تحديها والانتصار عليها، كما تلاحظ البنية الثلاثية واضحة في الحكاية.

وتبقى في الواقع حكايات الجن والغيلان من أجمل الحكايات ولا سيما لدى الأطفال، فهي تنمّي لديهم ملكة الخيال وتقوي لديهم روح التحدي، وتنزع من نفوسهم الخوف والضعف، وتزيدهم قوة.

❑❖❑

ليلة الغنجة

يحكى أن رجلاً غنياً كان قد تزوج عدة مرات، وفي كل مرة كانت زوجته تموت بعد أشهر قليلة من الزواج، حتى اشتهر أمره في الناس، وعرف، فأصبحت كل فتاة تخشى من تقدمه إلى خطبتها وتخاف، وإن كانت في الحقيقة ترغب في ذلك، وتطمع، فقد كان غنياً وافر الغنى، وكان يعيش في قصر كبير، تحلم كل فتاة بالعيش فيه،

والاستمتاع بما فيه من وسائل الترف والرفاهية.

وكان قد تزوج من أسرة فقيرة بنتاً صبية، وبعد أقل من شهر توفيت، فتقدم إلى الأسرة نفسها يخطب شقيقتها، فوافقت البنت على الفور، ولكن أباها وإخوتها السبعة رفضوا ذلك، فهي البنت الوحيدة المتبقية عندهم، ولكن البنت أصرت، وأكدت رغبتها في الزواج من ذلك الغني، كي تكتشف سر وفاة شقيقتها، والزوجات السابقات جميعاً.

وتم الزواج، وعاشت الفتاة في القصر عيشة هانئة، فيها الرغد والوفر الكثير، وحظيت من زوجها باهتمام بالغ، وعناية كبيرة، بل لقيت منه تعلقاً شديداً، كاد ينسيها غايتها، وهي البحث عن سبب وفاة أختها.

وذات صباح، ارتدى الزوج فاخر الثياب، وتهيأ للخروج، ورافقته زوجته إلى الباب مودعة، وقبل أن يخرج ناولها حلقة فيها مفاتيح كثيرة، وقال لها: "هذه مفاتيح أربعين غرفة من غرف القصر، يمكنك أن تتفرجي على تسع وثلاثين غرفة، وتتسلي بمحتوياتها، في غيابي، ولكني أحذرك من الغرفة الأربعين، وأطلب منك عدم فتحها". ثم تركها في القصر وخرج، وبين يديها مفاتيح الغرف كلها.

وأخذت تطوف في أرجاء القصر، تتفرج على غرفه واحدة واحدة، وتدهش لما تحويه كل غرفة من أثاث وفراش ورياش، يفوق ما تحويه الغرفة الأخرى، مما يذهل له

الناظر.

وأمضت على هذه الحالة أياماً، وهي تسأل كيف يسمح لها الزوج بدخول الغرف جميعاً، على الرغم مما فيها من أثاث ثمين، ولا يسمح لها بدخول الغرفة الأربعين؟! وكانت تفكر دائماً بفتحها، والدخول إليها، ولكنها كانت تتردد وتخاف.

وذات يوم وضعت مفتاح الغرفة الأربعين في قفل الباب، وأدارته، ثم أحجمت، ولكنها عادت، فأقدمت، وفتحت الباب، فصر صريراً راعباً، ومدت رأسها من شق الباب، فدهشت، وثار في نفسها الخوف، فالغرفة خاوية، ولا شيء فيها، سوى الغبار والعناكب.

وأدركت على الفور أن في هذه الغرفة يكمن سبب وفاة الزوجات السابقات، وأن وراء هذا الفراغ سراً كبيراً، يخفيه عنها زوجها، ويحذرها بسببه من فتح الغرفة.

ودخلت، وفي عمق الغرفة رأت خزانة خشبية، تقدمت منها بحذر وخوف، ونظرت، فإذا بابها من غير قفل، فتحته فانفتح، وعلى رف من رفوف الخزانة رأت قطعة قماش بيضاء، عتيقة، مصفرة، يعلوها الغبار، فلم تلمسها، وأغلقت الخزانة على الفور، وخرجت، وأقفلت باب الغرفة.

وفي المساء رجع الزوج كعادته، فسألها عن يومها كيف أمضته، فأكدت له سرورها بما رأت في الغرفة من

أثاث فاخر، ثم حاولت التشاغل بعد ذلك بإعداد مائدة العشاء، ولكنها فوجئت به يقول لها: " ولكن لم تسأليني عن سر القماش الأبيض في الخزانة الخشبية؟!"

فصعقت، وأدركت على الفور أنه عرف أنها فتحت الغرفة الأربعين، ولم تجد مفراً من الاعتراف، وهي في خوف وقلق شديدين، ولكن الزوج تبسم، وأظهر هدوءاً بارداً، ثم أكد أنه لا يبالي بالأمر، ثم رجاها أن تنساه، وأخذ يعبر عن اهتمامه بها ، وحرصه عليها، ولكن هذا زاد من قلقها، فأخذت ترجوه أن يخبرها بسر الغرفة، والقماش الأبيض، وبعد إلحاح منها، وتوسل، ورجاء، أخبرها أنه يحتفظ بذلك القماش لليلة الغنجة، وزادها ذلك قلقاً، فأخذت تسأله عن تلك الليلة، كيف هي؟! ومتى تكون؟ فلم يجب، ووعد أنه سيخبرها بأمرها في الوقت المناسب.

وأخذت تعيش في قلق وترقب، متوفزة الأعصاب، ولا تسعد بطعام؛ ولا تهنأ بنوم، وهي تنتظر تلك الليلة، متوقعة فيها الخطر، بل الموت.

وذات صباح، وقبل أن يخرج الزوج من القصر، أخبرها أن الليلة القادمة هي ليلة الغنجة، وطلب منها أن تتهيأ لها، وأن تكون في زينتها الكاملة، وأن ترتدي حلة ليلة الزفاف، وأوحى لها أنها ليلة لذة وسرور، ثم ودعها وخرج.

ولكن الزوجة أحست في كلامه الخداع، فأسرعت إلى

أبيها وإخوتها، وأخبرتهم بالأمر كله، ثم دعتهم إلى النزول في غرفة قريبة من الغرفة الأربعين، والاختباء فيها، والتهيؤ لنجدتها، إذا ما أحسوا بالخطر.

ثم تهيأت، وتزينت، وارتدت حلة ليلة الزفاف، ولما حضر الزوج في المساء، أظهرت رباطة جأش، واستعدت لكل الاحتمالات، ولكن الزوج كان لطيفاً اللطف كله، فآنسها، وتناول معها طعام العشاء، وأبدى رقة مفرطة.

وفي الغرفة الأربعين، أخرج القماش الأبيض من الخزانة، وبسطه على الأرض، واعتذر لقدمه واصفراره، ثم رجاها بلطف شديد أن تستلقي فوق ذلك القماش، فترددت، ولكنها استجابت، مطمئنة إلى أن أباها وإخوتها في الجوار.

ومرة أخرى اعتذر لها الزوج، وأكد لها أنه مضطر إلى لفها بالقماش الأبيض، وربطه بحزام متين عند قدميها، وعند رأسها، حتى تبدأ ليلة الغنجة، فاستجابت لذلك، ورضيت، وعند ئذ أخذ يدغدغ أخمص قدميها بهدوء ونعومة، فأخذت تضحك، ثم بدأ يدغدغ أخمص قدميها بحدة، فبدأت تقهقه، ثم شرع يحفر بأظافره، في أخمص قدميها بعنف ووحشية، وهي خاضعة لتأثير الدغدغة تقهقه بألم شديد ولا تقدر على إيقاف ذلك، حتى أغمي عليها، وهو مايزال يحفر بأظافره في أخمص القدمين.

وأحس أبوها وإخوتها في الغرفة المجاورة بالانقطاع

المفاجئ في القهقهة، فأدركوا أن في الأمر خطراً، فاقتحموا الغرفة، وذهلوا لما رأوا.

وأسرعوا على الفور إلى انعاش الزوجة، ثم اقتادوا الزوج إلى الحاكم، واعترف أمامه بجرائمه، فقد كان يلجأ إلى قتل زوجاته على تلك الطريقة، حتى لا يترك فيهن أثراً يدل على القتل.

ودعا الحاكم آباء الزوجات اللواتي توفين عند ذلك الزوج، كما دعا ذوي قرابتهن، وسألهم عن القصاص الذي يرغبون في إيقاعه به، وكانت الزوجة الأخيرة التي نجت من الموت حاضرة، فاقترحت قتله بالطريقة نفسها التي كان يقتل بها زوجاته، فوافق الجميع، وتم تنفيذ ذلك على الفور.

تعليق:

تدل الحكاية بصورة غير مباشرة على ظلم الأغنياء للفقراء، وقد تجسّد ذلك في صورة الرجل الغني المقتدر، الذي يتزوج فتاة إثر فتاة، ليقود كل واحدة إلى حتفها بطريقة ترضي نزوته وغروره.

كما تدل على قدرة المرأة على صنع الخلاص بذكائها وحسن تدبيرها، وهي لا تحقق خلاصها وحدها، إنما تحقق خلاص بنات جنسها ومجتمعها كله، وتنهي سيطرة ذلك الغني المقتدر، الذي يقتل المرأة، رمز الخصب والتجدد والعطاء..

وتبدو الحكاية للوهلة الأولى تصويراً لظلم الرجل للمرأة واستبداده بها، ولكن الحال ليس كذلك، مثل هذا الفهم قاصر، لأن الرجل ههنا ليس رمزاً لكل الرجال، إنما هو رمز للرجل الغني المقتدر ليس غير.

والحكاية تبدو شبيهة بحكاية شهريار وشهرزاد، وإذا كان شهريار قد قتل زوجته لأنه رأى عبداً في مخدعها، فإن المرأة في هذه الحكاية لاذنب لها.

ولعل الرجل في هذه الحكاية يمثل نموذج الرجل السادي الذي لايجد متعته إلا في إلحاق الأذى بالمرأة. أو لعله عقيم، ولذلك فهو يقدم على قتل المرأة حتى لا ينكشف سرّه، وكأنه يريد بقتله المرأة أن يثأر لنفسه من المجتمع كله، فيجعله عقيماً مثله.

والحكاية معروفة لدى شعوب كثيرة، ولا سيما شعوب أوروبة، وبقدر قليل جداً من الاختلاف، وقد حولت إلى شريط عرض للأطفال، وإلى مسرحية، وإلى أوبرا غنائية، وهي مشهورة بعنوان: " الرجل ذو اللحية الزرقاء".

❑❖❑

ابن الحطاب

يحكى أن رجلاً فقيراً ذا عيال كثير، كان يخرج كل يوم إلى الجبل، فيحتطب، ثم ينزل إلى السوق، فيبيع حمل حطب، ليوفر لعياله قوت يومهم.

وذات يوم، وهو راجع من الجبل، استوقفه ولد مشرد، رث الثياب، زريّ الهيئة، رجاه ان يتخذه ابناً له، فانصرف عنه الرجل، ولم يبال به، إذ يكفيه ما عنده من أولاد، وما هو فيه من فقر وبؤس.

ومرة أخرى، في يوم آخر، استوقفه الولد، وألح عليه، يرجوه أن يتخذه ابناً، فرقّ له قلبه، ولكنه ذكر عياله وفقره، فانصرف عنه، ولما وصل البيت روى لزوجته ما كان من أمر الولد المشرد، فأنكرت عليه إعراضه عنه، ورجته أن يحضره معه، إذا رآه مرة أخرى، وأكّدت له أنه سيكون لهما بمثابة الولد، وستكون له منزلته في سائر أولادهما، ولن تثقل عليهم مؤونته، فهو واحد في عيال كثير.

ومرة ثالثة رآه الولد المشرّد، فتوسل إليه أن يتخذه ابناً، فعطف عليه الرجل، وأخذه إلى البيت، وانضم الولد إلى

عيال الرجل، ففرحوا به، كما فرح بهم، واطمأن به المقام، وقد أصبح له الرجل أباً، وزوجته أماً، والأولاد إخوة.

وذات يوم خرج الولد إلى السوق ليشتري حاجة للمنزل، فسمع بعض الرجال يتحاورون همساً، فأصغى إليهم خلسة، فسمعهم يتحدثون عن خزينة الملك، وامتلائها بالأموال، كما سمعهم يذكرون موضعها والحراس الذين يحرسونها، وطريقة الوصول إليها، وكأنهم يعدون العدة لسرقتها، فرجع إلى البيت، وقد بيّت في نفسه أمراً.

ولما كان المساء، هيأ سلماً من حبال، وقصد قصر الملك، فتسوره، ووصل إلى الخزينة، فسرق منها مبلغاً كبيراً، ورجع إلى البيت بأمان، وفي الصباح أعطى المال لأبيه، وطلب منه أن يشتري لإخوته الطعام والثياب، ورجاه أن يترك الاحتطاب.

وذهل الملك لسرقة الخزينة، فجمع وزراءه، ورجال قصره، وعرض عليهم الأمر، وأخذ يستفتيهم فيه، ويسألهم طريقة الوصول إلى السارق، وبعد تشاور تم الاتفاق على إرسال ناقة مشهود لها بقدرتها على اقتفاء الأثر، بتتبعها ريحه لتهديهم إلى السارق.

وكان الولد قد خرج إلى السوق، وأخذ يصغي إلى كلام الناس، فعرف أن الملك سيرسل ناقة تقتفي أثره، فأعد للأمر عدته، ولما صارت الناقة قريبة من داره، غافل الحراس،

وأدخلها إلى الدار، فذبحها، وألقى بمعظم لحمها في بئر، وترك بعضه، ودعا أمه وأباه وإخوته إلى اشتواء اللحم وتناوله.

ولما كان المساء قصد الولد قصر الملك، فتسوّره، وسرق من خزينته مبلغاً آخر، وترك في موضعه لسان الناقة، ثم رجع إلى بيته بسلام، على الرغم من كثرة الحرّاس.

وفي الصباح غضب الملك غضباً شديداً، وشاور الوزراء في الأمر، فأشاروا عليه بإرسال عجوز تستطلع الأمر، وأخذت العجوز تطوف بالبيوت، وتحاول بدهائها ومكرها وحيلتها أن تقف على السارق، ولما بلغت بيت الحطاب كان الولد في الخارج يلعب مع إخوته، وقد استقبلتها الأم، وهي لا تدري من أمرها شيئاً، وأخذت العجوز تروي للأم أن ابنتها في الوحام، وهي في قرم إلى اللحم، وأخذت تذكر الملك، وتنعى عليه، وتذكره بالسوء، لأنه منع الذبح، وحرم بيع اللحم، فعطفت عليها الأم، ورقّت لحالها، وأخبرتها أن اللحم عندها كثير، ثم أخرجت لها قطعة من البئر، وقدمتها إليها، ففرحت العجوز، وأدركت أنها ظفرت بالسارق، ولكن الولد فاجأها قبل أن تخرج من الدار، وأدرك الخطر الكامن وراءها، فعالجها بضربة على رأسها، ثم رمى بها وبقطعة اللحم في البئر.

ولما كان المساء قصد قصر الملك، وتسوره، وسرق

مبلغاً من خزينته، وعاد إلى بيته بسلام.

وفي الصباح رأى الملك الخزينة وقد سرقت، فقرر أن يضع في الطريق إلى الخزينة، وعاء كبيراً، فيه زيت مغلي، وفي المساء عزم الولد على المضي إلى القصر، فطلب منه أبوه أن يصحبه معه، وأراد الولد أن يعتذر عن ذلك، ولكن الأب ألح وأصر، فاضطر الولد إلى القبول، وذهبا إلى القصر معاً، وكان الأب في حالة عظيمة من الذعر والخوف، وما إن خطا داخل القصر خطوة، حتى تعثرت قدمه، ووقع في الزيت المغلي، وبادر الولد إلى الفرار.

وفي الصباح فرح الملك بسقوط الرجل في الزيت المغلي، وقد ظنه السارق، وأمر بتعليق جثته في ساحة المدينة، وأعلن أنه لن يسمح بدفنه، وأن كل من يبكي عليه يشنق إلى جانبه.

وحزنت الأم لفقد زوجها، كما حزن الأولاد جميعاً، وزاد في حزنهم قرار الملك، ولكن الولد حاول أن يسرّيَ عنهم، ووعدهم أن يمكّنهم من البكاء عليه، وأن يساعدهم، على دفنه.

ومضى الولد إلى السوق، فاشترى حماراً، وحمله بكيس مليء بالجوز، ثم طلب من الأم أن تذهب إلى ساحة المدينة، مع الأولاد، وأن تقود الحمار، حتى إذا بلغت جثة زوجها، دفعت الكيس، وتركت الجوز يتدفق على الأرض،

ويمكنها عندئذ أن تبكي، هي والأولاد، ماشاء لهم البكاء، بل أن تصرخ وتندب: "يا جوزي، يا جوزي، ضاع جوزي".

وفعلت المرأة ما أشار عليها به الولد، وتمكنت من رؤية جثة زوجها، والبكاء عليه، هي والأولاد، ثم عادوا جميعاً إلى البيت سالمين.

وفي المساء ارتدى الولد ملاءة، وتنكر في زي امرأة، وحمل زق خمرة، ومضي إلى الجند الذين يحرسون جثة أبيه، فتعرض لهم بوصفه امرأة، وأخذ يغريهم بشرب الخمرة، ويمنيهم بالمتع، حتى إذا سكروا، تركهم ومضى، فتبعوه، فأخذ يراوغهم في الأزقة والمنعطفات، وحتى أضاعوه، فأسرع إلى جثة أبيه، فحملها، ومضى إلى البيت، وقام مع أمه وإخوته بدفنها.

وقبل أن ينقضي الليل مضي إلى القصر، فسرق خزينة الملك، ورجع إلى البيت، وفي الصباح علم الملك بالأمر كله، فثار غضبه، وأخذ يبحث عن طريقة للإيقاع بالسارق، وقد لاحظت ابنته ما هو فيه من غضب، فتطوعت للكشف عن السارق بنفسها.

وأخذت ابنة الملك تطوف بالبيوت متنكرة، تستقصي الأخبار، وتحاول سماع ما يهديها إلى السارق، حتى بلغت دار الولد، فأكرمتها أمه، وقدمت لها أطايب الطعام، وفيه اللحم الكثير، فأدركت ابنة الملك على الفور أنها في بيت

السارق، فما كان منها إلا أن شكرت الأم على ضيافتها، وودعتها وخرجت، وقد تركت على باب الدار إشارة.

بعد قليل حضر الولد، فرأى الإشارة على باب الدار، فعرف أن في الأمر خطراً، فوضع مثل تلك الإشارة على دور الحي كلها، وقدم رجال الملك للقبض على الولد، فرجعوا خائبين، ولكن ابنة الملك عادت بهم ثانية، ودلتهم على البيت، فدخلوه وألقوا القبض على الولد، وزج في السجن.

ولما حلّ الليل توسل الولد إلى الحارس أن يخرجه لساعة واحدة، وأقسم له أنه سيعود، وقدم له صرة نقود كبيرة، فأطلقه الحارس، فمضى من توه إلى البيت، فارتدى ثياباً حمراء، وغطى رأسه بعمامة حمراء، وحمل عصا حمراء، وقصد القصر، فدخل على الملك وهو نائم، فأيقظه، فذهل الملك، وسأله من يكون، فأجاب بأنه ملك الجان، وحذره من إيذاء الولد السجين، لأنه أخوه، فارتعدت فرائص الملك ووعده بإطلاق سراحه، وخرج الولد من فوره إلى الوزراء جميعاً، وفعل بهم واحداً واحداً مثلما فعل بالملك، ثم ألقى الثياب، ورجع إلى السجن.

وفي الصباح اجتمع الملك بالوزراء، وحدثهم بما كان في ليلته، وحدثوه بالأمر نفسه، فسألهم رأيهم، فاقترحوا جميعاً العفو عن الولد، وإطلاقه.

وأرسل الملك وراء الولد، وطلب منه أن يعترف بحقيقة

أمره، فحدثه الولد بقصته كاملة، فأعجب بذكائه وجرأته، وعرض عليه الزواج من ابنته، فوافق، وفي أيام تم الاستعداد لحفل الزفاف، وتزوج الولد ابنة الملك، ونقل إلى القصر أمه وأخوته، وعاش مع زوجته في هناءة وسرور، إلى أن توفي الملك، فورث العرش، وأصبح ملكاً، وأخذ يسوس الناس بالعدل،، فيدني منه الفقراء والبائسين ويغدق عليهم الخير الوفير.

تعليق:

تصور الحكاية فتى لا أصل له، يلتقيه الحطاب فيتخذه ولداً، ويربيه مع أولاده، وعندما يكبر يأتي بالفعال العجيبة، وكلها تقوم على تحدّي قوة الملك وسلطته وعسكره، إلى أن يظفر بابنته، ثم يرث من بعده العرش.

والحكاية بذلك تعبر عن حقد شديد على ظلم الملوك وقسوتهم، وتشبع لدى العامة الرغبة في الانتقام من جبروتهم وسطوتهم، كما تحقق حلم العامة بالوصول إلى سدة الملك وتحقيق العدل.

والحكاية تجعل الولد لقيطاً لا أصل له، كما تجعله فاسداً يسرق وينهب ويقتل، ولكنها تجعله بعد ذلك يتسلم الحكم ويقيم العدل، وكأن الحكاية تفضل ولداً لقيطاً لا أصل له على ملك ظالم، ويظل العدل هو المنشود.

والحكاية تتضمن حالات من السرقة والسطو والاحتيال تمتاز بالجرأة والذكاء وحسن التخلص، وهي حالات تتطور وتتفاقم.

كما تتضمن الحكاية عنصراً يتكرر في كثير من الحكايات وهو وضع علامة على باب دار من الدور للتعرف عليه ثم قيام البطل بوضع علامات مماثلة على أبواب سائر الدور للتضليل.

شعر العجوز
وحصان ابن الملك

يحكى أن امرأة عجوزاً كانت تعيش وحدها، فقيرة بائسة، فقد توفي عنها زوجها، ولم يخلف لها شيئاً، ولم يكن لهما أولاد، فكانت تتسقط لقيمات الطعام من هنا وهناك، وتأوي إلى دار حقيرة، وكانت تمضي شهور الشتاء حبيسة الدار، لا تغادرها مكتفية بما ادخرته من طعام في الصيف، حتى إذا حل الربيع خرجت تقصد الناس، سائلة العطاء.

وفي يوم من أيام الربيع، رجعت إلى دارها عصراً، وقعدت في فناء الدار، تتدفأ بأشعة الشمس، وأخذت تسرح شعرها، وكانت لا تغسله، بل لا تسرحه، إلا مرة في العام، حين يحل الربيع.

وبعد أن انتهت من تسريح شعرها، على قلّته، جمعت ماتساقط منه، ورأت أن تحرقه، بدلاً من أن ترميه في

الأقذار، فأشعلت النار، وألقته فيها.

وشم الجيران رائحة شعر يحترق، وكان عندهم عنزة، ضاعت منذ أيام، فأسرعوا إلى الجارة يتهمونها بسرقة العنزة، وهم يدعون أنها أحرقت جلد العنزة وعظامها، حتى لا يبقى لها على أثر، وذهبوا بالعجوز إلى الملك، يشكونها إليه، وأقسمت العجوز الإيمان مؤكدة براءتها، وأنها لم تحرق سوى شعرات تساقطت من رأسها، الذي لا تسرحه إلا مرة في السنة، فصدّق الملك كلامها، ولكنه حذرها من إحراق ما يتساقط من شعرها مرة أخرى.

ورجعت العجوز إلى دارها، يائسة، تندب حظها، وشقاءها.

ومرت الأيام، ومضى على العجوز عام آخر، لم تسرح فيه شعرها، وقد اتسخ اتساخاً شديداً، وعشش فيه القمل، ولما حل الربيع، قعدت في فناء الدار، تدفئ جسمها بنور الشمس، وتسرح شعرها، ثم جمعت ما تساقط منه، وحملته إلى خارج الدار، وألقته، بعيداً، ورجعت إلى دارها مطمئنة.

ولكن الريح حملت شعرها العجوز بما فيه من قمل، وحطت به في بيدر قمح، لأحد كبار الأغنياء، فعرف على الفور شعر العجوز، وأسرع به إلى الملك، يشكوها، وهو يدعي أن القمل الذي في الشعر أضرّ بقمحه، وأرسل الملك

وراء العجوز، فأحضرها الجند، فاعترفت بما فعلت، ولكنها أكدت أنها لم تكن تريد إيذاء أحد، فعفا الملك عنها، وحذرها من أي تلقي شعرها مرة أخرى في الفلاة، وعوّض للغني خسارته في قمحه.

ورجعت العجوز إلى دارها حزينة، بائسة، تندب حظها، ولا تجد ما تفعل.

ومرت الأيام، وحال الحول، وإذا سنة مرت، وشعرها من غير غسل ولا تسريح، وقد تشعث واغبرّ، فاضطرت حين حل الربيع، إلى تسريحه، ثم جمعت ما تساقط منه، وحملته، ومضت إلى نهر قريب، ورمت به في النهر، ورجعت إلى دارها آمنة مطمئنة.

ولكن النهر حمل شعر العجوز، وسار به إلى بستان كان ابن الملك قد خرج إليه للنزهة، وترك حصانه يسرح في الحقول، ودنا الحصان، وشرب من النهر، وإذا شعر العجوز يدخل إلى حلقه، ويعلق فيه، وأسرع ابن الملك إلى الحصان، وساعد، الجند على إنقاذه، وأخرجوا الشعر من حلقه، وذهبوا به إلى الملك، فعرفه على الفور، فأرسل وراء العجوز.

ودخلت العجوز على الملك، يائسة، حائرة، لا تعرف ما تقول، ولما عاتبها على تسريح شعرها، وإلقاء ما تساقط منه في النهر، تمنت عليه أن يقطع رأسها، وأن يريحها من

شعره، فضحك الملك، وعفا عنها، ثم أمر الخدم أن يعنوا بها، وأن يفردوا لها غرفة في القصر، تعيش فيها بقية عمرها، عزيزة مكرمة.

تعليق:

حكاية نقدية ساخرة تدل على إحساس العامة بسيطرة السلطان على الأمور كلها وسدّه الآفاق، كما تدل على شعورهم بالنكد والقهر من خلال تصوير تلك العجوز البائسة التي لا تؤذي أحداً ولا تأتي بفعل يمسّ الآخرين، ولكن نكد الحظ يقودها دائماً إلى مواجهة السلطان لأنه امتلك كل شيء.

والحكاية تلجأ إلى شخصية العجوز لما فيها من ضعف وعفوية وبساطة، فتضعها أمام ابن السلطان، كي تحدث المفارقة الكبيرة بينهما، كما تلجأ الحكاية إلى عنصر الشعر لما فيه من ضعة وانعدام قيمة ولا سيما شعر العجوز، ومع ذلك فقد جرّ على العجوز مشكلات كثيرة.

والسخرية في الحكاية واضحة، وهي سخرية مرّة مؤلمة، تدل على إحساس العامة بضعفهم وعجزهم وشعورهم بالنقمة.

❒❖❒

قفل ومفتاح

يحكى أن امرأة أقامت عند زوجها سنين كثيرة، لم

تحمل فيها، وذات يوم كانت راجعة فيه مع زوجها إلى البيت ليلاً، فمرا بكلب أسود، نبحهما، فجفلت المرأة، وقالت في سرها:

"لو رزقني الله بنتاً، لزوجتها لكلب أسود"

ومرت الأيام، وإذا المرأة تحسّ بآثار الحمل، فأدركت أن الله قد أجاب دعاءها، ولكنها خشيت أن ترزق ببنت، فتضطر عند ئذ للوفاء بنذرها، وكان ما خشيت منه، إذ رزقها الله ببنت، ففرحت بها هي وزوجها، فقد ملأت حياتهما أنساً وبهجة، ونسيت الأم نذرها.

ومرت الأيام فكبرت البنت، وأرسلتها أمها إلى الكتاب، لتتعلم القراءة والكتابة، وذات يوم، كانت البنت راجعة فيه من الكتاب إلى البيت، مر بها كلب أسود ونبحها، فخافت، وابتعدت عنه، فتبعها، وقال لها: "قولي لأمك، أوفي نذرك"، ومضت البنت إلى البيت، ونسيت أن تقول لأمها ما قاله لها الكلب، وفي اليوم التالي قال لها الكلب، ما قاله لها في اليوم الأول، ولكنها نسيت أيضاً، وكذلك الحال في اليوم الثالث، وفي اليوم الرابع سألها الكلب لم لا تقول لأمها ما يوصيها به ، فأجابته بأنها تنسى، ووعدته أن تفعل، فحذرها من النسيان، وأعطاها قطعاً من الحلوى، وطلب منها أن تضعها في جيبها، ولما بلغت البنت البيت نسيت أيضاً أن تقول لأمها ما أوصاها به الكلب، ولكن الأم رأت قطع الحلوى في جيب ابنتها، فسألتها عن مصدرها، فذكرت

الكلب، وأخبرتها بما أوصاها به، وذكرت الأم نذرها، وحزنت لذلك، ولما جاء زوجها في المساء أخبرته بالأمر كله، فحزن الأب، وقال للأم: "لابد من الوفاء بالنذر".

وبات الأبوان يهيئان نفسيهما لفراق ابنتهما، وكأنهما في كل يوم على موعد مع الكلب الأسود.

وذات يوم قرع الباب، فخفق قلب الأم، وأسرعت تفتحه، وإذا الكلب الأسود في الباب، فأدركت قصده، ورجعت إلى البنت، وقالت لها: "تهيئي يا بنتي"، ثم حكت لها ما كان من أمر النذر، فاستجابت البنت، ودخلت على أبيها فودعته، ثم ودّعت أمها، وخرجت إلى الكلب، ومضت تسير إلى جانبه، تاركة أبويها يبكيان.

وسار الكلب بالبنت، حتى بلغا خارج البلدة، فطلب منها أن تصعد على ظهره، فصعدت، فطار بها، وحلق في أجواء الفضاء، وهي متشبثة به، وبعد زمن من التحليق سألها: "كيف ترين الأرض؟" ، فأجابت: "مثل صينية كبيرة"، فأخذ يعلو بها أكثر فأكثر، ثم أعاد عليها السؤال، فأجابت: "مثل الصحن الكبير"، فأخذ يعلو بها أكثر فأكثر، ثم أعاد عليها السؤال، فأجابت: "مثل صحن صغير"، وعندئذ حط بها، فإذا هي أمام مخدع فخم، فرشه من الدمقس، وغطاؤه من الحرير، تتصاعد من حوله أبخرة المسك والكافور، وتركها الكلب هناك، وغاب.

وأخذت تجول في أنحاء الغرفة، مدهوشة لما ترى من أثاث ورياش، ثم أطلت من النافذة، فرأت أمامها فناء واسعاً، في وسطه بركة ماء، تترقرق أمواجها الناعمة، وتسبح فيها الأسماك الملونة، وتتنقل على أطرافها الطيور، وتحيط بها الأشجار المزهرة، من شتى الأنواع، ونزلت إلى حديقة القصر، وأخذت تتسلى وتمرح، حتى كان المساء، فرجعت إلى مخدعها، وقدمت لها الخادمة، بعد عشاء فاخر، فنجان قهوة، فشربته، فأحست بنعاس لذيذ، فأوت إلى فراشها، واستسلمت لنوم عميق.

وفي الصباح نهضت لتمضي النهار كله في حديقة القصر، تناغي الأطيار، وتداعب الأسماك، وتتفرج على الزهور، وفي المساء شربت فنجان القهوة، وأوت إلى الفراش، وظل هذا دأبها، تمرح وتتسلى وتلعب، لا تحس بكدر ولا قهر، ولا ضيق، ولكن ذات يوم شعرت بشيء من الدوار، فأدركت أنها حامل.

وفي يوم آخر نعق غراب، فذكرت أبويها، وتمنت لقاءهما، وأخذت تبكي، وعلى الفور ظهر الكلب الأسود، فطلب منها أن تمتطي ظهره، ففعلت، فحلق بها في أجواء الفضاء، حتى سألها مثل ما سألها من قبل، فلما قالت له إنها ترى الأرض مثل صحن صغير، حط بها، فإذا هي أمام دارها، ودخلت على أبويها، ففرحا بها، وفرحت بهما، وأمضت معهما ساعة، أو بعض الساعة، وإذا الكلب ينبح،

فودعت أبويها، وحملها الكلب على ظهره، ورجع، مثلما جاء بها.

وفي القصر عادت إلى حياتها التي اعتادت عليها، ولما كان المساء، قدمت لها الخادمة فنجان قهوة، فأخذته، وتظاهرت بارتشافه، حتى إذا خرجت الخادمة رمته جانباً، واستلقت في سريرها، وتظاهرت بالاستسلام للنوم، وكانت أمها هي التي نصحت لها بذلك، حين حدثتها عن فنجان القهوة.

ولم يمض بعض الوقت، حتى برز شاب وسيم الطلعة، كأنه البدر، فنهضت تحييه وتستقبله، فاضطرب أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن اطمأن إليها، ورجاها ألا تبوح لأحد بسره، وأخبرها أنه يأتيها كل ليلة، وهي نائمة، وأنه ابن ملك الجان.

وفرحت البنت بالشاب، زوجها، وأنست به، واطمأنت إليه، وأمضيا الليل في جنى ووصال، ثم استسلما لنوم هانئ، وقبيل الفجر أفاقت وأخذت تنظر إليه وهو نائم، وتتملى وسامته، ثم لاحظت شيئاً ما تحت قميصه، فوق السرة، فدفعها الفضول إلى معرفة ما يخفيه، فكشفت قميصه بهدوء، فإذا هي ترى فوق سرته قفلاً ومفتاحاً، فدهشت لما رأت.

وأدارت المفتاح في القفل، فانفتح عن سرداب عميق،

ونزلت فيه، فإذا هي في نهايته أمام سوق كبيرة، فيها جميع أنواع الصناعات والأعمال، فأخذت تسير في السوق تتفرج على النجارين والصاغة والخياطين، وهي ترى الجميع منهمكين في العمل، ثم مرت بنجار يصنع سريراً صغيراً، فسألته لمن السرير، فأجابها بأن زوجة ابن الملك حامل، وأن هذا السرير هو للوليد المنتظر، وأدركت أنها هي المقصودة، فخرجت على الفور، وأغلقت القفل بالمفتاح.

وتنبه زوجها، فاستيقظ، ولامها على ما فعلت، ثم نادى الكلب الأسود، فمثل بين يديه، فأمره بحمل البنت إلى الفلاة، وذبحها، وإحضار كأس من دمها ليشربه، وتوسلت إليه، تستعطفه وترجوه العفو، فأبى، فاستسلمت، وحملها الكلب على ظهره، ومضى بها إلى أرض منقطعة، وتركها هناك، ثم اصطاد طائراً، فذبحه، واعتصر دمه، وملأ به كأساً قدمه إلى ابن الملك.

ومضت البنت تسير في الفلاة أياماً وليالي طويلة، وحيدة، الجوع يتعبها، والسير يضنيها، والجنين في أحشائها يوهن قواها، حتى لاح لها من بعيد قصر شامخ، فاقتربت منه، وأخذت تلتقط ما تعثر عليه من بقايا الطعام مما يُلقى خارجه، وبينما هي كذلك، إذ أقبلت عليها خادمة تدعوها إلى دخول مطبخ القصر، وسمحت لها أن تقيم مع الخدم، وأوصتها ألا تخرج، كي لا يراها أحد، وتوسلت إلى الخدم ألا يحدثوا أحد عنها.

وأمضت البنت مع الخدم أياماً، تساعدهم وتتزلف إليهم، كي تحظى بعطفهم عليها، حتى كان يوم أفاقت فيه، وإذا هي في المخاض، فساعدتها الخادمات، حتى وضعت ولداً ذكراً، ما إن رأته الخادمات حتى دهشن دهشة عظيمة، فقد كان على سرته قفل ومفتاح، وهيأت الخادمات للولد ولأمه كل ما يحتاجانه من ثياب وفراش وطعام، وأصبح حديث الولد الذي على سرته قفل ومفتاح حديث الجميع، حتى بلغ سيدة القصر، فأمرت بإحضاره على الفور، هو وأمه.

ولما رأت السيدة الولد، نظرت إلى أمه نظرة احتقار، وسألتها من تكون، فروت لها ما كان من أمرها كله، وهي ترتجي العطف عليها، ولكن الغيظ ملأ صدر سيدة القصر، فالشاب والد الطفل هو ابنها، وهو وريث عرش ملك الجان، وكانت تريد تزويجه من ابنة أختها، وموعد حفل الزفاف بعد يوم أو يومين، وكتمت سيدة القصر غيظها ثم التفتت إلى أم الولد، تشترط عليها كي تسمح لها بالبقاء في القصر أن تأخذ ستائر القصر كلها إلى ضفة النهر، وتغسلها وترجع بها في اليوم نفسه، ثم قدمت لها قطعة صابون صغيرة، أوصتها أن ترجع بها، من غير أن يذوب منها شيء.

وحملت الأم الستائر، ومضت إلى ضفة النهر، وأخذت تتأمل قطعة الصابون الصغيرة، وتبكي، وإذا علاء الدين

يمر بها، فيسألها عن سبب بكائها، فتروي له حكايتها كلها، فيأمر الستائر، فإذا بها قد غسلت ونظفت وجفت، وطويت في لمح البصر، ثم قدم للأم ثلاث شعرات، نصح لها أن تحرق إحداها حين تشعر بالخطر.

وحملت الأم الستائر، ورجعت بها إلى القصر، وقدمت قطعة الصابون إلى سيدة القصر، من غير أن يذوب منها شيء، فضاقت بها ذرعاً، ثم ألقت إليها بولدها، وأمرتها أن تلزم المطبخ، وألا تخرج منه، فالليلة عرس ابنها، وطلبت منها أن تفرم أكواماً كبيرة من البصل.

ولما كان المساء، أقيمت الأفراح في فناء القصر، وأنشدت المغنيات، ورقصت الراقصات، والعروس قاعدة على منصة عالية، تنتظر مجيء ابن الملك، وأشفقت الخادمات على الأم وطفلها، فأخذن يساعدنها في فرم البصل، حتى فرغن منه كله، ولما جاء ابن الملك، كن ارتدين أفضل ما لديهن من ثياب، وخرجن يحملن الشموع، وكانت الأم وطفلها معهن، تشاركهن، فكانت تحمل شمعة بيد، وطفلها بيد، وكان عليهن أن يمررن جميعاً أمام ابن الملك وعروسه.

ولما صارت الأم وطفلها أمام العروس، أفلتت الشمعة من يدها، فسقطت على ثوب العروس، فاحترق، واشتعلت فيه النار، فأسرعت الخادمات والمدعوات وأم العروس إلى إطفاء النار، وفي تلك الأثناء كانت الأم قد ألقت بطفلها

بين يدي ابن الملك وقالت له: "خذ ابنك، وانظر القفل والمفتاح على سرته"، وكان ابن الملك قد عرفها، فنهض إليها وعانقها.

وعلى الفور حضر الكلب الأسود، فامتطى ابن الملك ظهره، وأردف وراءه زوجته، وكان الطفل بين يديه، وانطلق الكلب بهم، وتنبه القوم إلى هرب ابن الملك، فركضوا وراءه، وأحست زوجته بالخطر، فأشعلت شعرة من الشعرات الثلاث التي كان علاء الدين قد أعطاها إياها، وألقتها، فاشتعلت وراءها النيران.

ولكن القوم داسوا النيران وأطفؤوها، ولحقوا بهم، فأشعلت شعرة ثانية وألقتها، فامتلأت البقاع وراءها بالبحار، ولكن القوم خاضوا البحار، ولحقوا بهم، فأشعلت الشعرة الثالثة وألقتها، فإذا جبال شاهقة تنتصب وراءها، وتفصلها عن القوم.

وعند ئذ حلق الكلب الأسود في السماء وطار، وظل يعلو ويعلو، حتى بدت لهم الأرض مثل صحن صغير، وعند ئذ حط على الأرض، وإذا البنت وزوجها وطفلهما أمام دار أبويها، فأخذت تقرع عليهما الباب.

وكان أبواها في غيابها قد أرهقهما الأسى والحزن، حتى قعد بهما طريحي الفراش، وأتعبهما البكاء والعويل، حتى فقدا البصر، فهما مقعدان لا يبصران، وما من أحد

يطرق عليهما الباب، سوى الأولاد يقرعون الباب ساخرين بهما، حتى إنهما ما عادا يجيبان أحداً، ولا يفتحان الباب.

وكانت البنت ماتزال واقفة بالباب تقرع وتنادي، وهما لا يجيبان، وإذا الكلب ينبح، ولما سمعت الأم نباح الكلب، أدركت أن ابنتها بالباب، فأخذت تزحف حتى وصلت إلى الباب، ففتحته، وما إن رأت أمامها ابنتها، حتى عاد إليها بصرها، كما عادت إليها قوتها، فنهضت إلى ابنتها، وعانقتها، وطال العناق والبكاء، ثم مضت البنت إلى أبيها، وما إن دخلت عليه حتى رد إليه بصره، ونهض معافى، ليعانق ابنته.

ثم رحب الأبوان بزوج ابنتهما، وفرحا بالطفل، وقرر الزوج الإقامة مع زوجته عند أبويها، قانعاً بالفقر، متخلياً عن الغنى، وعيش القصور، مفضلاً بني الإنسان، على بني الجان.

تعليق:

حكاية متميزة، عمادها اغتراب البنت وبعدها عن أهلها، ومعاناتها في أثناء ذلك، ومقاساتها الأهوال، ثم عودتها إليهم، وهي أهنأ بالاً، وأحسن حالاً، كي يلتم الشمل.

والحكاية مملوءة بالسحر والخوارق والعجائب، وتؤكد تعلق الإنسان بما هو غير معقول وغير طبيعي، وفيها عناصر حكائية مكرورة في كثير من الحكايات، منها الشعرات الثلاث، ومسخ ابن الملك، والأمر بالذبح، والافتداء بذبح طائر، والمخلّص علاء الدين، والبنية الثلاثية واضحة في الحكاية، ولا سيما في طلب سيدة

القصر من الفتاة ثلاثة طلبات.

والحكاية تدل على حاجة الإنسان إلى الولد، ولاسيما المرأة، كما تدل على إعلاء الحب على الملك، فقد تخلى الملك آخر الأمر عن ملكه، ليعيش هانئاً مع زوجته، وتدل الحكاية أيضاً على إحساس الفقير بفقره، ورغبته في الخلاص منه، وهو خلاص متحقق بوساطة الأمنية والحلم، من خلال زواج البنت الفقيرة من ابن ملك الجان.

وفي الحكاية ملامح من قصة يوسف عليه السلام وقد غاب عن أبيه، فعمي من الحزن والبكاء عليه، ثم حين عاد إليه ارتد بصيراً.

❑❖❑

الفعل يدل على الأصل

يحكى أنه كان لرجل بائس فقير عشرة أولاد، لا يستطيع إطعامهم، لشدة فقره وبؤس حاله، وذات يوم ضاق ضيقاً شديداً، فقرر أن يقدم أحد أولاده هدية للملك، وكان ملك البلاد عقيماً، لم يرزق بولد، فاختار الرجل من أولاده أشدهم ذكاء، وأكثرهم وسامة، وكان عمره لا يزيد على العاشرة، فسار به إلى الملك، فقدمه إليه، فرحب به، وضمه إلى حاشيته، وعين له المعلمين والمربين، ثم أمر لوالده بطعام كثير، يكفيه هو وعياله أياماً.

أخذ الفتى يحضر مجلس الملك، ويقعد إلى يمينه، ويرى مناقشات الوزراء، ويشهد شكاوى الناس، ويسمع حكم الملك في ذلك كله، حتى مرت عليه شهور وأعوام.

وذات يوم أراد الملك الخروج إلى الصيد بالصقر، فطلب من وزيره أن يحضر له صقراً مدرّباً، وبعد عدة أيام أحضر له الوزير صقراً، ما إن رآه الفتى وهو يتناول بمنقاره اللحم من يد الوزير، حتى طلب من الملك ألا يخرج إلى الصيد به، فسأله عن السبب،فأخبره أن أم هذا الصقر أمه

دجاجة، فأنكر ذلك الملك، ومضى إلى الصيد به مع الوزراء،ولكنه رجع خائباً،إذ لم يظفر صقره بشيء.

وفي اليوم التالي طلب الملك من الفتى أن يحدثه عن الصقر، ويوضح له كيف عرف أن أمه دجاجة؟! فأجاب الفتى بأنه رأى الصقر يلتقط قطع اللحم من كف الوزير بعد أن ينقرها كما تنقر الدجاجة الحب في الأرض، ولا يختطفها اختطافاً حاداً، كما يفعل الصقر، فاقتنع الملك بجوابه، والتفت إلى الوزير يطلب منه توضيح الأمر، فأرسل الوزير وراء الرجل الذي اشترى منه الصقر، فاعترف الرجل بأنه كان يربي صقراً، وقد وضعت أنثاه بيضة وماتت، فحار في الأمر، ثم حمل البيضة، وكانت لدى زوجته دجاجات تعنى بها، وكانت إحدى الدجاجات راقدة على البيض، فوضع بيضة الصقر تحتها، مع سائر البيض، ولما فقست، نشأ فرخ الصقر مع فراخ الدجاجة، وتعلم منها نقر قطع اللحم، ولما سمع الملك ذلك، ازداد إعجابه بالفتى.

وفي يوم آخر أراد الملك أن يتفرج على سباق الخيل، فخرج مع وزرائه إلى ميدان السباق، ويصحبه الفتى، واختار فرساً، أراد الرهان عليها، ولكن الفتى نصح له أن يختار غيرها، وأكد أن أم تلك الفرس أتان، ولكن الملك أبى إلا أن يراهن عليها، وجرى السباق، وتخلفت الفرس، وخسر الملك الرهان، فالتفت إلى الفتى يسأله كيف عرف أن أم الفرس التي خسرت أتان، فأجابه: "عرفت ذلك من رأسها،

تطأطئه دائماً إلى الأرض، شأنها في ذلك شأن الأتان".

وأمر الملك بسائس الخيل، فحضر بين يديه، فسأله عن الفرس التي راهن عليها، وعن سبب خسارتها، فاعترف السائس بأن أم تلك الفرس أتان، اضطر إلى أن يسمح لها بالإنجاب من جواد لديه، في إحدى السنوات، لقلة الأفراس.

وازداد إعجاب الملك، وعزم على تبني الولد، ولكنه أجّل ذلك، وقرر أن يختبره في أمر، لا يعرفه هو نفسه، فدعاه إليه، وخلا به، ثم أخبره أن لديه ثلاث زوجات، قدمهن إليه ملوك البلاد الأخرى، وهو يريد منه أن يعرف مهنة آبائهن، فطلب منه الفتى أن يسمح له برؤيتهن وهن يدخلن عليه، ويخرجن، واحدة، بعد الأخرى.

ودعا الملك أولى زوجاته، فدخلت عليه، فطلب منها أن تستعد الليلة لاستقباله، ثم صرفها، ولما خرجت التفت إلى الفتى يسأله عن مهنة أبيها، فأجابه بأن والدها حلاق، ثم دعا الملك زوجته الثانية، فدخلت عليه، فطلب منها أن تستعد لاستقباله في ليلة غد، ثم صرفها، ولما خرجت التفت إلى الفتى يسأله عن مهنة أبيها، فأجابه بأن والدها حدّاد، ثم دعا الملك الثالثة، فدخلت عليه، فطلب منها أن تستعد لاستقباله في الليلة التالية لليلة غد، ثم صرفها، ولما خرجت التفت إلى الفتى يسأله عن مهنة أبيها، فأجاب بأنه فلاح، ثم سأله الملك كيف عرف ذلك، فأجابه الفتى: "أما الأولى فقد كانت ناعمة اليدين، وقد دخلت زكية الرائحة، تفوح منها

رائحة العطور، فعرفت أن والدها حلاق، وأما الثانية فقد كانت عريضة الكتفين، ثابتة الخطو، فيها ملامح القوة، فعرفت أن والدها حدّاد، وأما الثالثة فقد كانت خشنة اليدين، سريعة الخطو، لوّحتها الشمس، فعرفت أن والدها فلاح".

وخلا الملك بعد ذلك بزوجاته واحدة واحدة، وسأل كل واحدة منهن عن مهنة أبيها، فكان جوابهن جميعاً مثل جواب الفتى، فكان والد الأولى حلاقاً، ووالد الثانية حداداً، ووالد الثالثة فلاحاً.

ودهش الملك لذلك، وثار الفضول في نفسه، فدفعه إلى سؤال الفتى عن مهنة أبيه هو نفسه، أي الملك، فطلب منه الفتى أن يمنحه الأمان، فمنحه الأمان، فأجاب على الفور بأن والده كان طباخاً، فلم يجب الملك بشيء، وأسرع على الفور إلى أمه، يسألها عن أبيه، فقالت له: "أبوك هو الملك"، فأنكر، وألح عليها أن تعترف، فاعترفت بأن زوجها الملك كان عقيماً، ولكي يحتفظ بالمُلك لنفسه، طلب منها أن تمكّن الطباخ في القصر من نفسها، ففعلت، فحملت منه، وهو والده.

ورجع الملك إلى الفتى يسأله كيف عرف أن والده طباخ، فأجاب الفتى: "عرفت ذلك من عطائك، فقد أعطيت أبي الذي أهداني إليك طعاماً له ولعياله"، وعندئذ نزل الملك عن كرسي الملك، ورفع التاج عن رأسه، ووضعه على رأس الفتى، وقال له: "أنت أولى بالعرش مني".

تعليق:

حكاية مدهشة، تؤكد ذكاء أولاد الفقراء، وأنهم أولى بالملك من الملوك أنفسهم وهي تعبر عن انتقام الطبقة الفقيرة لنفسها على الأقل من خلال حكاية مرحة.

والحكاية تقوم على ألغاز عمادها ما يدعى علم العرافة، أي معرفة أخلاق الإنسان ومزاجه وشخصيته من خلال ملامحه وطرق تصرفه.

وفي الحكاية قدر كبير من الذكاء، وهي على ما يبدو موجهة إلى الشباب، كي تعلمهم أساليب التعامل مع الواقع ومعرفة الأشخاص. وتظهر البنية الثلاثية واضحة في الحكاية.

❒❖❒

البغي الطهور

كانت تعيش في قصر كبير عجوز، أمضت عمرها في الصوم والصلاة والعبادة وكانت تسهر على رعايتها خادماتها اللواتي لازمنها وأخلصن لها، واطمأنت نفوسهن إلى تقواها وورعها.

وذات ليلة ماطرة شديدة البرد، من ليالي الشتاء القارس، قرع باب القصر، فنزلت إحدى الخادمات لتنتظر من في الباب، فإذا عجوز فقيرة بائسة، يظهر عليها الإرهاق والمرض الشديد، تستجدي وتتوسل طالبة من الخادمة أن تستأذن سيدتها في إيوائها، معترفة لها، كي ترق لحالها وتشفق عليها، بأنها كانت مومساً، فقدت زهرة شبابها في المبغى، ثم تشردت في الشوارع، لاتجد من يؤويها.

وأسرعت الخادمة إلى السيدة تخبرها بالأمر، فأمرتها بطردها، فرجعت الخادمة خائبة لتخبرها بقرار سيدتها، فلم تجب العجوز بشيء، ومضت يائسة تحت المطر، والمرض يشل خطاها، فأشفقت عليها الخادمة، ودعتها إلى الدخول،

ثم قادتها إلى حجرة صغيرة، تلقى فيها الحاجات المهملة، وطلبت منها أن تبقى فيها وتلزم الهدوء، ثم أحضرت لها بعض الطعام، ووعدتها أن ترجع إليها.

وأسرعت الخادمة إلى سيدتها، وظلت إلى جانبها، تساهرها وتؤانسها حتى حان موعد نومها، فرافقتها إلى فراشها، وقدمت لها دواءها، ولما اطمأنت إلى نومها، تركتها وخرجت مسرعة إلى العجوز، ولما دخلت عليها، وجدتها في النزع الأخير، فوقفت إلى جانبها تواسيها وتعطف عليها، حتى لفظت الروح.

وتنبهت الخادمة إلى المأزق الذي وقعت فيه، وبينما هي في حيرة من أمرها، إذا نسوة صبايا جميلات كالأقمار، يدخلن عليها، يحملن أباريق من فضة، وثياباً من سندس، ثم بادرن فغسلن العجوز ثم كفّنّها وحملنها وخرجن بها.

ودهشت الخادمة لِمَا رأت وكأنها في حلم، ثم تنبهت إلى أرض الغرفة، فوجدت فيها بعض الماء، فأسرعت إلى مسحه وتنشيفه، قبل أن يشعر أحد بالأمر، ولكنها ذهلت أمام رائحة الماء العطرة، فقررت أن تجمع قليلاً منه في زجاجة صغيرة وأن تحتفظ به، فقد أدركت أن تلك العجوز ذات مكانة رفيعة عند ربها.

ومرت الأيام، تلتها الشهور والأعوام، وذات يوم أفاقت الخادمات، فوجدن السيدة ميتة في سريرها، فقد باتت في

الليل، وحيدة في غرفتها، من غير أن يكون ثمة أحد إلى جانبها، وبدأت الخادمات الاستعداد لتجهيز السيدة ودفنها، فاستدعين غاسلة خاصة، لتعمل في غسلها وتكفينها، وقد حضر بعض أقارب السيدة وقريباتها.

ودخلت الغاسلة على السيدة لتباشر عملها في غسلها وتكفينها، ولكنها لم تلبث أن خرجت إلى الخادمات والقريبات وهي تشتم وتلعن للمقلب الذي أوقعنها فيه، فدهشت النسوة وسألنها عن الأمر، فاستنكرت عليهن أن يدخلنها على رجل ميت لكي تغسله، فأنكرن ذلك وأكدن أن الميت امرأة، ولكن الغاسلة أكدت أنها رجل، ثم طلبت إحضار رجل غاسل.

وتم إحضار رجل غاسل ليغسلها، ولما دخل عليها، خرج مستنكراً دعوته، وأكد لهن أن الميت امرأة، وتكرر دخول الغاسلة والغاسل، عدة مرات، وفي كل مرة يؤكد الغاسل أن الميت امرأة، وتؤكد الغاسلة أن الميت رجل، إلى أن حار الناس في الأمر.

وتذكرت الخادمة المرأة البغي، فأسرعت إلى الزجاجة الصغيرة، التي احتفظت فيها ببعض الماء الذي غُسِلَت به، وطلبت من الغاسلة أن تصبه على الميتة.

وبعد أن صبت الغاسلة ماء الزجاجة على الميتة، تم غسلها وتكفينها وتجهيزها ثم دفنت بسلام.

تعليق:

تؤكد الحكاية جوهر الإنسان، فهي تكشف الغطاء، لتزيل الظاهر الزائف، وعندئذ يبدو الباطن الصحيح، وهي تؤكد ضرورة تقديم العون والستر للإنسان في أي ظرف كان، كما تؤكد أيضاً أن جوهر الدين هو المعاملة، وليس محض العبادة.

والحكاية تقوم على المفارقة الكبيرة بين العجوز المتعبدة والعجوز المومس، وما لقيت كل منهما من جزاء، بسبب سوء النية.

ومما لاشك فيه أن الحكاية لا تمجد المومس لأنها مومس، وإنما تمجد روح الإنسان المنكسرة، ولا سيما حين أهانتها صاحبة القصر وطردتها في الليلة الماطرة.

كما تدل الحكاية على ضرورة تفكير المرء في العاقبة والمصير، وعلى الإنسان ألا يخدع بما هو فيه الآن، وإنما عليه أن يفكر في قابل الأيام.

❐❖❐

الشقي والتقي

يحكى أنه كان لأحد الرجال الأتقياء، جار شقي، لا يتورع عن ارتكاب الفواحش، ما ظهر منها وما استتر، وكان مايزال شاباً عزباً، وأمه تهديه، وتنصح له بالزواج، وهو يرفض، ويستمر سادراً في شقائه.

وذات يوم قرر الجار التقي أداء فريضة الحج، فهيأ نفسه للسفر، وأعد للحج عدته، وجهز نفسه، وودع أهله وأصحابه، ثم ودّع جاره، وانطلق مع القافلة.

وكان السفر إلى الحج يستغرق أشهراً طويلة، إذ كانوا يسافرون على الجمال، فيمضون شهراً في الذهاب، وشهراً في الحج، وشهراً في الإياب، فكان الحاج يغيب عن أهله ثلاثة أشهراً أو أربعة.

وفي غياب الجار التقي، قرر الجار الشقي الزواج، فطلب من أمه أن تخطب له، ففرحت الأم بقرار ابنها، وسعت تطوف باحثة عن فتاة تليق به، ثم استقر بها المطاف على فتاة، وتم الزواج، وتاب الشقي، واستقر، وترك ماكان فيه من قبل.

وفي تلك الأثناء كان الجار التقي في الحجاز، يؤدي مناسك الحج، وبينما هو في الحرم الشريف، يطوف حول بيت الله الحرام، ويدعو الله، ذكر جاره، فدعا له بالهداية والصلاح، وإذا هاتف من السماء يقول له: "جارك الشقي سيدخل الجنة قبلك، وسيجد بابها مفتوحاً"، فذهل لما سمع، وفاضت عيناه بالدموع، وتمنى أن يعرف سر مغفرة الله تعالى له، وبات ينتظر العودة إلى بلده، ليلتقي جاره، ويسأله عما فعل، حتى عفا الله عنه.

وانتهت أيام الحج، ورجع التقي إلى بلده، وأمضى بضعة أيام يستقبل الناس القادمين للقياه، ولما انتهت تلك الأيام، أسرع إلى جاره يسأل عنه، فلقيه، فسلم عليه، ودعاه إلى ضيافته، وقعد يحدثه عما جرى معه في الحرم الشريف، وسأله بالله أن يقص عليه ما كان من أمره، ومن سر مغفرة الله له، وفي البدء تردد الشقي، ولكنه لم يلبث أن حدثه، فقال:

"طلبت من أمي أن تخطب لي، فقد قررت في غيابك الزواج، وما هي إلى بضعة أيام حتى اهتدت إلى فتاة، ثم كان حفل الزفاف، ودخلت على عروسي، ولم أمض معها بعض الوقت، حتى ظهرت عليها آثار ألم شديد، وسألتها، وإذا هي في المخاض، ودهشت، لِمَا رأيت، فتوسلت إلي أن أكتم أمرها، وقد آلمني كثيراً ما بدا عليها من وجع شديد، وهي تكتم ألمها، وتحبس صراخها، وترهق نفسها، حتى

كان الفجر، فوضعت ولداً، فحملته تحت عباءتي، وخرجت، وأنا أدعي أمام أهلي أني ذاهب إلى صلاة الفجر، ولم ألبث أن عدت إلى البيت، لأدعي أمام أمي أني عثرت بهذا الطفل الوليد، ملقى على باب المسجد، فأخذته أمي وفرحت فرحاً شديداً، وقررت أن تعنى به، وتربيه، ثم علمت من عروسي أن ابن عمها كان قد غرر بها، ثم سلمت أمرها إلي، لأقرر مصيرها بما أشاء، فرقّ قلبي لها، وقررت أن أعيش معها، أخاً، من غير أن أمسها، وهي إلى اليوم معي، هانئة صابرة مطيعة، وأنا لا أقربها، وقد مضى على زواجنا ثلاثة أشهر، ولا أحد يعلم بما بيننا، غير الله وأنت".

وكان التقي يستمع إلى الشقي، والدموع تطفر من عينيه، ولما أنهى حديثه، قال له: "بارك الله فيك يا أخي، فقد غفر الله لك، ولكن لي عندك رجاء، آمل منك ألا يخيب"، فوعده الشقي ألا يخيبه، فتمنى عليه أن يباشر زوجته، وأن تصبح حلاًّ له، فبفضلها قد غفر الله له، وهداه إلى الحق والرشاد، فوعده الشقي بذلك.

وعاش الشقي مع زوجته، في أهنأ حال، وأسعد بال، وأصبح تقياً ورعاً، يخاف الله ويخشاه، ورزق البنين والبنات، وأما الولد، فقد نشأ مع إخوته لأمه، يحظى بما يحظون به من عطف واهتمام.

تعليق:

تدل الحكاية على أن الدين في الأساس هو المعاملة،

وأن علاقة الإنسان بالمجتمع والآخرين والناس من حوله، هي التي تقرر مصيره، وليست العبادة وحدها، وإن كانت الحكاية لا تلغي العبادة، ولا تقلل من قيمتها.

والحكاية تعلي من شأن الإنسان، وتؤكد أن رعاية الإنسان وحمايته وستره والعفو عنه، هي الأمور التي ينال بها المرء رضى الله وعفوه.

والحكاية تدل على أن الدين هو تعبد الإنسان لله من جهة، وتعامله مع الآخرين من جهة، والجانبان متكاملان لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

ويظهر من خلال الحكاية ما ينال المرأة دائماً من ظلم المجتمع لها، كما يظهر من خلال الحكاية أيضاً أنها هي نفسها معيار العفو والرضا، والرجل ينال الحظو عند ربه بمقدار ما يمنحها من رعاية واهتمام.

والحكاية ذات رؤية إيجابية، تقدر المرأة، وتدافع عنها، وتدعو إلى رعايتها وتكريمها.

❒❖❒

عقدة الإصبع

كان في إحدى القرى زوجان يعيشان هانئين، أمضيا ردحاً من عمرهما لا يكدر صفو عيشهما شيء، فللزوج قطعة أرض يعمل في زرعها، وتدر عليهما من الغلال ما يكفيهما، والزوجة تمضي يومها في البيت، تطهو الطعام، وتربي الدواجن، ولكن كان ينقصهما شيء واحد هو الولد، فقد كانت المرأة عاقراً.

وذات يوم تمنت المرأة أن تحمل بولد، ولو كان بطول عقدة الإصبع، ويبدو أن أمنيتهما قد تحققت، فحملت، ووضعت ولداً بطول عقدة الإصبع، وفرح الأبوان بالولد، وعنيا به، وأحاطاه باهتمامهما، حتى كبر وشب، ولكن طوله لم يتجاوز طول الإصبع الواحد.

وذات يوم كانت الأم تعد فيه الطعام، زفرت، ثم قالت: "لو أني رزقت بولد ليس كعقدة الإصبع لكان حمل الطعام إلى أبيه في الحقل!!"، وعلى الفور رد عليها عقدة الإصبع، قائلاً: " أنا سأحمل الطعام إلى أبي، وسأساعده في العمل". ونظرت الأم مدهوشة، ثم قالت: "وكيف؟" فأجابها: "ضعي الطعام على ظهر الحمار، وأنا سأقعد في أذنه،

وأقوده إلى الحقل".

ولم تصدق الأم ما قاله ابنها، ولكنها استجابت إليه، فوضعت الطعام على ظهر الحمار، ونطّ عقدة الإصبع إلى أذنه، فقعد فيها، ثم أخذ يصيح، وانطلق الحمار، وفي الطريق، كان عقدة الإصبع يوجهه، فيصيح به لينعطف إلى يمين أو شمال، أو ينبّه الناس كي يبتعدوا عن طريقه، وكان هؤلاء يدهشون لسماع الصوت وعدم رؤيتهم أحداً.

ولما بلغ عقدة الإصبع الحقل، نادى والده، ولما سمع الأب النداء، دهش وأقبل على الحمار، يبحث عن ولده، ويطلب منه أن يظهر، ونط عقدة الإصبع من أذن الحمار إلى الأرض، فتلقاه والده، وحمله على يده، ثم قعد يتناول غذاءه معه.

ومرت الأيام، سعد فيها الأبوان بابنهما وبما يمتاز به من حركة ونشاط، وبما يبد عليه من ذكاء، على الرغم من صغره، وضآلة حجمه، وذات يوم كان الأب يقود فيه ثوره، وقد ربطه إلى المحراث، ليحرث به الأرض، استعداداً لموسم الزرع، وكان عقدة الإصبع يسير إلى جانبه، وينط فوق أكوام التراب، وإذا كومة من التراب يقلبها سن المحراث فتنهال عليه وتردمه، وقبل أن تمتد إليه أصابع والده لتبحث عنه وتنقذه، كان قد أسلم الروح.

تعليق:

تدل الحكاية على شعور حاد بالحرمان من الولد،

ولعل الأم هي أكثر معاناة لهذا الشعور من الأب، حتى إنها تمنّت أن ترزق بولد ولو كان ضئيلاً بشكل غير معقول، لتشبع غريزة الأمومة، وقد تحقق لها ذلك بوضعها عقدة الإصبع.

والنهاية المبكرة لما وضعت تؤكد أنه لا شيء يغني عن الولد، ويشبع عاطفة الأمومة، سوى الولد، أما شبهه أو مسخه فلا غناء فيه.

ومن الواضح أن لدى الأب حاجة إلى الولد، وهي على الأغلب حاجة اقتصادية اجتماعية، ليساعده في أعمال الحقل، على حين تظهر حاجة الأم محض حاجة طبيعية تتصل بتحقيق أمومتها، ولذلك كان شعور الأم أقوى وأكثر رسوخاً.

والحكاية تقوم على خيال خصب، يبتكر شخصية عقدة الإصبع تعويضاً عن غياب الولد، وهي بسيطة جداً، وتبدو موجهة في الظاهر إلى الأطفال، ولكنها تنم في الداخل عن شعور الكبار، ولا سيما الأمهات.

وثمة حكاية رواها الأخوان غريم تشبه هذه الحكاية الشبه كله، ولا تختلف عنها في غير مرور عقد الإصبع بسلسلة من المغامرات ينجو في نهايتها، ويظل على قيد الحياة، ويسعد به أبواه.

❑❖❑

الزوجة الوفية

كان لأحد الأغنياء ولد وحيد، رباه خير تربية، ولما

شب، وحان أوان زواجه، نصح له أن يختار لنفسه زوجة وفيّة، وأوصاه أن يسألها ليلة الزفاف: "أنا وأنت على الدهر، أم أنت والدهر عليَّ؟"، فإذا أجابته: "أنا والدهر عليك"، فما له سوى طلاقها، قبل أن يخلو بها.

وخطب الفتى لنفسه فتاة، وفي ليلة الزفاف سألها ما أوصاه به أبوه، فأجابته: "أنا والدهر عليك"، فأصبح وقد طلقها، ثم خطب لنفسه فتاة أخرى، وكان من أمره معها ما كان مع الأولى، ثم خطب فتاة ثالثة، وقد عزم على العيش معها، ولو أجابته بمثل ما أجابته الأولى والثانية.

وتحقق ما توقعه الفتى، فقد أجابته زوجته: "أنا والدهر عليك"، فكتم ذلك، ولما سأله أبوه عن جوابها على السؤال الذي أوصاه به، أجاب أباه بما يرضيه، ففرح الأب بذلك، واطمأن.

وذات يوم نادى الأب زوجة ابنه، بعد خروج ولده، فأسرعت إليه تسأله ماذا يريد، فقادها إلى بركة في فناء الدار، وطلب منها أن ترفع سدادتها، ففعلت، وتسرب الماء كله، وإذا في قاع البركة باب، فتحه الأب، ودعا زوجة ابنه إلى النزول فيه، فنزلت، وإذا هي في سرداب تحت البركة، فيه أموال وذهب كثير، فالتفت إلى والد زوجها مدهوشة، فقال لها: "هذه الأموال كلّها لابني، وأنا أخشى ألاّ يحسن التصرف بها بعد موتي، ولذلك سأبقي أمرها سراً، لتعطيه منها شيئاً فشيئاً، عند الحاجة الشديدة"، ففرحت بذلك،

ووعدته أن تكون وفيّة لوصيته، مخلصة لزوجها.

ومرّت الأيام والزوجة تعنى بوالد زوجها، وتهتم به، إلى أن وافته المنية، فأخذت تطلب من زوجها كل يوم أمراً جديداً، ففي يوم تطلب منه شراء حلية لها، وفي يوم آخر تسأله شراء أثاث جديد للمنزل، وهكذا حتى نفد ماورثه من أبيه، وهي ما تزال تحتفظ بسر الأموال المدفونة تحت البركة، ولا تعطيه منها شيئاً، حتى جاء يوم أصبح فيه غير قادر على تلبية حاجاتها، وهي ما تزال تلح عليه بالطلب، وتسأله شراء الحاجات، فنزل إلى السوق، ووقف مع جماعة من البنائين، ينتظر أحداً يدعوه إلى العمل عنده، وكان من حسن حظه أن قدم رجل دعا البنائين جميعاً للعمل، وكان هو في جملتهم، وبعد فراغهم من العمل، بدأ كل واحد منهم يأخذ أجرته ويمضي، ولما جاء دور الفتى، استبقاه الرجل، إلى أن انصرف البناؤون جميعاً، فأعطاه أجرته مضاعفة، ثم دعاه إلى تناول طعام العشاء، ثم فاجأه الرجل بمعرفته لأبيه، وأنكر عليه حاجته إلى العمل في مهنة لا يتقنها، وأكد له أن لدى أبيه أموالاً لا نفاد لها، وأنه لا يشك في أن زوجته هي التي تخفي عليه موضع أمواله.

ودهش الفتى لذكاء الرجل ونفاذ بصيرته، ثم سأله النصيحة، فدلّه الرجل على أمر طلب منه أن ينفّذه فور وصوله إلى البيت.

وأسرع الفتى إلى زوجته وأخبرها -كما أوصاه الرجل-

أنه أصبح لا يملك شيئاً من المال، ولا يقدر على الإنفاق عليها، وأنه مضطر إلى الرحيل إلى بلاد أخرى، ثم طلب منها مفتاح الدار، ووعدها أن يبيعها في صباح الغد، ليدفع لها صداقها كاملاً، وتصبح طالقة، فما كان من الزوجة إلا أن ناولته مفتاح الدار، وحملت صرّة ثيابها، ومضت إلى بيت أهلها.

وعلى الفور رجع الفتى إلى الرجل، وكان قد أوصاه بذلك، فأخبره بالأمر كلّه، فطلب منه الرجل أن يمضي به إلى داره، ولما دخلها أسرع إلى البركة في الفناء، وفتح سدّادتها، ولما فرغ ماؤها، انكشف لهما الباب، ففتحه الرجل ودعا الفتى إلى الدخول، فذهل لما رأى من أموال وذهب، وبادر على الفور إلى نقلها إلى دار الرجل.

وفي الصباح طلب الفتى من الدلاّل أن يعلن عن بيع داره بالمزاد، وتقاطر الناس إلى المشاركة، وكان أول المبادرين جاره القصاب، وقد أخذ يعلي في ثمنها ويغالي، حتى استقر البيع عليه، فقبض منه ثمن الدار، وسلمه المفتاح، وكان الرجل الذي نصح له بذلك واقفاً بجواره، فهمس له: "هذا هو عشيق زوجتك"، ثم دعاه إلى منزله، وطلب منه أن يتريث حتى المساء، ليريه أمراً عجباً.

وفي الليل.. مضى الفتى إلى داره، يصحبه الرجل، وقد نصحه من قبل أن يحتفظ لنفسه بمفتاح آخر للدار، ففتح الباب ودخل، والرجل يتبعه، وأسرعا إلى السرداب

تحت البركة، فوجد الفتى زوجته مذبوحة وملقاة في السرداب، فصعق وخاف، ولكن الرجل طمأنه، وقال: "لاشك في أن عشيقها القصاب قد ذبحها بعدما رأى السرداب فارغاً لا مال فيه، وما عليك إلا التريث حتى الصباح".

وفي الصباح كان القصاب يدق الباب على الفتى، وهو مقيم عند الرجل، يطلب منه أن يعيد إليه ثمن الدار، لأنه عدل عن شرائها، ونصح له الرجل أن يفعل، ففعل واسترد المفتاح.

وعند ئذ تبين للفتى صدق الرجل، وصواب مايراه، فسأله النصيحة ثانية، فنصح له أن ينتظر إلى الليل، كي يحمل جثة زوجته المذبوحة ويرمي بها في البحر، أو أن يرفع الأمر إلى القاضي، فاختار الأمر الثاني.

واعترف القصاب أمام القاضي بفعلته، وتم إعدامه، وتسلم أهل الزوجة جثة ابنتهم، وواروها التراب.

وكان الفتى ما يزال مقيماً عند الرجل وقد اطمأن إليه، واستراح إلى ضيافته، فسأله النصيحة مرة ثالثة، فنصح له أن يبادر إلى الزواج، وكان الفتى قد رأى إحدى بنات الرجل، فطلب منه أن يزوجه ابنته، فوافق وشاور ابنته في الأمر، فوافقت، ولكن الرجل قال للفتى: "إنّ مهر ابنتي غال جداً"، فسأله عن مقداره، فأجاب الرجل: "قطع رطل

من لحم فخذك"، وأعلن الفتى عن استعداده لذلك، ونادى ابنته أن أحضري السكين، فأحضرتها وهي لا تعرف الغاية منها، فطلب منها أبوها أن تساعده على قطع رطل من لحم فخذ الفتى، ليكون مهراً لها، فرفضت البنت ذلك، وأعلنت عن استعدادها لتقدم الرطل من لحم فخذها هي بدلاً من لحم فخذ الفتى، وعند ئذ أعلن الرجل أنه لم يفعل ذلك إلا ليعرف صدق الفتى في رغبته في الزواج من ابنته، وصدق ابنته أيضاً في رغبتها في الزواج من الفتى.

ثم أخبر الفتى أنه شقيق أبيه، وأنه كان فقيراً، وأن أباه كان قد تنكر له، وأمضى حياته كلها من غير أن يتصل به.

ثم تمّ زفاف الفتى إلى الفتاة، ابنة عمه، وعاشا في هناءة وسرورة، وقد فكر ذات يوم في سؤالها الذي كان أبوه قد أوصاه به، ولكنه لم يجد ضرورة للسؤال، فقد وجد في أفعالها ومواقفها خير جواب.

تعليق:

تقدم الحكاية نموذجين للمرأة، إحداهما خائنة غادرة، والأخرى وفية مخلصة، وتبدو الأولى هي الطاغية والمسيطرة، ولكن تأتي الثانية لتجلو الصدأ، وتزرع في النفس الأمل والحب والثقة.

والحكاية تثق بالمرأة، وتعلي من شأنها، وتقدرها حق التقدير، وهي بتقديمها النموذج السيئ الفاسد، إنما تسعى إلى إظهار النموذج الطيب الصالح أكثر إشراقاً، وهي في الحالتين تؤكد مكانة المرأة في المجتمع والحياة.

والحكاية وعظية، مقدمة للشباب من بنين وبنات، كي

تعلمهم جميعاً ضرورة تلاحم الزوجين وتعاونهما وإخلاص كل منهما للآخر.

والحكاية لا تخلو من مبالغة لإحداث التأثير القوي.

❑❖❑

كل إنسان يعمل بأصله

في إحدى البوادي كان يعيش محمد مع أمه وزوجته، وكان عنده بعض الإبل يرعاها، وذات يوم، بينما يرعى إبله، سمع أنيناً وراء صخرة، وأسرع نحو الصوت، فرأى رجلاً ملقى، وليس في جسمه موضع إلا قد طعن، والدماء تنزف منه، فحمله، وأسرع إلى أمه، فطلبت منه أن يذبح على الفور إحدى النوق، وأن يجوّفها، ثم حملت الأم الرجل الجريح وأدخلته في جوف الناقة، وتركته ثلاثة أيام، ثم أخرجته، وإذا جروحه كلها قد التهبت، فأمرت ولدها أن يذبح على الفور ناقة ثانية، وأن يجوّفها، ثم وضعت الرجل الجريح داخلها، وتركته ثلاثة أيام أخرى، ولمّا أخرجته منها، كانت جروحه قد شفيت تماماً.

وأراد الرجل مغادرة الأسرة، ولكن العجوز أصرت على بقائه في ضيافتهم أياماً أخرى، حتى تطمئن إلى شفائه تماماً، وحتى يسترد عافيته وأكدت له أنها بمنزلة أمه، وأن ولدها محمد كالأخ، وأن زوجة ولدها هي كالأخت، وكان تعدّ له الطعام بنفسها، وترعاه وتعنى به.

وقد سرّ ولدها محمد به، وكان لا يكلّفه شيئاً، فيخرج

هو مع الفجر لرعاية الإبل، ويرجع مع الغروب، ليشاركه السهر، ويتركه طوال النهار في البيت مع أمه وزوجته، يعدّ القهوة، ويستقبل من قد يمرّ بهم من ضيوف.

وذات يوم أخبرت زوجة محمد حماتها بان الرجل، واسمه حسين، وقد تودّد إليها، وعبّر عن رغبة في نولها، فلامتها العجوز على ذلك، واتهمتها بسوء الظن، وأكدت لها أن الرجل ضيف، وأنه كالأخ بالنسبة إليها.

ومرة أخرى، بعد يوم أو يومين، شكت زوجة محمد إلى حماتها أمر الضيف، وأكدت تعرضه لها، ومحاولته النيل منها، فبادرت العجوز إلى عتاب حسين، وأكدت له أنها ستخبر ولدها محمداً بذلك، إن هو عاد فتعرض لزوجة ولدها.

ورجع محمد مع الغروب مع الإبل، فرأى الضيف حسين قاعداً وحده، والحزن ظاهر عليه، فسأله عن حاله، فعبّر عن رغبته في الرحيل، فقد برّح به الشوق إلى أهله، فما كان من محمد إلا أن قدّم ناقة ليمتطيها، وناقة أخرى تحمل زوادة الطريق وبعض الهدايا، ثم سار برفقته مسافة، وقبل أن يودّعه، قال له: "يا أخي يا حسين، أرجو أن تعمل دائماً بأصلك".

ورجع محمد إلى أمه وزوجته، وهو يحسّ بشيء من الاكتئاب لأنه فقد صديقاً له.

ووصل حسين إلى ديار أهله، فاستقبلوه بفرح كبير، وسألوه عن سرّ هذا الغياب، فأخبرهم عن رجل غني جداً، يملك إبلاً كثيرة، ويعيش وحده، كان قد اختطفه، وأجبره على الإقامة عنده، ليتخذ منه خادماً، ولكنه استطاع أن يفرّ تحت جنح الظلام، وحسبه دليلاً على ذلك ما يسوق معه من ناقتين، وأخذ يشجع قومه على غزو ذلك الرجل، والإغارة عليه، ثأراً لنفسه، وطمعاً فيما يملك من إبل، وظلّ يزين لهم الإغارة عليه، حتى أقنعهم.

ومع الفجر، شنّت قبيلة حسين غارة شعواء على خيمة محمد، فقتلوه، واسروا العجوز، وساقوا الإبل كلها غنائم لهم، وأقامت العجوز أم محمد في ديار حسين، أسيرة، ترعى إبلهم، وتطهو طعامهم، وتعنى بأطفالهم.

أما زوجة محمد، فقد بحث عنها حسين في أثناء الغارة، فلم يجدها، وهو الذي شجع قومه على الغزو طمعاً بها، فرجع إلى دياره خائباً.

وكانت زوجة محمد قد هربت أول ما رأت الغارة، ولجأت إلى ديار أهلها، وأقامت بينهم، وكانت حاملاً، في شهرها الأخير، ولم تلبث أن وضعت ولداً، أسمته محمداً باسم زوجها.

ونشأ محمد في ديار أخواله، وتعلم الفروسية وركوب الخيل والمبارزة، وأصبح شاباً، وذات يوم سمع شيئاً ما عن

مقتل أبيه، فأسرع إلى أمه يطلب أن تخبره بالحقيقة، وألحّ عليها، فأخبرته بكل ما كان، فحمل سيفه، وامتطى جواده، وودّع أمه، ثم مضى، مقسماً أن يثأر لأبيه، وظل يطوي البوادي والقفار، حتى وصل إلى ديار حسين، فشاهد عجوزاً ترعى الإبل، فسألها من تكون؟ ولمن الإبل؟ ونظرت العجوز فيه، فرأت فيه ملامح من ولدها، فروت له الحكاية كلّها، فعرفها على الفور، وعرّفها إلى نفسه، فضمّته إلى صدرها، وأخذت تقبله وهي تبكي.

ثم أخبرته أن حسين قد تزوج وأنجب ولداً هو في مثل عمره، وأن الليلة هي ليلة زفافه، ثم دلته على خيمة العروس، ولما صار الليل، ودخل ابن حسين على عروسه، هجم عليه محمد، فقتله، ثم أردف العروس وراءه على الحصان، وانطلق بها إلى قبيلة كبيرة، لجأ إليها، طالباً الحماية له وللعروس، فأضافه شيخ القبيلة، وحماه، وأمر أن تفرد له خيمة تليق به وبعروسه، ولكن الفتى محمد طلب أن تنام العروس في ضيافة شيخ القبيلة مع أسرته وأولاده، وأن ينام هو وحده في الخيمة.

ومع الصباح اقترب حسين من خيمة ابنه، وناداه، فلم يسمع جواباً، وناداه ثانية، وثالثة، وما من جواب، ودخل الخيمة، فوجد ابنه مقتولاً، ولم يجد أثراً للعروس، واقتفى آثار الحصان، حتى بلغ القبيلة الكبيرة، التي كان الفتى محمد قد لجأ إليها، ودخل على شيخ القبيلة،

وطلب منه أن يسلمه العروس.

واستدعى شيخ القبيلة الفتى والعروس، وسأله من يكون؟ وماقصة تلك العروس، فأخبره بقصته وقصة أبيه، فأدرك عند ئذ حسين أن هذا الفتى قد ثأر منه لأبيه، فسكت، وقد عرف أن عاقبة الغدر والخيانة وخيمة.

وحكم شيخ القبيلة بردّ الإبل على الفتى، وإطلاق العجوز من الأسر، ثم يسأل العروس إن كانت تقبل بالفتى محمد زوجاً لها، وكانت العروس قد رأت شهامة محمد وجرأته وعفّته، فأجابت بالإيجاب.

وهكذا، رجع حسين إلي أهله يجرّ ذيول الخيبة والحزن والمرارة، جزاء ماصنعت يداه، على حين رجع الفتى محمد إلى مضارب أبيه، ليرعى إبله مع جدته وأمه وزوجته، وليعيشوا جميعاً في هناءة وسرور.

تعليق:

تمجّد الحكاية قيم الكرامة والضيافة والشهامة والعفّة، وتدين الطمع الخيانة والغدر، وتكشف بعض عادات البادية، ولا سيما الثأر، وهي تدل على أن الحق لا يضيع، وتنتهي بالاحتكام إلى القضاء لإنهاء المشكلة، مؤكدة أن للظلم نهاية، ولكن لابد من تحكيم العقل.

❒❖❒

صالحة

كان في قديم الزمان أخت اسمها صالحة، تعيش مع أخيها بعد وفاة والديهما، وكانت حياتهما هادئة هانئة، لا ينغصها شيء. وكانت الأخت صالحة تلح على أخيها كي يتزوج، وكان يخشى إذا تزوج ألا تعيش زوجته في وفاق مع أخته. ولكن الأخت ألحت عليه، ثم سعت بنفسها إلى زواجه، فخطبت له فتاة تعرفها.

وحين تم الزواج فرحت فرحاً كبيراً.

وكانت الأخت تتودّد إلى زوجة أخيها، وتساعدها في شؤون البيت، بل كانت تسعى في خدمتها، وتقوم بكثير من الأعباء بدلاً منها، كرمى لأخيها، وحرصاً منها على جو السعادة والوفاق.

وحملت زوجة الأخ، وأنجبت ولداً، فرح به الجميع، وزادت سعادتهم به. ولعل الأخت كانت أكثر فرحاً به، إذ وجدت فيه ما يملأ حياتها، ويزيد من الرابطة بينها وبين زوجة أخيها، فأخذت تخدم الولد وترعاه وتحمل عن زوجة أخيها كل أعباء البيت.

ولكن زوجة الأخ بدأت تغار من الأخت صالحة، وأخذت تحسّ نحوها بكراهية، وجعلت تفكر بالتخلّص منها بأي طريقة، وما كان منها إلا عمدت في إحدى الليالي إلى ولدها، فذبحته، ثم غطته، وأسرعت إلى زوجها، تطلب منه أن يحضر الولد لترضعه، ومضى الزوج ليحضر الولد، فذعر مما رأى، وصاح ينادي زوجته، فأسرعت إليه، لتؤكد له أن أخته هي التي فعلت ذلك.

وثار الغضب في نفس الأخ، فاستل خنجره، وأسرع إلى أخته، فوجدها نائمة، ومن غير أن يوقظها أو يكلمها، قطع يديها الاثنتين، ولفّها في ملاءة وحملها، ومضى بها إلى بستان بعيد، ورمى بها هناك.

وفي الصباح خرج البستاني من كوخه ليتفقد الزرع وينظر في الزهور فرأى فتاة صبية كالقمر، ولكنها مقطوعة اليدين، فسألها عمن فعل بها ذلك؟ ومن رماها في بستانه؟ فأخبرته بما كان من أمرها، فأشفق عليها، ودعاها لتعيش في البستان فشكرت له ذلك، وطلبت منه أن يبني لها كوخاً صغيراً، بعيداً عن العيون، وألا يخبر بها أحداً.

وكان هذا البستان للملك، وكان يقصده بين الحين والحين ليرتاح من أمور المملكة وشؤونها وذات يوم دخل الملك البستان مع جنده وخدمه، وأخذ يطوف في أرجائه يتملى جماله ويمتع نفسه بما فيه من زهور.

وكان جنده يشاركونه في تملّي جمال البستان يطوفون في أرجائه، للتسلية والاستمتاع، وشاهد أحد جنده الكوخ الجديد، فاتجه إليه، ولما رأته صالحة مقبلاً نحوها، لجأت إلى داخل كوخها، فلحق بها، وهمّ بها، لكنها صاحت تطلب الغوث، وتنبّه الملك، فأسرع إلى الكوخ، فوجد جنديه وصالحة تفرّ من بين يديه مستغيثة، ولما عاتبه الملك على ذلك، ادّعى أن الفتاة هي التي بادرت إلى دعوته إلى كوخها، وأكد أنها هي التي جذبته بكلتا يديها ليدخل الكوخ وطلب الملك على الفور إحضار الفتاة، ولما رآها مقطوعة اليدين، عرف الكذب في كلام جنديه، فأمر بسجنه، ثم أنهى زيارته للبستان، ورجع إلى قصره. وكان جمال صالحة قد استولى على لبّ الملك، فأخذ يفكّر فيها ليله ونهاره، صورة محياها لا تغادره، وذات يوم مضى إلى البستان، وطلب من صالحة أن تكون زوجة له، ولكن صالحة اعتذرت، وبينّت للملك أنها مقطوعة اليدين وأنها لا تليق زوجة به، ولكن الملك أصرّ، وتدخل البستاني وأقنعها بالزواج من الملك فقبلت. وشاع الخبر في أرجاء البلاد؛ الملك يتزوج من فتاة مقطوعة اليدين تدعى صالحة، وأقيمت الأفراح، والولائم، ووصل الخبر إلى زوجة الأخ، فازدادت غيظاً وقهراً.

ومرت الأيام وحملت صالحة من الملك، فازداد حبه لها، وتعلقه بها، ولكن حدث أن اضطر الملك إلى السفر

إلى بعض البلاد، وظلت صالحة وحدها، وفي غيابه وضعت ولداً جميلاً، فسعد به كل من في القصر وأقيمت الأفراح، وتمّ إرسال رسول إلى الملك يحمل نبأ المولود.

وما كان من زوجة الأخ إلا أن اعترضت طريق الرسول، وهو ماض إلى الملك ليخبره بالمولود، ودعته إلى بيت قريب، وقدمت له شراباً. فيه منوّم، فاستسلم لنوم عميق، فاستلّت منه الرسالة التي يحملها إلى الملك، فمزقّتها، ودست رسالة أخرى بدلاً منها، ولما استيقظ، شكرها لحسن ضيافتها ثم مضى، وهو لا يعلم مما حصل شيئاً. ولما وصل الرسول إلى الملك، قدّم إليه الرسالة، فقرأها فإذا فيها: "وضعت زوجتك ولداً أسود اللون، قبيح الشكل، من المؤكد أنه ليس ولدك، ومما يؤكد أيضاً خيانة صالحة".

وحزن الملك لدى قراءته الرسالة حزناً شديداً، ثم كتب إلى أهله جواباً يطلب فيه إكرام صالحة والعناية بالمولود، وعدم التصرف بشيء إلى حين عودته.

وفي طريق العودة تصدّت زوجة الأخ للرسول أيضاً، ودعته لاستراحة قصيرة، وفعلت مثلما فعلت في المرة الأولى، إذ بدّلت الرسالة التي يحملها برسالة أخرى.

وقرأ أهل الملك الرسالة التي كان يحملها الرسول، فإذا فيها: "تخلصوا من صالحة ومن ولدها بأي شكل كان"،

ودهش أهل الملك والوزراء لجواب الملك، ولكنهم اضطروا إلى التنفيذ، وعهدوا بالأمر إلى أحد الوزراء.

وما كان من هذا الوزير إلى أن حمل صالحة وولدها في صندوق، وتركها عند شاطئ البحر.

ومرّ صياد فقير، ففتح الصندوق، فوجد صالحة مع ولدها، فأشفق عليها، ودعاها إلى العيش مع زوجته وأولاده.

ورجع الملك إلى قصره بعد مدة، فلم يجد زوجته، ولا ولده، فسأل عنهما، فأخبروه بما كان من أمره هو في رسالة منه بالتخلص من صالحة وولدها، فأنكر ذلك، ثم طلب من الوزير أن يخبره بحقيقة ما فعله بصالحة.

ثم أسرع الملك بنفسه مع الوزير إلى شاطئ البحر، حيث كان الوزير قد ترك صالحة مع ولدها، وسأل عن الصيادين، فدلوه على كوخ الصياد الذي كان قد آواها.

والتقى الملك بزوجته وولدها، وعرف أن ثمة تزييفاً في الرسائل قد حصل، فاستدعى إليه الرسول، ولما سأله عن أمر الرسائل أخبر بالمرأة التي استضافته عندها في الذهاب والعودة.

وأمر الملك بإحضار تلك المرأة، فإذا هي زوجة أخي صالحة، فسأل الملك زوجته عن العقاب الذي تريد أن يوقعه الملك بزوجة أخيها، فقالت له: "العفو".

وهكذا عفا الملك عن زوجة الأخ، فعادت إلى بيتها

آسفة نادمة، وعاش الملك مع زوجته صالحة وولدهما، في هناءة وسرور.

التعليق:

تؤكد الحكاية أن الحب هو الخلاص، وبه وحده يستطيع أن يعيش الناس حياتهم العيش الحق.

إن كراهية زوجة الأخ قادت إلى الأذى، على حين أن حب الملك لأخت الزوج صالحة، هو الذي أدى إلى الهناءة والسعادة.

كما تؤكد أنه لابد من المعاناة والمرور بمصاعب كبيرة، مما يقتضي الصبر والتضحية، قبل أن يتحقق النصر للحق والخير والعدل.

❑❖❑

الضبع والشاب

في قرية صغيرة، كان لإحدى الأمهات ستة أولاد ذكور، ولم يكن عندها بنت، وكانت دائماً تتمنى أن ترزق ببنت، لتكون إلى قربها تأنس بها.

وذات يوم دعت ربها أن ترزق ببنت، ولو كانت ضبعاً، فاستجيب دعاؤها، فحملت ووضعت بنتاً، وإذا هي ضبع.

ومع ذلك فرحت الأم وعنيت بها، وربتها أحسن تربية حتى كبرت وأصبحت شابة.

وذات يوم لاحظت الأم أن الأغنام في الزريبة قد بدأت تنقص يوماً فيوماً، فطلبت من ولدها الكبير أن يسهر ليلته في الزريبة، ليرى من يسرق الغنم.

وسهر الولد الأول معظم الليل، ولكن النوم غلبه، فنام، وفي الصباح استيقظ، فوجد الغنم قد نقص، ولم يعرف السارق.

وهكذا كان شأن الولد الثاني، فالثالث فالرابع فالخامس،

كل منهم يغلبه النعاس، فينام، وفي الصباح يستيقظ فيجد الغنم ناقصاً، من غير أن يعرف السارق.

ولما كان دور الولد السادس، عمد إلى إصبعه فجرحها، ورش عليها الملح وثقب إبريقاً، وعلقه فوق فراشه، وملأه بالماء. وأمضى الليل ساهراً والماء ينقط فوق رأسه، والجرح يؤلمه، ولم يغمض له جفن.

وقبيل الفجر أحسّ دبيب حركة، ثم رأى أخته تتسلل إلى الزريبة، وتنقض على خروف، وتنتحي به جانباً، لتلتهمه كاملاً، ثم تخرج دون أن يشعر بها أحد.

وفي الصباح أخبر الولد أمه وإخوته بما رأى، فلم يصدقوه، فما كان منه إلا أن جمع حاجاته، وركب حصانه، وودع أمه وإخوته، وارتحل، مؤكداً لهم أنه لايريد أن يعرّض حياته للخطر.

واستقر للولد المقام في إحدى القرى، حيث اشترى بيتاً، وعاش فيه، ثم اصطاد شبلين وأخذ يربيهم بنفسه، ويعنى بهما، وقد سمّاهما "عنتر ورباب"، وكان يلاعبهما ويداعبهما، ويطعمهما بيده، حتى ألفاه.

ولما كبرا، وصارا سَبُعَين، وتأكد أنهما قد أصبحا قادرين على الافتراس، أودعهما عند سيدة عجوز، ثم أعطاها خاتماً سحرياً، وطلب منها أن تطلق السبعين، عندما تحسّ بأن الخاتم قد ضاقت به إصبعها، وأصبح

يؤلمها، ثم ركب حصانه، وانطلق إلى قرية أمه وإخوته.

ولما وصل إلى القرية، وجدها خاوية، لا أحد فيها سوى أخته الضبع، فدخل عليها، فرحبت به، وسألته كيف وصل إلى القرية، فأخبرها أنه جاء راكباً حصانه، فما كان منها إلا أن خرجت إلى الحصان، إذ كانت شديدة الجوع، فقد هرب الناس كلهم من القرية ولم يبق شيء تأكله، ولذلك التهمت قائمة حصان أخيها، ثم رجعت إليه لتسأله إن كان لحصانه أربع قوائم أو ثلاث، فأدرك أنها قد التهمت إحدى قوائمه، فأجابها أن لحصانه ثلاث قوائم، وخرجت ثانية إلى الحصان فالتهمت قائمة أخرى، ورجعت إلى أخيها لتسأله إن كان لحصانه ثلاث قوائم أو قائمتان فعرف أنها التهمت قائمته الأخرى، فأجابها بأن لحصانه قائمتين، فرجعت إلى الحصان فالتهمته كله، ثم رجعت لتسأل أخاها إن كان قد جاء راكباً أو ماشياً فأجابها بأنه قد جاء ماشياً. وكانت الرغبة في الإلتهام لدى الأخت الضبع أقوى من حبها لأخيها، فما كان منها إلا أن قالت له صراحة "جاء دورك"، وهمت بالتهامه فطلب منها شربة ماء قبل أن تلتهمه، فخرجت إلى البئر لتحضر الماء، فصعد إلى سطح الدار، ونادى بأعلى صوته "عنتر ورباب" ثم قفز من السطح إلى خارج الدار، وأخذ يعدو راكضاً، وأحسّت به أخته الضبع فتركت دلو الماء، وأخذت تعدو في إثره، وهو يركض يحاول النجاة.

وفي تلك الأثناء بدأ إصبع العجوز يضيق بالخاتم الذي كان قد أعطاها إياه فذكرت وصيته لها، فأسرعت إلى السبعين، فأطلقتهما، وجرى الرجل الذي كان قد رباهما، ولما شاهدا الضبع تعدو في إثره تريد أن تلتهمه، انقضا على الضبع، وافترساها.

ثم أخذ يبحث عن أمه وإخوته في القرى المجاورة، حتى وجدهم فأعادهم إلى قريته.

كما عاد أهل القرية كلهم إليها، وعاشوا جميعاً بأمن وسلام.

تعليق:

تدل الحكاية على نزعة غريزية لدى الإنسان وهي رغبته في أن يمتلك ما ليس لديه، ولو كان عنده الكثير الكثير، ولا سيما المال والولد.

وقد تطغى هذه النزعة، فتظهر في شكلها الحيواني المنحط والخطير، وهي لا تلحق الأذى بصاحبها وحده، بل بكل من حوله، من أسرة ومجتمع.

لقد طغت هذه النزعة عند الأم التي تملك ستة ذكور، فتمنت بنتاً ولو ضبعاً، أي أنها انحدرت من المستوى الإنساني إلى المستوى الحيواني، لاشيء إلا لتحقيق رغبتها، وضررها لم يلحق بالممتلكات كالغنم فقط، إنما لحق الأسرة والقرية كلها.

وما تلبث الحكاية أن تحدّ من طغيان تلك النزعة لابموت الأخت الضبع أو قتلها، وإنما بطريقة أخرى أكثر ذكاء وأكثر تأكيداً لإنسانية الإنسان وسموه عن النزعة الحيوانية.

إنّ الولد السادس لايقدّم على قتل أخته، بل يترفع عن

ذلك وإنما يلجأ إلى تربية سبعين، ليقدما على افتراس الضبع، وبذلك يواجه الحيوان بالحيوان ولا يواجه الحيوان بالإنسان ويحقق الخلاص لأسرته وقريته ويعيد إليهما معاً الحياة.

❑❖❑

أبو عيشة

عاش في قرية نائية زوجان، فيهما قدر غير قليل من الخبال، وكان لهما بنت اسمها عيشة، تمتاز بالجمال والذكاء. وقد اعتاد الزوجان أن يخرجا كل يوم إلى الحقل للعمل، وكانا يتركان عيشة في البيت، لتعدّ لهما الطعام.

وذات يوم قعدا في ظل شجرة، ليستريحا من العمل، فمرّ بهما شاب على صهوة جواد، فأشار إليه أبو عيشة، فاقترب منه الشاب، فسأله: "إلى أين أنت ذاهب أيها الشاب؟!"، فأجابه: "إلى قرية التل"، فسأله ثانية: "وستمر بالقرية الفلانية؟!" فأجابه: "نعم"، فقال له أبو عيشة عندئذ: "أنا بيتي في تلك القرية التي ستمر بها، وأمام بيتي شجرة توت كبيرة، وقد وضعت المفتاح تحت حجرة بجانب الباب، وفي داخل الدار ابنتي عيشة، وهي جميلة وذكية، وقد خبأت تحت الفراش كل ما أملك من مال، وأنا أحذرك من سرقة المال، أو اختطاف البنت".

ولما سمع الشاب ذلك أدرك أن الرجل مخبول، أو مجنون، فتركه، ومضى من غير أن يقول شيئاً، وهو يكاد لا يصدقه، فلما وصل إلى قرية الرجل، قصد إلى بيته،

ليتأكد من صدق كلامه، فوجد المفتاح تحت الحجر، ففتح الباب ودخل، فرأى صبية حسناء كالبدر، فسألها: "أنت عيشة؟!" فأجابت: "نعم"، ثم رفع الفراش، فوجد تحته صرة ليرات ذهبية، فأخذ الصرة وحمل البنت على الجواد، وانطلق بها إلى قريته.

ورجع أبو عيشة آخر النهار إلى بيته ومعه زوجته، فشاهد الباب مفتوحاً، فدخل وهو ينادي ابنته، ولكن ما من مجيب، ونظر تحت الفراش، فما وجد شيئاً، فأدرك عندئذ أن الشاب قد سرق ماله، وخطف ابنته، فالتفت إلى زوجته يشاورها في الأمر، فأجابته: "لاتهتم، أنا أعرف الشاب، فهو ابن آغا الضيعة المجاورة، ولابد أنه تزوج ابنتنا، وهي الآن هانئة في العيش معه"، واطمأن أبو عيشة إلى ماقالت زوجته، ولكنه أضاف يسألها: "وماذا علينا أن نفعل؟!" فأجابت: "علينا أن نزورها بعد ثلاثة أيام، وأن نحمل لها الهدايا؟!".

وبعد مضي يومين، أيقظت أم عيشة زوجها في الصباح الباكر، وهي تحثه على النهوض لزيارة ابنته، فنهض وهو يسألها: "وماذا سنحمل إليها معنا"، فأجابته: "لاتهتم، فقد هيأت كل شيء، عندي قطعة قماش" سآخذها لها، كما سنأخذ لها ظرف زيت، وقد عجنت الدقيق، لنصنع لها بعض الكعك، فهيا قم وأوقد النار في التنور".

وانطلق أبو عيشة إلى التنور، فوجد أشعة الشمس

منعكسة فيه، وهي في أول إشراقها، فظن النار مشتعلة، فأسرع إلى زوجته، يخبرها بأن النار في التنور موقدة، وكانت قد أعدت أقراص الكعك، فتناولها وأخذ يلصقها بالتنور، ووقف ينتظر نضجها، في حين ذهبت زوجته لتهيئ ظرف الزيت، والثوب.

وبعد قليل رجعت زوجته، وهي تسوق الحمار، وقد وضعت على ظهره ظرف الزيت، وتأبطت تحت ذراعها الثوب، فسألت زوجها: "أما نضج الكعك، فأجابها: "نضج"، وفكر قليلاً، ثم أضاف: "ولكني أرى أن نحمل التنور معنا، حتى يبقى الكعك ساخناً، فوافقته زوجته.

وما كان منه إلا أن اقتلع التنور، وفكر في طريقة حمله، ولما سأل زوجته عن ذلك، أجابته: "ضعه في رأسك"، ففعل، فأصبح لايرى، فسأل زوجته عن الحل، فأجابته: "لاتهتم، أمسك الحمار من ذيله، وأنا سأقود من أمام".

ومشت أم عيشة، تسحب الحمار من رسنه، وتحت إبطها القماش، وعلى ظهر الحمار ظرف الزيت، وأبو عيشة في رأسه التنور، يسير وراء الحمار، وقد أمسك به من ذيله.

ومرت أم عيشة بأرض قد تشققت من العطش، فقالت لأبي عيشة: "لو ترى يا أبا عيشة الأرض كم هي عطشى،

لأشفقت عليها"، فرد عليها والتنور في رأسه: "أشفقت عليها يا أم عيشة من غير أن أراها، ما رأيك في أن تسقيها الزيت؟!"، فأجابت: "لابأس"، ثم شقت الظرف، وأهرقت الزيت على الأرض.

وبعد قليل مرت أم عيشة بشجرة حور باسقة، فقالت لأبي عيشة: "لو ترى يا أبا عيشة هذه الصبية وهي عارية، لأشفقت عليها"، فرد عليها، والتنور في رأسه: "أشفقت عليها من غير أن أراها، ما رأيك أن تستريها؟"، فأجابت: "لابأس"، ثم أخذت تلف حول جذع الشجرة القماش الذي كانت تحمله تحت إبطها هدية لابنتها.

ولما وصلت أم عيشة إلى بيت الآغا، أخذت تقرع الباب بعنف، وتنادي ابنتها، طالبة منها أن تفتح لها الباب، وهي تبشرها بقدومها إليها، وقدوم أبيها، حاملاً لها التنور، وفيه الكعك ساخناً.

وخرج ابن الآغا ليستقبل عمه وزوجة عمه، فدهش لما رأى، وأمر الخدم أن ينزلوا التنور من رأس عمه، وعلى الفور بادر أبو عيشة إلى عناق زوج ابنته، والمباركة له في زواجه، وكانت عيشة ترى ذلك كله وتسمعه، فخجلت أشد الخجل من تصرف والديها، كما خجلت من الثياب الرثة التي كانا يرتديانها.

ودعا ابن الآغا عمه إلى الغرفة التي يستقبل فيها

ضيوفه، وكان فيها عدد من وجهاء القرية ورجال الآغا، فدخل عليهم أبو عيشة مسلّماً وهو يهلل فرحاً، ويعرب عن إعجابه بابن الآغا، وغناه وقصره، ثم أخذ يحدثهم عن الأرض العطشى التي رآها في الطريق والتي سقاها الزيت، وعن الصبية العارية التي كساها، وعن الكعك الذي أعده بنفسه وحمله في التنور ساخناً، وكان يسهب في الحديث ويتبسّط والقوم يضحكون ويقهقهون، وهو يزداد إسهاباً وتبسطاً ظناً منه أنه يحسن صنعاً، إلى أن ضجر منه ابن الآغا، فمال عليه، وهمس له:" أما اشتقت إلى ابنتك، ألا تريد أن تراها"، فأجابه أبو عيشة بصوت مرتفع: "نعم، نعم، لقد اشتقت إلى ابنتي، وأريد رؤيتها"، ثم ودع القوم، وهو يهلل ويضحك ويرقص فرحاً.

ودخل على ابنته وأمها عندها، وأخذ يحدثهما عن ضيوف ابن الآغا وإعجابهم به وارتياحهم إلى حديثه، بل سرورهم به، ويؤكد لهما أنه كان سيد المجلس، والمتحدث الوحيد فيه، ثم أخبرهما أنه حدثهم عن الأرض العطشى والصبية العارية والتنور، فخجلت ابنته من ذلك كله خجلاً شديداً، وخرجت إلى زوجها تعتذر إليه عما بدر من أبيها وأمها.

ولما كان المساء سأل ابن الآغا زوجته عيشة عن الموضع الذي تختاره لينام فيه والداها، فأجابته: "غرفة المؤونة، وأنكر عليها ذلك، واقترح أن يناما في غرفة

خاصة، ولكنها رفضت، خشية أن يفسدا أثاث الغرفة.

ودخل أبو عيشة وزوجته غرفة المؤونة، حيث أعدت لهما ابنتهما فراشين متواضعين. وفي الليل نهضت أم عيشة وأيقظت زوجها، فسألها ما الأمر، فأجابته: "هيا، لنساعد ابنتنا على جمع أكوام الحب، أما ترى كومة هنا وكومة هناك؟! لماذا هذا التبعثر؟!"، ونهض أبو عيشة، وأخذ يساعد زوجته على جمع أكوام الحب، بعضها إلى بعض، حتى جعلاها كومة واحدة.

وفي الصباح أسرعا إلى ابنتهما عيشة يخبرانها بما فعلاه لأجلها، ودخلت عيشة إلى غرفة المؤونة، فصعقت لما رأت، فقد جمعا العدس إلى القمح إلى الشعير إلى الشوفان، واعتذرت لزوجها، وأسفت لما فعلاه، فما كان منه إلا أن باع الخليط علفاً، بثمن بخس.

وفي المساء سأل ابن الآغا زوجته أيضاً عن الموضع الذي ترغب أن ينام فيه والداها، فأجابت الزريبة، فأنكر عليها ذلك، ولكنها أصرت.

ودخل أبو عيشة وزوجته إلى الزريبة، وناما، وفي الليل نهضت أم عيشة وأخذت توقظ زوجها، فسألها "ما الأمر"، فأجابته: "هيا انهض، وانظر كم عند ابنتك من جرار الحناء، وكم عندها من جمال، هيا لنصبغ رأسينا بالحناء، وليمتط كل واحد منا جملاً ولنمض إلى الحجاز،

لأداء فريضة الحج".

وفي الصباح أسرعت عيشة إلى الزريبة لتنظر إلى والديها وترى مافعلاه، فإذا هما ملتصقان من رأسيهما بالسقف، فقد دهنا رأسيهما بما في الجرار من دبق لصيد العصافير، وهما يحسبانه حناء، ثم امتطيا جملين، ولما نهض الجملان، لصقا بالسقف لما في رأسيهما من دبق، ولما سألتهما عيشة عما فعلاه، أجابا: "أردنا أداء فريضة الحج، ولكن السماء، لم ترد"، فأنزلتهما، وغسلت رأسيهما، واعتذرت لزوجها عما بدر منهما.

وفي المساء سألها زوجها عن المكان الذي ترغب أن ينام فيه والداها، فأجابت: "حظيرة الدجاج".

ودخل أبو عيشة وزوجته إلى حظيرة الدجاج، وناما، وفي الليل نهضت أم عيشة لتوقظ زوجها، فسألها: "ما الأمر؟!"، فأجابت: "هيا انهض، لتشم رائحة الدجاج كم هي نتنة، يبدو أن عيشة لم تغسل الدجاج منذ زمن"، فنهض أبو عيشة، وأخذ يساعد زوجته على غلي الماء، وغسل الدجاج، بالماء الحار والصابون.

وفي الصباح الباكر أسرعت عيشة إلى أبويها لتطمئن عليهما، فرأت الدجاج كله جيفاً هامدة، فحملتها ورمت بها إلى الكلاب.

وبعيد ظهر ذلك اليوم، ودع أبو عيشة وزوجته

ابنتهما، ورجعا إلى قريتهما، وبينما هما في الطريق مرا بنهر صغير، فاقترحت أم عيشة على زوجها أن ينزلا ليستريحا قليلاً، وقعدا على ضفة النهر. وإذا ذبابة تحط على أنف أم عيشة، فالتفتت إلى زوجها تسأله عما حط على أنفها، فأجابها: "هذا عزرائيل جاء ليقبض روحك"، فقالت له: "ويلك، اقتله قبل أن يسلبني روحي"، فما كان من أبي عيشة إلا أن حمل حجراً كبيراً، وضرب به وجه أم عيشة فوقعت ميتة.

فقعد إلى جانبها وهو يحدث نفسه فيقول: "هل هذا هو أوان النوم، علينا أن نصل إلى القرية قبل حلول الظلام"، وهم أن يوقظها، ولكنه لم يشأ إزعاجها، فتركها، وأخذ يتأمل ماء النهر المنساب، فأخذته سنة من نوم، فأغفى ونام.

وحل الظلام، ودخل الليل، فقدم وحش، فافترس أبا عيشة.

التعليق:

حكاية ساخرة، غايتها انتقاد المفارقة المرّة بين حياة الفلاح وحياة الآغا، إذ تظهر حياة الأخير مفعمة بالحركة والغنى، على حين تظهر حياة الأول فقيرة مجدبة، وفي مجال الآغا يسيء الفلاح التصرف، ليس بسبب الخبال، كما هو في الظاهر، وإنما بسبب ما يحيط به من ظروف لم يألفها، وهذه الظروف هي التي تقوده إلى الوحش يفترسه، وتبقى ابنته رمز الخصوبة والحياة في منزل الآغا.

ومما لاشك فيه أن الحكاية لاتقدم تلك الأحوال كلها

لتؤكدها وتسوّغها، وإنما لتسخر منها وتنتقدها، إن الحكاية تسعى من خلال السخرية المرة الفاجعة إلى إثارة الوعي، وتنبيه الشعور، وإثارة اليقظة، فهي تسخر وتضحك، لكي تفجع وتؤلم، وتحقق الصحوة.

إن ظفر ابن الآغا بابنة الفلاح لم يكن عن حب، ولا عن جدارة، وإنما كان اختطافاً، مما يؤكد إدانة الحكاية لاستلاب الآغا الفتاة والحياة من يدي الفلاح البسيط.

وخبال الفلاح ليس عطباً في عقله، وإنما مرجعه إلى جدب الحياة التي يعيشها وما فيها من فقر وحرمان، فهو خبال، وليس جنوناً، وهو نتيجة وليس سبباً، وهذا الخبال نفسه رمز بطريقة ساخرة لإمكان تحقيق الخلاص، بإعمال الفكر.

إن السخرية في هذه الحكاية مسوغة ومتميزة.

❑❖❑

أمك الشمس وأبوك القمر

يحكى أن شاباً يدعى "حسن" خطبت له أمه فتاة تدعى "فاطمة"، ولما كان الزفاف أوصتها خالاتُها ألا ترد على "حسن" بأي كلمة إلا إذا قال لها: "أمك الشمس وأبوك القمر وخالاتك الكواكب".

وفي ليلة العرس لم تكلم "فاطمة" زوجها "حسن" بشيء، فأخذ يلاطفها ويكلمها ويتحدث إليها، وهي لا ترد عليه، فظن أن صمتها يرجع إلى خجلها.

ولكن مرت الأيام و "فاطمة" لا تكلمه بشيء، حتى ملّ منها، وضاق ذرعاً، فقرر أن يكيد لها، فأخبرها ذات صباح أنه دعا إلى منزله عشرين ضيفاً وعليها أن تعدّ لهم طعام الغداء، وإلا فهي طالق، ثم تركها وخرج.

وكانت خالات "فاطمة" قد جهّزنها بصحون وأباريق سحرية، طلبت منها "فاطمة" فور خروج زوجها أن تنتقل إلى المائدة، وأن تمتلئ بما لذّ وطاب، وما هي إلا طرفة عين حتى نزلت الصحون والأباريق من الرفوف والخزائن

واتخذت مواضعها على المائدة وقد امتلأت.

وقبيل موعد الغداء جاء زوجها ليخبرها بتأجيل الدعوة إلى وقت آخر، ولكنه ذهل عندما رأى المائدة جاهزة، فسألها كيف تهيأ لها ذلك كله فلم تجبه على عادتها بشيء.

وأقسم "حسن" أنه سوف يتزوج فتاة أخرى ويهجرها إذا هي لم تتكلم، فظلت صامتة، ولم تقل شيئاً.

وكان لحسن ما أراد، فقد تزوج فتاة حسناء، وعاش معها في دار أخرى، وهجر "فاطمة".

وعاشت "فاطمة" وحدها، ولم يكن لها شيء تتسلى به سوى الجلوس في النافذة تغزل من شعاع الشمس خيوطاً ذهبية تحيكها ثوباً.

وذات يوم أرسلت زوجة حسن خادمتها إلى منزل "فاطمة" لتتجسّس عليها، وتأتيها بنبأ عنها، فرجعت الخادمة لتخبرها أنها تجلس في النافذة، تغزل من الشمس خيوطاً ذهبية، فغارت منها، وقررت أن تقعد مع بزوغ الشمس في النافذة مثلها، لتغزل أشعتها خيوطاً، ولكنها لم تكد تقعد حتى وقعت، وماتت.

ورجع "حسن" إلى زوجته "فاطمة"، وهو يمنّي نفسه أن تكلمه بعدما لقيت من هجره لها، ولكنها لم تفعل.

ومرة ثانية أخبرها أنه قد دعا عشرين ضيفاً إلى الغداء، وأنه يريد الطعام جاهزاً، ثم أوهمها بخروجه، ولكنه

اختبأ في دهليز الدار، وأخذ يرقب ما ستفعل.

وطلبت "فاطمة" من صحونها وأباريقها السحرية أن تنزل من الرفوف وتتخذ مواضعها على المائدة، وأن تمتلئ، وكان زوجها يرقبها من وراء إحدى النوافذ، فدهش لما سمع كلامها، وذهل لما رأى.

وبينما كانت الأباريق والصحون تتحرك هابطة من الرفوف اصطدم صحن بآخر فوقع وانكسر، وأسرع الإبريق السليم إلى "فاطمة" وقال لها:

"وحياة أمك الشمس وأبيك القمر وخالاتك الكواكب سامحيني"

فأجابته "فاطمة":

"سامحتك"

وعندئذ عرف "حسن" سرّ كلام زوجته، فأسرع إليها وقال:

"وحياة أمك الشمس وأبيك القمر وخالاتك سبع الكواكب ردّي عليّ، كلميني".

فردت عليه، وأخذت تكلمه.

وعاشا معاً بسعادة وسرور.

تعليق:

تؤكد الحكاية التأثير المباشر للتربية والنشأة في شخصية الفرد وفي حياته المستقبلية وطبيعة علاقاته مع

الآخرين.

كما تؤكد ضرورة احترام الزوج لزوجته وأسرتها وتقديره لهما وخطابه لهما بما يليق بهما.

ولعلها تدل على طبيعة الرابطة بين الزوجين التي لا يمكن أن تقوم على علاقة الجسد وحده، إذ لابد من الحوار والتواصل الثقافي بينهما من خلال الكلمة التي هي أرقى أشكال اللقاء بين الإنسان والإنسان.

ولعلها تدل أيضاً على أن العلاقة بين الزوجين ليست علاقة بين فردين فحسب، إنما هي علاقة أوسع تمتد إلى الأسرة والمجتمع.

❑❖❑

ست الحسن والمارد

ضاقت الأحوال بالفتى محمد، وسدت في وجهه أبواب الرزق، ولم يجد ما يعيش به، فاضطر إلى الارتحال عن بلده، سعياً وراء لقمة العيش، فأخذ يقطع الفيافي والقفار حتى بلغ بلدة، دخلها وهو في غاية التعب، ورأى عجوزاً أمام باب الدار فطلب منها بعض الماء.

فجلبت له كأساً، ولما همّ بالشراب، لاحظ أن الماء أحمر اللون، فسألها عن السبب، فأخبرته أنّ مارداً يسيطر على النبع، ولا يسمح لأهل البلدة بالشرب، مالم يقدموا له كل أسبوع واحدة من أجمل الفتيات، حتى إنه لم يبق في البلدة سوى ابنة الملك، ست الحسن، واليوم حان موعد تقديمها، ولابد من أن ترقى مع الغروب إلى نبع الماء، حيث المارد.

ولما مالت الشمس إلى المغيب خرج الفتى، فرأى موكباً مهيباً، والجند يحملون ست الحسن في محفة، ويسيرون بها إلى سفح الجبل، وهناك أنزلوها، ثم ودعتها أمها وودعها أبوها، ورجع الجميع حزانى يبكون، وتقدمت

ست الحسن تصعد الجبل، وحدها وأخذ الفتى محمد يصعد في إثرها، فتنبهت إليه فطلبت منه أن يرجع، فأشفق عليها فأخبرته أنها مستسلمة لقدرها، راضية بما قسم لها، لكي تنقذ أبناء بلدها وتوفر لهم ماء الشرب.

ولكن الفتى أصرّ على المضي في إثرها، وأكد لها أنه سيعمل على إنقاذها من ذلك المارد، ثم طلب إذا بلغت النبع ألا تتقدم أكثر، وأن تطلب من المارد أن يبرز لها بدلاً من أن تمضي هي إليه. وهكذا أخذت ست الحسن تتسلق الجبل، حتى بلغت النبع، فناداها المارد أن تقدمي أكثر فأكثر، ولكن ست الحسن ردّت عليه تطلب منه أن يبرز لها، وما إن برز المارد حتى أسرع الفتى محمد فغرس خنجره في قلبه، فخر المارد صريعاً.

ورجعت ست الحسن إلى أمها وأبيها، وظن أهل البلدة أن ست الحسن قد خافت المارد، ورجعت، كما خافوا أن يحرمهم المارد من الماء، ولكن ست الحسن أكدت لهم أن المارد قد قتل، فلم يصدقوا، وانتظروا إلى الصباح، فإذا الماء يجري صافياً كالسلسبيل.

ففرح الملك والملكة، كما فرح أهل البلدة جميعاً، إذ تخلصوا من ذلك المارد، وأقيمت الولائم، وأعلن الملك أنه سيزوج ابنته من قاتل المارد.

وأخذ كل واحد من فرسان القصر يدعي أنه هو قاتل

المارد.

ولمّا سأل الملك ابنته إن كانت تعرف قاتل المارد، أجابته أنها تعرفه إذا ما رأته، وطلبت منه أن يسمح لها بالقعود في شرفتها، وما على مدّعي قتل المارد إلا أن يمروا تحت الشرفة للتعرف على القاتل الحقيقي منهم.

وهكذا أخذ الفرسان والشباب بالمرور تحت الشرفة، وهي تنكر أن يكون أي منهم هو القاتل، إلى أن مرّ الفتى محمد، وعندئذ أشارت إليه أنه هو.

وهكذا زفت ست الحسن إلى الفتى محمد، ليودع إلى الأبد حياة البؤس والشقاء والفقر، وليعيش مع ست الحسن طول العمر في هناء وسرور.

تعليق:

الحكاية تذكر بأسطورة "أوديب". الذي قتل الوحش الرابض على باب طيبة، وكان لديه سؤال يلقيه على كل عابر، وإذا لم يتمكن من الإجابة عنه التهمه، حتى ضج به الناس، وقد تمكن أوديب من الإجابة، فمات الوحش، ودخل أوديب المدينة، فزوجه أهلها أرملة ملكهم المقتول، وعينوه ملكاً، وكان بالنسبة إليهم المخلّص.

ومغزى الحكاية يتلخص في الفتى محمد، وهو فتى فقير، من عامة الناس، غريب عن البلدة، يحقق لها الخلاص من المارد، رمز الظلم، وينقذ الفتيات، رمز الخصب والتجديد، ويوفر للناس الماء، رمز الحياة، ويتزوج ابنة الملك، ليؤول إليه الحكم بعد وفاة أبيها، على حين لايقدر على ذلك الفرسان من رجال القصر، ولا الشباب من عامة الناس.

ولعل الحكاية تعبر عن رغبة الإنسان العادي الفقير بالخلاص من الظلم، والظفر بأجمل فتاة، والوصول إلى كرسي الملك، أي تحقيق أحلامه في الحرية والحب والحكم.

ويلاحظ أنه لايحقق ذلك سوى فرد واحد غريب، وتبقى أحلام الشعب محض أحلام.

❐❖❐

الزيت والقرد

أراد أحد الأشخاص أداء فريضة الحج مع زوجته، وكان عنده في الدار عشر صفائح مملوءة زيتاً، حار في أمرها، أين يخبئها، إذ كان يخشى عليها من اللصوص، وكان أداء فريضة الحج في تلك الأيام يستغرق أشهراً، لسفرهم على ظهور الإبل، وأخيراً قرر الرجل أن يودع صفائح الزيت عند جاره أمانة.

ولما رجع من الحج، طلب من جاره أن يرد له صفائح الزيت، فقال له الجار، هي هناك في القبو، انزل وخذها، وحمل الرجل الصفائح إلى داره، وشكر لجاره أمانته، ثم بعد يوم أن يومين احتاج إلى إحدى الصفائح ففتحها، فوجدها مملوءة ماءً لا زيتاً، وفتح الثانية فالثالثة فالرابعة، وهكذا فتح الصفائح كلها، فوجد فيها ماءً لا زيتاً، فأسرع إلى جاره يسأله عن الزيت؟ فأكد له الجار أنه لايعرف من أمر الصفائح شيئاً، ولعل الزيت فيها انقلب إلى ماء، وكل شيء قابل للتغير. فعرف أن جاره قد خدعه، فقرر أن ينتقم.

ومضى الرجل إلى السوق، فاشترى قرداً صغيراً، ثم أدخله إلى منزله خفية، وخبأه في إحدى الغرف، فقيد القرد في زاوية منها، وحمل عصا، وأخذ يضربه بها أشد الضرب، ثم تركه وخرج إلى السوق فاشترى ثياباً كثياب جاره، ثم اشترى بعض الموز، واصطنع هيئة جاره، ودخل على القرد، ففك قيده، ثم أخذ يداعبه ويطمعه من الموز.

وظل الرجل على هذه الحال أياماً، يدخل على القرد بثياب كثياب جاره، فيطعمه ويعنى به، ثم يدخل عليه بثيابه هو نفسه ويأخذ في ضربه وتعذبيه.

وكان للجار ولد وحيد، وكان كثيراً مايأتي هذا الولد إلى دار الرجل ليلهو في فنائها ويلعب، فانتظر الرجل حضور ابن جاره، فاختطفه، وخبأه في غرفة أخرى، وافتقد الجار ولده، فأخذ يسأل عنه، ثم قرع على الرجل الباب وسأله إن كان قد رأى ولده، فأخبره أن الولد جاء إلى الدار كعادته كل يوم، وأنه تركه منذ قليل في إحدى الغرف وهو يلعب، ثم دعاه إلى الغرفة التي فيها القرد، وقال له مطمئناً: "تعال خذ الولد"، ودخل معه الغرفة، وما إن رأى القرد الجار حتى قفز إليه، وتعلق بثيابه، فدهش الجار وسأل: "ماهذا؟"، فاصطنع الرجل الدهشة وقال: "لاأعرف، تركت الولد منذ قليل هنا" وصمت قليلاً، ثم أضاف: "ولكن، لعله تحوّل إلى قرد، ألم تقل أنت إن كل شيء قابل للتحول والتغير".

وأدرك الجار عندئذ غرض الرجل، فاعتذر إليه، وأكد له أنه سيدفع له ثمن الزيت أضعافاً على أن يرد إليه ولده.

وأشفق الرجل على جاره، فردّ إليه ولده، وسامحه في ثمن الزيت، على شرط أن يحفظ الأمانة ويرعاها.

تعليق:

حكاية تربوية في أسلوب ساخر، غايتها تذكير الناس بالأمانة، وتحذيرهم من الغدر، وهي تقوم على مقولة ردّ الصاع صاعين، وتنطلق من أغلى ما يتعلق به الناس: المال والولد، وتعتمد على فكرة التحول والمسخ، وتنتهي بالتسامح والموعظة.

❒❖❒

الصياد والمارد

على شاطئ البحر، كان يعيش صياد فقير، مع زوجته وأولاده، وكان عاثر الحظ، يصطاد في اليوم بضع سمكات، وفي عشرة أيام يكاد لايصطاد شيئاً.

وذات يوم رجع إلى البيت لا يحمل سوى شبكته الفارغة، فمرّ بالخباز، وطلب منه بضعة أرغفة، ووعده أن يعطيه في الغد كل ما يصطاده، ولكن الخباز أبى، بل سخر منه وقال له: "لعلك لا تصطاد شيئاً، فأنا أعرفك، أنت عاثر الحظ".

وكانت زوجته وأولاده في انتظاره ولكنّ الجميع اضطروا إلى النوم من غير عشاء.

وفي الصباح خرج الصياد إلى البحر، يحمل شبكته على كتفه، وفي الطريق صادفه رجل يحمل سلة فيها بعض الفاكهة، عرضها عليه، فاعتذر إليه الصياد، وقال له أنا لم أصطد بما أشتري به الخبر، فكيف أشتري الفاكهة؟ فقال له الرجل:" بل الفاكهة لك، سواء اصطدت أو لم تصطد"

وحاول الصياد الاعتذار ثانية، ولكن الرجل ألح عليه، وأكد له أن خير الله كثير وأن لكل امرئ نصيبه من الرزق.

وأخذ الصياد سلة الفاكهة، وتابع طريقه إلى البحر، حيث ألقى الشبكة، وقعد ينتظر، ثم سحبها، فأحس بها ثقيلة فسحبها بقوى أكبر، وإذ في الشبكة مارد، يخرج ليقول له "إذا تركتني أغنيك"، فتركه الصياد فناوله المارد دنانير ذهبية، ثم طلب منه سلة الفاكهة، فأعطاه الصياد إياها، فشكره المارد، وقال له: "إذا أتيتني كل يوم بمثل هذه الفاكهة، أعطيتك مثل هذه الدنانير، ولكن بشرط ألا يعرف أحد ما بيننا من أمر"، فوعده الصياد ومضى إلى السوق، فاشترى لزوجته وأولاده أطايب الطعام.

وهكذا صار دأب الصياد، يحضر كل يوم للمارد بعض الفاكهة، فيعطيه بعض الدنانير فيشتري لزوجته، وأولاده الطعام والثياب، وقد صلح حاله، وطاب له العيش.

وأحست زوجة الصياد تبدل الحال، ورأت جود زوجها وكرمه، بل إسرافه، فداخلها الشك، كيف ينقلب زوجها بين عشية وضحاها، فيصبح على هذه الحال من الغنى واليسر: أيعقل أن يكون الصيد وحده هو مورد ذلك الخير كله؟ وماكان منها إلاّ أن أرسلت ابنتها ذات يوم إثر أبيها، وأوصتها أن تتبعه من غير أن يحس بها، ولما رأت البنت المارد يأخذ من أبيها سلة الفاكهة ويناوله الدنانير أسرعت إلى أمها تخبرها بالأمر، وأخذت الزوجة تنشر الخبر بين

الجيران.

وفي صباح اليوم التالي ذهب الصياد إلى البحر كعادته، وهو يحمل شبكته، ثم مرّ ببائع الفاكهة، فاشترى سلة ملأها بأطيب الأنواع، ومضى إلى البحر، وجلس على الشاطئ وأخذ ينادي المارد، وظل ينادي وينادي، ولكن ما من مجيب.

ورجع الصياد إلى البيت، يحمل سلة الفاكهة، وفور دخوله سألته زوجته: "لماذا رجعت بالفاكهة، ألم يظهر لك المارد هذا اليوم؟" فأدرك الصياد أن زوجته قد عرفت سرّ المارد، وأن المارد لن يظهر له بعد اليوم، وليس له إلا أن يعود إلى حياة البؤس والشقاء.

تعليق:

تدل الحكاية على يأس الفقير وإحساسه بالفارق الكبير بينه وبين الغني، وشعوره بأنه لا خلاص له من فقره إلا بقوة مجهولة كبيرة لا قبل له بها.

وهذا الخلاص الذي يرتجيه الفقير ليس خلاصاً، وإنما هو حلم وهمي، لا يتحقق بالعمل والكفاح والدأب، وإنما بالمصادفة وبقوة كبيرة مجهولة.

والحكاية تحقق هذا الحلم الجميل في عالم من الخيال والوهم، ولكن سرعان ما ينكسر الحلم، لتكون العودة ثانية إلى الواقع، وليتأكد أن الخلاص لا يمكن أن يكون بواسطة المارد.

والمرأة تمثل ههنا كل ما هو حقيقي وواقعي وطبيعي، لأنها هي التي تكشف زيف الحلم وبطلان الوهم لتحقق الصحوة.

ولذلك تبدو كالمتهمة والمدانة، لأنها كسرت الحلم، ولكنها في الحقيقة ليست كذلك، بل هي التي لها الفضل في خلق الوعي وتحقيق الصحوة.

وقد تدل الحكاية ببساطة على أن السعادة محض وهم، وإنها سرعان ما تزول، وكما يقال في المثل: "ذيل السعادة أملس".

❐❖❐

بنت الداية

كان لإحدى القابلات بنت وحيدة، تعنى بتربيتها، وتسهر عليها، ولكنها تضطر دائماً إلى تركها وحدها، بحكم عملها، ولذلك كانت توصي بها بنات الجيران، ليزرنها في غيبتها، ويساعدنها في أمور البيت.

وذات يوم تركتها كعادتها مع بنات الجيران، فأخذت تمرح معهن وتلهو، ولكن فجأة خرج لهن من زاوية في المنزل غول كبير ففزعت البنات وهربن، وبقيت بنت الداية وحدها، فأخذت تصيح منادية جارها النجار، فسمع الصوت، فأسرع إليها، ولما رأى الغول بادره بضربة من المطرقة التي كانت في يده فقتله ثم وضعه على ظهر حمار، وتركه ليمضي به إلى أخوات الغول السبع، ولما رأت الغولات الحمار مقبلاً، فرحن به، وتوقّعن أن تكون بنت الداية هي القتيل الملقى على ظهر الحمار، ولكن تبين لهن أنه لم يكن سوى أخيهن الغول، فحزنت الغولات، وقررن الإنتقام.

وفي صباح اليوم التالي قدمت الغولات إلى منزل

الداية، وهن متنكرات، وخطبن ابنتها إلى أخيهن، فوافقت الداية من غير أن تعرف من أمرهن شيئاً، ووعدنها أن يرجعن بعد أسبوع لأخذ العروس معهن، وقد ادّعين أن أخاهن يعمل في بلاد بعيدة، وقد أغرين الأم بالأموال الكثيرة.

وهكذا حضرت الغولات بعد أسبوع، فودعت البنت أمها، ومضت بها الغولات، وبينما هنّ في زحمة السوق، أحسّت ابنة الداية أن الأمر ليس طبيعياً، فغافلت الغولات وهربت منهن، ولجأت إلى النجار، وطلبت منه ألا يخبر أحداً بأمرها، حتى أمها، كي لاتعود الغولات إليها، ثم رجته أن يصنع لها ثوباً من الخشب.

وارتدت ابنة الداية ثوبها الخشبي وخرجت به لا تعرف أين تذهب، حتى قادتها خطواتها إلى قصر الملك، فقعدت تحت سوره تأكل مما يلقى من فضلات، وتنبهت إحدى الجواري في القصر إلى هذا الكائن الخشبي، الذي يمشي ويتحرك ويعيش في ظل القصر، فأسرعت إلى الملكة تخبرها بأمره، فطلبت منها إحضاره.

واقتادت الجارية بنت الداية في ثوبها الخشبي إلى الملكة، فعجبت لأمر هذا الكائن، وسمته "خشيبان"، ثم أذنت له أن يعيش في حديقة القصر، ليسهر على الإوزات، ويعنى بها.

وكانت الملكة تنزل صباح كل يوم إلى حديقة القصر، بصحبة جارية لها، فتقعد بجوار البركة، وتمضي في تأمل الإوزات، لتسلي نفسها، ثم يغلبها الحزن، فتبكي، نادبة ابنها الأمير، وهنا تتدخل الجارية، فتدعوها للعودة إلى القصر.

وقد لاحظت بنت الداية ذلك، ولكنها لم تستطع أن تعرف حقيقة ذلك الأمر، كما لاحظت أن الجارية نفسها كانت تتسلل كل ليلة خلسة وتمضي إلى كوخ بعيد في حديقة القصر، وتقضي بعض الوقت هناك، ثم ترجع إلى القصر خلسة.

وذات يوم تسللت بنت الداية في إثر الجارية، وتبعتها إلى حيث الكوخ، ثم اختبأت وراء الباب فرأتها تدخل على فتى مقيد اليدين، تقدم له بعض الطعام، ثم تخرج.

وفور خروج الجارية من الكوخ دخلت بنت الداية، وهي في ثوبها الخشبي، فسألت الفتى من يكون، فأخبرها انه ابن الملك، وأن الجارية اختطفته وخبأته في هذا الكوخ الذي لايتوقع أحد أن يكون فيه، انتقاماً من أبيه الملك، الذي كان قد قتل زوج الجارية، فوعدته بنت الداية بالمساعدة، وخرجت من غير أن يعرف من تكون.

وذات يوم ذهبت الملكة إلى الحمام، فاصطحبت معها جاريتها، فاهتبلت بنت الداية الفرصة، فأسرعت إلى الكوخ، ففكت قيد الأمير، ونصحت له أن يدخل القصر خلسة، وأن

يختبئ في غرفة أمه، لتكون المفاجأة سارة، كما أوصته ألا يبوح لأمه بحقيقة أمره، وألا يخبرها بمن أطلقه.

وقد حصل هذا كله والأمير لا يعرف حقيقة "خشيبان" إذ كان يظنه خادماً من خدم القصر، اتخذ لنفسه هذا الثوب الخشبي.

ورجعت الملكة من الحمام، ودخلت غرفتها، فسرت كثيراً عندما رأت ولدها الأمير عائداً إليها، وألحت عليه أن يخبرها بما كان من أمره، فلم يفعل.

وكان من عادة بنت الداية "خشيبان"، أن تخلع كل ليلة ثوبها الخشبي، وتستحم في بركة القصر، ثم تتنحي جانباً لتنام. وذات ليلة، بينما هي تخلع ثوبها الخشبي، كان الأمير يتجول في حديقة القصر، فرآها، فاختبأ وراء إحدى الشجيرات وقد أذهله جمالها، وعرف أنها هي التي أنقذته.

وفي صباح اليوم التالي أخبر أمه عن رغبته في الزواج، فسرّت الملكة كثيراً، ووعدته أن تبادر إلى الخطبة له ، فأخبرها أنه يريد الزواج من "خشيبان"، فدهشت الأم، ولكنه عندما أخبرها بالحقيقة سرت كثيراً، وعندئذ حكى لها ما كان من أمر الجارية، فأمرت بسجنها.

وهكذا تزوجت بنت الداية من ابن الملك، ودعت أمها لتقيم معها في القصر، وعاش الجميع في سعادة وسرور.

تعليق:

تدل هذه الحكاية على ما يعانيه الإنسان من شقاء كي يصل إلى السعادة، فيمر بمصاعب وتحديات كثيرة، تتمثل في تحولات، فابنة الداية الوحيدة تصبح شريدة وتتحول إلى كائن خشبي، والأمير المعزز تسجنه جارية وتقيده، وتخفيه عن الأنظار.

إن الحكاية تدل على إمكان انتصار الشر، وغلبة الباطل، وغياب الحق، ولكن لحين، وليس دائماً، إذ لابد للحق أن يظهر في النهاية، ولابد للخير أن يغلب.

❑❖❑

بنت البازركان

كان لكبير (البازركان) بنت وحيدة، توفيت أمها، فعني بها، ورباها خير تربية، وذات يوم قرر أداء فريضة الحج، ولكنه حار في أمره، أين يترك ابنته؟ وحين شاورها في الأمر، شجعته، وأكدت له أنها ستتدبر أمرها في غيابه.

وهكذا ودّعها، وترك لها قدراً من المال، وأوصى بها الجزار والخباز وبائع الخضر، كما أوصى بها سائر الجيران، وكانت كلما أرادت حاجة، دلت سلة من نافذة غرفتها لترفع بها ما يحضره لها أجير الجزار أو الخباز أوبائع الخضر من حاجات.

وفي أحد الأيام سمعت طرقاً على الباب، ونظرت من نافذتها، فرأت فتاة في مثل عمرها، فقيرة بائسة، رثة الثياب، تطلب منها العون، فدعتها إلى الدخول، وقدمت إليها بعض ما عندها من ثياب، ولمست فيها البراءة، فدعتها إلى الإقامة معها كي تأنس بها، فاستجابت الفتاة لدعوتها، وأقامت عندها، تشاركها الطعام والمنام.

وهكذا أنست بنت كبير التجار بتلك الفتاة، واطمأنت إليها، وحدثتها عن والدها كبير التجار، وسفره إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج، وما تركه لها من أموال لتتدبر أمورها.

وذات يوم نادتها الفتاة لترى ما في الشارع، فأسرعت إلى النافذة، وما إن صارت أمامها حتى دفعتها، فإذا هي في الشارع، فدهشت لما فعلته، ورجتها أن تفتح لها الباب، فأبت وأكدت لها أن لامكان لها في هذا البيت.

ولجأت بنت كبير التجار إلى نخاس، يعرف والدها، ترجوه أن يبيعها في سوق الجواري، كي تجد من يؤويها لديه، فعرض عليها أن تقيم عنده مع زوجته وأولاده، ولكنها أبت إلا أن يبيعها جارية.

ونزل بها النخاس مضطراً إلى سوق الجواري، وصادف في اليوم نفسه نزول ملك تلك البلاد إلى السوق، فلما رآها اشتراها بأغلى الأثمان.

وكان ذلك الملك قد فقد ولداً شاباً، وانقطعت عنه الأخبار، فأخذها إلى قصره، لعله يجد فيها العوض من الولد، وأوصى بها كبيرة الخدم، ولكن هذه استاءت منها، وقادتها على الفور إلى المطبخ وأمرتها أن تعمل في تقشير البصل.

ولما صار الليل نام كل من في القصر، إلا بنت كبير

التجار إذ أوت إلى ركن في المطبخ وقعدت، لاتغمض لها عين وبينما هي على هذه الحال إذا كبيرة الخدم تدخل المطبخ خلسة، فتجمع بقايا الطعام، ثم تخرج، وتخرج في إثرها، وتظل تتبعها من غير أن تحس بها.

وإذا هي تمضي إلى حديقة القصر، وتزيح الحشائش والأعشاب عن بقعة في الأرض صغيرة، فتظهر بلاطة لها حلقة، وترفعها، وإذا تحتها سرداب، تنزل فيه، وتنزل في إثرها بنت كبير التجار، لترى شاباً يتوسل إلى كبيرة الخدم راجياً ألا تضربه، ولكنها تخرج سوطاً من تحت طيات ثوبها، وتشرع في ضربه، وهي تعده أن تكفّ عن هذا إذا قبل بالزواج منها، وهو يؤكد أن "لا"، ثم لم تلبث أن رمت له ما تحمله من بقايا الطعام، وهمت بالخروج.

وأسرعت بنت كبير التجار إلى الخروج قبلها من السرداب، وعادت إلى موضعها من المطبخ .

وفي اليوم التالي التقت الملك، فسألته: "إذا جمعتك بولدك فهل تعتقني؟" فوعدها الملك بذلك، فاقترحت عليه أن يرسل إلى الحمام كل نساء القصر من الملكة إلى الجواري، وكان لها ذلك، وعندئذ دلته على مكان ابنه، فلما رآه فرح فرحاً كبيراً، وعرف حقيقة الأمر، فأرسل على الفور جلاداً إلى الحمام ليقتل كبيرة الخدم، ثم استدعى الطبيب ليعالج ابنه.

وبعد بعضة أيام ذكّرت الملك بوعده لها، فعرض عليها الزواج من ابنه، فاعتذرت، فعرض عليها الإقامة في القصر، فرفضت، وأبت إلا أن يعتقها، فأعتقها.

ومضت بنت كبير التجار على الفور إلى النخاس تطلب منه أن يبيعها ثانية في سوق الجواري، فذهل لطلبها، ورجاها أن تقيم عنده مع زوجته وأولاده، فأبت، فأخذها إلى سوق الجواري، وهناك كان لها ما أرادت.

وفي هذه المرة اشتراها ملك بلاد بعيدة، كان قد أتى إلى هذه البلاد للعلاج، فهو مريض معتل، ولما رجع بها إلى بلاده، نقمت عليها زوجته، واتخذتها خادمة لها، لتكون دائماً تحت سمعها وبصرها، وكانت تأمرها كل ليلة بتهييء مائدة العشاء ثم تصرفها، وفي صباح اليوم التالي تجد المائدة نظيفة لا شيء عليها، فأدهشها الأمر؟ هل يعقل أن تقوم الملكة بتنظيفها؟ وهل يعقل أن تتناول الملكة كل ماكان على المائدة من طعام؟

وذات ليلة أوهمتها أنها قد انصرفت، ولكنها ظلت وراء الباب، تنظر من ثقبه، فرأت الملكة تقدم للملك كأس شراب، ما إن شربه، حتى راح في سبات عميق، وأخذت الملكة تجمع ما على المائدة من طعام، وتضعه في كيس ثم تخرج به.

وخرجت بنت كبير التجار في إثرها، وأخذت تسير

وراءها، من غير أن تحس بها، وإذا الملكة تمضي إلى غابة قريبة، لتدخل كوخاً فيه عفريت، ما إن رآها حتى لامها على تأخرها، ثم بسطت أمامه ما حملت معها من طعام، فأقبل عليه يلتهمه، ثم جلست معه بضع ساعات يتسامران ويتناجيان، حتى كاد الفجر يظهر، وعندئذ ودعته ورجعت قافلة إلى القصر.

وكانت بنت كبير التجار قد سبقتها إلى موضعها في المطبخ، واستلقت متظاهرة بالنوم ولما كان الصباح، التقت الملك، وسألته إن كان يعتقها إذا دلته على سبب مرضه واعتلاله، فوعدها بذلك، فأخبرته بكل ماكان من أمر زوجته والعفريت، ثم اتفقا على خطة.

ولما كان المساء، أعدت كعادتها مائدة العشاء، ثم تظاهرت بالانصراف وحين قدمت الملكة إلى الملك كأس الشراب طلب منها أن تحضر له عباءة يضعها على كتفيه، لأنه يحس بالبرد، ومضت لتحضر له ما طلبه، فسكب على الأرض الشراب ثم تظاهر بالنوم، ولما رجعت، غطته بالعباءة وجمعت كعادتها الطعام وخرجت إلى الغابة، وخرج في إثرها الملك تصحبه بنت كبير التجار، ورأى بعينيه ما كانت تفعله كل ليلة.

ورجع إلى القصر، ليطلب من الجند أن يذهبوا إلى الغابة ويقطعوا رأس العفريت، وليحملوه إلى القصر، ولما رجعوا برأسه، ألقاه بين يدي زوجته، فذعرت، وأخذت تبكي

وتلطم وجهها مدعية أنه أخوها، ولكن الملك دحض ادعاءها، ثم أمر بقطع رأسها.

وبعد بضعة أيام ذكرت بنت كبير التجار الملك بوعده، فعرض عليها أن يتزوجها، ولكنها اعتذرت وأبت إلا أن يعتقها.

ورجعت إلى النخاس ترجوه أن يعرضها للبيع في سوق الجواري مرة ثالثة، فنصح لها، وعرض عليها أن تعيش في بيته، مع زوجته وأولاده، فأبت، وكان لها ما أرادت.

واشتراها هذه المرة أحد الملوك، وكان عنده بنت وحيدة مجنونة، حبسها في غرفة من غرف القصر، وكانت كلما أدخل عليها جارية لتخدمها أكلتها، ولما دخلت عليها بنت كبير التجار هجمت عليها بنت الملك المجنونة، وهمت بها، فقالت لها: "لايمكن أن تأكليني بما أنا عليه من غبار السفر، انتظري حتى أستحم، ثم بعد ذلك، يمكنك أن تأكليني"، ولكن ابنة الملك أعربت عن خوفها من أن تهرب، فأكدت لها أنها لن تهرب، ثم رأت في زاوية الغرفة خيطاً، فقالت لها: "اربطيني به حتى لا أهرب".

وهكذا خرجت بنت كبير التجار من القصر هاربة من ابنة الملك المجنونة، وأخذت تجري لا تعرف أين تذهب، ولمحت من بعيد ضوءاً، فاتجهت إليه، ولما بلغته رأت ناراً متقدة، تحت حلة كبيرة، فيها قطران يغلي، وإلى جانب

الحلة عفريتتان تحرسان الحلّة، الأولى نائمة، والثانية مستيقظة، وقد ألقت ثدييها إلى ظهرها، فغافلتها، ورضعت من ثدييها، ثم ألقت عليها السلام، فردت العفريتة: "لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك مع عظامك"، وردت عليها منكرة أن تفعل بها ذلك وقد أصبحت ابنتها، فأثر كلامها في نفس العفريتة، وذكرت بنتاً لها كانت قد فقدتها، وسرّت كثيراً لأنها وجدت بدلاً منها ثم قالت لها: "إذن هيا راقبي النار تحت هذه الحلة، ولا تتركيها تخمد، فقد آن لي بعد سبع سنين من إيقادها أن أستريح" وهنا تشجعت بنت كبير التجار فسألت عن سر تلك النار والغاية من ذلك القطران، فأجابتها بأن ابنة الملك في تلك البلاد ستظل مجنونة ما دام القطران يغلي، فتشجعت أكثر وسألتها عن سبب ذلك، فأجابتها العفريتة بأنها تفعل ذلك انتقاماً منها لأنها رفضت أن تصبح ابنة لها بعد أن فقدت ابنتها، فطمأنتها بنت كبير التجار، وأكدت لها أنها ستكون هي بدلاً من ابنتها التي فقدتها، ثم طلبت منها أن تستريح لترعى النار بدلاً منها، وأخلدت العفريتة إلى النوم، فما كان من بنت كبير التجار إلا أن صبت القطران وهو يغلي على العفريتتين، ثم أخمدت النار. ورجعت إلى قصر الملك ودخلت على ابنة الملك، فرأتها سليمة معافاة ففرحت بذلك وألبستها أحسن الثياب، ثم دخلت على الملك وسألته إذا كانت ابنته قد شفيت فهل يعتقها؟ فوعدها بذلك، وما كان

منها إلا أن دعته ليرى ابنته، ولما رآها فرح كثيراً، ودعا ابنة كبير التجار إلى العيش معها في القصر كأخت لها؟ ولكنها رجته أن ينفذ وعده؟ فكان لها ما أرادت.

ورجعت إلى النخاس مرة أخرى تطلب منه أن يعرضها للبيع في سوق الجواري، ولكنه أخبرها أن والدها قد رجع من الحجاز بعد أدائه فريضة الحج، وأكد لها أنه سيقودها إلى البيت.

وكان والدها قد فوجئ بالفتاة الغربية في منزله، فأكدت له أنها ابنته، فسألها عن سمرتها، فأخبرته أن الشمس قد لوحتها، وسألها عن احمرار عينيها؟ فأجابت أن ذلك بسبب فرط بكائها، فطلب منها أن تطبخ له الحريرة، فأكدت له بأنها نسيت طريقة طبخها.

وعاش كبير التجار مع تلك الفتاة الغريبة كارهاً، وهي تصرّ على أنها ابنته.

وذات يوم طرق الباب، فأسرع يفتحه، فرأى النخاس ومعه ابنته، فعرفها على الفور، ولكنه تظاهر بعدم معرفتها، ثم دعاها مع النخاس إلى الدخول، وجمعها بالفتاة الغريبة التي في بيته، وطلب منهما أن تطبخا له الحريرة، وأكد لهما أن التي تجيد طبخها هي ابنته.

وبادرت ابنته على الفور إلى طبخ الحريرة، على حين ترددت تلك الفتاة الغريبة، وعند ئذ ظهر الحق.

وسأل الأب ابنته عن العقاب الذي تريد أن يوقعه في الفتاة التي كانت سبب خروجها من بيتها وتشردها، فأجابت العفو.

وعادت الفتاة إلى تشردها وتسوّلها، على حين التأم شمل الأب والبنت وعاشا في هناء وسرور.

تعليق:

تؤكد الحكاية ضرورة معاملة الإنسان للآخرين انطلاقاً من مبادئه وقيمه، لا كما يعاملونه، وأن يقابل الإساءة بالإحسان، وأن يظل مريداً للخير ولو أراد به الآخرون الشر.

وهي مبنية على حب الآخرين، ونذر الذات لأجلهم، والتضحية في سبيل التقليل من آلامهم مع نكران الذات، وتحمل المصاعب، والشعور بالمتعة في الشقاء لسعادة الآخرين.

والحكاية توحي بأن ذلك كله لا يكون إلا بحسن التربية، إذ تشير منذ البدء إلى أن الأب قد ربى ابنته فأحسن تربيتها، ولذلك صدرت عنها مثل تلك المواقف النبيلة.

وتعدّ بنت كبير التجار نموذجاً فريداً للمرأة في النقاء والطهر والتضحية وحب الآخرين، وهي خلاف معظم من التقت من نساء، من ملكات وجاريات.

والحكاية مركبة من حكاية إطارية هي حكاية بنت كبير التجار، وتضم في داخلها ثلاث حكايات.

والناظم بينهما جميعاً بنت كبير التجار التي تبدو أشبه بالبطل المخلّص.

وحكاية الفتى الذي تحبسه الجارية وتهينه مكرورة وردت في حكاية أخرى، وحكاية زوجة الملك التي تترك

زوجها نائماً لتسامر العفريت تشبه حكاية شهرزاد أو بعض حكايات ألف ليلة وليلة.

ولعل أهم عنصر في بناء الحكاية هو حرصها على ثلاثية الحدث، وهي ظاهرة شائعة في الحكايات عامة.

❐❖❐

الأمير حسن والغول

كان لأحد الملوك تسعة أولاد ذكور، كأنهم البدور حازوا الشجاعة والبطولة، وكان لملك مجاور تسع بنات كالزهرات، حُزنَ الجمال والأخلاق.

وذات يوم توجه أصغر الأولاد، ويدعى الأمير حسن، إلى الملك المجاور، وخطب صغرى البنات، ولما سمع بذلك إخوته، لحقوا به وخطبوا باقي البنات.

وهكذا أقيمت الأفراح، ونصبت الزينات، وأعدت الولائم، وأمضى الأمراء سبعة أيام مع الأميرات في سعادة وسرور، ولكن كان لابد أن يعودوا بعد ذلك إلى مملكتهم مع زوجاتهم.

وكان عليهم أن يمروا في الطريق بغابة كثيفة الأشجار، فساروا رتلاً واحداً، كل أمير على فرس، ووراءه زوجته على فرس آخر.

وكان الأمير حسن في مقدمتهم، يسبقهم، بمسافة غير

قليلة، ليستطلع لهم الطريق، وكانت زوجته تسير في آخر الركب، مع إخوته وزوجاتهم.

وبينما هم في وسط الغابة، وقد تقدمهم الأمير حسن، برز لهم غول عملاق، نفخ عليهم واحداً إثر الآخر، فجعلهم حجارة سوداء، عدا زوجة حسن، فقد اختطفها وهرب بها.

والتفت الأمير حسن، فلم ير إخوته، فرجع إليهم، فرآهم جميعاً حجارة سوداء، ولم تكن زوجته فيهم، وتتبع آثار أقدام الغول، فقادته إلى جبل شاهق، ينهض على قمته قصر منيف، فأدرك أنه منزل الغول فأخذ يتسلق الجبل حتى بلغ القصر، ولم يكن له مدخل ولا باب، سوى نافذة في أعلاه، فنادى الأمير حسن زوجته، فمدت له شعرها الطويل من تلك النافذة، فتعلّق به، ورفعته إليها فدخل القصر، وقد ذهل مما رأى من أكوام العظام والجماجم.

وما هي إلا برهة حتى أحس الأمير صوت قعقعة غريبة، فنبهته زوجته إلى قدوم الغول، ثم ماكان منها إلا أن أدخلته في صندوق ثياب عتيق، وأغلقت بالقفل والمفتاح.

ولما دخل الغول قال لزوجة الأمير حسن إنه يشم رائحة إنسيّ، فأنكرت ذلك، فأعاد القول ثانية، ولكنها أنكرت، وأعاده ثالثة، فظلت على إنكارها فصمت.

وكان زوجها قد أوصاها أن تسأل الغول عن روحه أين هي؟ فلما سألته، أجاب بأن روحه في المكنسة، فألبست المكنسة ثياباً، وأخذت تداعبها، لتوهمه أنها تحبه، وفي يوم آخر أخبرها أن روحه في الإبريق، ففعلت الأمر نفسه، وفي كل مرة كان يخبرها أن روحه في مكان، حتى اطمأن إليها، ووثق بها.

وفي يوم أخبرها أن روحه عصفور مخبأ في علبة صغيرة، والعلبة في قلب عنزة عرجاء جرباء، ولما خرج الغول كعادته كل يوم إلى الغابة، أخبرت زوجها الأمير حسن بمكان روح الغول، فودّعها وخرج.

وأخذ الأمير حسن يسير في البلاد حتى وصل إلى خيمة فيها عجوز، وعندها بضع غنمات ترعاها، فعرض عليها أن تتخذ منه ولداً لها، ووعدها أن يرعى الغنمات بدلاً منها، فوافقت، فأخذ الأمير حسن يسرح بالغنمات في المرعى، ليرجع بها في المساء إلى خيمة العجوز.

وذات يوم نبهته إلى وجود عنزة جرباء عرجاء قرب المرعى، وحذرته من الاقتراب منها، لأنها تهلك كل من يقترب منها، وفرح الأمير حسن بذلك، وأسرع من فوره إلى العنزة الجرباء العرجاء، وأخذ يصارعها إلى أن صرعها بسيفه، ثم شق صدرها وأخرج قلبها، فوجد فيه العلبة ففتحها فرأى عصفوراً صغيراً، فأمسكه وأسرع به إلى قصر الغول.

وأمام القصر ضغط الأمير حسن على عنق العصفور فسمع من الداخل صرخة ألم شديدة، ثم خرج الغول وهو يتلوّى من الألم، وضغط ثانية على عنق العصفور، فتوسل إليه الغول أن يطلق العصفور، ووعده أن يحقق له ما يريد، فطلب منه أن يعيد إخوته وزوجاتهم إلى ماكانوا عليه، ثم ضغط مرة ثالثة، فتلوى الغول من الألم أكثر وأكثر، وسأله ما يريد، فطلب منه الأمير حسن أن يعيد إليه زوجته، فأعادها إليه، وعندئذ فصل الأمير حسن رأس العصفور عن جسده، فسقط الغول جثة هامدة.

ورجع الأمير حسن مع زوجته إلى الغابة، فرأى إخوته وزوجاتهم على ظهر الخيول وهم يتابعون سيرهم وكأن شيئاً لم يحصل.

وتابع الجميع سيرهم يتقدمهم الأمير حسن وزوجته، إلى أن وصلوا إلى مملكة أبيهم، فأقيمت الأفراح، ونصبت الموائد، وأعلن في المملكة سبعة أيام وثماني ليالٍ، لا أحد يأكل ولا أحد يشرب إلا من قصر الملك.

وعاش الأمراء التسعة مع زوجاتهم في سعادة وسرور.

التعليق:

تدل الحكاية على أن مايلقاه الشاب من تحديات للوصول إلى زوجته، فقد يبدو الأمير قادراً على الخطبة بسهولة بما يملك من مكانة وقدرة، ولكن تبقى هنالك تحديات أخرى أكبر عليه أن يواجهها، كي يثبت رجولته، ويصل إلى المرأة.

إن الغول الذي يسكن قصراً على قمة جبل، هو رمز قوة مجهولة، على الشاب أن ينتصر عليها، كي يثبت رجولته، ويظفر بالمرأة.

وما تلك القوى المجهولة إلا القوة الجنسية الغامضة التي لا يفقهها الشاب قبل أن يمارسها، ولذلك عليه أن يتغلب عليها ببطولته وشجاعته، ليحقق نصره.

وهذا النصر لا يتحقق إلا بأمرين، الأمر الأول تعاون المرأة نفسها معه، إذ تقدم له شعرها كي يتعلق به ، ويصعد إليها، وهي التي تساعده على معرفة روح الغول أين تكون، أي تساعده على معرفة كنه القوة الجنسية وجوهرها، وما عليه بعد ذلك إلا أن يكتشفها بنفسه، وهنا يحتاج إلى الأمر الثاني ليحقق نصره، وهو قوته وفروسيته وشجاعته وجرأته، إذ يمضي فيصارع العنزة، ثم يحصل على العصفور، روح الغول، ليثبت تفوقه عليه، ويستخلص منه زوجته.

إن الغول في قوته وعنفوانه وعدوانيته وشراسته، والجبل في علوه وارتفاعه وانتصابه، هما رمز القوى الجنسية الذكورية التي تشترك مع الغول والجبل في تلك الخصائص.

ولكن تلك القوة ذات روح ضعيفة كالعصفور في ضعفه، ولذلك كانت مخبوءة في عنزة جرباء عرجاء، دليلاً على انحطاط تلك القوة بوصفها محض قوة، ولذلك لايمكن تحقيق الوصول الصحيح إلى المرأة بتلك القوة وحدها.

إن الوصول الحق إلى المرأة لا يتحقق إلا بكسر تلك الأشكال العدوانية والحيوانية والغولية للقوة الجنسية، لتتجلى في أشكال أخرى أرقى وأسمى، فيها البطولة والجرأة والشجاعة والتضحية من أجل المرأة.

إن القوة الجنسية المتجلية لدى الغول في أشكال الشراسة والعدوانية والعنف تحوّل الإنسان إلى محض حجر أسود، ولا تحقق الوصول إلى المرأة، على حين أن

تلك القوة نفسها المتجليّة لدى الفارس في أشكال الشجاعة والجرأة والبطولة والتضحية تحرّر الإنسان من محض كتلة حجرية إلى إنسان حي يتحرك، روحاً وجسداً، وتحقق الوصول الحق إلى المرأة.

إن الحكاية تقدّم درساً تعليمياً للشباب ، كي تعدهم للدخول إلى عالم المرأة ، ولكنها تعدّهم بشكل غير مباشر، عبر الرموز الحلمية الغائصة في عمق اللاشعور الجمعي.

وحسب الحكاية سمواً وجمالاً أنها تعلم الشباب أنه لابد من تخليص المرأة من الغول، بوساطة القوة والشجاعة والذكاء والتضحية.

والحكاية لاتكتفي بجعل المرأة مثالاً جميلاً، على الرجل أن يضحي لأجله ويثبت أمامه القوة والبطولة ، بل تجعل المرأة نفسها متعاونة مع الرجل ، جسداً وروحاً، ليحقق كلاهما معاً اللقاء الإنساني الجميل.

❒❖❒

فطوم بنت الشحاذين

كانت فطوم فتاة جميلة، ذكية، ولكنها كانت فقيرة جداً، فقد مات أبوها، وأخذت أمها تعمل شحاذة، تطوف، تسأل الناس الصدقة.

وذات يوم أحضرت لها أمها قليلاً من الرز والعدس وبعض اللحم وطلبت منها أن تطبخ مخلوطة، ريثما تطوف في الأسواق لعلها تحصل على الرزق.

وشرعت فطوم في طبخ المخلوطة، ووقفت أمام القدر، لا تغادرها، وهي تعني بالطعام، حتى نضج، وإذ بالباب يقرع، ففتحته، فرأت عجوزاً تسألها بعض الطعام، فدعتها إلى الداخل وسكبت لها صحناً من المخلوطة، فشكرتها العجوز، وأقبلت على الصحن، فالتهمته، ثم طلبت صحناً آخر، فسكبت لها، فطلبت صحناً ثالثاً فرابعاً، وهكذا حتى فرغت القدر، وفطوم ترحب بها، ولا تبدي أي شيء من التذمر، ثم ودعتها العجوز وخرجت.

وحارت فطوم في أمرها، ماذا تفعل؟ وما كان منها إلا

أن سكبت في القدر بعض الماء ورفعتها فوق النار، وأخذ الماء يغلي، وليس فيه إلا بقايا قليلة مما كان قد علق بجوانب القدر.

ولما رجعت الأم في المساء، قدمت لها ابنتها صحناً ليس فيه سوى الماء، وبعض الحبات من الرز والعدس، فغضبت الأم، وصرخت بابنتها: "أين المخلوطة"؟، ولم تجد البنت ما تقوله، فازداد غضب الأم، وهجمت على البنت تريد ضربها ففتحت باب الدار وولت هاربة.

ولحسن حظها قادتها قدماها إلى قصر الملك، فقعدت أسفل السور، وكان الملك في الشرفة، فرآها، فطلب من الخدم أن يحضروها ثم أمرهم أن يأخذوها إلى الحمام، ويلبسوها أحسن الثياب.

وخرجت فطوم بنت الشحاذين من الحمام أميرة، تعلوها ثياب الحرير، وما إن رآها الملك حتى فتن بجمالها، وأعلن في الحال رغبته في الزواج منها.

وعمت الأفراح البلد، ونصبت الزينات، وأقيمت الموائد، وأعلن في المدينة "سبعة أيام وثماني ليالي، لا أحد يأكل، ولا أحد يشرب، إلا من قصر الملك".

وسعدت فطوم بنت الشحاذين بحياتها الجديدة، كما سعد بها الملك، وطاب لهما العيش، فقد جمعهما القدر، ووفق بينهما الحب، وأخذت أيامهما تزداد سعادة.

وذات يوم أطلت فطوم بنت الشحاذين من شرفتها، فرأت أمها أسفل سور القصر تتسوّل، فأرسلت وراءها الخدم، ولما أحضروها، عرفتها إلى نفسها، وعرضت عليها أن تترك حياة الشحاذة والتسوّل، وأن تعيش معها، ولكنها انفجرت غاضبة، وصاحت بها "أين صحن المخلوطة، يا فطوم يا بنت الشحاذين"، وحاولت البنت تهدئتها، وإقناعها أن تلزم الصمت، ووعدتها أن تمنحها بدل صحن المخلوطة العقود واللآلئ والجواهر، ولكن صراخ الأم كان يزداد ويعلو، فما كان من البنت إلا أن لجأت إلى الحيلة، فأخبرتها أن صحن المخلوطة موجود، وأنها تخبئه في باحة القصر أسفل النافذة، ثم قادتها إلى النافذة، وجعلتها تطل منها، لترى صحن المخلوطة، ثم دفعتها، فسقطت ميتة، ثم أسرعت البنت إلى باحة القصر، وحفرت أسفل النافذة، ودفنتها.

وعادت فطوم بنت الشحاذين إلى حياتها الهانئة مع زوجها الملك، ولكن ذات يوم أطلت من نافذتها، فرأت في باحة القصر حيث دفنت أمها نبتة قد ظهرت، فلم تبال بالأمر، ولكن يوماً بعد يوم أخذت هذه النبتة تعلو وتطول، حتى صارت شجرة، وبينما، كانت البنت تتأمل أغصانها وفروعها الممتدة أمام النافذة، هبت النسمات، فتحركت الأوراق، وإذا هي تقول: "أين صحن المخلوطة، يا فطوم بنت الشحاذين؟"

وذات ليلة بينما كانت فطوم بنت الشحاذين مع زوجها الملك أمام المائدة، وهما يتسامران ويتناجيان، والنافذة بجوارهما مفتوحة، هبت نسمات ناعمة، فإذا أوراق الشجرة تتحرك هامسة: "أين صحن المخلوطة، يا فطوم بنت الشحاذين؟"، فأسرعت إلى النافذة، وأغلقتها، وهي مذعورة، قلقة، ولما رجعت إلى المائدة، لاحظ الملك شحوبها وتغيرها، بل رأى الدموع تترقرق في عينيها، فسألها عن سرّ تغيّرها، فحاولت أن تتهرب من الإجابة، ولكنه ألح عليها، فأخبرته أنها تضيق ذرعاً بالقصر، وتحنّ إلى المرحاض في دار أبيها، لأنه أجمل من القصر وأرحب.

وذهل الملك مما سمع، وأقسم أن يرى مرحاض دار أبيها، فإذا لم يكن أجمل من قصره وأرحب، فإنه سيقتلها.

ولم تصدق فطوم بنت الشحاذين أنها هي نفسها قد نطقت بمثل ذلك الكلام، وندمت على ما فرط منها في ساعة غضب.

ولكن كان لابد من أن تسير مع زوجها الملك، لتدله على دار أبيها، وكانت تسير هائمة على وجهها، لاتعرف أين تقودها خطاها، والملك في كل حين يسألها: "أين دار أبيك؟ متى سنصل؟"، وهي تلف به في البلاد، وتدور، حتى بلغا أرضاً خلاء، لا عمار فيها ولا شجر، فقال لها الملك: "أنت لاشك كاذبة، ولابد من قتلك"، واستل سيفه، ولكنها رجته أن يمهلها ثم طلبت منه أن يأذن لها أن تغيب

قليلاً وراء تلة صغيرة، لقضاء حاجة، فأذن لها.

وكانت فطوم بنت الشحاذين تنوي الفرار، ولكنها ما إن غابت وراء التلة حتى رأت سلحفاة كبيرة، فاجأتها قائلة: "ماهذا الخطأ الذي بدر منك يا فطوم؟"، فدهشت، ثم قالت لها: "أرجوك ساعديني"، فطلبت منها أن تذهب على الفور وتحضر الملك، ووعدتها أن تجد في مكان السلحفاة نفسها بلاطة عليها حلقة، ماعليها إلا أن ترفعها وتنزل، لترى ما يدهش الملك، وهمت فطوم بالإسراع إلى الملك، ولكن السلحفاة حذرتها من البقاء في الأسفل أكثر من سبعة أيام، وإلا انقلب كل شيء.

ورجعت فطوم بنت الشحاذين إلى زوجها الملك، وعلائم السرور بادية على وجهها، على حين كان غاضباً، والسيف في يده، فأخبرته أنها قد وصلت إلى دار أبيها، ثم قادته إلى حيث كانت السلحفاة وراء التلة، فرأت بلاطة عليها حلقة، فرفعتها، وإذا هي أمام سرداب، نزلت فيه مع الملك، فإذا هما في قصر لم تر مثله عين، عالي القباب، واسع الأبواب، أدراجه من مرمر، وترابه من عنبر، قناديله من مرجان، كأنه من صنع الجان.

وأقام الملك مع زوجته فطوم بنت الشحاذين في القصر أياماً، وطاب لهما العيش، وهما ينعمان بأشهى الفواكه وأطايب الطعام، حتى كان اليوم السابع، تذكرت فطوم بنت الشحاذين السلحفاة، فقالت لزوجها الملك: "أحنّ إلى

قصرك، وأشتاق إليه، ولن أذكر بعد اليوم قصر أبي"، فسامحها الملك، وعفا عنها.

وخرجا من السرداب، وإذا هما مرة أخرى في تلك الفلاة، حيث لاشجر ولا عمار، ولم يخطوا بضع خطوات، حتى قالت فطوم بنت الشحاذين للملك"، اعذرني، أريد قضاء حاجة"، ورجعت إلى وراء التلة، فرأت السلحفاة حيث كان باب السرداب، فشكرتها، وسألتها من تكون في الحقيقة، فأخبرتها أنها هي تلك العجوز التي رحبت بها وأطعمتها قدر المخلوطة.

ورجع الملك وزوجته بنت الشحاذين، ليعيشا معاً حياتهما هانئين سعيدين.

تعليق:

تؤكد الحكاية في الظاهر حسن جزاء فاعل الخير، إذ إنه لابد أن يلقى جزاءه الأوفى، ولو بعد حين من العذاب والشقاء.

وهي تدل في العمق على حلم الفقراء دائماً بالحياة في قصور الملوك والأغنياء، وشعورهم أحياناً أنهم أولى منهم بالعيش في تلك القصور، فمثل فطوم بنت الشحاذين لاينقصها شيء من جمال أو ذكاء لتعيش في القصور، ولكن من سوء حظها أنها ولدت في بيت فقير.

وهي تدل أيضاً على شعور الفقراء أن سوء الحظ يلاحقهم دائماً، ولو وصلوا إلى القصور، لا لشيء أيضاً، إلا لأنهم فقراء.

ويؤكد ذلك أن فطوم تصل إلى قصر الملك، ولكن أمها تلاحقها ثم ترميها من النافذة وتدفنها في باحة القصر،

فلا تنجو، إذ تنبت شجرة تنطق مؤكدة فقرها ويظل سوء الحظ يلاحقها حين تتفوه بكلام يزعج الملك.

وتمتاز الحكاية بالخيال الخصب، فالأم تدفن ويخرج في موضعها شجرة، والشحاذة التي طرقت الباب على الفتاة تظهر على شكل سلحفاة، والبلاطة تفتح عن سرداب يقود إلى قصر منيف.ومثل تلك العناصر كثير في الحكايات الشعبية.

❐❖❐

الولد الأقرع

كان لامرأة عجوز حفيد وحيد، مات أبوه، فرعته جدته، وسهرت على تربيته، ولكن لسوء حظها كان لايحسن فعل شيء، بل إنه أصيب بمرض ذهب بشعر رأسه، فأصبح أقرع، مما زاد في الطين بلة.

وذات يوم أرسلته ليشتري الخبز، فرجع لايحمل شيئاً، ولما سألته عنه، أجابها أنه التقى في الطريق بمجموعة كلاب تطارد كلباً صغيراً، فألقى إلى الكلاب بالخبز فانشغلت به عن الكلب الصغير، فما كان من جدته إلا أن عفت عنه.

وفي يوم آخر أرسلته ليشتري اللحم، فرجع لايحمل شيئاً، ولما سألته عنه، أخبرها أنه رأى مجموعة من قطط تطارد قطاً صغير، فرمى إليها باللحم، فانشغلت به عن القط الصغير ومرة ثانية عفت عنه جدته.

وفي يوم ثالث أرسلته مع الحاصدات ليعمل معهن في

حصاد القمح، وفي الطريق تأخر عنهن، وقعد على صخرة، يستريح من تعبه، فمرت به أفعى، ولكنها رجته أن يخبئها، فخبأها تحت طيات ثوبه، ومر به رجل، فسأله إن كان قد رأى أفعى، فأنكر ذلك، فمضى الرجل في حال سبيله، وعندئذ خرجت الأفعى، لتشكر الأقرع، وتقدم له خرزة زرقاء، وأخبرته أنه يستطيع أن يطلب من هذه الخرزة فعل أي شيء يعجز هو عن فعله، ثم ودعته ومضت.

ولحق الأقرع بالحاصدات فطلبت منه إحداهن نقل كومة كبيرة من القش، إلى طرف الحقل، فما كان منه إلا أن امتطى الكومة، ثم طلب من الخرزة الزرقاء أن تحمله إلى اصطبل الملك، وطارت به كومة القش محلقة، لتمر أمام قصر الملك، وتدخل به إلى الاصطبل، وكانت ابنة الملك في نافذتها، فلما رأت كومة تطير وفوقها الأقرع، ضحكت، وأشارت إليه ساخرة، فدعا عليها أن تحمل من قبل أن تتزوج.

ومرت الأيام، وإذا ابنة الملك حامل، وذهل أبوها الملك، فأخبرته بحقيقة الأقرع، ودعائه، فأرسل وراءه، وألزمه بالزواج منها، فقبل مضطراً ولكن على شرط أن تعيش معه في بيت جدته، فكان له ما أراد.

وأخذ الأقرع عروسه إلى بيت جدته، وكان من

الطبيعي ألا يطيب لابنة الملك المقام في بيت الجدة، وأن تطلب منه قصراً مثل قصر أبيها.

وعلى الفور طلب الأقرع من الخرزة أن يكون هو وزوجته في قصر أجمل من قصر الملك، وأن يكون الملك غارقاً تحت سبعة بحور، وفجأة وجد نفسه في القصر، وقد تحقق له ما طلب.

ولكن ذات يوم بحث عن الخرزة فما وجدها، بل وجد نفسه مع زوجته غارقين تحت سبعة بحور، فقد أرسل الملك إليه من سرق الخرزة من غير أن يعلم، فتألم الأقرع وحزن.

وبينما هو على هذا الحال، دخل عليه كلب وقط، سألاه إن كان يريد أن تعود الخرزة إليه، فأجاب أن نعم، وعلى الفور أسرع الكلب والقط إلى قصر الملك، فسرقا الخرزة، وعادا بها إلى الأقرع.

وما كان من الأقرع إلا أن طلب من الخرزة أن يكون له قصر مقابل قصر الملك، وعلى الفور كان له ما أراد، وإذا هو في قصر مع زوجته أمام قصر أبيها، ثم أحضر الأقرع إليه جدته، وعاش الجميع.في هناء وسرور.

تعليق:

تؤكد الحكاية أن المعروف لا يضيع، وأن جزاء الإحسان لابد أن يكون الإحسان، ولو مع الحيوان.

وهي تدل على حلم البائس الفقير بالزواج من ابنة

الملك والوصول إلى الحكم، كما تدل على أن ذلك لايكون بالجدارة، وإنما بالمصادفة، فكان الملك نفسه لايقوم على جدارة، وإنما على مصادفة.

والحكاية تكرر حكاية سابقة عنوانها "الخمخوم" مع بعض الاختلاف، مما يؤكد أن الحكاية واحدة، ولكن الراوي غير فيها وأضاف.

❐❖❐

أجير الصائغ

كان أحد الرجال يعمل أجيراً لصائغ، وعنده بضعة أولاد وكانت أجرته لا تكفيه في شيء، وكلما طالب معلمه أن يزيد في أجرته، اشتكى المعلم من ضعف الحال.

وذات يوم قرر أن يرتحل في طلب الرزق، فودّع زوجته وأولاده وسافر، وكانت تحمله بلاد، وتحط به بلاد، حتى وصل إلى بلد، قصد فيه إلى دكان صائغ، عرض عليه أن يعمل عنده، فقبل.

وباشر الرجل عمله، وأخذ يبدي مهارة فائقة، حتى يحظى برضى معلمه الجديد، ولكن هذا لم يكن بأفضل من ذاك، إذ كان دائماً يمنّ عليه، إذ أتاح له فرصة العمل عنده، ولا يعطيه أجرته إلا بعد أن يطلبها منه عدة مرات، وبعد تأجيل ومماطلة.

وذات يوم دخل دكان الصائغ خادم الملك، وطلب صوغ سوار خاص بابنة الملك، فوعده الصائغ أن يجهز له

السوار في صباح يوم الغد، ثم التفت إلى الأجير، وطلب منه أن يعدّ السوار.

وأكبّ الأجير على السوار، يسوغه بإتقان، يضع فيه كل مهارته، وسهر عليه طوال الليل، ثم إنه نقش عليه من الداخل هذه الأبيات:

مصائب الدهر كفّى

إن لم تكفي فعفّي

خرجت من أجل رزقي

رأيته متوقّي

كم جاهل في الثّريا

كم عالم متخفّي

وفي الصباح حضر خادم الملك، فناوله المعلم السوار، وأخذ منه مكافأة كبيرة، ولم يعط الأجير شيئاً.

وفرحت ابنة الملك بالسوار، وأعجبها كثيراً، وأخذت تتزين به صباح مساء، وذات يوم، وهي تضعه في يدها تنبهت إلى الأبيات المنقوشة عليه من الداخل، فعرضته على أبيها، ورجته أن يعرف قصة هذه الأبيات.

وأرسل الملك وراء الصائغ، ولما جاء سأله عمّن صاغ السوار، فأكد له أنه هو الذي صاغه، فطلب منه سواراً آخر

يشبهه تماماً، على أن ينجزه في صباح اليوم التالي، ومن غير أن يكون بين يديه السوار الأول.

وأسرع الصائغ إلى أجيره يطلب منه سواراً آخر كالسوار الأول، فوعده الأجير خيراً، ثم إنه أغلق باب الدكان على نفسه، وبقي في الداخل.

وكان الأجير في الحقيقة قد صاغ منذ البداية سوارين، وخبأ أحدهما، وقدم الآخر للصائغ، ولما طلب منه سواراً ثانياً، كان هذا جاهزاً.

وفي الصباح حضر خادم الملك، فناوله الصائغ السوار، وتلقى منه المكافأة، ولم يمنح الأجير شيئاً.

ولما رأت بنت الملك السوار دهشت، لأنه كان كالسوار الأول تماماً، لا يختلف عنه في شيء، كما نقشت عليها من الداخل الأبيات نفسها، فأسرعت إلى أبيها تخبره بالأمر، وترجوه أن يعرف قصة الصائغ.

وأرسل الملك وراء الصائغ فلما حضر سأله عن السوار إن كان هو قد صاغه فعلاً، فخاف، وظن أن الملك لم يعجب بالسوار، فأخبره أن أجيره هو الذي صاغه.

وأرسل الملك على الفور وراء الأجير، ولما حضر سأله عن قصة الأبيات، فروى له حكايته، وأخبره ما كان من أمره مع معلمه الجديد، الذي لم ينصفه، شأنه في ذلك شأنُ معلمه السابق، وأكد له ندمه على غربته وتركه وطنه

وبعده عن زوجته وأولاده.

وعندئذ أمر الملك بتعيين الأجير وزيراً في مملكته، وأرسل وراء زوجته وأولاده ليعيشوا معه في هناء وسرور.

تعليق:

تدلّ الحكاية على شقاء العامل وتعبه وعدم إنصافه من رب العمل، الذي غالباً ما يستثمر جهده ويغمطه حقّه.

ولكن لابد من تحقيق العدل على يد قوة أعظم، وليس الملك ههنا محض ملك، وإنما هو في الحقيقة رمز لتلك القوة التي يمكنها أن تحقق في النهاية العدل.

كما تشير الحكاية إلى أن إتقان العمل والإخلاص فيه والمهارة، كل أولئك هو المبدأ الذي يحفظ الحق، والمنطلق الذي يمكن أن يقود إلى العدل.

كما تؤكد أخيراً أن هذا العدل لا يتحقق من تلقاء نفسه، ولا بمحض المهارة والاتقان، وإنما لابد من إعمال العقل لبلوغه، ويتمثل ذلك في نقش الأبيات على السوار من الداخل.

❒❖❒

قسمة ونصيب

خرج ذات يوم أحد الملوك مع وزيره متنكرين في زي رجلين فقيرين، وأخذا بالتجوال في الأزقة والحارات، حتى يريا أحوال الناس، وقادتهما خطاهما إلى خارج المدينة، فشاهدا بصيص نور من بعيد فسارا حتى وصلا إليه، فإذا هما أمام كوخ بسيط، قرعا الباب، فخرج إليهما رجل رحب بهما، ودعاهما إلى الدخول، وقدم لهما كسرة خبز وبعض البصل وقليلاً من الماء. ثم اعتذر لهما أشد الاعتذار، لأنه لايملك شيئاً، ولديه عيال كثير، وسمع الملك صوت امرأة تتألم، فسألاه، فأجابهم بأن زوجته في الغرفة الأخرى وهي في المخاض، ثم استأذنهما في الخروج إلى زوجته، وتركهما مع ذلك الطعام القليل.

وما هي إلا برهة حتى رجع إليهما يحمل وليداً، وهو في غاية السرور، فهنأه الملك والوزير به، وقدما له بعض المال ليصلح به حاله، فسعد بذلك الرجل، وفي غيابه طلب الملك من الوزير أن ينظر في طالع الولد، فأخبره أن المولود سيتزوج من ابنته، التي كان قد رزق بها قبل بضعة

أيام، فغضب الملك، وأضمرها في صدره، ولما رجع الرجل، سأله إن كان يبيعه ولده فهو فقير، وذو عيال كثير، ثم عرض عليه مبلغاً كبيراً، لم يلبث أن زاده مرة ومرتين، فرضي الرجل، ولكنه أعاده إلى أمه لتودعه، وتلفه بالأقماط، وحزنت الأم لفراقها ولدها، ولكنها سلمت أمرها لله، ولفت الولد بكل مالديها من خرق وثياب.

وحمل الملك الوليد ومضى به مع الوزير، ولم يقطع سوى مسافة قصيرة حتى رمى بالوليد من قمة جبل، ورجع إلى القصر مطمئناً إلى موته، وطلب من الوزير ألا يخبر أحداً بذلك.

وشاءت الأقدار أن يقع الوليد على شجرة كثيفة الأغصان، ومنها سقط إلى الأرض، فكان اصطدامه بها ضعيفاً، وهو الملفوف بأقماش وثياب كثيرة، لذلك لم يؤثر فيه السقوط على الأرض.

وكان في تلك الأنحاء راع مع بضع عنزات، ومرت به إحدى العنزات، فعطفت عليه، ومالت نحوه، حتى تمكن من الرضاعة منها، وكان هذا دأبهما كل يوم، تترك قطيع الماعز، وتقترب من الوليد، ليرضع.

ولاحظت العجوز أن عنزتها ترجع كل يوم من المرعى ولاحليب في ضرعها، فسألت الراعي، فأقسم لها أنه لا يعرف من الأمر شيئاً، فطلبت منه أن يراقبها، لعل أحداً

يسرقها الحليب.

وراقب الراعي العنزة، فرآها تنتحي جانباً، فتبعها، فرآها تدنو من الوليد، فتمكنه من الرضاع، فذهل لما رأى، وحمل الوليد ورجع به مع العنزة إلى العجوز، وقال لها: "خذي، لقد وضعت عنزتك ولداً".

وتلقت العجوز الوليد وفرحت به أشد الفرح، وسهرت عليه، ترعاه وتربيه، إلى أن شب وأصبح من أمهر الفرسان، وقد سمته العجوز "محمد".

وذات يوم كان محمد في السباق، فسبق كل أقرانه، وكان الملك حاضراً ذلك السباق، فدهش الملك من ذلك الشاب، ومال على الوزير، وكان إلى جانبه، يسأله عن طالع ذلك الشاب، فأجابه بأنه هو من سيتزوج ابنته ويرث من بعده الملك، فغضب الملك، وكان يرتجي ولداً ذكراً يرثه، فأرسل وراء الشاب، وسأله من يكون؟ وأين بيته؟

ودلّ الشاب الملك والوزير إلى خيمة العجوز، فسألها الملك من يكون الشاب، فأخبرته أنه ولدها، فأنكر أن يكون ولدها وهي العجوز، وقد توفي زوجها منذ زمن بعيد، فاعترفت له بالحقيقة، فأخبرها أنه سيكرّم الشاب، ثم زوده برسالة، وطلب منه أن يحملها إلى القصر، وهناك سيجد مكافأته.

وحمل الشاب رسالة الملك، ومضى بها إلى القصر، من غير أن يفتحها، ولما بلغ القصر، رأى الحارس نائماً

فقفز من فوق السور، وكانت ابنة الملك في نافذتها، فأعجبت به وأشارت إليه، فصعد إلى غرفتها، وسألته عن قصده، فقدم إليها الرسالة، ففتحتها، فقرأت فيها أمر والدها بقطع رأسه، فمزقت الرسالة وخطت رسالة أخرى، كتبت فيها أمراً بتزويجه من ابنة الملك، ثم مهرتها بخاتم أبيها، وطلبت أن يقدمها إلى قاضي القضاة، فأدى هذا إلى تنفيذ الأمر بزواج الشاب من ابنة الملك، فأقيمت الأفراح، وأعدت الولائم، وعاشت المدينة أياماً في سعادة ورخاء.

ثم أعلن عن عودة الملك إلى البلاد فخرج رجال القصر، وقائد الجيش، وقاضي القضاة، كما خرج الشاب، وزوجته في موكب مهيب، لاستقبال الملك، ولما رأى الملك الشاب عرفه على الفور، فالتفت إلى القاضي يسأله من يكون، فأجاب: هو صهرك يا مولاي وزوج ابنتك، وعند ئذ أدرك الملك أن قسمة هذا الشاب هي الزواج من ابنته، وأن حظه أن يكون وريثه في الملك.

وعاش الشاب مع زوجته في سعادة وسرور، ثم توفي الملك، فورث من بعده العرش.

تعليق:

تؤكد الحكاية أنه لامفر من القدر، مهما حاول المرء أن ينجو منه، فهو الأقوى، وقد اتخذ هنا صورة الحظ والقسمة، كما تعبر عنه العامة.

كما تدل الحكاية على حلم الفقير دائماً بالزواج من ابنة الملك والوصول إلى الحكم وتولي الملك.

وفي الحكاية عناصر من أسطورة أوديب التي تقول إن الملك لايوس أمر بقتل ابنه إذ كان العراف قد تنبأ بمولود يقتله ويرث من بعده العرش، ولكن الخادم الذي كلف بمهمة قتله أسلمه إلى راع فقير.

وفي الحكاية أيضاً عناصر من أسطورة روموس ورمولوس التي تروي أن أمهما وضعتهما في سلة ورمت بهما في النهر وهما وليدان، فقذفهما النهر إلى الغابة، حيث أرضعتهما ذئبة.

وفي قصة حي ابن يقظان ما يشبه ذلك، إذ تروي أن غزالة قد توَّلت إرضاع حيّ بن يقظان. وفي الحكاية أيضاً عناصر من قصة طرفة بن العبد وخاله المتلمس وقد زوّد كلاُ منهما النعمان بن المنذر رسالة إلى ملك اليمن، فسار الأول من غير أن يفض الرسالة فكان فيها حتفه، على حين فتحها الثاني فقرأ فيها أمراً بقتله، فرماها ورجع لينجو.

وفي الحكاية أخيراً عنصر شائع كثيراً في الحكايات الشعبية وهو تنكر الملك والوزير في زي فقير، وتعرفهما إلى أحوال العامة.

❐❖❐

حكاية الكذب

يحكى أن أحد الملوك أعلن في المملكة عن رغبته في سماع حكاية الكذب، ووعد أن يتنازل عن الملك لمن يحكي

له حكاية لاشيء من الصدق فيها، فيصبح ملكاً بدلاً منه، وإذا لم ينجح قطع رأسه.

وتقدم إليه أناس كثير، ولكن أحداً لم ينجح، في رواية حكاية كذب، وكان الملك يقطع رأس كل من خاب حظه، حتى إنه بنى قصراً من تلك الرؤوس.

وكان في المملكة ولد يتيم، لايفقه شيئاً، عملت جدته على تربيته، ولما سمع بحكاية الكذب، أخبر جدته برغبته في الدخول على الملك، ليسمعه حكاية كلها كذب، ويصبح ملكاً بدلاً منه، فحذرته جدته، وأكدت له أن الإخفاق يعني قطع الرأس، فأجابها: "ليس لي سوى هذا الرأس وهو أقرع، فليأخذه الملك إذا أخفقت".

ومضى الولد الأقرع إلى قصر الملك في منتصف الليل، فرأى الباب مغلقاً، فحمل حجراً كبيراً رمى به الباب، فأسرع إليه الحرس، فسألوه عن سبب فعلته، فأكد لهم رغبته في أن يحكي للملك حكاية الكذب، فحذروه ونصحوا له بالعودة، ولكنه أبى.

وفي الصباح دخل الولد الأقرع على الملك وهو في الديوان ومن حوله الوزراء والقضاة ورجال الدولة، وأكد أنه سيحكي للملك حكاية كذب، ثم طلب أن يوقع الملك على ورقة أمام الجميع يعلن فيها عن تنازله عن الملك في حال نجاحه.

وكان للولد ما أراد، فأخذ يحكي للملك حكاية الكذب، وهو يقول:

كنا في البيت ستة، ضربنا الهواء فصرنا ثلاثة، أطرش وأعمى وأعرج، قال الأطرش: أسمع صوت بقّة في سمائها، فقال الأعمى: وأنا بعيني أراها، فقال الأعرج: هيا، فلنركض وراءها. فصرنا نركض ونركض خمس سنين وخمسة شهور وخمسة أيام، نركض ونركض وما خرجنا من البيت، ولكن لما خرجنا رأينا برغوثاً، وكنا جوعى، فاشترينا منه رطلاً من اللحم، وسألنا أنفسنا أين سنطبخه، فقال الأعمى عند الجارة، ولما طلبنا منها طبخ اللحم، قالت: "أنا قدري أم حلقة، ينزل منها اللحم وتبقى المرقة"، فوافقنا، وكنا جوعى، فأخذنا المرق، ولم يكن فيه سوى قطعة لحم، اختصمنا فيه، وذهبنا إلى القاضي ليقسمها علينا، فقال القاضي:

"ليذكر كل منكم فضائل جدّه". فقال الأول: "أنا جدي نجار، صنع منبراً صلى عليه أهل الشرق والغرب"، وقال الثاني: "وأن جدي حدّاد، صنع، ثريا أضاءت البر والبحر"، وقال الثالث: "أنا جدتي كانت حاملاً بأبي، فلما جاءها المخاض، قالت لي خذ بيضة واشتر بها شمعة، وبينما كنت في الطريق، وقعت مني نصف البيضة، فانكسرت، وخرج منها دجاج وديوك ملأت السوق، فأخذت أبيع منها وأبيع، حتى امتلأت خرجي بالذهب، فاحتفظت لنفسي بثلاثة ديوك، وفي اليوم التالي وصلت باخرة فيها حمولة،

وما في المرفأ أي حمال، فأرسلت ديوكي الثلاث فنقلت حمولة الباخرة كلها، وكسبت من ورائها الرزق الكثير، ولكن لما رجعت، وجدت ظهر أحد الديوك معقوراً، فأخذت حفنة تراب ومسحت بها ظهر الديك، فامتدت على ظهره أرض واسعة وسهول، زرعته بالسمسم، ولما صار أوان الحصاد، أحصيت حبات السمسم، فوجدتها قد نقصت حبة واحدة، وإذا نملة تحملها، فأخذت أشد الحبة منها وهي تشدها، حتى انقسمت الحبة إلى قسمين، فسال منها الزيت، فملأت منه خمسين قنطاراً، وتركت الباقي يسيح في الأرض، وأخذت أبيع الزيت، حتى امتلأت خرجي بالذهب، وفي الموسم الثاني زرعت الأرض نفسها بالبطيخ، وإذا عندي قناطير من البطيخ، أبيع وأبيع والبطيخ يزيد، وذات يوم فكرت في شق بطيخة، وما إن وضعت فيها السكين، حتى غاصت داخل البطيخة، فرفعت رأسي عن جثتي، ووضعته على الأرض بجوار البطيخ ليحرسه، ثم غصت داخل البطيخة، وبحثت عن السكين فوجدتها على رأس جمل، فأخذت أركض وراءه لأخذها وهو يركض أمامي، حتى شعرت بالتعب والجوع، فتركتها وتركت الجمل، ودخلت إلى دكان بائع لأشتري بيضة، فوجدت رأسي على جسم البائع، فقلت له: "هذا رأسي"، وجاء رجل آخر، وقال له أيضاً: "هذا رأسي"، وجاء رجال كثير، كلهم بدون رؤوس، وكل واحد يزعم أن الرأس رأسه فاختصمنا وتجادلنا كثيراً، ثم

ذهبنا إلى القاضي نحتكم إليه، فقال القاضي: "سأحمل الرأس، وأصعد به إلى المئذنة، وألقي به من أعلى، فمن وقع الرأس عليه فهو له"، وتجمعنا نحن تحت المئذنة، وأخذنا ننتظر، ولما ألقى القاضي الرأس، وقع فوقي، وإذا المري فوق المري والزلعوم فوق الزلعوم".

وضرب الملك كفاً بكفّ، وقال للولد الأقرع: "كفى أيها الولد، كفى، لقد رويت لي حقاً حكاية الكذب".

فقال له الولد: "إذن، هيا، انزل عن العرش، لأقعد فيه مكانك، واخلع عن رأسك التاج، لأضعه على هذا الرأس".

وهكذا صار الولد الأقرع ملكاً، بفضل حكاية الكذب، ودعا إليه جدته، لتعيش معه في هناءة وسرور.

تعليق:

حكاية طريفة، تنتمي إلى أدب اللامعقول، وهي تدل بشكل لاواع على نقمة خافية في الأعماق على الحاكم المستبد، وتشير من طرف خفي إلى عدم جدارته بالحكم، ملمّحة إلى أن لعبة الحاكم والحكم ما هي إلا كذب في كذب، إذ قد يصل إلى كرسي الحكم من لايمتلك من المؤهلات سوى حكاية الكذب.

ولعلها تدل أيضاً على حلم الشعب في أن يصل إلى الحكم واحد من الشعب نفسه، بذكائه وحسن تدبيره.

والحكاية تتضمن في داخلها حكايات كثيرة تبدو لا نهائية لها، ولعل أجملها حكاية إلقاء القاضي الرأس من المئذنة ونزوله على صاحبه تماماً، وهي تؤكد أنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح.

❑❖❑

عروس بجاموس

يحكى أن ولداً يتيماً أقرع، لم يكن له بيت ولا أهل ولا مأوىً، عثر ذات يوم على حبة قمح، فحملها ومضى بها إلى الطحّان، وطلب منه أن يضع حبة القمح عنده أمانة، فأخذها الطحان، ومضى الولد في حال سبيله.

وفي اليوم التالي رجع الولد إلى الطحان، وسأله عن حبة القمح، فأخبره أنها اختلطت مع القمح، وقد طحنها، فطالبه بالبديل، فأعطاه قبضة طحين بدلاً منها، ومضى الولد إلى الخباز، وطلب أن يضع عنده قبضة الطحين أمانة، فأخذها منه الخباز، ومضى الولد في حال سبيله.

وفي اليوم التالي رجع الولد إلى الخباز، وسأله عن قبضة الطحين، فأجابه بأنها قد اختلطت بالعجين، وراحت مع أرغفة الخبز، فطالبه بالبديل، فأعطاه الخباز رغيف خبز، فأخذه الولد ومضى به إلى فلاح عنده بضع دجاجات، فطلب منه أن يضع رغيف الخبز عنده أمانة، فأخذه منه الفلاح، ومضى الولد في حال سبيله.

وبعد بضعة أيام رجع الولد إلى الفلاح، وسأله عن رغيف الخبز، فأخبره بأن الدجاجات قد التهمته، فطالبه بالبديل، فأعطاه الفلاح دجاجة، فحملها الولد ومضى بها إلى راع عنده بضع غنمات، وطلب منه أن يضع الدجاجة أمانة عنده، فأخذها الراعي، ومضى الولد في حال سبيله.

وبعد بضعة أيام رجع الولد إلى الراعي، وسأله عن الدجاجة، فأخبره أن الثعلب غافله واختطفها، فطالبه بالبديل، فأعطاه الراعي خروفاً، فأخذه الولد، ومضى به إلى مزرعة فيها أبقار وجواميس، وطلب من صاحب المزرعة أن يترك الخروف أمانة عنده، فأخذ صاحب المزرعة الخروف منه، ومضى الولد في حال سبيله.

وبعد بضعة أيام رجع الولد إلى صاحب المزرعة، وسأله عن الخروف، فأخبره أن الخروف مرض ومات، فطالبه الولد بالبديل، فأعطاه الرجل جاموساً، فأخذ الولد الجاموس ومضى به.

وبينما كان يسير، وهو يجر الجاموس وراءه، سمع صوت غناء، فتبع مصدر الصوت، حتى بلغ داراً يقام فيه عرس، فترك الجاموس أمام الدار، ودخل، وأخذ يسلي نفسه بما يرى من رقص، ثم نصبت الموائد، ودعي الناس إلى الطعام، فأكل معهم، ولما خرج، لم يجد الجاموس، فرجع يسأل عنه، فأخبره والد العروس أنه رأى الجاموس أمام الدار فظنّ أن أحد الأقارب قد أحضره هدية، فذبحه، وأولم

منه، وأطعم الناس، فأخذ الولد يبكي ويصيح، مطالباً بالبديل.

وعرض عليه والد العروس أن يختار أي فتاة لتكون زوجة له، فنظر في الصبايا الحسان، فلم تعجبه سوى العروس، وأصرّ إلا أن يأخذها بدلاً من الجاموس.

واضطر والد العروس أمام إلحاح الولد إلى النزول عند رغبته، وهكذا زفت العروس إلى الولد الأقرع، وخرج بالعروس بدلاً من الجاموس.

تعليق:

تدل الحكاية على حلم الفقير بتحقيق رغباته بصورة غير معقولة، يفرض فيها الفقير الضعيف على الغني القوي ما يريد بقدر بسيط من الحيلة وربما الانتقام.

وهي لا تخلو من تكرار رتيب، ولكنه يقوم على تصاعد درجي، يثير لدى المتلقي حسّ المتابعة، ويفجؤه دائماً، على الرغم من التوقع، بما هو غير متوقع.

وهي مبنية على أساس منطقي، قوامه متوالية هندسية، تتضاعف فيها الأشياء، كما تتضاعف الأعداد، وإن كان أسلوب التحقق ليس منطقياً، ومن هنا تظهر المفارقة الجميلة.

وشخصية الولد اليتيم الأقرع كثيراً ما تظهر في الحكايات الشعبية، وغالباً ما يتزوج في النهاية من أميرة أو جميلة.

وكأن هذه الشخصية تؤكد في الحلم وصول غير الكفء إلى ما لايمكن أن يصل إليه الأكفاء أنفسهم ثأراً من الواقع الذي لا يحقق شيئاً من العدل.

❑❖❑

أرزة وقنبر

يحكى أن أحد الملوك ضاق صدره ذات ليلة، فأيقظ وزيره، وهو أخوه، وخرجا معاً متنكرين، طلباً للنزهة، والتفريج عن النفس.

وبينما هما في إحدى الرياض، مرّ بهما شيخ عجوز، فقال لهما: "السلام على الملك والوزير"، فدهش الملك والوزير، كيف عرفهما وهما متنكران، ثم سألهما إن كانا قد رزقا بالأولاد، فأجابا أن لم يرزقا بعد، فأعطى كلّاً منهما تفاحة، وطلب أن يأكلها كل منهما مع زوجته، ثم أخبر الملك أنه سيرزق ببنت، وأخبر الوزير أن سيرزق بولد، وأن هذا الولد سيتزوج تلك البنت.

ورجع الملك والوزير إلى القصر، وقد وضع كل منهما تفاحته في زنّاره، ولما دخل الملك على زوجته، وفكّ الزنار، وقعت التفاحة فدهشت زوجته، وقالت له: "ليس من عادتك أن تأتي بتفاحة واحدة؟".

فأخبرها بأمر الشيخ العجوز ونبوءته، ثم اقتسما

التفاحة، وناما معاً، وفي تلك الليلة حملت زوجة الملك.

كذلك كان شأن الوزير وزوجته.

ومرت الأيام، تلتها الشهور، وإذا زوجة الملك قد وضعت بنتاً أسمتها "أرزة"، وإذا زوجة الوزير قد وضعت ولداً أسمته "قنبر".

وشاءت الأقدار أن يموت بعد عام أو بضع عام الوزير، وما هي إلا بضعة أعوام أخرى حتى ماتت زوجته، وهكذا أصبح "قنبر" يتيماً، فكفله عمه الملك، وطلب من زوجته أن تعنى به، ولكن ما كان لها أن تحبه وهي التي عرفت من نبوءة الشيخ العجوز أنه سيتزوج ابنتها.

وهكذا حرّضت الملك على ابن أخيه، وقد أصبح شاباً، فأعطاه بضع غنمات، وطلب منه أن يرعاها، حتى يبعده عن القصر.

وذات يوم خرجت "أرزة"، مع جواريها في نزهة، فقصدت إلى التل حيث ابن عمها، ففرح كثيراً، ثم ذبح خروفاً تركه للجواري ينشغلن به، ثم مضى مع ابنة عمه إلى العين، وهناك مرحا كثيراً ونعما بالماء والخضرة، إلى أن حان وقت العودة، فودعته باكية، ورجعت إلى الجواري.

وبينما هي في بعض الطريق ذكرت سوارها، فطلبت من الجواري أن ينتظرنها، ريثما ترجع لتحضره، وعرضن عليها أن تذهب إحداهن بدلاً منها، ولكنها أبت إلا أن

تحضره بنفسها.

ورجعت إلى حيث العين، فوجدت ابن عمها طريحاً على جانب العين، فأقبلت عليه تسأله عن سوارها إن كان قد وجده، فردّه إليها في الحال، ثم همّت بالعودة، فرجاها أن تداوي جروحه قبل أن تمضي، فما كان منها إلا أن جرحت إصبعها، ثم أكدت له أن جرحه سيطيب إذا ما ذكر جرحها، ثم ودعته ومضت.

ولما دخلت القصر، رأت أمها نقطة دم على ثوبها، كانت قد سقطت من الجرح الذي أحدثته في إصبعها، فشكّت أمها في الأمر، وسألتها إن كانت قد التقت ابن عمها، فلم تنف البنت ذلك، بل أكدت لقاءها به، وحبّها له.

ولما كان المساء، روت الملكة لزوجها ماكان من نزهة ابنتها ولقائها بابن عمها، ثم اقترحت أن ينفيه إلى أقاصي البلاد.

وفي بلدة نائية افتتح "قنبر" حماماً، وقد جعل أجرة الاستحمام فيها حكاية لعله يتسلّى، ولعل خبراً يأتيه من "أرزة".

وكانت "أرزة" تقعد في شرفة القصر، تنظر القادمين والرائحين، لعل أحداً يأتيها بخبر من "قنبر".

وذات يوم مرّ بها ركب من المسافرين، فقالت لهم: "بالله عليكم، إذا رأيتم ابن عمي قنبر، فبلغوه عني السلام".

وشاءت الأقدار أن يصل ذلك الركب المسافر إلى ديار "قنبر"، فدخلوا الحمام، وحدثوه حديث "أرزة"، ففاضت منه الدموع، وترك لهم الحمام، وشدّ الرحال إلى "أرزة".

ووصل "قنبر" إلى قصر عمه في الليل.

وكانت "أرزة" نائمة، ولكن طائر الغرام رف بجناحيه فوق رأسها، فنهضت وهي تنادي "قنبر، قنبر".

وسمع "قنبر" النداء، فأجابها "أنا هنا يا أرزة"، وأطلت عليه من الشرفة، ثم دلّت شعرها الطويل إليه، فتعلق به، فرفعته إليها، وظلاّ ساعات يتناجيان ويتسامران، إلى أن غلبهما النعاس، فناما معاً في سرير واحد، وقد وضعا السيف والمصحف بينهما.

وفي الصباح دخل عليها كعادته كل يوم الخادم الخاص بها، وهو يحمل لها الطعام، فرأى "قنبر" في السرير إلى جوارها، ولم ير السيف والمصحف بينهما، وكان هذا الخادم يحبها، وإن كانت هي لا تحبه، فأسرع إلى الملك وأخبره بما رأى، وشاور الملك زوجته في الأمر، فاقترحت عليه رميه في البحر.

وعلمت "أرزة" بعزم أبيها على رمي "قنبر" في البحر، فطلبت من النجار أن يصنع لها صندوقاً بطول "قنبر"، ثم ملأته بالطعام، وأمر الملك الخدم، فوضعوا "قنبر" في الصندوق، وأغلقوه بالمسامير، ثم ألقوه في البحر.

وأخذت "أرزة" تخرج كل يوم مع أربعين جارية من جواريها إلى البحر، والخادم يعدّهن في الذهاب والإياب، وكانت "أرزة" تقعد على شاطئ البحر، تنتظر عودة "قنبر" إليها.

وشاءت الأقدار أن ترمي الأمواج بالصندوق على شاطئ بلاد الفرنج، وكانت بنت ملك تلك البلاد تلهو مع صديقاتها، فرأت الصندوق، فأسرعت إليه، ولما رأت "قنبر" فيه، فتنت به، ودعته إلى نفسها، ولكن "قنبر" قال لها: "لي بنت عم، لا أبغي عنها بدلاً"، فغضبت منه بنت ملك تلك البلاد، وأمرت الخدم، بإعادته إلى الصندوق، وإغلاقه عليه ثم رميه في البحر.

وكانت "أرزة" ما تزال على عادتها، تخرج إلى البحر كل يوم مع جواريها الأربعين، والخادم الذي يحبها يعدّهن في الذهاب والإياب، وكانت "أرزة" تأخذ كل يوم معها ثوباً نسائياً، على أمل أن تلقى "قنبر" فتلبسه ذلك الثوب، وتدخله مع الجاريات، فلا يشعر به الخادم، وذات يوم كان لأرزة ما أرادت، فقد رمى البحر بالصندوق، فأسرعت إليه، ثم بادرت إلى إلباس "قنبر" ثوب فتاة، ثم اختلط بالجاريات، ودخل معهن القصر.

وسعدت "أرزة" بلقاء ابن عمها، وأمضيا الليل يتناجيان ويتسامران، حتى غلبهما النعاس، فناما معاً في سرير واحد، وقد وضعا بينهما السيف والمصحف.

وفي الصباح دخل الخادم كعادته، ليقدم لها طعام الفطور، فرأى "قنبر"، فأسرع إلى الملك يخبره، فأمر أن يقول لقنبر: "الملك يدعوك للمثول بين يديه، أمام الوزراء والقضاة، فإذا ذكرت أرزة فسوف يقطع رأسك، وإذا لم تذكرها عفا عنك".

ورجع الخادم ليقول لقنبر خلاف ذلك، ففرح قنبر، كما فرحت أرزة، وظنّا معاً أن الملك قد عفا عنهما، وأنه سيتزوج أحدهما الآخر.

ونزل قنبر إلى الديوان، حيث الملك مع الوزراء والقضاة، ونزلت في إثره أرزة، ولكنها لم تدخل، إنما اختبأت في نافذة عالية تطل على الديوان، وتقدم "قنبر" من الملك، فألقى السلام عليه، ثم قال: "يا عمي، أنت عندك جرة سمن، وأنا عندي جرة عسل، وأنت بعينيك شايفني، وأنا بنت عمي في النافذة شايفها"، ثم أشار إلى "أرزة"، وكانت تطل من النافذة.

فغضب الملك، وأمر الجلاد بقطع رأسه، فهوى الجلاد عليه بالسيف، فتدحرج رأسه بين قدميه.

فذهلت أرزة مما رأت، ثم قالت:

"يا أبي، والله ابن عمي ما مسنّي، ولا أنا مسيّته، فلم قطعت رأسه، وعلى الأرض رميته؟ "ثم رمت نفسها، فوقعت على الأرض إلى جانب ابن عمها، تريد لنفسها الهلاك،

ولكن شاءت الأقدار ألا تصاب بشيء، سوى بعض الرضوض البسيطة، وقد أمر الملك بحملها إلى الداخل والعناية بها.

ثم أخذت "أرزة" تزور قبر ابن عمها "قنبر" كل يوم، فكانت تخرج مع أربعين جارية من جواريها، وترجع معهن، وكان الخادم يفتشها كل يوم في الذهاب والإياب.

وذات يوم حملت سكيناً حادة، أخفتها في نعل حذائها، ثم خرجت مع الجواري الأربعين إلى قبر "قنبر"، وقعدت هناك، وبكت ماشاء لها البكاء، ثم قفلت راجعة، وفي الطريق ادعت أنها نسيت سوارها، ثم تركت الجواري، ورجعت إلى القبر.

وطال انتظار الجواري عودة "أرزة"، ولما رجعن إليها، رأينها ميتة إلى جوار قبر ابن عمها، وثمة سكين مغروسة في صدرها، فعرفن أنها قتلت نفسها.

ورجعن إلى القصر فأخبرن الملك، فندم على ما فرط من أمر ابنته وابن أخيه، فأمر أن تدفن في قبر إلى جانب قبر ابن عمها.

وخرج الخادم ذات يوم إلى المقبرة، ولما رأى القبرين متجاورين ثارت في نفسه الغيرة، وهو الذي كان يحب "أرزة"، فحفر لنفسه حفرة بين القبرين، ونزل فيها، وهو يقول: "سأفرق بينكما ميتين، مثلما فرقت بينكما وأنتما على

قيد الحياة".

ثم أهال على نفسه التراب، حتى بلغ كتفيه، وظل رأسه وحده ظاهراً، ولما حلّ الليل، جاءت الوحوش فمزقت رأسه ونهشته.

وفي الصباح مرّ ركب من المسافرين، فرأوا قبر أرزة وقنبر، وقد نبتت فوق هذا القبر زهرة جميلة، وفوق ذلك القبر زهرة أجمل، وكانت بينهما شوكة طالعة، حتى إذا ماهب النسيم تمايلت الزهرتان، وكادت إحداهما تلمس الأخرى، ولكن سرعان ما تفرق بينما الشوكة.

تعليق:

حكاية جميلة من حكايات الحب العذري، تؤكد عقلية التحريم التي تمنع زواج المتحابين.

وهي تدلّ على صلف الحكام وجبروتهم، إذ يتحدون القضاء، ويريدون تسيير الأمور وفق أهوائهم.

وما الخادم الذي فرّق بين المتحابين في الحياة والممات إلا واحدٌ من أعوان الملك لتصريف أموره.

ولكن صلف الحاكم ينقلب عليه، إذ يدفع في النهاية الثمن باهظاً، ويندم حيث لا ينفع الندم.

ومما لاشك فيه أن ثمة سبباً وراء صلف الملك وعدم رغبته في تزويج ابنته من ابن أخيه، وليس ذلك السبب هو زوجته، كما هو في الظاهر، إنما هو في الحقيقة رغبته في ولد ذكر ينتقل إليه الملك من بعده، وعدم رغبته في انتقال الملك إلى ابن أخيه.

ومثل هذه الدلالات الخفية الكامنة في الأعماق يجب

ألا تغيب وراء دلالة ظاهرة مباشرة، وهي التفريق بين المتحابين، لأن هذه هي في الحقيقة نتيجة لتلك الدلالات، وليست سبباً فيها، وليست هذه الدلالة وحدها هي الغاية الوحيدة التي كانت من أجلها تلك الحكاية، ولذلك لابد من الغوص على تلك الدلالات.

وفي الحكاية رموز جميلة، ظهرت في شكل فني، منها التفاحة والإزار ونسيان السوار ومد الفتاة شعرها لعاشقها ووضع السيف والمصحف بين المتحابين لدى النوم والطعن بالسكين ثم نمو زهرتين على القبرين تفرق بينهم شوكة.

وهذه الرموز هي عناصر حكائية، وقد ظهرت إلى جانبها عناصر أخرى منها أرق الملك وتنكره هو والوزير، ووضع قنبر في صندوق ورميه في البحر، وهي جميعاً عناصر حكائية قديمة، ظهرت في حكايات كثيرة.

والحكاية عربية في مناخها وتركيبها وطبيعتها، وقد تشبه حكايات أخرى، عربية أو غير عربية، ولكنها تظل حكاية منفردة، ويمكن أن تعدّ نسيج وحدها.

وجاء في القاموس المحيط: القنبير كزنبيل بكسر الزاي، نبات، وقنبر كجعفر: اسم. والأرز والأرزة، شجر الصنوبر.

❑❖❑

الملك وابن أخيه

يحكى أنه كان لأحد الملوك أخ فقير، يعمل حطاباً، وكان لا يسأل عنه، ولا يُعنى به، وكأنه ليس بأخيه.

ثم توفي هذا الأخ، ولم يخلف سوى ولد وحيد، سهرت أمه على تربيته، وعنيت به ، ولما شبّ سأل أمه عن عمل أبيه، فأخبرته أن والده كان حطاباً، ولم يخلف له سوى فأس صدئة، فأخذ الولد تلك الفأس، ومضى بها إلى الغابة، ثم دنا من شجرة كبيرة، وأخذ يضرب في جذعها، وإذا الجذاذات التي تطير منها تتحول إلى ذهب، وجرب ذلك في جذع شجرة أخرى، فإذا الأمر يتكرر، فالتقط غصناً مرمياً على الأرض، وأخذ يجرّب فيه الفأس، فإذا بالجذاذات المتطايرة منه تتحول إلى ذهب، فأدرك أن السرّ في الفأس فحملها ورجع إلى أمه، وقبل أن تسأله عن سبب عودته من غير أن يحمل شيئاً من الحطب، أخبرها أنه يريد الزواج من ابنة عمه الملك، وكان للملك ابنة وحيدة فائقة الحسن والجمال، ردّ والدها كثيراً من الفرسان والأمراء ممن تقدموا إلى خطبتها، فأكدت له أمه أن الملك لن يزوجه منها، بل

سينقم عليه وربما أمر بقتله، لأنه من قبل كان يكره أباه، ولكن الفتى أبى إلا أن يسعى إلى الزواج من ابنة عمه.

ومضى الفتى إلى القصر، وطلب الإذن في الدخول على الملك، ولما صار بين يديه، والوزراء والقضاة من حوله، ألقى السلام، ثم أعلن صراحة ومن غير مقدمات عن رغبته في الزواج من ابنة عمه، فغضب الملك، وأمر الجلاد بقطع رأسه، ولكن أحد الوزراء توسّل إليه أن يتريث، ثم اقترح أن يطلب منه مطلباً صعباً، إذا حققه تزوجها، وإذا لم يحققه قطع رأسه.

وارتاح الملك للرأي، فطلب من ابن أخيه أن يملأ إحدى غرف القصر بالذهب، فسرّ الفتى بالطلب، ومضى إلى إحدى الغرف، فأخرج فأسه، وأخرج قطعة خشب، وأخذ ينجر فيها، وإذا جذاذات الذهب تتطاير وتتطاير، حتى ملأت الغرفة، وعندئذ اضطر الملك إلى تزويج ابنته من ابن أخيه، ولكنه أحسّ أن في الأمر سراً ما، ولذلك أوصى ابنته أن تعرف السرّ، وترجع إليه، من غير أن تمكن ابن عمها من نفسها.

وفي ليلة الزفاف قدمت ابنة الملك إلى ابن عمها أطايب الطعام والشراب، وأخذت تحدّثه وتسامره وتؤانسه، فاطمأن إليها وارتاح، ثم أحست فيه لحظة ضعف، فسألته عن مصدر الذهب، فحدثها عن الفأس، فقدمت إليه كأس شراب فيه منوم، ولما غلبه النعاس، حملت الفأس، ورجعت

إلى أبيها الملك، تحت جنح الظلام.

وفي الصباح استيقظ الفتى فلم يجد العروس ولا الفأس، فعرف أنها خدعته، فعزم أن ينتقم لنفسه، وازداد إصراراً على الزواج من ابنة عمه، وأسرع إلى أمه يسألها إن كان أبوه قد ترك له شيئاً آخر غير الفأس، فدلته على صندوق فيه كل حاجات أبيه، فبحث فيه فعثر على ناي، ولمّا سأل أمه عنه، أجابته بأن والده كان يتسلى به في بعض الأوقات، فأخذ الناي، وأخذ ينفخ فيه، وإذا صحون ملأى بأطايب الطعام تمتد في أرض الغرفة.

وأسرع الفتى في الحال إلى عمه، فدخل عليه وألقى السلام، ثم أعلن رغبته في الزواج من ابنة عمه، همّ الملك أن يأمر الجلاد بقطع رأسه، ولكنه ذكر اقتراح الوزير، فطلب من ابن أخيه أن يطعم الوزراء والقضاة والقادة والجند والحرس، لكي يزوجه ابنته، وإلا قطع رأسه.

ومضى الفتى في الحال إلى المطبخ، وأخذ ينفخ في الناي، والخدام ينقلون الصحون مملوءة بأطيب الطعام، حتى أكل كل أولئك، وغيرهم كثير، وعندئذ اضطر الملك إلى تزويج ابنته من ابن أخيه، ولكنه أوصاها بمثل ما أوصاها به أول مرة.

وتمكنت ابنة الملك من التأثير في ابن عمها، وساقته إلى الاعتراف بمصدر ذلك الطعام، ثم سقته شراباً فيه

منوم، فنام، فحملت الناي، وخرجت به عائدة إلى أبيها، وفي الصباح استيقظ الفتى، فلم يجد العروس ولا الناي، فعرف أنه خدع مرة ثانية.

ورجع إلى صندوق أبيه، يبحث فيه، فلم يجد سوى طاقية عتيقة، فكاد يمزقها، ولكنها وضعها على رأسه، وأسرع إلى أمه يرجوها أن تجهز له الطعام، فقد غلبه الجوع، ولكنها دهشت لأنها لم تكن تراه، وأخذت تسأله أين يكون، فدهش هو أيضاً، وبصورة عفوية رفع الطاقية عن رأسه، فإذا هو بجانب أمه، وعندئذ عرف أن هذه طاقية الإخفاء. وأسرع الفتى إلى الملك يخطب ابنته، وللمرة الثالثة حصل على ما حصل في المرتين الأوليين، وتمكنت ابنة الملك من اختطاف قبعة الإخفاء والعودة بها إلى أبيها. وعندئذ ضاقت الدنيا بالفتى، فقرر ترك البلاد، والارتحال في أرض الله الواسعة، لأنه لا يطيق العيش في بلد فيها الملك وابنة عمه، وأخذ يقطع الفيافي والقفار، وبينما هو كذلك غلبه الجوع، ولمح خيمة بعيدة، فقصدها، فوجد فيها عجوزاً، وعندها بضع غنمات، فرجاها أن يعمل عندها راعياً، فسرت لذلك، وأخذ يسرح كل يوم بالغنمات.

وذات يوم، وبينما هو في الحقل يرعى الغنمات، مرت به أفعى بيضاء، ولما صارت أمامه، انتفضت، وإذا هي صبية حسناء، رجته أن يخبئها من ابن عمها الذي يسعى في إثرها للزواج منها، وهي لا تريده، فذعر، وتملكه

الخوف، وسألها، كيف يمكنه أن يخبئها، فإذا هي تنتفض، وترجع أفعى، فأخفاها تحت طيات ثيابه، وما هي إلا هنيهة، حتى مرّ به ثعبان أسود، وقف أمامه، ثم انتفض، وإذا هو عبد أسود، سأله إن كان قد رأى ابنة عمه، فأشار إلى جبل شاهق، وأخبره أنها ذهبت وراء ذلك الجبل، فانتفض العبد الأسود، ورجع ثعباناً، واتخذ طريقه نحو الجبل، ولما ابتعد، أخرج الأفعى، فشكرته، وسألته ما يريد، فأكد لها أنه قد قام بواجبه، ولا يطلب منها شيئاً، وعندئذ قالت له: "سيتحقق لك كل ما تتمناه، وإذا قلت لأحد الصق بمكانك فسوف يلصق به"، ثم تركته وابتعدت.

وأسرع الفتى إلى العجوز، فردّ إليها الغنمات، ثم رجع إلى بلاده، وقصد على الفور قصر عمه الملك، ولما دخل عليه، أمر الملك الحراس على الفور بالقبض عليه، ولكن الفتى قال لهم: "الصقوا في أماكنكم، فلصقوا، فطلب الملك من الجلاد أن يقطع رأسه، فقال له الفتى مثل ما قال للحراس، فلصق في مكانه، ثم قال للملك: "كما ترى، أنا قادر على لصق الوزراء والقضاة كلهم في أماكنهم، ولذلك فمن الأفضل أن تردّ علي الفأس والناي والطاقية، وأن تزوجني ابنتك؟

وتدخل الوزراء والقضاة، وأكدو للملك ضرورة تزويج ابنته من ابن أخيه، وعندئذ أدرك الملك أن ابنته هي من نصيب ابن أخيه، وأن العرش لا بد سيصير من بعده إليه،

فوافق.

وهكذا أقيمت الأفراح، وأعلن في المملكة سبعة أيام وثماني ليالي لا أحد يأكل ولا أحد يشرب إلا من قصر الملك، وتزوج الفتى الفقير من ابنة عمه الملك، وعاشا معاً في سعادة وسرور.

تعليق:

تؤكد هذه الحكاية كغيرها من الحكايات الكثيرة حلم الفقير بالزواج من بنت الملك والوصول إلى عرش الحكم، كما تؤكد عداء الملك دائماً لابن أخيه، الذي سيتزوج ابنته ويرث من بعده الحكم، وهو عداء يدل على رغبة الرجل دائماً، ولا سيما الملك، في أن يكون له ولد ذكر يرثه.

وتظهر في الحكاية بنية شائعة في الحكايات وهي البنية الثلاثية، إذ لا بد من أن يمر البطل بثلاث عقبات قبل أن يصل إلى مبتغاه.

وعنصر الأفعى يطاردها ثعبان فيخبئها ولد فقير تمنحه بعد ذلك ما يريد هو عنصر متكرر في غير حكاية، من ذلك مثلاً "الخمخوم" و"الولد الأقرع".

ويلاحظ أن انتصار الفتى على الملك لا يتحقق بقواه الخاصة، وإنما بقوى سحرية غريبة، ولا سيما ما تمنحه إياه الأفعى مما يدل على الإحساس لدى الفقير باستحالة وصوله إلى ابنه الملك وعرشه ما لم تساعده قوى سحرية، مما يؤكد أن ذلك الوصول محض حلم، لا يتحقق.

وكذلك يلاحظ خضوع البنت لمشيئة أبيها وتنفيذها رغباته، وعدم امتلاكها قرارها الخاص بمصيرها، مما يؤكد سيطرة الملك وظلمه.

❑❖❑

الشحاذ وبنت الملك

كان في قديم الزمان ملك، ولا ملك إلا الله، وكانت له بنت وحيدة، وكان يحبها حباً كبيراً، ويعنى بها، ويحضر لها كل ما تطلب، وكان يسألها: "هل هناك من هو أكرم مني؟، فتجيبه: نعم، هناك من هو أكرم منك، وكان كلما أعاد السؤال، أعادت عليه الجواب نفسه، حتى إنه ضجر منها، وأقسم أن يزوجها من شحّاذ.

وذات يوم تقدم إليه شحاذ يرجوه المساعدة، فسأله إن كان متزوجاً فأجاب أن "لا" فأقسم عليه أن يتزوج ابنته، فدهش الشحاذ، وحاول الاعتذار، ولكن لم يكن ثمة مفرّ.

وهكذا حملت بنت الملك صرّة ثيابها، ومضت مع زوجها الشحاذ، مغادرة قصر أبيها، من غير زفاف، ولا احتفال ولا أفراح.

ولم يكن لدى ذلك الشحاذ سوى كوخ صغير، آواها فيه، وفي صباح اليوم التالي أعطته خاتماً كان في إصبعها، وطلبت منه أن يبيعه ويستأجر بثمنه داراً صغيرة،

وتم انتقالهما إلى تلك الدار.

وفي صباح يوم آخر أعطته أحد أثوابها، وطلبت منه أن يبيعه ليشتري بثمنه بعض الطعام، فباعه، وبينما هو في الطريق، سمع رجلاً ينادي: "الكلمة بليرة، فمن يشتري؟ فدهش الشحاذ، ودفع إلى الرجل الليرة التي كان قد قبضها ثمن الثوب، فقال له الرجل: "حب حبيبك ولو كان عبداً أسود".

ورجع إلى زوجته، واعتذر إليها، مدعياً أنه أضاع ثمن الثوب، وفي صباح اليوم التالي أعطته ثوباً آخر، ونزل إلى السوق فباعه، وبينما هو يبحث عن الطعام، سمع الرجل نفسه ينادي: "الكلمة بليرة، فأسرع إليه، ودفع له ثمن الثوب، فقال له الرجل: "من أمّنك فلا تخنه، ولو كنت أكبر خائن"، ورجع الشحاذ إلى زوجته، واعتذر إليها مختلقاً بعض الحجج.

وفي اليوم الثالث، أعطته ثوباً وقالت له: هذا آخر ثوب عندي، بعه ولا تفرط بثمنه"، ومضى إلى السوق، فباعه، ومرة ثالثة التقى الرجل نفسه، ودفع له ثمن الثوب، فقال له الرجل، "ساعة السرور لا تفوتها"، ورجع الشحاذ إلى زوجته معتذراً، فقالت ليس عندي ما أعطيك إياه، وما عليك سوى أن تبحث عن عمل.

وفي اليوم التالي نزل إلى السوق، ووقف على

الرصيف حيث يقف العمال، ينتظرون من يأتي فيأخذهم ليعملوا، في الحقل أو البناء أو الرعاية أو السقاية.. وانتصف النهار وجاء أصحاب الأعمال وأخذوا العمال كلهم، ولم يبق أحد سواه، وكاد يرجع إلى البيت خائباً، ولكن رجلاً أتاه ليسأله: "هل تعمل في سقاية الحمير؟، فأجابه: أعمل، وعندئذ أخذه إلى حقل حيث كانت هناك حمير كثيرة تحمل حجارة يقطعها الرجال من الجبل، وكان على الشحاذ أن يقودها إلى مغارة بعيدة، يتدفق منها الماء، فساقها تحت الشمس الحارقة، حتى وصل إلى المغارة، وهناك تركها تشرب ما شاء لها الشرب، وتبترد، على حين دخل هو المغارة، ليستريح في الظل.

وبينما هو في المغارة إذ برز له مارد جبار، ومعه فتاتان، إحداهما شقراء، والأخرى سمراء، فسأله المارد: "أجبني أيها الرجل، أي الفتاتين أجمل؟ السمراء أم الشقراء؟، وتذكر الشحاذ الكلمة التي كان قد اشتراها في اليوم الأول: فأجاب: "أحبب حبيبك، ولو كان عبداً أسود"، فسرّ المارد لجوابه سروراً كبيراً، ثم قال: "أحسنت أيها الرجل ولو كنت قلت الشقراء، لقطعت رأسك،" ثم ما كان من المارد إلا أن أعطاه كيساً مملوءاً بالنقود الذهبية.

وخرج الشحاذ من المغارة، وأخذ يقود الحمير إلى صاحبها، ثم تركها عنده، ومضى، لا يريد أجرته، ثم أسرع إلى زوجته، وأعطاها الكيس المملوء بالنقود الذهبية.

وفي اليوم التالي نزل الشحاذ إلى السوق، ووقف حيث وقف بالأمس، وقدم أصحاب الأعمال، وأخذوا العمال كلهم، ولم يبق أحد سواه، وهم بالانصراف خائباً، ولكن رجلاً أسرع إليه يسأله إن كان يرغب في العمل عنده مراقباً على العمال، ففرح بذلك، ومضى معه.

وأخذ الشحاذ يراقب العمال في الحقل، ويتابعهم، وقد سرّه هذا العمل، واستمر فيه، وكان في نهاية الأسبوع يقبض من صاحب العمل أجرة العمال ويوزعها عليهم، ولكنه كان يضطر في أغلب الأيام إلى البقاء في بيت الرجل صاحب العمل، لينهض في الصباح الباكر، ويشرف على العمال، وقد اطمأن إليه صاحب العمل، وجعله مثل ابنه، وأخذت زوجة الرجل تعنى به وتقدم له الطعام وكان يناديها دائماً "يا أختي".

وذات يوم أخبره رب العمل أنه مضطر إلى السفر لبضعة أيام، ثم كلفه برعاية العمال، وفوّضه في الأمر كله، وأوصى زوجته به، كما أوصاه أن يحضر لها كل ما تطلبه من حاجات السوق، وتمنى عليه أن ينام طوال غيابه في بيته، حتى يظل قريباً من العمل.

ومرت الأيام والشحاذ في بيت الرجل، يقوم بواجبه خير قيام، يراقب العمال، ويشرف على العمل، ويحضر لزوجة الرجل كل ما تطلب من حاجات، ثم يأوي مساء إلى غرفة صغيرة لينام فيها متعباً من عناء النهار وكدّه.

وذات ليلة وبينما هو نائم أحس دبيب حركة، فتوقع أن يكون وحشاً أو لصاً، ولكنه فوجئ بزوجة الرجل تدخل عليه تدعوه إلى نفسها، فذهل، وتذكر الكلمة التي اشتراها في اليوم الثاني: "من أمنك لا تخونه، ولو كنت أكبر خائن"، فاعتذر إليها، ثم أخذ يمضي النهار في الحقل مع العمال، ويرجع مساء إلى بيته لينام فيه.

ورجع الرجل من السفر ليلاً، فلم يجد الشحاذ في البيت، وسأل زوجته عنه، فاتهمته بالخيانة، والسرقة، وأكدت له أنه قد راودها عن نفسها، فغضب أشد الغضب، ولما كان الفجر، خرج إلى الحقل، فوجد الشحاذ وهو يراقب العمال، ويشرف على العمل، فناداه، فأقبل الشحاذ على الرجل مسلماً عليه، وبادر إلى عناقه، فعانقه الرجل، ولم يظهر شيئاً مما في نفسه، ثم إنه سلّمه رسالة مغلقة، وطلب منه أن يوصلها إلى صديق له، صاحب معمل صابون، وأن يبلغه السلام، ثم أكد له أنه سيعد هذا اليوم يوم عطلة ووعده أن يعطيه في الغد أجرته، مع مكافأة مجزية.

وفرح الشحاذ بذلك، ومضى عائداً إلى بيته وزوجته، وبينما هو في الطريق مرّ بقرية، فسمع فيها صوت طبول وأفراح، فتذكر الكلمة الثالثة التي كان قد اشتراها، وهي: ساعة السرور لا تفوتها"، فمال نحو مصدر الصوت، فرأى حفل زفاف، فانضم إلى أهل الحفل، وشاركهم فرحتهم، ثم نصبت حلقة الدبكة، فأخذ السرور منه كل مأخذ فشارك

القوم رقصتهم بل قدم أشكالاً من الرقص أثارت دهشة الجميع، ولا سيما والد العروس.

ثم نصبت الموائد ودعي الشحاذ مع المدعويين، فلم يتردد، ولما فرغ من الطعام، تقدم من والد العروس، يعتذر إليه، ويرجوه أن يسمح له بالانصراف، ولكن والد العروس أقسم عليه أغلظ الأيمان كي يمضي ليلة عندهم، فأخبره أنه يحمل رسالة ولا بد من إيصالها إلى صاحبها، فوعده أن يرسلها مع أحد رجاله، وفي الحال، نادى رجلاً، وأعطاه الرسالة، وطلب منه إيصالها إلى صاحبها.

وأمضى الشحاذ ليلته مع الضيوف، وهو يلقى من الترحيب ما لم يتوقعه، وفي الصباح رجع إلى الرجل صاحب العمل، لما أقبل عليه، وهو في الحقل مع العمال، دهش الرجل لرؤيته، وبادر إلى سؤاله: "هل وصلت الرسالة إلى صاحبها؟ "فحدثه الشحاذ عما كان من أمر القرية والعرس، فندم الرجل على ما بدر منه، ثم اعترف للشحاذ بأنه كان قد زوده برسالة يطلب فيها من صديقه صاحب معمل الصابون أن يلقي بحامل الرسالة في حوض الزيت المغلي ليموت فيه ولا يبقى له أثر، ثم تأكد لديه براءة الشحاذ، وسوء نية زوجته، ولذلك اعتذر إليه، وقدم له كيساً مملوءاً بالليرات الذهبية، ولكن الشحاذ أبى أن يأخذه إلا أن الرجل ألح عليه.

ورجع الشحاذ إلى زوجته بعد تلك الغيبة الطويلة،

يحمل الكيس المملوء بالذهب، فاقترحت عليه أن يشتري محلاً في سوق التجار، ويقعد فيه للتجارة.

وعمل الشحاذ في التجارة، فوفّق في عمله، وربح المال الكثير، وأصبح من كبار التجار، وعندئذ اقترحت عليه زوجته أن يبني قصراً مقابل قصر أبيها الملك، وكان لها ما أرادت.

وذات يوم سأل الملك عن صاحب القصر فذكروا له كبير التجار، فرغب في التعرف إليه، وزار الشحاذ الملك في قصره، ولقي منه الحفاوة والترحيب، وبادر الشحاذ إلى دعوة الملك إلى زيارته، فوعده بذلك.

وفي الموعد المنتظر كانت ابنة الملك، زوجة الشحاذ، قد أعدت لوالدها أطايب الطعام، وجهزت مائدة يشتهيها النظر، كما أعدت له صحن حساء خاص به، تعرف ميله إليه.

ولما حضر الملك أدهشه جمال القصر كما أدهشه حسن ترتيب المائدة، ولما قدمت له ابنته صحن الحساء ذهل، وقال لها: "هذا الصحن من الحساء كانت تعدّه لي ابنتي"، وأرسل زفرة حزن، ثم تذوقه فازداد دهشة، وقال: "الله لكأن ابنتي هي التي أعدته، وعندئذٍ قالت له ابنته "صدقت يا أبي، فابنتك هي التي أعدته لك"، ثم إنها عرفته إلى نفسها، وإلى حقيقة زوجها الذي كان شحاذاً، ثم قدمت له

ولدين كانت قد رزقت بهما.

فسرّ الملك سروراً كبيراً للقائه بابنته، ولما صار إليه حالها من رزق وخير، ثم مال عليها يسألها: "هل في المملكة من هو أكرم مني يا ابنتي؟!"، فأجابته: "نعم، يا أبي"، ونظر إليها مدهوشاً ثم سألها: "ما زلت مصرّة على قولك، إذن أخبريني من هو؟، فأجابته: "هو الله".

فأقر الملك عندئذ بالحقيقة، واعتذر إلى ابنته، ورجاها أن تسامحه على ما نالها من ألم وعذاب، ثم ودّعها ورجع إلى قصره، وتركها مع زوجها ليعيشا معاً في سعادة وسرور.

تعليق:

تؤكد الحكاية وجود قوة أعظم من القوى الأخرى، تحيط بها، وتشملها، وهي قوة الله عز وجل، الذي هو أكرم من الوالد على ولده.

وهي تدل على غرور الملوك وصلفهم، وحبهم للتملق، وعدم رغبتهم في سماع كلمة الحق، حتى لو كانت صادرة من أقرب الناس إليهم.

كما تدل على شعور الفقير ببؤسه وشقائه، وتعبر عن حلمه بالخلاص من هذا الشقاء، تارة بذكائه، وتارة بقوة خفية من قوى الجن والسحر.

وهي تدل أيضاً على إعلاء قيمة الكلمة، بوصفها حاملة لقيمة ومبدأ وملخصة لخبرة وتجربة، كما تؤكد أن الكلمة هي الأبقى، وبها يكون الخلاص.

وتؤكد الحكاية قيم الأمانة والوفاء والإخلاص، وتدين الخيانة والغدر، وفي الحكاية عناصر حكائية شائعة في

كثير من الحكايات، منها تنكر الأب لابنته، ومعاناة هذه البنت، ثم تعرفه إليها بوساطة طعام خاص تعدّه.

وتلاحظ البنية الثلاثية في الحكاية بشكل واضح، فلا بد للبطل من أن يمرّ بثلاث حالات من الشقاء، والامتحان، ليحقق بعد ذلك خلاصه، وهذه أيضاً من العناصر الحكائية الشائعة.

والحكاية تشبه إلى حد كبير حكاية: "بنت الملك" والأخوات الثلاث، كما تشبه مسرحية الملك لير" لوليم شكسبير بعض الشبه.

❑❖❑

الفقير والبئر

كان في قديم الزمان أخوان اثنان، أحدهما غني والآخر فقير، وكان لهذا الفقير سبعة أولاد، على حين كان للأخ الغني ولد وحيد، وكانت حياة الفقير مع زوجته وأولاده هانئة سعيدة، على حين كانت حياة الغني مع زوجته وولده الوحيد مملوءة بالكدر والتنغيص.

وذات يوم دعا الغني أخاه الفقير إلى بيته، ليتناول معه طعام الغداء فسمع الفقير زوجة أخيه في المطبخ وهي تقول لزوجها: "أنا طبخت وتعبت، وأخوك جاء ليأكل"، ثم طلبت ألا يدعوه بعد اليوم. وشعر الفقير بالحزن، ولكنه كظم غيظه، من أجل أخيه، وحاول ألا يظهر عليه شيء من علامات القهر، ولما حضرت المائدة تناول بضع لقيمات، ثم شكر لأخيه دعوته، وودعه وخرج.

وفي الطريق عثر الفقير على ليرة، فحملها وفرح بها أشد الفرح، وعزم على أن يشتري لأولاده بعض الطعام، ولكنه عرّج على بئر ليشرب، فسقطت منه الليرة في البئر، فحزن وتألم، ثم قال: "يابير، ردي لي ليرتي"، وسحب الدلو

فإذا فيه صحن، فقال للبئر: "وماذا سأصنع به؟"، فأجابته: "قل للصحن امتلئ، فستجده امتلأ بأطايب الطعام".

وأسرع الفقير إلى أولاده، ثم قال للصحن امتلئ، فامتلأ بأطايب الطعام، فأكل الأولاد جميعاً، وحمدوا الله.

وفي المساء جاءت زوجة الغني إلى بيت الفقير، لتطلب صحناً تسكب فيه الطعام، مدّعية أن جميع الصحون عندها قد امتلأت فأعطتها بنات الفقير ذلك الصحن، وكانت زوجة الغني قد رأت من نافذة بيتها الفقير وهو يقول للصحن امتلئ، ولذلك طمعت فيه.

وفي الصباح سأل الفقير أولاده عن الصحن، فأخبرته إحدى بناته أنها أعطته لزوجة عمها، فمضي الفقير إلى البئر، وقال لها: "ردي لي ليرتي"، ثم سحب الدلو، وإذا فيها منخل، فسأل البئر، وماذا سأصنع بالمنخل؟ فأجابته البئر: كلما هززته سقط منه الدقيق".

ورجع الرجل إلى أولاده بالمنخل، وأخذ يهزّه، والدقيق يسقط منه، حتى ملأ منه ما يكفيه لصنع الخبز لذلك اليوم.

ورأت زوجة الغني من نافذة دارها ذلك، فأسرعت في المساء، إلى بيت الفقير تطلب المنخل، زاعمة أن زوجها اشترى كيس دقيق، وهي مضطرة إلى نخله، فأعطتها إحدى بنات الفقير ذلك المنخل.

وفي الصباح سأل الفقير أولاده عن المنخل، فأخبروه

أن زوجة عمهم قد جاءت في المساء فأخذته، فمضى الفقير إلى البئر، وقال لها: ردي لي ليرتي، ثم سحب الدلو، فرأى فيها دبوساً، فسأل البئر عما سيصنع به، فأجابته: "قل له تحرّك، وعندئذ سيتحرك ويسلي الأولاد".

ورجع الفقير إلى أولاده بالدبوس، ثم قال له تحرّك، فأخذ الدبوس يأتي بحركات جميلة، وأخذ الأولاد يضحكون ويقهقهون، وكانت زوجة الغني في نافذة الدار ترى الأولاد مرحين والدبوس يتحرك أمامهم، فنزلت إليهم في المساء، وطلبت منهم الدبوس لولدها الوحيد كي يتسلى به، فأعطوها إياه، ورجعت زوجة الغني إلى البيت بالدبوس، وما إن قالت له تحرك، حتى قفز ووخز ابنها، فمات في الحال.

فحزنت زوجة الغني على ولدها أشد الحزن، وما كان منها إلا أن ثقبت الصحن وبعجت الغربال وكسرت رأس الدبوس، ثم أعادت تلك الأشياء إلى أولاد الفقير ولامها زوجها وقال لها: "هذا جزاء كرهك لأولاد أخي".

وخرج الفقير يسعى على رزق أولاده، لأن الصحن ما عاد ينفع، ولا الغربال ولا الدبوس، وبينما هو في بعض الطريق، إذ رأى عجوزاً قاعدة على صخرة، وشعرها الأبيض مرسل على كتفيها، فنادته، وطلبت منه أن يفلّي شعرها من القمل، فلبّى النداء، وأخذ يلتقط القمل، فشكرته العجوز، ثم قالت له: "انظر إلى ذلك القصر، اذهب إليه، وقل له: افتح بابك، فيفتح الباب، فادخل واحمل ما شئت

من ذهب، ثم عند خروجك قل له أغلق بابك".

ومضى الفقير إلى القصر، وفعل بما أوصته به العجوز، ورجع إلى أولاده وهو يحمل الذهب فرأته زوجة أخيه، فطلبت من زوجها أن يذهب في الحال ويحضر من الذهب مثلما أحضر أخوه.

وجاء الغني إلى أخيه الفقير، فسأله عن مصدر الذهب، فحدثه عن العجوز، فأسرع الغني، ولما رأى العجوز، سألها إن كانت تطلب شيئاً، فطلبت منه أن يفلّي شعر رأسها، فأخذ يلتقط القمل وهو مشمئز ثم سرعان ما طلب منها أن تكافئه، فدلته على القصر مثلما دلت أخاه.

وأسرع الغني إلى القصر، وقال له افتح بابك، فدخل، ثم التفت، فرأى الباب ما زال مفتوحاً، فقال: "غلق بابك"، فأنغلق الباب، ومضى إلى الداخل، فحمل أحمالاً ثقيلة أكثر مما يقدر، ولما رجع إلى الباب، وهو يجر خطاه الثقيلة، وجده مغلقاً، فقال: "افتح بابك"، ولكن الباب لم ينفتح، وكرّر العبارة عدة مرات، ولكن من غير جدوى، وبحث عن منفذ آخر، فلم يجد، وظل محبوساً داخل القصر، حتى حل الليل، فجاءت الغيلان ساكنة القصر المسحور، فالتهمت الرجل الغني، وألقت عظامه وثيابه إلى الخارج.

وكانت زوجته قد افتقدته، فأسرعت إلى أخيه تسأله، ومضيا معاً للبحث عنه، ولما بلغا القصر، وجدا عظامه

وثيابه ملقاة في الخارج وعندئذ أدركت زوجة الغني أنها هي السبب في كل ما لحق بها من مصائب.

ورجع الفقير إلى زوجته وأولاده ليعيشوا جميعاً في سعادة وسرور.

تعليق:

تؤكد الحكاية طغيان سلطة المال الذي قد يفرّق بين الأخ وأخيه، وهي تربطه بالمرأة، التي تشجع على حوز المال، وتقرنها به، وسواء أكان هذا صحيحاً أم غير صحيح، فهو شائع في الآداب العالمية، وراسخ في الوجدان الإنساني، وتكفي الإشارة ههنا إلى مسرحية ماكبث لوليم شكسبير، وإلى تفسير فرويد الحضارة والتاريخ والإبداع بالدافع الجنسي، والحكاية تكشف معاناة الفقير وبؤسه، إذ لا يرحمه أحد، حتى أخوه، بل إن أقرب الناس إليه يكيدون له، ويضمرون له الشر ويحسدونه على ما قد ينال من بعض الخير.

والحكاية تدلّ على قناعة الفقير وطمع الغني، كما تدل على الجزاء الأوفى الذي يلقاه كل منهما وفق ما يستحق، وإن كان جزاء الغني لا يخلو من قسوة، ولكنها قسوة فنية، وليست حقيقية، وهي تدل على رغبة في لاشعور الفقير بالانتقام من الغني.

وفي الحكاية رموز جميلة، منها البئر التي تمنح الصحن والغربال والدبوس، وهي تدل على حاجات الفقير وأسرته التي لا يكاد يسدّها إلا بئر لا ينفذ عطاؤها، ومنها الغيلان التي تأكل الغني، وهي رمز جشعه وطمعه ونفسيته المفترسة، والقصر المغلق رمز الغنى الذي يأسر الطامع ويحبسه. وعنصر العجوز التي تطلب تفليتها ثم تجزيه بما يستحق عنصر متكرر في كثير من الحكايات.

❑❖❑

ابن الملك

يحكى أن أحد الملوك كان له ولد وحيد يدعى علاء الدين، وقد ماتت زوجته، أم هذا الولد، فاضطر من بعدها إلى الزواج من أختها، كي ترعى ولده وتعنى به، وقد بدأت تعتني به، ولكنها حملت ووضعت ولداً، فأهملت علاء الدين . بل أخذت تكرهه وتكيد له . وذات يوم صنعت رغيفين الأول من القمح ووضعت السمّ فيه، والثاني من شعير، ثم دعت ولدها وابن أختها علاء الدين، وقدمت لعلاء رغيف القمح، وفيه السم، لتظهر له أنها تحبه، وقدمت لولدها رغيف الشعير، وكان لعلاء حصان ذكي، عرف حقيقة الرغيفين، وأخبره بالأمر، ولذلك طلب علاء الدين من خالته بعض الماء، ولما خرجت أعطى ابن خالته رغيف القمح، وأخذ هو رغيف الشعير، والتهم كل منهما رغيفه، ورجعت الخالة، فرأت ولدها قد مات.

وغضبت الخالة أشد الغضب، فأحضرت دبابيس مسمومة، زرعتها في غرفة علاء الدين، حتى إذا جاء مساء داس فوق المسامير، ولكن حصان علاء الدين علم

بالأمر، وأخبره به، فلما رجع إلى القصر مساء، لم يدخل غرفته، وأحست الخالة بذلك، وعرفت أن الحصان هو الذي يفسد عليها خططها.

ولجأت الخالة إلى حيلة أخرى، فصبغت وجهها بالأصفر، واستلقت في الفراش، وادعت المرض، وكانت قد أرسلت خادمتها إلى الطبيب، واتفقت معه على أمرٍ، ولما رآها الملك على هذه الحال، استدعى الطبيب، فأخبره أن شفاءها في دم حصان تشربه، وعلى الفور طلب الملك من ولده علاء الدين أن يذبح حصانه، ويملأ كأساً من دمه، حتى تشفى خالته، فطلب علاء الدين من والده أن يمهله بضع ساعات، لكي يستمتع بركوبه قبل ذبحه، فوافق الملك، فارتدى ثيابه، وتقلد سيفه، وحمل كيساً مملوءاً بالنقود، ثم امتطى حصانه، وغادر القصر، وأخذ يقطع الفيافي والقفار، حتى بلغ مرعى أخضر، وهناك نزل عن ظهر حصانه، وأطلقه، فأعطى الحصان لعلاء الدين ثلاث شعرات من ذيله، وأوصاه أن يحرقها إذا وجد نفسه في مأزق، ثم ودع كل منهما صاحبه، وافترقا.

ومضى الحصان في طريق، ومضى علاء الدين في طريق أخرى، فقابل راعياً، فعرض عليه أن يتبادلا ثيابهما، فوافق الراعي، وهكذا لبس علاء ثياباً مهلهلة بالية ممزقة، وأخذ يمشي على غير هدى، حتى دخل حديقة أشجارها وارفة الظلال، فجلس في ظل شجرة ليستريح، ولم تكن تلك

الحديقة إلا قصر ملك تلك البلاد وكانت ابنته في الشرفة تتأمل الأشجار، فرأت علاء الدين، وهو ما هو عليه من ثياب رثة بالية، فأعجبت به.

وكان لتلك البنت، واسمها ست الحسن، ثلاث أخوات، تزوجت الأولى من ابن الوزير، والثانية من ابن القاضي، والثالثة من ابن كبير التجار، وفي يوم سألها أبوها الملك عن فارس أحلامها؟ فأجابته بأنها ستقف في شرفة القصر، وتدعو شباب المملكة للمرور بها، وسترمي تفاحتها، فمن أصابته فسوف يكون زوجها.

وأعلن الملك عن رغبة ابنته في البلاد، فوقفت في شرفة القصر، وأخذ الشباب بالمرور أمامها، من قادة وفرسان، وأمراء وتجار، وصناع وعمال، وهي تنظر إليهم، ولا ترمي التفاحة، ثم لمحت في آخر المطاف علاء الدين في ثيابه الرثة البالية، فضربته بالتفاحة، فأصابته، ففوجئ الملك باختيار ابنته فوقع طريح الفراش.

واجتمع أطباء القصر حول فراش الملك، وتشاوروا في مرضه، ثم وصفوا له قلب طير الحجل، وأسرع القادة والفرسان إلى الجبال يبحثون عن الحجل، وطلبت ست الحسن من علاء الدين أن يسعى كما يسعى الفرسان، فخرج إلى الجبال، وقابل ملك الطيور، وطلب منه بعضاً من طيور الحجل، فرفض، وعندئذ أشعل شعرة من شعرات ذيل حصانه، فأقبل على الفور يسأله ما يريد، فطلب منه

بعض طيور الحجل، وما هي إلا هنيهة، حتى كان بين يديه ما طلب، فمضى راجعاً إلى القصر، ولكن في الطريق صادفه ابن الوزير وابن القاضي وابن كبير التجار، فطلبوا منه أن يبيعهم ما يحمل من طيور الحجل، وما كانوا ليعرفوه، فعرض عليهم أن يمنحهم كل ما يحمل ولا يبقى سوى طائر واحد، مقابل أن يضع على ظهورهم علامات مميزة، فوافقوا، وأخذوا الطيور منه وأسرعوا إلى القصر فرحين.

وعلى المائدة اجتمع القوم، وفيهم ست الحسن وخطيبها علاء الدين، وأخذ ابن الوزير وابن القاضي وابن كبير التجار بالتفاخر بما أحضروه من حجل للملك، وحين قدم علاء الدين طائره الوحيد، سخروا منه، وعجبوا كيف لم يحضر سوى طائر واحد؟ على حين أحضر كل منهم عشرات الطيور، وكان الملك على رأس المائدة يسمع ويرى، وعندئذ قال لهم علاء الدين: "وما سرّ" تلك العلامات التي على ظهوركم جميعاً، أليست هي من وضع ذلك الرجل الذي قابلتموه في الغاب، فأعطاكم كل ما كان يحمل من طيور الحجل، ولم يبق لنفسه سوى طائر واحد؟. "وذهل الثلاثة، وما كان بوسعهم إلا الاعتراف بالحقيقة، ولكن على الرغم من ذلك أبى الملك أن يزوج ابنته من علاء الدين.

وفي تلك الأثناء أعلن ملك مجاور الحرب على ملك البلاد، والد ست الحسن، فهب الفرسان إلى الحرب، وانطلق معهم علاء الدين، بعد أن زودته ست الحسن بثياب فارس كبير، وقلدته الأوسمة، ولجأ هو إلى لثام، أخفى به وجهه، حتى لا يعرفه أحد ثم أحرق شعره من ذيل حصان، فحضر في الحال، فامتطاه ودخل ساحة المعركة، وأخذ يصول في الصفوف ويجول، والملك يرقب ساحة القتال، فلفت نظره ذلك الفارس الملثم، وقد أبلى في الحرب بلاء حسناً، ولكن بينما كان يخترق صفوف العدو، ويجزّ فيهم الرؤوس، أصابه جرح بيده، فأشفق عليه الملك، وأرسل إليه منديله الخاص، ليضمد الجرح به، وانتهت المعركة بالنصر للملك والد ست الحسن.

ورجع الملك إلى قصره فرحاً بانتصاره على الأعداء، وأقيمت الاحتفالات ونصبت الموائد، وتذكر الفتى الذي اختارته ابنته صاحب الثياب الرثة، فطلب إحضاره، ووعد أن يكرمه ويمنحه ثياباً جديدة، كما وعد أن يزوجه ابنته، تأكيداً لفرحه بالنصر، ولما مثل علاء الدين بين يديه، رأى منديله الخاص وقد لف حول يده، فعرف على الفور أنه هو ذلك الفارس الملثم الذي كان يصول في الصفوف ثم أقسم عليه أن يخبره عن حقيقته، فحدّثه علاء الدين عما كان من أمر خالته وهربه من قصر أبيه، وفضل حصانه الوفي، وتنكره في ثياب بالية رثة، فأكد له الملك أنه كان قد توسم

فيه منذ البدء علامات الملك.

ثم أعلن الملك سبعة أيام وثماني ليال لا أحد يأكل ولا أحد يشرب إلا من قصر الملك احتفالاً بالنصر، وبزواج ابنة الملك ست الحسن من ابن الملك علاء الدين.

وأقام علاء الدين مع زوجته في ضيافة عمه ثلاثة أشهر، ثم أستأذنه في العودة إلى بلاده، فكان له ما أراد، وقد زوده عمه بالهدايا الثمنية، وودعه مع القادة الفرسان إلى حدود البلاد.

ولما وصل علاء الدين مع زوجته إلى مملكة أبيه، رأى والده على فراش الموت، وكانت زوجته قد ماتت قبل أعوام، وسرّ الملك بعودة ابنه إليه، وبزواجه من ست الحسن، ولم يلبث سوى بضعة أيام، توفي بعدها الملك، فتولى من بعده علاء الدين حكم البلاد، وعاش مع زوجته في سعادة وسرور.

تعليق:

تؤكد الحكاية كيد زوجة الأب، ولو كانت خالة شقيقة الأم، وتظهر علاقة الود والوفاء بين الإنسان والحيوان ولا سيما الفرس، وتكشف أن قيمة الإنسان ليست في "ثيابه" وإنما في مواقفه.

وهي تدل على أنه لا يمكن الوصول إلى المرأة إلا بعد المرور بصعاب وتحديات يؤكد من خلالها الرجل شجاعته وفروسيته، كما تدل على حق المرأة في اختيار شريك حياتها، ومن ذلك كله يمكن أن يستدل أن اللقاء الحق بين الرجل والمرأة قوامه الحرية والفروسية والحب،

وليس محض اللقاء الجسدي.

وفي الحكاية عناصر حكائية شائعة منها شعرات ذيل الفرس يحرقها الفارس عند الحاجة، وخوض الفارس غمار المعركة ملثماً ومنحه الملك منديله الخاص ثم تعرفه إليه من خلاله. وهي تشبه في شكلها ومضمونها حكايات كثيرة، منها "الأمير حسن والغول".

❐❖❐

جحا وزوجة أبيه

يحكى أن أحد الرجال توفيت زوجته، فاضطر من بعدها إلى الزواج، وكان عنده ولد منها اسمه جحا، وقد اشترط على الزوجة الثانية أن تعتني بولده، فوعدته بذلك.

ومرت الأيام، وهم يعيشون حياة هادئة سعيدة، ثم حملت زوجته الجديدة، ثم وضعت ولداً، فأخذت تعنى به، وأهملت جحا، بل إن الأب نفسه أهمله وأخذ يهتم بولده الجديد.

وأحس جحا بالقهر والحرمان، فأخذ شعرة من رأسه، وربط بها لسان أخيه لأبيه فما عاد يرضع وقلقت الأم على ولدها، وأخبرت زوجها بأن الولد لا يرضع، فطلب منها أن تأخذه إلى الطبيب، وطلب من جحا أن يرافق زوجة أبيه.

وأسرع جحا فأحضر ثلاث سلات، وضع في الأولى عنباً، وفي الثانية تيناً، وفي الثالثة بطيخاً، وتحت جنح الظلام، خرج إلى الطريق، فخبأ السلة الأولى، وبعد مسافة قصيرة، وضع السلة الثانية، وبعد مسافة أخرى وضع السلة الثالثة.

وفي الصباح خرج مع زوجة أبيه، هي تحمل طفلها، وهو يحمل طائر اللقلق، الذي كان يربيه، ولما اقترب من موضع السلة الأولى ضغط عليه، فصاح اللقلق، فقال له "اسكت يا كذاب"، فسألته زوجة أبيه عما يقول اللقلق، فأجابها أنه يخبره عن سلة عنب سيجدانها بعد قليل، وما هي إلا بضع خطوات حتى قال جحا لزوجة أبيه: "انظري هناك"، وكانت ثمة سلة عنب.

وبعد مسافة، ضغط جحا على اللقلق، فصاح، فقال له: "اسكت يا كذاب"، فسألته زوجة أبيه عما يقول اللقلق، فأجابها إنه يخبره عن سلة تين سيجدانها بعد قليل وما هي إلا بضع خطوات حتى قال جحا لزوجة أبيه: "انظري هناك"، ثم أشار إلى سلة التين.

وكذلك الأمر نفسه مع سلة البطيخ، حتى أصبحت زوجة الأب تصدق كل ما يقوله اللقلق.

وبعد قليل ضغط جحا على اللقلق بشدة، فصاح اللقلق، فسألته زوجة أبيه عما يقول هذه المرة، فأجابها جحا: "لا أستطيع أن أقول، فسألته ثانية: "ولماذا"، فأجابها: "لأنني أخجل من ذكر كلامه"، فألحت عليه، فقال: اللقلق يقول: قبِّلْ زوجة أبيك، يكنْ شفاء أخيك".

وعلى الفور دعته زوجة أبيه إلى الاختفاء وراء تلة صغيرة لتحقق ما يقوله اللقلق، حتى يشفى ولدها.

وكان ذلك كله بتدبير من جحا، وكان له أيضاً ما أراد، ثم طلب من زوجة أبيه أن تحمل اللقلق بدلاً منه، وأخذ منها الولد ليحمله، ثم غافلها، فقطع الشعرة التي كان قد ربط بها لسانه، وبعد بضع خطوات قال لها: "خذي الولد أرضعيه، لنطمئن إلى شفائه"، وأخذت منه الولد، فألقمته ثديها فرضع، ففرحت كثيراً.

وفي المساء سألها زوجها عن الولد، وعن الطبيب، والدواء، فأجابته بأن الولد قد شفي، وأنها وفرت عليه أجرة الطبيب، وثمن الدواء، ولما سألها كيف ذلك، أجابته بما حصل من أمر جحا واللقلق، فجن جنون الزوج وأقسم أن يقتل ولده جحا.

ولما سمع جحا ذلك، ولم يكن يعرف سوء ما أقدم عليه، هرب من البيت، وهام على وجهه في البلاد، حتى نال منه التعب، فرأى قصراً، فقصد إليه، وإذا صاحب القصر هو آغا القرية، فعرض عليه العمل عنده، فوافق الآغا، ولكن على شرط، ولما سأله جحا عن الشرط، أجابه "إذا زعلت مني فسوف أسلخ جلدة وجهك، وإذا زعلت منك فأسلخ جلدة وجهي".

ووافق جحا، فأعطاه الآغا كلباً، ثم أشار إلى محراث مشدود إلى ثور، وطلب أن يفلح الأرض، وقال له: "هذا الكلب يعرف حدود أرضي، فحيثما سار الكلب، أو حيثما دخل، فادخل وراءه أنت والثور"، ثم زوّده برغيفين، رغيف

من قمح ورغيف من شعير، ثم قال له: "هذا لك وذاك للكلب".

وأخذ جحا الرغيفين والكلب ومضى، ولم يحرث سوى بضعة أمتار، حتى اشتد به الجوع، فقعد يأكل رغيف القمح ورمى للكلب رغيف الشعير، فلم يأكله، لأنه اعتاد على رغيف القمح، وقعد لا يتحرك، ولما شبع جحا طلب من الكلب أن يسير ليدله على حدود الأرض فلم يتحرك، فنهره برجله، فلم يتحرك، فضربه بالعصا فلم يتحرك، فحمل حجراً وضربه فأخذ الكلب يجري، وأخذ جحا يسوق الثور والمحراث في إثره، وظل يجري وراءه، حتى دخل الكلب القصر، فدخل وراءه، فقفز إلى نافذة ودخل فيها، وأراد أن يدخل جحا وراءه هو والثور فلم يتمكن، ففكَّ الثور عن المحراث، ثم كسر المحراث، قطعاً قطعاً، ورمى به من النافذة، ثم ذبح الثور، ورمى به قطعاً من النافذة، وجاء الآغا، فرأى فعلة جحا، فغضب، وهمّ بالكلام، ولكن جحا سأله: هل زعلت؟

فأجابه الآغا: لا، ما زعلت".

ثم أمر الآغا الخدم، فطبخوا لحم الثور، فحمل الآغا صحناً مملوءاً بقطع اللحم والمرق، وقال له: "خذ هذا الصحن واحمله إلى أمّي"، وأخذ جحا الصحن ومضى به إلى أم الآغا، وقبل أن يدخل عليها رفع قطع اللحم، ووضعها أمام الباب، ولما رأت أم الآغا الصحن لا شيء

فيه سوى المرق، قالت له: "رد هذا الصحن إلى الآغا"، ورجع إلى الآغا، وقال له "إن أمك تقول إن اللحم الذي في الصحن لا يكفيها"، فطلب من الخدم أن يزيدوا في اللحم، فأخذه ورجع به إلى أم الآغا، وقبل أن يدخل عليها، رفع اللحم، ووضعه أمام الباب، ومرة ثانية غضبت الأم، وردت الصحن، ورجع جحا بالصحن إلى الآغا، بعد أن أعاد اللحم، فغضب الآغا، ثم قال له "خذ فخذ الثور ثم أحش به فمها حتى تشبع".

وحمل جحا فخذ الثور، ثم دخل على الأم، وأقسم عليها إلا أن تأكل الفخذ كله، ثم أخذ يقطع من اللحم ويحشو به فمها إلى أن ماتت، ثم رجع إلى الآغا، فسأله: "هل أعجبها اللحم"، فردّ جحا قائلاً: "ولكنها ماتت قبل أن تتمكن من تناوله كله"، فغضب الآغا، فبادر جحا إلى سؤاله: هل زعلت؟"، فأجاب الآغا: "لا، ما زعلت".

وفي يوم آخر كان لدى الآغا ضيوف، وإذا ولده الصغير يدنو منه ويهمس في أذنه، فنادى الآغا جحا وطلب منه أن يأخذ الولد إلى المرحاض ليتبول، فأخذه جحا، وعند المرحاض، قال له: "إذا تبوّلت ضربتك وإذا لم تتبوّل ضربتك"، ثم حذره أن يحدّث والده بذلك، ثم أعاده إلى الآغا، فقعد قليلاً، ثم نهض، وهمس في أذن والده، ومرة ثانية أشار الآغا إلى جحا، فأخذ الولد إلى المرحاض، وقال له ما قال في المرة الأولى، ثم أرجعه إلى والده، ومرة

ثالثة، همس الولد في أذن الآغا، فغضب الآغا، وقال لجحا: "خذ الولد، واقتله، ريّحني منه، فأخذ جحا الولد، ثم حمله ورماه أرضاً، فمات، ثم رجع إلى الآغا، فسأله عن الولد فأجابه "رميته على الأرض فمات، كما طلبت مني، فغضب الآغا، ولكن جحا بادر سائلاً: "هل زعلت؟ فأجابه: "لا، ما زعلت".

وقرر الآغا أن يذهب هو وزوجته في نزهة إلى ضفة النهر، وجهزت زوجة الآغا بعض الطعام، كما لفّ الآغا حصيراً، ووضعا الحصير والطعام على ظهر الحمار، وسارا وراءه نحو النهر. وفي الطريق سمع الآغا صوت عطاس، فسأل زوجته إن كانت هي التي قد عطست، وقبل أن تجيبه جاءه صوت جحا: "أنا عطست، أنا عطست"، وتلفت حوله مدهوشاً، وهو لا يعرف مصدر الصوت، فإذا جحا يضيف: "أنا هنا، ملفوف داخل الحصير"، فأنزل الآغا الحصير، وفتحها، وإذا جحا يقفز في وجهه سائلاً: "هل زعلت؟" فردّ الآغا:"لا، ما زعلت".

وسار جحا مع الآغا وزوجته، حتى بلغا ضفة النهر، فمدّ الحصير، وأنزل الطعام، وقعد معهم يأكل ويشرب، حتى صار المساء، فقال الآغا لجحا: "نحن سننام هنا على الحصير، فهل تنام معنا"؟، فأكد جحا رغبته في ذلك فتشاور الآغا مع زوجته، واتفقا على أن ينام جحا بجانب النهر، وتنام الزوجة في الوسط، وينام

في الطرف الآخر الآغا، وفي الليل يبدأ الآغا بدفع زوجته، وتبدأ هي بدفع جحا، حتى يسقط في النهر.

ورجع الآغا إلى جحا يعرض عليه أن ينام بجانب النهر، وتكون زوجته في الوسط، وينام الآغا إلى جانبها من الطرف الآخر، فوافق جحا، وقد أدرك ما بيته الآغا له.

وفي الليل، نهض جحا ونام إلى جانب الآغا، ووفق الخطة المتفق عليها، بدأ الآغا يدفع زوجته، وهي نائمة، ويدحرجها وظل يدفعها ويدحرجها حتى سمع صوت سقوط جسم في النهر، فنهض الآغا مسروراً، وهو يقول: "الحمد لله، تخلصنا من جحا"، ولكن جحا نهض صائحاً" هل ناديتني، حضرة الآغا؟"

وذهل الآغا، ونظر إلى النهر، وإذا زوجته غارقة فيه، وعندئذ سأله جحا:"هل زعلت؟ فأجابه الآغا: "قتلت ثوري وأمي وزوجتي، ولا تريدني بعد ذلك أن أزعل، نعم، لقد زعلت"، فأجابه جحا: "إذن لا بد من تنفيذ الاتفاق، يجب أن أسلخ جلدة وجهك"، فأجابه الآغا: "نعم ستسلخه، لكن وأنا ميت"، ثم إنه أسرع إلى النهر ورمى نفسه فيه.

ورجع جحا إلى قصر الآغا ليعيش في القصر، وينعم بالخير والرزق الوفير.

تعليق:

تكشف هذه الحكاية ما يعانيه الولد دائماً من حرمان لدى وفاة أمه والعيش تحت كنف زوجة الأب، مما يدفعه

إلى انحراف كبير، قد يقود إلى جرائم لا يمكن تصورها.

والحكاية تبالغ في إظهار خبث الولد الذي يعاني من مثل تلك العقدة، كما تبالغ في إظهار أشكال انتقامه.

وانتقام ذلك الفتى في هذه الحكاية من الآغا ليس لأنه آغا وإنما لأنه شكل من أشكال القوة والسيطرة تشبه سيطرة زوجة أبيه كما تشبه قوة أبيه، ولذلك ينتقم من هذا الشكل بصورة لا شعورية مؤكداً وجوده بأساليب مدانة.

ويلاحظ أن كل أشكال الانتقام أو تحقيق الذات التي يأتي بها الفتى تقوم على القتل، من قتل أخيه لأبيه، وقتل الثور، وقتل أم الآغا، إلى قتل الآغا نفسه، ثم سلخ جلدة وجهه، ولعل أكثر تلك الأشكال الإدانة ارتكاب الولد الفاحشة مع زوجة أبيه، وجميع تلك الأشكال تعني اقتحام سلطة الأب وتدميرها.

والحكاية بذلك تلتقي في جذرها مع أسطورة أوديب.

والحكاية بما تصور من أساليب الخبث والانتقام نادرة، إذ قلما تلجأ الحكاية إلى تصوير شيء من ذلك، كذلك من الغريب إسناد الحكاية دور البطولة إلى فتى يدعى جحا، إذ لا يرد في سيرته ولا في طرائفه ما يشبه في شيء هذه الحكاية.

❑❖❑

بركة الذهب

كان لأحد الرجال ابنة وحيدة، رباها فأحسن تربيتها، وتقدم إليها خطاب كثير، ولكن لم يتمكن أحد من سداد مهرها، إذ كان أبوها يطلب ملء بركة البيت ذهباً.

وذات يوم تقدم إليه رجل أعلن عن استعداده لملء البركة ذهباً، على شرط أن يسمح لها أبوها بالسفر مع زوجها، فوافق الأب، وكان له ما أراد، إذ ملأ الزوج البركة ذهباً، ثم أخذ عروسه وسافر بها.

وفي بلدة بعيدة أسكنها الزوج في بيت منعزل، وكان كلما خرج أقفل عليها باب الدار، فتبقى وحيدة، لا تجد من يسليها أو يؤانسها، فأحضرت كرسيّاً وغطته بملاءة بيضاء، وأخذت تحدثه كأنه عجوز تأنس به، وكانت تبث هذا الكرسي شكواها وألمها، وكانت هي نفسها تتكلم بلسان الكرسي، فتقول لنفسها: "لا بأس، اصبري، واحمدي ربك، واشكريه، فزوجك كريم، وهو يحضر لك كل ما تطلبين، وإذا كان غيابه عن البيت يطول، فطبيعة عمله تقتضي ذلك، فهو تاجر، كثير الأسفار، ولا بد من التضحية والصبر".

وهكذا مرت الأيام، فإذا هي حامل، ثم وضعت ولداً كأنه القمر، ولما رجع الزوج من السفر، لم يظهر أي علامة من علائم الفرح بالولد، بل حمله، وأعطاه لخادم كان يرافقه دائماً، وطلب منه أن يذبحه، ويأتي بلحمه مطبوخاً، ثم طلب من زوجته أن تشاركه في تناول الطعام مما أحضره ذلك الخادم.

ومكث معها بضعة أيام، ثم سافر كعادته، وشاءت الأقدار أن تحمل ثانية، ولم تلبث حتى وضعت ولداً، ولما رجع الزوج من السفر ورآه، فعل به مثل ما فعل بالأول، والزوجة صابرة، لا تجد سوى الكرسي، تغطيه بالملاءة، ثم تلجأ إليه، تبثه ما بنفسها من حزن، ثم تتكلم هي نفسها بلسانه، لتقنع نفسها، وتجد بعض التسلية والعزاء.

ومرة ثالثة حملت، ووضعت ولداً، كان مصيره كمصير أخويه، والزوجة ما تزال صابرة.

ثم طالت غيبة الزوج، وأخذ يغيب عنها سنة أو سنتين، فيقعد معها بضعة أيام، ثم يسافر ثانية وهكذا مر ما يقارب العشرين عاماً.

وذات يوم فاجأها الزوج بدعوته إلى الخروج معه، وكانت قد اعتادت الحبس في بيتها، فترددت، ولكنها انصاعت، وخرجت معه، فأخبرها أنه سيأخذها إلى قريب له، بمناسبة زواج أولاده الثلاثة، وطالبها أن تشارك أهله أفراحهم.

ودخلت الزوجة على القوم وهي مضطربة، فرأت ثلاثة شبّان كالأقمار، وهم يزفون إلى عرائسهم، فتحدّرت من عينها دمعة، وذكرت أولادها، وقالت في نفسها، لو كان أولادي على قيد الحياة، لكانوا الآن في عمر هؤلاء الشبان، وكان زوجها إلى جانبها، فرأى الدمعة على خدّها، فمسحها بيده، ثم قال لها "هؤلاء هم أولادك".

ثم عرّفها إليهم، فعانقتهم وهي تبكي، وسرّت بهم السرور كله، وأقامت مع زوجها معهم ثلاثة أيام تشاركهم الأفراح، ثم رجعت إلى دارها، وأقام معها زوجها، وترك الأسفار، ليعيشا معاً في سعادة وهناءة.

تعليق:

تؤكد الحكاية ضرورة صبر المرأة وتحملها ما تقاسيه مع زوجها من عناء العيش وصعوبته لتكون العقبى لها، فتسعد بعد طول صبر.

كما تؤكد ضرورة تربية البنت وإعدادها أحسن إعداد لحياة الزوجية على الرغم مما قد يكون فيها من قسوة.

ولكن الحياة تبالغ في ذلك كله، وتقدم شخصيات وحوادث متطرّفة، ليست الغاية منها الإقناع، وإنما الغاية منها إثارة الانفعال وضرب المثل.

وتبدو الحكاية موجهة بصورة أساسية للبنات، كي تعلمهن الصبر، وتوحي لهن بأن الطريق قد تكون شاقة وطويلة، ولكنها تؤكد أن النهاية ستكون هانئة وسعيدة.

ولكن ذلك الأسلوب التربوي ليس سليماً، لأنه يرسخ السلبية والعجز والتخاذل، وليست سليمة أيضاً الأفكار التي تطرحها الحكاية، لأنها أفكار ترسّخ سيطرة الرجل على

المرأة وظلمه لها.

والحكاية تعبر عن مرحلة تاريخية كان المجتمع على ما يبدو يعاني من الفقر والتخلف والظلم، ومن المؤسف أن تظهر مثل هذه الحكايات لتدعو الفرد ولا سيما المرأة إلى مزيد من الخضوع لترسيخ ما في ذلك المجتمع من فقر وتخلف وظلم، ومما يزيد الأمر سوءاً اتخاذ الحكاية القيم والأخلاق وسيلة لذلك كله بدعوى تربية البنت وحسن إعدادها.

والحكاية تعكس أيضاً سيطرة الذهب إذ تعدّه معادلاً لقيمة عليا هي الإنسان، وهذا يؤكد مرة أخرى سيطرة المادة وغياب القيم، كما يؤكد واقع التخلف والجهل والظلم.

وتظهر في الحكاية البنية الثلاثية، كما يظهر فيها عنصر المفاجأة والإدهاش، ولكنه مبني على المبالغة والافتعال. والحكاية تشبه شبهاً كبيراً حكاية عنوانها: "ثمن الذهب"، ولعلها هي نفسها، ولكن برواية أخرى.

❐❖❐

ابن الملك وبنت الراعي

يحكى أن أحد الملوك كان عنده ولد وحيد، رباه خير تربيه، وعلمه الفروسية والمبارزة، وأحضر له الأساتذة والمعلمين، ولما شب وكبر عن الطوق، دعاه الملك إليه، وأخبره أنه يريد تزويجه، فلينظر أي فتاة يختار لنفسه، فطلب من أبيه أن يترك الأمر للأقدار.

وذات يوم، بينما كان في الصيد، إذ بعد عن الخدم والأصحاب، فضلّ وتاه، وأخذ يبحث عن طريق العودة، وبينما هو كذلك، رأى خيمة بعيدة، قصدها، فخرجت إليه صبية حسناء، رحبت به، وأضافته، وقدمت له اللبن والتمر، فوجد فيها الذكاء والجمال، وحسن الخلق وحسن التدبير، فلما سألها عن أبويها، أخبرته أن أمها ماتت منذ زمن، وأن أباها خرج ليرعى الغنم، فشكر لها حسن ضيافتها، وطلب منها أن تدله على الطريق، ثم ودعها ومضى في سبيله، ولم تسأله من هو ومن يكون تقديراً منها لحق الضيف.

وأسرع إلى أبيه الملك يخبره عن الفتاة، ورغبته في الزواج منها، ثم دل الجند على موضع الخيمة، فجاؤوا بوالد الفتاة، وأخبره الملك برغبة ابنه في الزواج من ابنته، فأجاب والد الفتاة أن عليه أن يسألها رأيها قبل أن ينطق بشيء.

ورجع الراعي إلى ابنته، وحدثها عن رغبة ابن الملك في الزواج منها، وأخبرها أنه هو نفسه الفتى الذي كانت قد أضافته في الخيمة، فطلبت من والدها أن يرجع إلى الملك ليسأله عن عمل ابنه، ولما رجع الراعي إلى الملك وسأله، دهش الملك، وقال له: "ابن الملك لا يعمل شيئاً، هو ابن الملك، وسيرث من بعده العرش".

ورجع الراعي إلى ابنته ليخبرها بجواب الملك، فطلبت من أبيها أن يرجع إلى الملك ليخبره أنه لا مانع لديها من الزواج من ابن الملك، ولكن على شرط أن يكون له عمل، وإذا كان جاداً حقاً في رغبته في الزواج منها، فليتقن مهنة ما، وليعد بعد ذلك إلى خطبتها.

ورجع الراعي إلى الملك، وأخبره بالجواب، فدهش الملك، ولكن الابن طلب من الراعي أن يخبر ابنته أنه يعدها بأن يتعلم مهنة لأجلها.

ونزل ابن الملك إلى الأسواق، وأخذ يتأمل المحلات

والمتاجر والبضائع والحاجات، فأعجبه السجّاد فعزم على تعلم صناعته، وهكذا أحضر إلى القصر نولاً وأصوافاً ونساجين، وأخذ يتعلم تلك المهنة.

ولما أتقنها أرسل الجند إلى الراعي ليخبروه بذلك، وعندئذ وافقت ابنته، وتمت الخطبة، ثم أقيمت الأفراح، وتمّ زفاف ابنة الراعي إلى ابن الملك.

ومرت الأيام وهما يعيشان في هناءة وسرور، ولا يكدّر صفو عيشهما شيء، ولكن ذات يوم أغار ملك مجاور على المملكة، فهزم الجند، واستولى على العرش، وهرب الملك مع ابنه وزوجته، ولجؤوا إلى بلاد أخرى، وقد تنكروا، حتى لا يعرف أمرهم أحد، وكانوا قد غادروا البلاد على عجل، من غير أن يحملوا شيئاً من الذهب أو الجواهر.

وهنا ظهرت قيمة المهنة التي كان ابن الملك قد أتقنها، إذ سرعان ما عمل في صناعة النسيج، وأخذ يكسب الرزق له ولزوجته ولأبيه، وعاشوا في أمان واطمئنان، فسبحان مغيّر الأحوال.

تعليق:

تؤكد الحكاية أن قيمة الإنسان ليست فيما يرثه من مال أو ملك، وإنما فيما يحسنه من عمل، وهي تضرب مثلاً لذلك بابن ملك، وتعتمد الحكاية على تقلب الزمان

وتغير الأحوال، إذ يزول المال أو الملك، ولكن تبقى المهنة التي يتقنها ابن الملك.

ومما لا شك فيه أن المهنة هنا ليست محض مهنة يمارسها صاحبها بصورة آلية، وإنما هي مهنة يعرفها حق المعرفة ويتقنها، ويبرع فيها، وبذلك تغدو المهنة هنا رمزاً للمعرفة والخبرة والمهارة التي يمكن أن يحملها الإنسان في جوانحه حيثما حل أو ارتحل" والتي لا تنفذ ولا تضيع، خلاف المال.

والحكاية عفوية جداً، وبسيطة، ولها رواية أخرى تختلف عنها بعض الاختلاف.

❒❖❒

الجمل والأخوات الثلاث

يحكى أن ثلاث أخوات فقيرات كنّ يعملن معاً في غزل القطن وبيعه، وكنّ يعشن معاً بسعادة وسرور، وذات يوم حطّ أمام دارهن جمل كبير، فخرجن إليه، يتفرجن عليه. ودنت منه البنت الكبرى، ثم امتطت ظهره، وأخذت تلعب ما شاء لها اللعب، إلى أن ملت، فنزلت عنه، لتعتلي سنامه البنت الوسطى، وظلت تلهو به وتعابثه إلى أن ملت، فنزلت عنه، وصعدت إلى سنامه الصغرى، وأخذت تلهو كما لهت من قبل شقيقتاها، ولما أرادت النزول عنه، وجدت نفسها ملتصقة به، لا تستطيع الخلاص منه، وحاولت شقيقتاها مساعدتها، فما أفلحتا، وكان قد أقبل المساء، فتركتها شقيقتاها، ودخلتا إلى البيت، وهي ما تزال ممتطية سنامه.

ونهض الجمل، ومضى بالبنت الصغرى، وأخذ يجتاز بها الفيافي والقفار، حتى بلغ صخرة كبيرة، وقف أمامها، وردّد بعض الكلام، فانفتحت الصخرة، فدخل فيها الجمل، وعلى ظهره الفتاة، ثم ردّد بعض الكلام، فانغلقت الصخرة.

ومضى الجمل بالبنت إلى قصر كبير تحت الأرض، حيث أنزلها عن ظهره هناك، وسألها: "هل تريدن أن تصبحي زوجتي أو ابنتي"، فأجابت بأنها تريد أن تصبح ابنته، فما كان منه إلا أن التهمها بالكامل، ثم عاد فأخرجها من بطنه، وقال لها: "أنت الآن ابنتي".

ثم أخذ يطوف بها أرجاء القصر، ويعرّفها عليه، ولفت نظرها زجاجة متميزة، فسألته عنها، فأخبرها أن فيها روحه، ثم رأت مرآة غريبة، نظرت إليها فلم تر فيها صورتها، ولما سألته عنها، أخبرها أنها مرآة سحرية، إذا وضعها أمامه، أو وراءه، تحولت على الفور إلى بحر، يفصل بينه وبين أعدائه، ثم ذكرت الصخرة، فطلبت إليه أن يعلمها الكلمات التي يقولها فتنفتح أو تنغلق، فتردّد، فتوسلت إليه، لأنها قد أصبحت ابنته، فعلمها الكلمات السحرية.

وفي اليوم التالي أراد الجمل مغادرة القصر، فسلم البنت مجموعة مفاتيح، وقال لها: "افتحي ما شئت من غرف القصر، ولكن لا تقربي هذه الغرفة"، ثم ودّعها وخرج.

وعلى الفور أسرعت البنت إلى الغرفة التي أوصاها ألا تقربها، ففتحتها، ولم تفتح غرفة سواها، ولما دخلتها رأتها مملوءة بالذهب، فلم تصدق، فمدت يدها لتلمس ما تراه، وتتأكد من أنه ذهب، فلصقت قطعة ذهب باصبعها، ولم تستطع الخلاص منها، فاضطرت إلى لف إصبعها بقطعة

قماش.

وفي المساء جاء الجمل، فرأى اصبعها الملفوفة، فسألها عن سبب لفّها، فأجابته بأنها قد جرحت اصبعها، فأسرع إلى المطبخ ليسأل السكين والزجاج والصحون إن كانت أي منها قد جرحت حقاً إصبع البنت، فأجابته الأشياء كلها بأنها لم تفعل، فرجع إلى البنت يسألها، فاضطرت إلى إخباره بالحقيقة، فعفا عنها.

وفي صباح اليوم التالي، أعطاها مجموعة مفاتيح أخرى، وقال لها: "افتحي ما شئت من غرف القصر، ولكن لا تقربي هذه الغرفة"، ثم ودعها وخرج.

وبادرت البنت فوراً إلى الغرفة التي أوصاها ألا تقربها، ففتحتها، ولم تفتح غرفة سواها، ولما دخلتها رأت رجلاً وامرأة، ما يزالان في ثياب الزفاف، وهما بين الحياة والموت، وأخذا يتوسلان إليها يطلبان بعض الطعام والماء، فأسرعت، وأحضرت لهما ما طلباه.

وفكرت البنت قليلاً، ثم أسرعت إلى الزجاجة، التي فيها روح الجمل، وإلى المرآة السحرية فحملتهما، ثم طلبت من العروسين أن يتبعاها، فقادتهما إلى حيث الصخرة، فردّدت أمامها الكلمات التي علّمها إياها الجمل، فانفتحت، فخرجت مع العروسين.

وأخذ الثلاثة يجرون راكضين، ولكن فجأة برز لهم

الجمل، وطلب من البنت أن ترد إليه الزجاجة التي فيها روحه، وإلا قتل العروسين، فردتها إليه، فطلب منها المرآة، فلم تفعل، وفي تلك الأثناء كان العروسان قد هربا، ولما أراد الجمل اللحاق بهما، ألقت بينه وبينهما المرآة، فتحولت إلى بحر كبير، فالتفت إليها الجمل وقال: "لقد نجا العروسان، ولكن وقعت أنت".

وتوسلت البنت إليه، ترجوه أن يعيدها إلى شقيقتيها، وأكدت له أنها لايمكن أن تعيش معه، فعرض عليها أن تختار، إما أن تصبح كلبة عرجاء، وإما أن تصبح حمامة بيضاء، ففكرت قليلاً، ورأت ألا تصبح حمامة بيضاء، حتى لا يطاردها الصيادون، واختارت أن تصبح كلبة عرجاء.

وضحك الجمل، ثم قال لها: "أحسنت الاختيار، لأن سحري سيزول عنك، وترجعين فتاة حسناء على شرط أن يتزوجك ابن الملك.

ثم رجته أن يسمح لها أن تحتفظ بما علق باصبعها من ذهب، فقال لها: "هو لك، بل خذي من الذهب ما تشائين".

وهكذا تحوّلت البنت إلى كلبة عرجاء، وأخذت تنتقل من بلد إلى بلد، حتى وصلت إلى البلد التي كانت فيها مع شقيقتيها، وأسرعت إلى بيتها، وكان من الطبيعي أن تطردها شقيقتاها، لأنهما لم تعرفاها، ومن يؤوي عنده كلبة عرجاء؟

واضطرت الكلبة العرجاء إلى النوم في ظل الجدار، قريبة من بيتها، لترى شقيقتيها، صابرة على ما تلقى من الأولاد من أذى، مكتفية بما يرمي إليها من فضلات.

وذات يوم دخلت بستاناً لتروّح عن نفسها، وتنعم ببعض الظل، وأخذت قطعة الذهب العالقة بإصبعها، وبدأت تقذفها، وتجري في إثرها، تتسلى بها وتلهو، ثم ما لبثت أن تركتها، وقعدت حزينة، وأخذت تبكي وتنوح، وهي تقول: "آه لو تعرف شقيقتاي أني أختهما الصغرى، آه لو تذكر شقيقتاي الجمل الذي حط أمام دارنا "آه لو تعلم شقيقتاي أنه هو الذي أوصلني إلى هذه الحال، ولكن أين لي بابن ملك يتزوجني ليزول عني السحر؟"

وبينما هي على هذه الحال تنبهت إلى حركة، فقفزت مذعورة، لترى شاباً وسيماً يتقدم نحوها، فأخذت تعدو، وإذا بالشاب يميل على الأرض ليلتقط قطعة الذهب التي كانت تلهو بها، ثم يأخذها ويمضي إلى داخل قصر كبير، والحرس يؤدون له التحية، وينحنون له باحترام.

وتنبهت إلى المكان، فعرفت أنها كانت في حديقة الملك، وأدركت أن هذا الفتى الشاب هو ابن الملك.

ورجعت إلى مأواها في ظل دارها، لتنام على الرصيف، وتتلقى ما كانت تتلقاه من أذى الأولاد. ولكنها، عند انتصاف الليل، قررت أن تسترد قطعة الذهب التي

سرقها إياها ذلك الفتى الشاب، وما كان منها إلا أن تسللت خلسة إلى القصر، ودخلت إلى غرفته، فرأت قطعتها الذهبية قد وضعها إلى جانب وسادته، فخطفتها، وخرجت تعدو وتنبه إليها ابن الملك، فأسرع إلى شرفته، فرأى الكلبة العرجاء تعدو حاملة قطعة الذهب، فتركها تغادر بوابة القصر، ولم يناد الحراس.

وفي صباح اليوم التالي أخبر أمه بقصة الكلبة العرجاء، وأكد أنه يريد الزواج منها، وطلب من الحرس أن يستدلوا على مكانها، من غير أن يؤذوها، ولما استدلوا على مكانها، أرسل أمه لخطبتها.

وتقدمت الأم إلى الشقيقتين، تطلب منهما الكلبة العرجاء التي تنام تحت جدار دارهما، لتكون زوجة لابنها الملك، فسخرت منها الشقيقتان، وقالتا لها: "هي لك، خذيها من غير إذن ولا سؤال".

وكانت الكلبة السوداء ترى ذلك كله وتسمعه، فلما اقترب الحرس بتوجيه من الملكة، انقادت لهم، وسارت معهم إلى القصر.

وتمّ زفاف الكلبة السوداء إلى ابن الملك، ولما كان الصباح، دخل على بلاط الملك حيث الوزراء وكبار القضاة عروسان شابان، هما ابن الملك وعروسه الحسناء، وقد زال عنهما السحر.

ثم دعت العروس إلى القصر شقيقتيها لتعيشا معها في هناء وسرور.

تعليق:

تؤكد الحكاية ما يلقاه الفقير من شقاء في حياته، وهو شقاء صعب، يقوده إلى المرور بحالات كثيرة من العناء والبؤس والألم، وكأنها مصهر لجسمه، أو مطهر لروحه، تنتهي به في الختام إلى سعادة أبدية.

ويلاحظ أن المرأة هنا هي التي تعاني، مما يدل على أن الحكاية موجهة إلى المرأة، ومعبّرة عنها أيضاً، فهي موجهة إليها لتلقنها درساً يعلمها الصبر والتضحية أملاً في الوصول إلى الخلاص، وهي معبرة عن معاناتها وشقائها ولا سيما الفقيرة.

وفي الحكاية تنويعات كثيرة، وبعض عناصرها متكررة في حكايات أخرى، حتى لتبدوا تركيباً من عدة حكايات، والبنية الثلاثية واضحة فيها بصورة جلية، وتتكرر أيضاً ثلاث مرات.

❒❖❒

أولاد الملك

كان لأحد الملوك ثلاثة أولاد، ربّاهم فأحسن تربيتهم، ولما حضرته الوفاة أخبرهم أنه ترك لهم وصية مكتوبة، يقسم فيها أملاكه بينهم، ولكنّه أوصاهم ألا يفتحوها إلا بعد وفاته، وإذا لم يرضو بما قسم لهم، فما عليهم إلا أن يحتكموا إلى أحد القضاة.

ومات الأب، وأسرع الأولاد إلى تجهيزه وتشييعه، ثم بادروا إلى الوصية، ففتحوها، فإذا هي تنصّ على أن تكون عدة الحرب والسلاح للولد الأكبر، والمال والأغنام للولد الأوسط، والحاشية والخدم للولد الأصغر، واستاء الأولاد من تلك القسمة، وقرروا المضي إلى القاضي ليحكم بينهم.

وبينما كان الأولاد في الطريق، صادفهم أعرابي سألهم عن جمل كان قد أضاعه، فقال الولد الأكبر: "هل كان جملك محّملاً بالعسل، على الجانب الأيمن، وبالدقيق على الجانب الأيسر؟ فقال الأعرابي: "نعم، إنه هو أين وجدته؟ دلّني عليه".

وتدخل الولد الأوسط، وسأل الأعرابي: "وهل كان جملك أعور؟ "فأجاب" نعم، إنه هو، أين وجدته؟ دلني عليه"، وتكلم الولد الأصغر، فسأله: "وهل كان جملك مقطوع الذيل؟ "فدهش الأعرابي، وتأكد لديه أن الإخوة الثلاثة قد رأوا الجمل، وأنهم خبؤوه بحيث لا يراه، فأقسم ألا يتركهم حتى يردوا عليه جمله، فأكد له الإخوة الثلاثة أنهم لم يروا الجمل، ولكن الأعرابي لم يصدقهم، فأخبروه أنهم ذاهبون إلى القاضي، وما عليه إلا أن يصحبهم، ليحكم بينه وبينهم.

وسأل القاضي الأولاد عن أمر الجمل، كيف وصفوه، من غير أن يروه، فأجاب الأكبر: "رأيت على الطرف الأيمن من الطريق الذباب وهو يتبع آثار العسل، وعلى الطرف الأيسر رأيت ذرات طحين، فعرفت أن الجمل كان يحمل عسلاً ودقيقاً، وتكلم الأوسط فقال: "رأيت العشب على جانب من الطريق نامياً، لم يُدَسْ ولم يؤكل على حين كان العشب على الجانب الآخر خلاف ذلك، فعرفت أن الجمل أعور". وتكلم الولد الأصغر، فقال: "رأيت بعر الجمل متناثراً دون انتظام، فعرفت أن الجمل مقطوع الذيل".

وعندئذ قال القاضي: "لقد صدق الأولاد فيما نطقوا، وهم من غير شك لم يروا الجمل ولم يسرقوه، وما عليك إلا أن تمضي فتبحث عن جملك".

ثم التفت القاضي إلى الأولاد، ودعاهم إلى النزول في

ضيافته، ولم يسألهم عن حاجتهم، وفق تقاليد الضيافة العربية، إذ لا يُسأل الضيف عن حاجته إلا بعد ثلاثة أيام.

وأوصى القاضي الخدم، فأعدوا خروفاً، وجهزوا الطعام، وحضرت المائدة، ولم يدعهم القاضي، بل تقدم، وتركهم يتقدمون من الطعام، من غير دعوة، وتناول كل منهم بضع لقيمات، ثم نفضوا أيديهم، وتكلم الأكبر، فقال: "هذا الخروف رضع من كلبة"، وتكلم الأوسط، فقال: "هذا الخبز أعدته امرأة حائض"، وتكلّم الأصغر فقال: "صاحب المأدبة ابن زنى".

فغضب القاضي، وقال: "ما ساءني شيء بقدر ما ساءني قول الثالث"، وصمت هنيهة، ثم قال: "هاتوا، أوضحوا لي مصداق كلامكم".

وتكلم الأكبر، فقال: "الدهن في لحم الخروف يطفو على وجه المرق، أما دهن الكلب فيرسب في القاع، وانظر إلى الدهن هنا، كيف هو؟ "وتكلم الأوسط، فقال: "رائحة الخبز متغيرة، بسبب تغير رائحة العرق في جسم المرأة التي عجنته ورقته وخبزته، لأنها حائض".

ودعا القاضي الخادم، وسأله عن الخروف، فأجابه: "لقد ماتت أم هذا الخروف فرضع من كلبة الراعي"، وأرسل وراء المرأة، فسألها: فأجابت بأنها حائض.

ثم أسرع القاضي إلى أمه، وناشدها الله إلا أن تعترف،

وبعد تردد، أجابت: "كان أبوك يرغب في ولد يرثه، ولا يعرف أنه عاقر، وقد هدّدني بالزواج من امرأة أخرى إن لم أنجب، فكان ما كان".

ورجع القاضي إلى الأولاد الثلاثة، وقال لهم: "لقد صدقتم في كلّ ما قلتم" وقبل أن يسألوه عن حاجتهم، قال لهم "أرجوا ألا تسألوني، فأنتم أذكى من أن تحتاجوا إلى سؤال أحد، اذهبوا فحلّوا أموركم بأنفسكم".

ورجع الأولاد من حيث أتوا، راضين بما قسم لهم والدهم، وعاشوا معاً في سعادة وهناءة وسرور.

تعليق:

الغاية الأولى من هذه الحكاية تعليم الأولاد، وإثارة ملكة التفكير لديهم، بما تطرحه من ألغاز.

والحكاية مبنية على إدراك الباطن من خلال الظاهر، والغائب من خلال الحاضر، ومبدؤها العرافة، أي معرفة طباع الشخص من ملامح وجهه، والقيافة، أي معرفة المؤثر من بقايا الأثر.

والبنية الثلاثية تتكرر في الحكاية ثلاث مرات، في الأولاد الثلاثة، ووصفهم الجمل، ووصفهم الطعام وصاحبه، وهي بنية شائعة في كثير من الحكايات، وهي راسخة في الوجدان الإنساني، ولعل مرجعها إلى التكوين الثلاثي للأسرة، المؤلفة من الأب والأم والولد.

والحكاية تتوهم حضور الذكاء في الملوك والقضاة والأغنياء، ومرجع ذلك إلى ما لهؤلاء من سطوة وقوة وسلطة، كما تتوهم الغباء في الأعرابي، لفقره وضعفه، وليس الحال كذلك في الواقع، بل لعله على الأغلب خلاف ذلك.

ولهذا يجب أن ينصرف الذهن إلى أن أولئك الأولاد ليسوا أذكياء لأنهم محض أولاد الملك، وإنما هم أذكياء بفضل ما تلقوا من تربية وتعليم وتدريب، وهذا ما تنص عليه الحكاية منذ البدء.

❐❖❐

الغول والأخوات الثلاث

يحكى أن امرأة فقيرة كان لها ثلاث بنات، ولم يكن عندها شيء تملكه سوى دجاجة وكيس طحين وتنور، فلما حضرتها الوفاة، قسمت كلّ ما تملكه في بناتها، فأعطت الكبرى التنور، والوسطى كيس الطحين، والصغرى الدجاجة.

وعاشت البنات الثلاث معاً، يتساعدن على أمور العيش، ولكن الوسطى كانت دائماً تكيد للصغرى، لأنها حظيت بالدجاجة.

وذات يوم ذهبت الأخوات الثلاث إلى الحمام، وفي الطريق ادّعت الوسطى أنها نسيت المشط، وعرضت عليها الكبرى أن تعطيها مشطها، ولكنها أصرّت على العودة إلى البيت لإحضار مشطها الخاص، وهكذا مضت الأختان الكبرى والصغرى إلى الحمام، على حين رجعت الوسطى إلى البيت، وبادرت إلى دجاجة أختها، ففصلت رأسها عن جسدها، ثم رمت به إلى الكلاب، ورجعت إلى الحمام.

وبعد ساعة أو ساعتين، خرجت الأخوات من الحمام،

وأسرعت الصغرى إلى دجاجتها لتطعمها فلم تجدها، ورأت باب الخم مفتوحاً.

فسألت أختها عنها، فأجابتها: "لا شك في أنها سقطت في البئر"، ثم اقترحت أن تربطها بحبل، لتنزل إلى البئر، فتخرج الدجاجة.

وتعاونت الكبرى والوسطى في ربط أختهما الصغرى، وأخذت تنزل إلى البئر، ولكن الوسطى أفلتت الحبل، فهوت الأخت.

وكانت البئر واسعة، وفي قاعها مصاطب، وشاءت الأقدار ألا تصاب الأخت بأذى، وقعدت على المصطبة، تنتظر الفرج، وبينما هي كذلك إذ خرج لها غول كبير، حملها ومضى يقطع بها الفيافي والقفار، حتى بلغ قصراً فخماً، وهناك سألها إن كانت ترغب في أن تكون أخته أو ابنته أو زوجته، فاختارت أن تكون ابنته، فأعطاها مفاتيح القصر، وقال لها: تمتعي بما شئت من ثياب أو طعام أو جواهر، ولكن لا تفتحي تلك الغرفة"، ثم ودعها، وغاب.

وأخذت تفتح غرف القصر غرفة غرفة، وتنتقي أفخر ما ترى من ثياب، وتأكل أشهى ما تحب من طعام، وتتحلّى بالأساور والعقود، حتى بلغت الغرفة التي أوصاها بعدم فتحها، فترددت هنيهة، ولكنها ضعفت، فبادرت إلى فتحها، فرأت أكواماً من الذهب، لم تصدق أنه ذهب، فلمسته

فإصبعها، فعلقت بها قطعة منه، ولم تتمكن من الخلاص منها، فلفتها بالقماش.

وفي المساء حضر الغول، فرأى إصبعها، فسألها، فأخبرته أنها مجروحة، فسأل الصحون والملاعق والسكاكين، فأجابته بأنها لم تجرح إصبعها، فعرف عندئذ أنها قد فتحت الغرفة، فقال لها: "الذهب هو لك، فخذي منه ما شئت" ففرحت بذلك فرحاً شديداً.

وذات يوم، بينما هي في حديقة القصر، إذ مرت بها وزة، فقالت لها: "هذا الغول يربيك اليوم، ليأكلك في الغد"، فحزنت البنت وأخذت تبكي، وجاء الغول، فرآها على هذه الحال، فسألها عن السبب، فأخبرته بما قالت لها الوزة، فأكد لها أن ذلك غير صحيح، ثم لقنها قولاً آخر، وهو أن الغول يربي الوزة ليذبحها في يوم عرس ابن السلطان، وفي اليوم التالي ردّت البنت على الوزة بمثل ما أخبرها به الغول، فحزنت الوزّة، وأخذت تبكي.

وفي يوم آخر، بينما هي في حديقة القصر، إذ مرّ بها ابن السلطان، فأعجب بجمالها، وقررّ الزواج منها، ورجع إلى أمه يخبرها بقراره، فدهشت الأم، ولكنها اضطرت إلى تلبية رغبة ابنها، ومضت في اليوم التالي إلى قصر الغول، فقرعت الباب، فخرجت إليها البنت نفسها، إذ لم يكن الغول موجوداً، فسألتها عن قصدها، فأخبرتها برغبة ابنها في الزواج منها، ثم طلبت أن تسأل الغول عما يطلبه مهراً لها.

ولما رجع الغول أخبرته البنت برغبة ابن السلطان في الزواج منها، وسألته عما يطلب فأخبرها إنه يطلب دجاجة وفراخها من ذهب خالص.

وفي اليوم التالي جاءت الأم تسألها، ورجعت إلى ابنها تخبره بطلب الغول، وعلى الفور حمل سيفه وعشر دجاجات مشوية ومشطاً، ثم امتطى فرسه وانطلق، حتى بلغ مغارة موحشة، يسكنها غول شرس، دخل عليه، فألقى السلام، ثم بادر إلى شعره فأخذ يمشّطه، ثم ألقمه دجاجة مشوية، وبعد ذلك سأله أين يمكن العثور على دجاجة وفراخها من الذهب الخالص، فدلّه الغول على أخ أكبر منه عمراً وأكثر حكمة.

وانطلق ابن السلطان إلى الغول الثاني، وبادرة بالسلام، ثم أخذ يمشط شعره، ثم ألقمه دجاجة مشوية، ثم سأله السؤال نفسه، فدّله على أخت له أكبر منه عمراً وأكثر منه حكمة.

وانطلق ابن السلطان إلى الغولة، وبادرها بالسلام، ثم أخذ يمشط شعرها، ثم ألقمها دجاجة، ثم سألها السؤال نفسه، ثم دلّته على مغارة يقف في بابها عملاق، عليه أن يأمره فور وصوله إلى المغارة بإحضار الماء للفرس، حتى إذا التفت العملاق ليحضر الماء، فعليه أن يضرب عنقه بالسيف ضربة واحدة، ثم يدخل المغارة، وعندئذ سيجد الدجاجة وفراخها من ذهب خالص، وعليه بعد ذلك أن

يحضر الرأس والدجاجة والفراخ إليها.

وأسرع ابن السلطان إلى المغارة، ونفّذ ما أوصته به الغولة، ورجع إليها يحمل رأس العملاق، ثم مضى بالدجاجة وفراخها إلى قصر الغول.

وما هي إلا أيام حتى تم زفاف البنت إلى ابن السلطان، فأقيمت الأفراح، ونصبت الموائد، وتمّ ذبح الوزّة، وقدمت على المائدة طعاماً لابن السلطان وزوجته.

تعليق:

تؤكد الحكاية ما يلقاه الفقير من عناء وشقاء وما يمر به من تجارب صعبة حتى يصل في النهاية إلى السعادة ويلاحظ أن السعادة غالباً ما تتمثل في زواج البائس الفقير من أميرة يرث عرش أبيها، أو فقيرة بائسة يتزوجها ابن ملك، وفي الأحوال كلها تظل صورة القصر وكرسي العرش والملك هي الممثلة للسعادة، ومثل هذه الصورة لا يمكن أن تفهم على أنها محض ملك وقصر، وإنما هي رمز للقوة والسلطة والقدرة على الفعل وممارسة الحياة وتحقيق الوجود.

ويلاحظ أن الذي يردف ذلك كله، بل الذي يحركه هو الحب، أو بتعبير أدق الإعجاب، إذ يرى ابن الملك فقيرة يعجب بها، فيقرر الزواج منها، أو ترى ابنة الملك فقيراً فتعجب به وتقرر أيضاً الزواج منه.

وفي الحالات كلها تظل الطريق إلى تحقيق الخلاص محفوفاً بمخاطر ومهالك كثيرة، ولا يتحقق الخلاص إلا بقوى سحرية غريبة.

وهذه الحكاية لا تختلف عن ذلك، وتظهر فيها البنية الثلاثية واضحة، وهي تتكرر ثلاث مرات، في البنات الثلاث، وفي الأشياء الثلاث التي ورثتها، وفي الغولات

الثلاث.

❒❖❒

الخرزة الزرقاء

يحكى أن أحد الملوك كان له ولد وحيد، رباه فأحسن تربيته، وكان يعدّه ليرث الملك من بعده، ويتمنى أن يزوّجه قبل أن يحين أجله، ولكنه شاءت الأقدار أن يموت الملك قبل تحقيق أمله، فورث ابنه من بعده الملك، وشغل بأمور البلاد والعباد، وكان كلما عرضت عليه أمه أمر الزواج طلب منها التريث.

وذات يوم ألحّت عليه، وأكدت له أن أمور الحكم وشؤون البلاد وقضايا الناس لا تنتهي، ويجب ألا تشغله عن الزواج، فصارحها بأنه سمع كثيراً عن خيانة النساء، وأنه لا يكاد يثق بواحده منهن، فأكدت له أنها ستبحث له عن ذات الأخلاق، فقبل مضطراً، وطلب أن تشترط على العروس الطلاق إذا لم تعجبه أخلاقها.

واهتدت الأم إلى فتاة جميلة، عرف أهلها بالخلق القويم، وكان الزفاف، وكان لدى ابنها الملك خرزة زرقاء، إذا وضعها على صدر النائم، تكلم بكل ما يخفيه من أسرار، وفي الليل وضع على صدر عروسه تلك الخرزة،

فأخذت تتكلم بأشياء وأشياء لم يتوقع سماع مثلها، ولذلك أعلن في الصباح طلاقها.

ومرت الأيام، تلتها السنون والأعوام، والأم تلحّ على الولد بالزواج ثانية، وهو يأبى، إلى أن وافى الأم الأجل، فأصبح وحيداً لا يرعاه أحد.

وذات يوم خرج إلى الصيد مع بعض الخدم، فرأى غزالة، طاردها، ففرّت منه، وظل يتبعها، حتى وجد نفسه وحيداً في أرض خلاء، وقد أضاع خدمه، ثم تلّفت حوله، فرأى خيمة بعيدة، فقصدها فخرج إلى استقباله شيخ عجوز، رحب به أجمل ترحيب، وكانت لديه ثلاث بنات صبايا، طلب منهن ذبح شاة وإعداد الطعام، ووجد الملك في البنات الخفر والحياء، وقد مال قلبه إلى الصغرى، فخطبها من أبيها، وكان الزفاف.

وفي الليل، والعروس نائمة، وضع الملك على صدرها الخرزة الزرقاء، فما تكلمت إلا عن والدها وأخواتها والشياه، فاطمأن قلبه، وهكذا ظل على هذه الحال، يضع على صدرها الخرزة، فلا يسمع إلا ما يسره ويرضيه، فاطمأن إليها، وسعد بها.

وذات يوم دعاه ملك أحد البلاد إلى زيارته، فودّع زوجته، ومضى مطمئناً، ولم يعنّ على باله أي خاطر.

وفي غيابه وقفت مرة في شرفة القصر، لتسلّي نفسها،

فلمحها رجل عابر، فهام بها حباً، وسعى إلى لقائها، وهي لا تدري من أمره شيئاً، فأرسل إليها عجوزاً، حدثتها عنه، فصدّتها، وردّتها، ولكنها عادت مرة بعد مرة، تؤكد رغبة ذلك الرجل في لقائها، فأثارت فضولها، ورغبت في اكتشاف هذا المجهول، وهكذا وافقت، لا عن قناعة ورضا، ولكن عن حب الاطلاع والمعرفة، ولكنها اشترطت على العجوز أن يحفر ذلك الرجل سرداباً من بيته إلى قصرها، تمرّ فيه من غير أن يراها أحد، فنقلت رغبتها إليه، فوافق.

وخلال أقلّ من شهر كان السرداب جاهزاً، وهكذا عبرت من قصرها في السرداب، حتى بلغت دار الرجل وإذا هي قصر منيف، لا يقل عن قصر الملك جمالاً، وكان الرجل تاجراً من كبار التجار، وقد أعدّ لها مائدة لا أشهى منها ولا أطيب، فرحّب بها أجمل ترحيب، ثم دعاها إلى الطعام والشراب، فكانت تتظاهر بتناول كل ما يقدم إليها، ثم غافلته، ووضعت في كأس شرابه مادة منوّمة، فإذا هو يستسلم إلى نوم عميق، فحملته، ووضعته في إحدى الغرف، وأقفلت عليه الباب، ثم رجعت إلى قصرها.

ومرت الأيام، ورجع الملك للقصر، وكعادته، وضع على صدر زوجته وهي نائمة الخرزة الزرقاء، فأخذت تتكلم بما أذهله، وفي الصباح طلب منها أن تحمل ما تشاء وتغادر القصر، دون أن تسأل عن السبب، فانصاعت إلى الأمر، وخرجت لا تحمل شيئاً.

ونزلت إلى السوق، فباعت بعض أساورها الذهبية، ثم اشترت ثياب رجل، وارتدتها، ثم أخذت تطوف على التجار، حتى التفت تاجراً رأت فيه ملامح الوقار والتّقى، فعملت عنده أجيراً.

وأخذت تتقن أساليب البيع والشراء، وتعرف ما هو رائج في السوق وما هو كاسد، ثم باعت ما تبقى لديها من أساور، واشترت دكاناً، وأخذت تعمل تاجرة لحسابها الخاص، وهي ما تزال في زي رجل، لا يعرفها أحد.

واستطاعت يوماً بعديوم أن تحرز مزيداً من الربح والنجاح، فتوسعت تجارتها، وطارت سمعتها، وذات يوم زارها الملك نفسه يريد شراء بعض الحاجات، فأكرمته أي إكرام، وعرضت عليه الصداقة، فسرّ الملك بها أشد السرور، وهو لا يعرفها، وقد ظنها واحداً من أولئك التجار الشباب.

ثم دعاها الملك إلى القصر، فلبت الدعوة، وجلست إلى مائدته، ثم قبل أن تودّعه دعته إلى زيارتها، فتقبل الدعوة، وكانت قد اشترت دار التاجر نفسه الذي أراد التغرير بها، وأبقته محبوساً في غرفته، وعيّنت خادماً يرعاه.

وفي الموعد حضر الملك، وكانت قد أعدت له مائدة

لا نظير لها، وأخذت تحدثه وتؤانسه، ثم أخذت تستدرجه في الحديث، وتسأله عن سبب وحدته، وإن كان له زوجة؟ فتألم وباح لها بأسراره، وحدثها عن زوجته التي خانته في غيابه.

ثم أخذت تطوف به أرجاء القصر، وتفتح غرفه واحدة بعد أخرى، ليرى ما فيها من فرش وأثاث، حتى إذا بلغت الغرفة التي كانت قد حبست الرجل فيها، ولما فتحتها ورأى الرجل المحبوس فيها، دهش، وسألها أن تحدثه عن أمره.

وعندئذ حدثته عن كل ما كان، وخلعت زي الرجل، وإذا هي زوجته، فاعتذر إليها، وأعادها إلى قصره، ليعيشا بقية العمر في سعادة وسرور.

تعليق:

تؤكد الحكاية حرص الرجل على أن تكون زوجته عفيفة محصّنة، ومرجع هذا الحرص إلى قيمة العفّة والشرف والوفاء، ولكنه يقود في بعض الحالات إلى قدر غير قليل من التجني والظلم، حيث تتحول الوسيلة إلى غاية، وتنسى الغاية.

وتدل الحكاية على أن عفة المرأة أمر تقرره هي، ولا يفرض عليها، وكما تدل على أن العفة حالة داخلية، وليست شكلاً خارجياً.

وتشير الحكاية إلى أن الذي يخترق العفة هو الرجل، وأن الذي يصونها حقيقة هو المرأة.

والحكاية تنتصر للمرأة، وتؤكد قدرتها على صون نفسها، وحماية عفتها، وتحقيق ذاتها، والعمل في مجالات الحياة كافة، وليس بالضرورة وراء جدران القصر، بل

تؤكد إمكان تفوقها على الرجل، وقدرتها على إخراجه من إسار عزلته ووهمه.

كما تدل الحكاية على نقاء الحياة في الريف والبداوة، حيث العفة، وفساد حياة المدينة، حيث تخترق العفة، ويثور الشك.

❐❖❐

الحطاب والأفعى

يحكى أن أحد الرجال كان يعمل حطاباً، وكان يحمل كل يوم فأسه، ويمضي إلى الغابة، ليقتطع بها بعض الأحطاب، ثم يرجع إلى المدينة، فيبيعها، ويشتري لأولاده الطعام.

وكان من عادته أن يحمل معه نايا، وبعد أن يقتطع الأحطاب، يقعد في ظل شجرة ليستريح، ويأخذ بالعزف على الناي ليسلي نفسه، ويريحها من عناء العمل.

وذات يوم، بينما هو في الغابة، هطل مطر شديد، فأوى إلى كهف، وأخرج الناي، وبدأ يعزف عليه، فبرزت له من جحر أمامه أفعى، وأخذت تقترب منه شيئاً فشيئاً، وهي تتمايل نشوى، فلما دنت أكثر، ذعر، وتوقف عن العزف.

وانتفضت الأفعى، فإذا هي صبية حسناء، تقول له:

"اعزف، ولا تخف"،

فأخذ يعزف، والصبية الحسناء قاعدة على الأرض أمامه، تصغي إلى عزفه بكل جوانحها، وهو يستوحي من

حسنها أجمل الألحان، حتى إذا ما تم العزف، وهم بالنهوض، رمت إليه بصره فيها دنانير ذهبية، ورجته أن يأتي إلى المكان نفسه، لتستمتع بعزفه.

وهكذا أخذ الحطاب يأتي كل يوم إلى الكهف، فيعزف، فتخرج له الأفعى، ثم ما تلبث، حتى تنقلب إلى صبية حسناء، فتصغي إلى عزفه، ثم ترمي له بصرة نقود، ثم تنقلب أفعى وتعود من حيث أتت.

وظل الحطاب والأفعى على هذه الحال، أشهراً، هو يعزف، وهي تطرب، وقد تعاهدا على أن يكونا أخوين، لا يجمعهما سوى نغم الناي الحزين.

وذات يوم أراد الحطاب أن يؤدي الحج، فدل ابنه على موضع الكهف، وأوصاه بتلك الحسناء خيراً، وأكد له أنها كانت له بمنزلة الأخت، وأنه لم يمسّها، ونصح له أن يحفظ ما بينهما من عهد، وأن يحفظها مثلما حفظها هو، ولا يفكر بنيل شيء منها، وإلا خسر.

ومضى الشاب إلى موضع الكهف، وأخذ بالعزف على الناي، وإذا الحسناء تظهر له، فأذهله حسنها، ولكنه ذكر نصيحة أبيه، فنهى نفسه عن الهوى، وأخذ يصب كل أحاسيسه في نايه، ولما فرغ من العزف، شكرت له الحسناء عزفه الجميل، ثم رمت له بصرة دنانير ذهبية، وانصرفت من حيث أتت.

وهكذا استمر الفتى على هذه الحال ولكنه يوماً بعد يوم، كان يحسّ بميل إليها، ويشعر برغبة في أعماقه، وذات يوم راودها عن نفسها، فذكرته بما بينها وبين أبيه من عهد، ونصحت له ألا يقترب منها، ولكن هواه غلبه، فهمّ بها، فإذا هي تنقلب أفعى، فتشبّث بها، وشد عليها قبضته، ولكنها اندفعت تريد الخلاص منه، وإذا ذيلها ينقطع، فالتفتت إليه، ونفخت فيه، فإذا هو قد استحال رماداً.

ومرت الأيام، ورجع الأب من الحجاز، فلم يجد ابنه بين المستقبلين، فحمل نايه ومضى إلى الكهف، وأخذ يعزف، فخرجت إليه الحسناء، وهي تعرج، فدهش، ولما سألها عن الأمر، أخبرته بما كان من ولده، ثم اعتذرت إليه، وهمت بالمضي، مؤكدة له أنه لا يمكنهما أن يستمرّا على نحو ما كانا عليه من قبل، فهو لا يمكنه أن ينسى ولده، وهي لا يمكنها أن تنسى ذيلها.

وأكد لها الرجل وفاءه، وأسفه على ما كان من ولده، ووعدها أن يظل على عهده، يأتي كل يوم ليعزف لها، كعادته، فأخبرته أنها لم تعد قادرة على إعطائه ما كانت تعطيه إياه من قبل، ثم أخبرته أنها ابنة ملك الجان، وكانت كنوز أبيها تحت يدها، ولما رأى رجلها قد قطعت وعرف علاقتها مع الإنس، نقم عليها، وطردها من قصره، فهي الآن مشردة، ولا تملك شيئاً، فأكد الرجل أنه لا يريد منها سوى أن تصغي إلى عزفه.

ولما رأت منه ذلك الوفاء، قدّمت إليه ذيلها المقطوع، ثم طلبت منه أن يغرسه في فناء الدار، وسيرى ما يسّره.

وهكذا حمل الرجل الذيل، وغرسه في فناء الدار، وظل كعادته، يمضي كل يوم إلى الكهف، فيقعد ساعات وساعات، يعزف لتلك الصبية الحسناء، وهو لا يريد منها شيئاً.

ولكن ذات يوم فوجئ بالذيل المغروس في فناء الدار، قد نبت في موضعه شجرة صغيرة، أخذت تنمو شيئاً فشيئاً حتى طالت، ثم تفتحت عن جوهرة كبيرة، قطفها، ونزل بها إلى السوق، فباعها واشترى بثمنها الطعام والثياب.

وفي كل يوم كانت الشجرة تزهر جوهرة، يبيعها، حتى اغتنى الحطاب، وامتلك محلات ودكاكين، وأصبح من كبار التجار.

وظل على عهده مع الجنيّة الحسناء، كل يوم يمضي إلى الكهف، فيعزف لها، حتى يأخذ منها الطرب كل مأخذ، ثم تشكره، وتمضي في حال سبيلها.

وزادت ثروة الحطاب، وأصبح من كبار التجار بل إنه أخمد تجارة أكثرهم، وتمكن من السيطرة على السوق، حتى ضاقوا به ذرعاً، وأرادوا معرفة مصدر رزقه.

وفي جلسة كان الحطاب فيها مع التجار، تساءلوا عن مصدر ثروته، فقال لهم: "إذا عرفتم مصدر ثروتي، فإن

مالي كله حرام عليّ، حلال عليكم"، ثم إنه أعطاهم مهلة عشرة أيام.

وأخذ التجار يدورون في الأسواق، ويسألون عن مصدر ثروة ذلك الحطاب، ولكن من غير أن يحصلوا على جواب.

ولكن أحدهم كان ماكراً، لجأ إلى عجوز، وطلب منها أن تدخل على زوجة الحطاب، وتحاول معرفة مصدر الثروة.

وهكذا ذات يوم، بينما كانت زوجة الحطاب في دارها، إذ قرعت عليها الباب عجوز، استأذنتها في أن تسمح لها بالدخول إلى دارها، كي تتوضأ وتصلي، فقد أدركتها الصلاة، وبيتها ما يزال بعيداً، فرحّبت بها زوجة الحطاب، وقادتها إلى الداخل، حيث توضأت وصلت.

ثم شكرت العجوز لزوجة الحطاب كرمها، وحسن ضيافتها، وأسمعتها كلمات حلوة، أثرت فيها وأخذت تسألها شيئاً فشيئاً عن زوجها وعمله، وزوجة الحطاب مطمئنة إليها، مسرورة بحسن حديثها، حتى كان سؤالها عن مصدر الثروة، فحدثتها زوجة الحطاب، الحديث كله.

ورجعت العجوز إلى ذلك التاجر وأخبرته بكل ما سمعت، وفي الموعد المحدد التقى التجار، ودخل عليهم الحطاب وهو مطمئن إلى أن أحداً لم يعرف مصدر ثروته،

ولكن تاجراً قال له: "مصدر ثروتك الصبية الحسناء، التي تعزف لها كل يوم في الكهف"، وأقرّ الحطاب بذلك ثم تنازل عن ثروته كلها لذلك التاجر، وترك المدينة، لا يحمل شيئاً، وقصد على الفور إلى الكهف.

وحدّث الحطاب الصبية الحسناء بكل ما كان، فأخبرته أن حظّه في بستان "أبو السعود" وما عليه إلا أن يسير إليه، ليبحث عن حظه فيه، ثم زودّته ببكرة من الخيطان، ألقاها، فأخذت تتدحرج، وهو يتبعها، حتى بلغ شجرة تين، ثمارها مدلاة، هم بقطف تينة، وقد أخذ الجوع منه كل مأخذ، ولكن الشجرة قالت له: "لا تخدع بمظهر التين الناضج، فهو سام هالك"، فعفّ عنه، ثم سألته عن مقصده، فأخبرها أنه ماض إلى بستان "أبو السعود" فرجته أن يسأل عن حظها.

وبينما هو في الطريق، رأى ابنة ملك تطل من شرفة قصرها، أدهشه جمالها، حياها، فردت عليه بتحية أحسن من تحيته، فأعجبه أدبها، ولكنه لاحظ ثبات حدقتيها، ثم سألته عن مقصده، فأخبرها أنه ذاهب إلى بستان أبو السعود، فرجته أن يسأل عن حظها، فهي على الرغم من جمالها عمياء.

وتابع الحطاب طريقه، حتى بلغ بحراً يقع وراءه "بستان أبو السعود"، فحار في أمره كيف سيقطع البحر، وبينما هو كذلك إذ ظهرت له سمكة، طافية على سطح البحر، سألته عن مقصده، فأخبرها، فعرضت عليه أن تنقله إلى بستان

أبو السعود على شرط أن يبحث عن حظها في ذلك البستان، إذ أنها شقية بما كتب عليها من أن تطفو على سطح البحر، ولا تتمكن من الغوص فيه، فيظل ظهرها معرضاً للعواصف والشمس والرياح.

وهكذا حملت السمكة الحطاب إلى بستان أبو السعود، ولما دخله ذهل مما رأى، فثمة أناس يضحكون ويرقصون ويمرحون، وآخرون يبكون ويلطمون، وبعضهم في الظلال الرطبة، وأمامهم الأنهار، وبعضهم غارق في المياه العكرة الآسنة.

ثم رأى شاباً يرقص ويغني وقد أخذ منه الطرب كل مأخذ، فسأل عنه، فعرف أنه حظ صديقه التاجر الذي سلبه ماله كله. فسأله عن حظه هو، فأشاروا إلى رجل غارق في الوحل يكاد يختنق، فأسرع إليه، فأخرجه إلى الشاطئ، ثم غسله بالمياه، وألبسه الثياب، ورجاه أن يقعد بانتظاره، ثم سأل عن حظ السمكة، لماذا لا تتمكن من الغوص إلى الأعماق؟ فأخبروه أنها كانت قد ابتلعت جوهرتين كبيرتين، ولذلك فهي لا تغوص، وما عليها إلا أن تقذفهما، ثم سأل عن ابنة الملك، لماذا هي عمياء؟ فأجابوه بأن بصرها سيعود إليها إذا هي تزوجت منه، ثم سأل عن التينة، لماذا ثمرها سام، فأجابوه بأن تحت جذرها سبع جرار مملوءة ذهباً، مرصودة، متى استخرجها، عاد ثمرها حلواً.

وأسرع الحطاب إلى الشاب الذي كان مستغرقاً في

الرقص، فلكمه لكمة، فإذا هو على الأرض، فحمله، ثم رمى به في الماء العكر، وهو يمثل حظ التاجر الذي سلبه ماله.

وفي تلك اللحظة بدأ الرقص ذلك الشاب الذي كان قد أخرجه من الوحل، وهو يمثل حظه.

ثم قدم إلى شاطئ البحر فبرزت له السمكة، وسألته إن كان قد عرف حظها، فطلب منها أن تنقله أولاً إلى الشاطئ الآخر، فحملته، وهناك أخبرها عن الجوهرتين اللتين في جوفها، فقذفتهما على الفور، وغاصت في البحر، فحملهما الحطاب ومضى.

ثم مرّ بابنة الملك، ولما أحست به، يقترب منها، سألته إن كان قد عرف حظها، فأخبرها أن بصرها سيرجع إليها إذا قبلت به زوجاً لها، فوافقت، وعلى الفور، عقد قرانهما، وكان الزواج فارتدّت بصيرة.

ثم أخذ زوجته ومضى حتى بلغ شجرة التين، فأخبرها أن ثمرها سيعود حلواً، إذا هي أذنت له أن يحفر أسفل جذعها،، ليأخذ الجرار السبع، فأذنت له، فبادر على الفور إلى الحفر، حتى إذا برزت الجرار، أفرغها في أكياس حملها على ظهور الحمير، ومضى مع زوجته ابنة الملك حتى بلغ مدينته.

وهناك اشترى قصراً ومحلات ودكاكين كثيرة

وبضاعات، ورجع إلى السوق، ودهش التجار لما رأوا تلك الأموال التي فاقت ثروته الأولى وزادت عليها، ولما سألوه عن المصدر، عرض عليهم عرضه السابق قائلاً: "مالي كلّه حلال لكم، إذا عرفتم مصدره". أما إذا لم يعرفوه، فإن أموالهم كلها ستؤول إليه، فوافق التجار، ووضعوا مدة عشرة أيام، بتحريض من التاجر الشاب، الذي كان قد عرف مصدر الثروة أول مرة.

وعلى الفور أرسل ذلك التاجر العجوز نفسها إلى منزل الحطاب، ولجأت إلى الحيلة نفسها، فرحّبت بها زوجة الحطاب، وفسحت لها المجال لتصلي، ثم حاولت سؤالها عن مصدر تلك الثروة، ولكنها لم تظفر بشيء.

ومرة بعد مرة، كررت العجوز زيارتها إلى زوجة الحطاب، وفي كل مرة كانت ترجع خائبة، وفي المرة الأخيرة، طردتها شر طردة.

ومرت الأيام العشر، ولم يعرف أحد من التجار مصدر ثروة الحطاب، فتنازلوا له جميعاً عن ثروتهم، ولكنه كان أكرم منهم، فرد عليهم أموالهم.

ثم قصد إلى الكهف وأخذ يعزف على الناي، فبرزت له الصبية الحسناء، وأخبرته أن هذا هو آخر لقاء بينهما، فقد تقدم إلى خطبتها ابن عمها، ورضيت به زوجاً لها، ورجته ألا يرجع بعد اليوم إلى الكهف.

وكانت زوجة الحطاب التي باحت بمصدر ثروته قد نال منها المرض، ندماً على بوحها بمصدر ثروة زوجها، فاعتلت وماتت.

وهكذا عاش الحطاب مع زوجته ابنة الملك التي شفاها من العمى، وسعدا معاً بالحياة.

تعليق:

تكشف الحكاية المفارقة الكبيرة بين عالم المدينة وعالم الغابة، فهنا البراءة والنقاء والصدق، والكسب بوساطة الجد والكدح والتعب، حيث الجنّ تتعاطف مع البشر وتحبهم، وهناك، في عالم المدينة، الخداع والكذب والغش، والكسب بوساطة التجارة والتزييف والكذب، حيث الإنسان لا يحب أخاه الإنسان بل يمكر به.

والحكاية كما هو واضح تدين مجتمع المدينة وما فيه من زيف، وتنتصر لمجتمع الغابة وما فيه من صدق، وهي تعبرّ عن حنين جارف إلى هذا المجتمع، بوصفه عالماً قديماً تحوّل عنه الإنسان.

والحكاية تدل بصورة غير مباشرة على الفن النقي الصافي المبرأ عن الأهواء والأغراض، وبه يتحقق السمو والخلاص، فالحطاب يعزف للصبية الحسناء، ويظل يعزف لها بعد موت ولده بسببها، وبعد انقطاع عطائها له، وهو لا يريد سوى العزف والجمال، ولا يحدث بينهما شيء من صلة أو علاقة جسدية، خلاف ولده الذي تطلع إلى شيء من هذا فاحترق.

والحكاية مبنية على حكاية عربية قديمة معروفة قبل الإسلام لا تختلف عن بداية هذه الحكاية إلا قليلاً، إذ تروي أن راعياً التقى حية، فتعاهدا على مثل ما تعاهد عليه الحطاب والأفعى، ثم مرض الراعي، وحل أخوه محلّه، فطمع في ذهب الأفعى كله، وضربها بفأسه، فأصاب

ذيلها، فلدغته فمات، ولما رجع أخوه إلى الأفعى، وسألها أن يعودا إلى ما كانا عليه اعتذرت، مؤكدة أنها لا يمكنها أن تنسى ذيلها وهو لا يمكنه أن ينسى أخاه، فهي تتوجس منه خيفة، وهي في هذه الحكاية العربية القديمة محض أفعى، وليست جنية حسناء.

وواضح ما في الحكاية الجديدة من امتداد، وتطوير، وغنى في الخيال، ونمو في العناصر، وتعقيد في البناء والأفكار.

وأبرز ما في هذه الحكاية بستان أبو السعود الذي كاد يشبه في شكله وصورته الجنة والنار، ومع الاختلاف في الهدف، فهو يتفق معهما في أن لكل امرئ حظاً في ذلك البستان يشبه حظه في الحياة، على مبدأ الجزاء من جنس العمل، فمن كان سعيداً في الدنيا فحظه سعيد مثله في بستان أبو السعود.

ولعل أقوى ما في الحكاية إدانتها التجارة وأساليبها، إذ قد يكسب المرء كل شيء أو قد يخسر كل شيء في صفقة واحدة.

❐❖❐

الملك وبنت الحمّامي

كان أحد الرجال يملك حمّاماً، كان يقعد وراء الصندوق، يأخذ من المستحمين الأجرة، وذات يوم دخل الحمام رجلان في زي تاجرين، وبعد أن استحمّا، قدم له أحدهما قبضة من ذهب، وقدّم الآخر قبضة من فضة، أجرة استحمام كل منهما، ثم طلبا منه تفسير ذلك، وأمهلاه ثلاثة أيام.

وحار الحمامي في الأمر، ما معنى ذلك كله؟ وكانت له بنت وحيدة، رأت حيرته واضطرابه، فسألته عما به؟ فأخبرها؟ فأجابته بأن الأمر بسيط جداً، فأما الذي أعطاه قبضة ذهب فهو الملك، وأما الذي أعطاه قبضة فضة فهو الوزير.

ويرجع الحمامي إلى حمامه مسروراً، وفور دخول الرجلين عليه، يخبرهما بالجواب، فيسأله عندئذ الملك: "سأسألك عن صينية فيها لآلئ، يأتي طائر فيخطف منها لؤلؤة، ما تفسير ذلك؟"، ثم يمهله ثلاثة أيام.

ويرجع الحمامي إلى ابنته، فيعرض السؤال عليها، فتجيبه بأن الصينية هي الدنيا واللآلئ هي الأرواح والطائر هو ملك الموت يقبض تلك الأرواح.

وبعد ثلاثة أيام يحضر الملك ووزيره إلى الحمام متنكرين، ويجيبهما الحمامي بمثل ما أجابت ابنته، فيسرّ الملك بالجواب، ثم يطلب منه أن يجيبه عن هذا السؤال: "ما الواحد لا يصير اثنين؟؟ وما الاثنان لا يصيران ثلاثة؟؟ وما الثلاثة لا تصير أربعة؟ وما الأربعة لا تصير خمسة؟ وما الخمسة لا تصير ستة؟ وما الستة لا تصير سبعة؟ وما السبعة لا تصير ثمانية؟ وما الثمانية لا تصير تسعة وما التسعة لا تصير عشرة، وما العشرة لا تصير أحد عشر وما الأحد عشر لا يصير اثني عشر، وما الاثنا عشر لا يصير ثلاثة عشر؟"

ويذهل الحمامي أمام السؤال، ويرجع إلى ابنته وهو قلق، يخشى ألا تتمكن من الجواب، وقد أمهله الملك أيضاً ثلاثة أيام.

وعلى الفور تجيبه ابنته قائلة: "الواحد لا يصير اثنين هو الله، والاثنان لا يصيران ثلاثة هما الليل والنهار، والثلاثة لا تصير أربعة القسم بالطلاق، والأربعة لا تصير خمسة الخلفاء الراشدون، والخمسة لا تصير ستة أوقات الصلاة، والستة لا تصير سبعة أيام شوال الستة، والسبعة لا تصير ثمانية أيام الأسبوع، والثمانية لا تصير تسعة

كلب أهل الكهف هو ثامنهم، والتسعة لا تصير عشرة أشهر الحامل، والعشرة لا تصير أحد عشر الرجال المبشرون بالجنة، والأحد عشر لا تصير اثنتي عشر هم إخوة يوسف الصديق، والاثنا عشر لا تصير ثلاثة عشر أشهر السنة".

ويسترجعها والدها الجواب، فتعيده عليه، فيؤكد لها أنه لم يتمكن من حفظه، وعندئذ تكتب له الجواب على ورقة.

ويحضر الملك ووزيره إلى الحمام، فيعطيه الجواب مكتوباً على ورقة، فيقرؤه الملك، فيسرّ به، ثم يسأله عن صاحب الأجوبة فيخبره بأنه ابنته، فيسأله الملك الزواج منها، فيخبره أن عليه أنْ يشاورها في الأمر.

ويعرض الحمامي على ابنته الزواج من الملك، فتجيبه بالموافقة، على شرط أن يتمكن الملك من تلبية طلبها، وهو أن يحضر لها الأرض التي لم تدس، والقمر الذي لم يخسف، والنجوم التي لم تعدّ.

ويرجع الحمامي إلى الملك بالسؤال، فيعده بذلك، وفي اليوم التالي يرسل إليها بساطاً جديداً مطوياً، هو الأرض التي لم تدس، وصينية من فضة، هي القمر الذي لم يخسف، وقد ملئت بالذهب، وهو النجوم التي لم تعدّ.

ويحمل البساط والصينية خادمان هما سعد ومسعود، فيقرعان عليها الباب، فتجيب بأنها مشغولة وما عليهما إلا

أن ينتظرا ريثما تنزل إليهما، ثم تتأخر عنهما، وهي ترقبهما من نافذة فوق باب الدار، لترى ما سيصنعان، وإذا هما يمدّان البساط فيقعدان عليه، ثم يأخذان في عدّ الذهب، وقبل أن يفرغا من العدّ يضع كل منهما في جيبه بضع قطع.

ثم تفتح لهما الباب، وتدعوهما إلى ادخال ما يحملان إلى الدار، وقبل أن يخرجا تطلب منهما أن يخبرا الملك أن الأرض قد ديست، وأن القمر قد خسف وأن النجوم قد عدت ونقصت.

ويرجع الخادمان إلى الملك، ويخبرانه بما قالته لهما، فيأمر بقطع رأسهما، فيدهشان، يسألانه عن السبب، فيسألهما إن كانا قد مدّا البساط وعدّا الذهب، وسرقا منه شيئاً؟ فيقرّان، فيعفو عنهما.

وفي اليوم التالي ينزل الملك ووزيره إلى الحمام متنكرين كعادتهما، ويسأل الملك الحمامي، عما تجيده ابنته من عمل، فيخبره أنها تحسن الخياطة، فيعطيه قطعة مرمر، فيطلب من ابنته أن تخيط له ثوباً.

ويحمل الحمامي قطعة المرمر إلى ابنته، ويخبرها بطلب الملك، فتعطيه ثلاث قطع صغيرة من الصوان، ليطلب من الملك أن يغزل منها خيطاناً لتخيط له ثوباً.

ويحضر الملك إلى الحمام، فيعطيه الحمامي قطع

الحجارة، فيشعر الملك بالحرج، ويدرك مدى ذكاء تلك البنت، ولكنه يأبى إلا أن يمتحنها أكثر فأكثر، فيحدد لوالدها موعد الزفاف بعد أسبوع، ثم يخبره أنه يطلب منها أن تدعو إلى العرس أربعين فتاة عذراء وكلهن حوامل في الشهر التاسع.

وتدعو ابنة الحمامي أربعين فتاة من جاراتها وصديقاتها وقريباتها، وتضع على بطونهن وسائد، تلفها بالقماش، وتسدل فوقها الأثواب، فإذا هن كالحاملات.

وفي ليلة الزفاف يقيم الملك المآدب، وتدعى إليه الفتيات الأربعون، فيأخذن جميعاً في رمي ما في الصحون على الأرض، ويعبّرن عن اشمئزازهن من الطعام، وعدم رضاهن عنه، ويطلبن من الملك أن يهيّئ لهن لحماً مشوياً في سياخ من جليد على نار من برد، وقد فعلن هذا كله بتوصية من ابنة الحمامي.

ويخلو الملك بالعروس والغضب بادٍ عليه، فقد أحرجته أمام المدعوين بما فعلت، وفور دخوله عليها يؤكد لها عدم رضاه عن كل ما كان، ثم يطلب منها أن تحمل ما غلا ثمنه وخف ثقله وترجع بثياب الزفاف إلى بيت أهلها.

فتظهر ابنة الحمامي الإذعان والقبول، ولكنها تعرض عليه أن يقبل منها هدية زجاجة عطر، كي تبقى لديه للذكرى، ثم تقدمها إليه، فيفتح الزجاجة ويشمها، فيروح على

الفور في سبات عميق، إذ لم تكن زجاجة العطر سوى مخدّر قويّ التأثير.

وتلف ابنة الحمامي الملك في ملاءة السرير ثم تحمله على ظهرها، وتخرج به من باب سرّي، وتمضي به إلى حمام والدها، وهناك تنزله عن ظهرها.

ويستيقظ، فيجد نفسه في الحمام وحده، مع العروس، فيسألها كيف أحضرته إلى هذا المكان؟ فتجيبه ألم يطلب منها أن تحمل ما غلا ثمنه وخف وزنه، وتؤكد له أنها لم تجد سواه، لا أغلى ثمناً ولا أخف وزناً، كما تؤكد له أنها لم تشأ أن يعلم أحد من أهله أو أهلها إذ لا يجوز أن يعلم أحد بشيء مما بين الرجل وزوجته، ولذلك جاءت به إلى الحمام في الليل وهي مغلقة.

وعندئذ يرجوها أن ترجع به إلى القصر مثلما جاءت به، فترجع به من الباب السرّي، ويظل طوال الليل قاعداً من غير أن يكلمها بشيء.

ومع الفجر يخبرها أنه ماض في سفر طريل، وأنه سيترك لها جارية عذراء ومهرة بكراً، وسيرجع بعد سنة، ليجدها والجارية والمهرة وقد وضعت كل منهما مولوداً ذكراً، ثم يودّعها ويمضي.

وتلتفت إلى الجارية على الفور، تطلب منها أن تجهز نفسها، وتمضي معها في إثره، وهما تجرّان المهرة، وقد

ارتدت ثياب فارس، وحملت الشمعدان الذي كان في القصر.

وظلت تتبع الملك من وراء وراء، حتى نزل مع رجاله في واد ظليل قرب نهر، فنزلت قريباً منه، وضربت خيمتها.

وفي الليل، أوقدت الشمعدان، وهي ما تزال في زي فارس، وقعدت تلاعب الجارية بالشطرنج، وقد ربطت المهرة أمام الخيمة.

وبينما هي كذلك، إذ سمعت صوت جوادين، فطلبت من الجارية ألا تبالي بالأمر، وما هي إلا هنيهة حتى دخل عليها الملك وخادمه، معلناً عن رغبته في الأنس والمسامرة، وقد عرّفها إلى نفسه على أنه هو الملك، على حين عرفته إلى نفسها على أنها فارس من بلاد مجاورة.

ثم أمرت الخادمة بالخروج من الخيمة، ودعْت الملك إلى اللعب بالشطرنج، ولما سألها عن جائزة الغالب، أشارت إلى الشمعدان، وعندئذ طلب الملك من خادمه أن يأتي على الفور بشمعدانه.

وأحضر الخادم الشمعدان، فأمره الملك بالانتظار في الخارج، وأخذ يلاعب ابنة الحمامي، عروسه، وهو لا يعرفها، وإذا هو يخسر، فظفرت منه بالشمعدان، ثم دعته إلى دور آخر، فتردّد، فأكدت له أن اللعب دوران، ولما سألها عن نصيب الغالب، أجابته: "عروس جميلة"، فقبل،

وأخذت تلعب وتوقع نفسها في نقلات خاطئة، وظلت تداور الملك، حتى مكنته من الظفر، وعندئذ استأذنته في أن تخرج، لترسل إليه ما وعدته به.

وأسرعت إلى خيمة أخرى، فخلعت ثياب الفارس، وارتدت ثياب العروس، ورجعت إليه، وهو في الحالتين لا يعرفها.

وفي خارج الخيمة كان للخادم من الخادمة ما كان للملك من تلك العروس الجميلة، التي هي عروسه ابنة الحمامي، ولكن من غير أن يعرفها، كما كان الأمر كذلك مع المهرة وجواد الملك.

وقبل الفجر، رجعت ابنة المحامي إلى خيمتها، فارتدت ثياب الفارس، وحملت شمعدان الملك، تاركة له شمعدانها، ثم ارتحلت هي والفرس والجارية.

وشاءت الأقدار أن تحمل لليلتها الإناث الثلاث، العروس والخادمة والمهرة، ومرت الأيام تلتها الشهور، فوضعت كل منهن مولوداً ذكراً.

ثم مرت الأيام والشهور، ورجع الملك من سفره الطويل، فتقدمت إليه ابنة الحمامي تحمل وليدها، تبعتها الجارية، وهي تحمل وليدها أيضاً، وفي المرعى كانت الفرس تسرح مع مهرها.

ولما دخل إلى غرفتها رأى الشمعدان الذي كان قد

خسره حين لاعب ذلك الفارس في الشطرنج. وعندئذ أدرك الملك مقدار ذكاء تلك المرأة، فقدّرها حق قدرها، وألبسها تاج الملك، وجعلها إلى جانبه مليكة، وعاشا معاً بهناءة وسرور.

تعليق:

حكاية تربوية، موجّهة في المقام الأول إلى الفتيات، وهي تسعى إلى طرح أحجيات تثير الذهن، وتعلّم أساليب التراسل الرمزي، وتؤكد دور الذكاء في تحقيق الوجود وإثبات الذات.

وهي تدل على إمكان الفتاة الفقيرة، كابنة الحمامي مثلاً، الزواج من أقوى الرجال وأرفعهم مكانة، كالملك، بفضل الذكاء والحنكة وحسن التدبير.

كما تدل الحكاية على أن الطريق الصحيحة إلى قلب الرجل ليست الخبث أو المكر أو الحيلة، وكذلك ليست الجسد أو الغنى أو المنزلة الاجتماعية، وإنما الطريق الصحيحة هي المعرفة والذكاء وحسن التدبير.

وتتضمن الحكاية عناصر متكررة في حكايات أخرى، ولا سيما عناصر الرمز، وهي عناصر بدائية عفوية بسيطة. والحكاية لا تخلو في ختامها من جرأة تتدرج نحوها شيئاً فشيئاً، وهي تتمثل في اللعب بالشطرنج والظفر بالشمعدان ثم ما يكون بعد ذلك بين ابنة الحمامي والخادمة والمهرة، وبين ما يقابلهن من ملك وخادم وفرس، وهي جرأة مستورة بحسن التقديم الفني، ولا فحش فيها ولا إسفاف، ولا تغيب عنها بذكاء المشروعية، لأن ابنة الحمامي هي زوج الملك شرعاً.

وهذه الجرأة الرشيقة تؤكد مرة أخرى الدور التربوي للحكاية كما تؤكد توجهها نحو الفتيات خاصة، وإن كان ذلك كله يتمّ بصورة غير مباشرة، لا تلقين فيها ولا

إسفاف، مما يدلّ على عفوية الحكاية وفنيتها ويدعم دورها الاجتماعي.

❐❖❐

حكاية مئة موال

يحكى أنه كان في قديم الزمان ملك عظيم، مرت عليه سنون وأعوام، وزوجته لا تحمل، ثم حملت بعد طول صبر وانتظار، ففرح بذلك فرحاً عظيماً، ودعا إليه كبار العرافين والمنجمين، لينظروا طالع المستقبل، فتنبؤوا له ببنت تسيء إليه، فغضب وحزن، وقرر أن يذبح البنت فور ولادتها.

وعلمت الملكة بقرار الملك، فلجأت إلى عرافة، وطلبت منها أن تنظر في الغيب، فتنبأت لها ببنت جميلة، ذكية، يكون لها شأن عظيم، ففرحت الملكة بذلك، ثم طلبت من المربية أن تتدبر الأمر.

ومرت الأيام، وإذا الملكة في المخاض، ولم تلبث أن وضعت بنتاً، تدل ملامحها الأولى على جمال فائق، فحملتها المربية، وخرجت بها، تدق الأبواب، حتى بلغت بيتاً، فيه امرأة وضعت لتوها بنتاً ميتة، فطلبت منها أن تبدل هذه بتلك، وأعطتها صرة نقود، فوافقت المرأة، ورجعت المربية إلى القصر بالبنت الميتة، ثم أرسلت إلى الملك تخبره بأن الملكة وضعت بنتاً ميتة، ففرح بذلك واستبشر.

وبعد بضعة أيام أرسلت الملكة وراء كبير المعمارين، فلما حضر إليها، طلبت منه أن يحفر سرداباً سرياً، يصل جناحها في القصر، بقصر آخر، غير بعيد، خاص بها، وطلبت منه أن يسرع في عمله، ولما أنجز السرداب، مضت المربية إلى المرأة التي استبدلت ابنتها الميتة بابنة الملك، وطلبت منها أن تنتقل وأسرتها إلى قصر الملكة الخاص، ووعدتها أن تعطيها كل يوم صرة نقود.

وفي القصر الخاص، أخذت الملكة تلتقي كل يوم بطفلتها، تتسلل إليها من السرداب، في الصباح، وتمضي معها بضع ساعات، ثم ترجع إلى قصرها، من غير أن يعلم بالأمر أحد، غير المربية.

ومرت الشهور، وتلتها السنوات والأعوام، كبرت البنت فيها وشبت وقد أخذ جمالها يبرز ويتفجر، مثلما أخذ ذكاؤها يبدو قوياً حاداً، وكانت المربية تشرف على تعليمها، فكانت تحضر لها كبار المعلمين، فحفظت القرآن، وأتقنت فنون القول، والغناء.

وكانت أمها الملكة ما تفتأ تزورها كل يوم، وتمضي معها بضع ساعات، بوصفها شقيقة المربية.

وذات يوم، كانت البنت تمرح في حديقة القصر، وإذا شاب وسيم، حسن الطلعة، يبرز لها، فيحدثها، فتأنس به، وتنجذب إلى حلو حديثه، فتهواه.

وأخذ الفتى يبرز لها كل يوم، يجالسها، فيحدثها ويؤانسها، وتحدثه وتؤانسه، ويبثها هواه، وتبثه هواها، حتى مر على ذلك عام أو بضع عام، وإذا هو يعرض عليها أن يأخذها إلى أهله ليقدمها إليهم، ويتزوجها.

وكانت قد شكّت من قبل في أمر المرأة التي تزورها مع المربية، وتمضي عندها ساعات، فسألت عنها المربية، فأجابتها بأنها شقيقتها، ولكنها لم تصدق، وألحت في السؤال، فاعترفت لها المربية بأنها أمها، وأن الملك أباها، وروت لها القصة كلها.

ولما سألها الفتى أن تذهب معه إلى أهلها، رفضت، وأخبرته أنها ابنة ملك، وطلبت منه أن يرسل أهله إلى أهلها لخطبتها، فتركها الفتى، وغاب.

ومرت أيام وهو لا يبرز لها، فقلقت واضطربت، حتى إذا طال بها الانتظار، وهو لا يبرز لها، ضاقت وضجرت، وبرح بها الشوق، وظهر عليها الضعف والمرض.

ولما رأت الملكة ذلك التغير في ابنتها، سألت المربية عن الأمر، فأجابتها بأنها أخبرت البنت بأمر أمها وأبيها، ثم حدثت الملكة عن الفتى الذي يبرز لها، وكانت المربية على علم به، فضاقت الملكة وقلقت، ثم لجأت إلى العجوز الساحرة تسألها وتستشيرها، فنصحت بتقديم البنت إلى أبيها، وأكدت لها أن نبوءة العرافين والمنجمين قد فات

أوانها، ولما سألتها الملكة عن أمر الفتى الذي يبرز لها، طلبت منها أن تؤجل الحديث عنه.

ورجعت الملكة إلى القصر، لتعد ابنتها خير إعداد للقاء أبيها، فكستها فاخر الثياب، وزينتها، ولما كان المساء، رجع الملك من مجلسه إلى الملكة، فرأى في ضيافتها صبية باهرة الحسن والجمال، فسألها عن الصبية من تكون؟! فأجابته بأنها ابنته، فذهل، ثم أخذها بين يديه، يعانقها ويقبلها، ويعتذر إليها عما كان منه، ثم طلب منها أن تسأله ما تريد وتتمنى، فطلبت منه أن يشيد لها قصراً خاصاً بها، حجارته من ذهب ومن فضة، فأجاب طلبها، وأمر البنائين بذلك، ولم تمض غير أيام حتى حلت البنت في قصرها، وكان أبوها يزورها كل مساء.

وكانت البنت على الرغم من جمال القصر ورحابته، وعلى الرغم من فرحها بلقاء أبيها، واجتماعها بأمها، لا ترتاح ولا تطمئن، فهي في قلق وشوق إلى لقاء حبيبها.

وذات يوم تمنت على المربية أن تصحبها إلى الحمام، فأجابت المربية أمنيتها، فاستأذنت والدها في ذلك، ثم استأجرت لها حماماً من أجمل الحمامات، وهيأت لها صرة ثيابها، ومضت بها إلى الحمام.

وفي الطريق إلى الحمام مرت البنت بسوق، دهشت لما فيه من نشاط وحركة، فقالت(١):

عديت على السوق ألقى فيه دكاكين

قصاب وسمّان بياعين كعك وتين

صرخت من نار قلبي يا إله عين

اللي ابتلى بالهوى مالو سواك معين

ثم رأت دكان عطار، فقالت(٢):

يا لالتي انظري العطار بالدكان

يبيع من علبتو أشكال مع ألوان

بطلب من رب السما الواحد الرحمن

أشوف حبي أنا اليوم في الحمام

ثم رأت دكان سمّان، فقالت(٣):

يا لالتي انظري السمان يبيع الكثير

عنده أشكال من زيت حلو وشعير

في جوز في لوز فستق بلا تقشير

الله يهون علي كل أمر عسير

ثم رأت دكان قطّان، فقالت(٤):

قطان قطان كار مليح وحياتك

اضرب بقوسك وسمعني نغاماتك

لك عين سودا وفوق الخد شاماتك

الله يهون علي اليوم خطواتك

ثم رأت دكان خضري، فقالت(٥):
نظرت إلى خضري واقف بيتمختر

عنده بادنجان وقتّه مع خيار أخضر

أحلف بذات النبي من يطلبه يحضر

ما برجع اليوم حتى أشوف حبي لي محضر

ثم سارت إلى أن وصلت إلى الحمام، فدخلت فيها، وهي تقول:(٦)
حمامكم معتمة من قلة الجامات

وكل شخص تعلق بهواكم مات

سبحان من فصل المخمل على القامات

أسمر جرحني يداويني أبو الشامات

ثم بدأت تنزل بضع درجات، داخل الحمام، فقالت(٧):
دخلت حمام درج فيها بديت أنزل

والدمع من مقلتي شبه المطر ينزل

وحياة من قال لآدم من الجنان انزل

ما أسلا هواكم لو تحت التراب أنزل

ثم رأت بركة ماء، فقالت:

يا بركة الماء أملـي الكأس واسقينـي

واطفي فؤاد كواه الحب واروينـي

محبوس بقيد الـهوى يا من ينـجينـي

مالـي سواك يا إلـه العرش معينـي

ثم مرت بالباب الأول الذي يفضي من بهو الحمام إلى ممر يقود إلى داخلها، فقالت(٨):

دخلت من الباب لقيت دهليز عديتو

واللـي بحبه لاشفتو ولا ريتو

واحلف بذات النبي جوا الحرم بيتو

لو كنت أشوفو مثل العين داريتو

ثم قعدت في داخل الحمام، وأخذت تقول(٩):

لـي بدر مثل القمر خدو كم جانـي

لو سبع شامات على الخدين نعمانـي

سبحان واحد أحد مالو ثانـي

ما يطلع اليوم تأشوف الحب قد جانـي

ولم تكد تنتهي من إنشاد البيت الأخير حتى برز لها

الفتى الشاب، الذي يهواها وتهواه، فتركتهما المربية وخرجت، لتحضر الصابون، فتلاوم المحبان، وتشاكيا، وبث كل منهما للآخر حبه وهواه، حتى آن للفتى أن يرحل، فالتفتت إليه تسأله أن يرسل إليها في الغد أهله ليخطبوها من أهلها، فوعدها الفتى بذلك، ثم غاب.

ورجعت إليها المربية بالصابون، فنضت عنها ثيابها، ثم أخذت تغسلها، وهي تنشد في وصف حبيبها، وبث هواها، فتقول(١٠):

يا لالتي صدّقي صورت أنا أشكاله

ما يوم قلبي من الهجران أشكاله

ما وجد غير في جنان الخلد أشكاله

درت البراري والمدن ما شفت أشكاله

ثم قالت(١١):

في صحن خدي كتب دمعي وقد أملا

شوق الحبيب الذي هجره للحشا أملا

له خصر رفعه كخصر النمل أو أملا

هذه مواصف حبيبي أعشقوا أم لا

ثم قالت(١٢):

يا نجم سلم على أحبابى ومسيهم

واحكي لهم ما جرى وابكي وبكيهم

وان كان يا نجم تجمع شملنا فيهم

سلم عليهم وقبل لي أياديهم

ثم قالت(١٣):

يا أحمر اللون في عشقك نشف دمي

وأحرمتني النوم بين أهلي وبين أمي

وإن كان ريقك عسل لطبق على تمي

وآخذك بالحلال وأصرخ لبوك عمي

ثم قالت(١٤):

يا لالتي خده أحمر يضوي في ظلام الليل

كم هد شجعان أهل القوى والحيل

وحق سورة تبارك والضحى والليل

ما خذ بدالو ولا عنو يجيني ميل

ثم غادرت الحمام، ورجعت إلى القصر، وأسرعت إلى أمها فرحة مسرورة، لتخبرها بأن بعض النسوة سوف يجئن إليها في الغد يخطبنها، فغضبت منها أمها، ونصحت لها ألا تتحدث بذلك إلى أبيها، فضاقت البنت نفساً، ومضت

إلى مخدعها كئيبة حزينة، ولم تنم تلك الليلة.

ولما كان الصباح ارتدت أجمل ثيابها، وتهيأت وتزينت، وهي تتوقع مجيء النسوة، وإذا أمها تدعوها إلى الدخول على نسوة جئن يخطبنها، فدخلت عليهن فأخذن بجمالها، وحلو حديثها، ثم طلبن من أمها أن تسأل أباها موافقته على زواجها من ابن ملك الجان، فخرجت الأم، وعرضت الأمر على الملك ثم رجعت لتخبرهن قراره برفض تزويجها.

ورجعت النسوة إلى الفتى خائبات، وأخبرنه بقرار أبيها، فطلب منهن الرجوع إلى أمها وتخييرها بين أخذها غصباً وقهراً، أو الموافقة على خطبتها، فاستدعى الملك المربية وشاورها، فأشارت عليه بطلب صعب، فطلب أن يشاد لابنته قصر أجمل من قصرها، تحيط به الحدائق والبساتين، مليئة بأنواع الأشجار اليانعة الثمار، فأخبرت الأم النسوة بطلب أبويها، فوعدنها بتحقيقه في صباح الغد، وأكدن لها أن أم العريس ستحضر في الموعد نفسه لأخذها.

ونامت البنت ليلة هانئة مطمئنة، لأنها كانت واثقة من أن الفتى قادر على الوفاء بكل ما يطلب منه، مهما كان صعباً، ولما كان الصباح، أفاقت وأسرعت إلى نافذتها تطل منها، فرأت تجاه قصرها قصراً آخر أجمل منه وأبهى، تحيط به الحدائق والبساتين، فأدركت على الفور أنه من

صنع الفتى حبيبها، وأخذت تتهيأ للقائه.

ولما كان الضحى حضرت أم الفتى، لتصطحبها معها إلى ابنها، ولكن البنت اعتذرت عن الذهاب معها، ووعدتها أن تأتي هي بنفسها، تصحبها المربية، فوافقت الأم، ومضت إلى ابنها تزف إليه النبأ، ولم تلبث البنت أن ودعت أمها وأباها، ومضت مع المربية إلى قصرها الجديد لتلتقي بفتاها.

ودخلت حديقة القصر، فدهشت لما رأت من أنواع الزهور، فوقفت أمام الورد الأبيض، ثم قالت(١٥):

يا ورد شكلك حلو اسمك ظريف أبيض

اشلون إذا كنت نايم فوق خديد أبيض

طالب أنا من قلبه يكون نظيف أبيض

يكون معه الليل أبيض والنهار أبيض

ثم رأت البنفسج، فوقفت أمامه طويلاً، تتملاه، وهي تقول(١٦):

اسمك بنفسج وبلون السما شكلك

ياما فنيت ناس مقهورين من شكلك

صباغ جابك وصار يصبغ على شكلك

حيرت الناس في قدك وفي شكلك

ثم رأت شجرة دردار، فقالت(١٧):

عديت بستان ألقى نهر حوله أشجار

سألت عنهم قالوا لي هدول دردار

لولا يكون هل شجر عاشق وقلبو نار

ما كان نبت ولا طلع جانب الأنهار

ثم رأت شجرة فستق، فقالت:

فستق معرش قوي طيب على أمه

ما شفت مخلوق أكل منه وراح ذمّه

أكله يسلّي لمن زايد عليه همّه

وكل من يأكله ينسى أبوه وأمه

ثم رأت داليه، فقالت(١٨):

نظرت إلى دالية اليوم في عيني

أبيض عنبها حمله عنب زيني

سبحان من خلقها وحلاّها في عيني

الله يرمي المحبة ما يبنو وما بيني

وكان الفتى ابن ملك الجان يراها ويسمعها وهي تنشد

تلك الأشعار، فطلب من مربيته أن تعلمه أبياتاً من الشعر يقولها لها، فحفظته الأبيات التالية(١٩):

بجديد بجديد ما عدت أقبلك بجديد

يا جرن حمام غسلت الردي والجيد

إن لم تجي زي عاداتك تبوس الإيد

يا كلب جريان انتفض من بعيد لبعيد

ولما صارت أمامه، أنشدها تلك الأبيات، فاضطربت، ودهشت لما يقول، وتركته ورجعت مع مربيتها، فأسرع هو إلى مربيته يسألها أن تعينه على الأمر، فنصحت له أن يتمدد على الأرض، ويجعل نفسه كالميت، ففعل، وأخذت المربية تبكي وتولول وتندب وتعول، فرجعت إليه على الفور، وأخذت تلطم خدوده، وترش على وجهه ماء الورد، فنهض، وقال لها(٢٠):

نور العيون مية السلام حالا

قلبي عليك فرح يا سكر الحالا

سبحان رب السما عالم بأقوالا

مالي أنا ذنب كل الذنب للالا

فسامحته على ما كان منه، ومضت إلى أمه وأبيه، ثم

كان زفافهما بالأفراح، والليالي الملاح، وعاشا معاً في سعادة وسرور، فسبحان مدبر الأمور.

❒

شرح المفردات العامية:

١-عديت : مررت. عين: أعن، فعل طلب. اللي: الذي. مالو: ماله.

٢-يا لالتي : يا مربيتي. العطار: بائع العطور والتوابل. علبتو: علبته. يطلب: أطلب. أشوف: أرى. حبي: الحب، بكسر الحاء، هو الحبيب، وهي فصيحة، أشوف: أرى. وكان يظن أن الجنّ تسكن الحمام.

٣-السمّان : بائع السمن والزيت والسكر وما إليها. في جوز: لديه جوز. يهوّن: يسهّل.

٤-القطان : الرجل الذي يندف القطن بوساطة قوس ووتر كي يصبح عهناً خفيفاً.

٥-الخضري : بائع الخضر. يتمختر: يمشي بكبرياء. قته: قثاء.

٦-الجامات : الزجاج. وكان في الحمام غرف صغيرة كثيرة يستحم في كل غرفة بضع نسوة، وتسمى الغرفة الواحدة خلوة، وهي مفتوحة على بهو واسع، وكان فوق كل خلوة قبّة،

فيها فتحات كثيرة مدورة مسدودة بزجاج ملون يتسرب منه الضوء إلى الخلوة.

٧-ما أسلا : ما أسلو، ما أنسى.

٨-لاشفتو ولاريتو : مارأيته. وفعل شاف فصيح بمعنى رأى ونظر. جوا: داخل وجو كل شيء بطنه وداخله

وجواني الشيء بفتح الجيم باطنه، وهي فصيحة.

بيتو: بيته. داريته، من الفعل دارى يداري بمعنى اعتنى.

٩-لو سبع شامات : له سبع شامات. ما بطلع: لن أخرج. تأشوف: حتى أرى. جاني: جاءني.

١٠-أشكاله الأولى بمعنى ملامحه، والثانية أصلها شكا له، والثالثة بمعنى الأولى، والرابعة بمعنى أمثاله.

١١-أملا : أصلها أملأ، بمعنى الدمع ملأ الخد، وأملأ الثانية أصلها أملي يملي، بمعنى الهجر أملي الكلام على الحشا. وأملأ الثالثة: أصلها أملأ، أي أكثر امتلاء، والمعنى: خصره ناحل كخصر النمل أو أكثر امتلاء، وأملا في آخر الموال المقصود بها: أعشقه أم لا أعشقه.

١٢-مسيّهم : قل لهم: مساء الخير.

١٣- تمّي : فمي. أصرخ: أنادي. لبوك: لأبيك. والعادة أن ينادي والد الزوج أو الزوج بالعم.

١٤-يضوي : يضيء.

والمقصود بالشطر الأخير: لا أخذ بدلاً منه، ولا أميل عنه.

١٥-اشلون: كيف خديد: تصغير خد. والمقصود بالبياض في الشطر الثالث النقاء، والمقصود به في الشطر الرابع السعادة.

١٦-ياما فنيت : ما أكثر ما أفنيت: جابك: جاء بك.

١٧-هدول : هؤلاء. دردار: شجر. قلبو: قلبه.

١٨-زيني : الأصل زينة، ثم أبدلت التاء هاء، ثم أميلت، فأصبحت في اللفظ زيني، مابينو: ما بينه.

١٩-بجديد : من جديد، ثانية. الردي والجيد: الرديء والجيّد. زي عاداتك: مثل عاداتك. تبوس: تقبّل.

٢٠-مية السلام حالا : مئة سلام فوراً. عالم بأقوالا: عالم بأقوالها. اللالا: المربية.

تعليق:

هذه الحكاية موجهة على الأغلب إلى الفتيات، من

أجل إعدادهن نفسياً وثقافياً للدخول في الحياة الزوجية،، ومعرفة الأساليب اللبقة في التعامل الزوجي.

فالحكاية تلّقن الفتاة مجموعة وافرة من المواويل الشعبية، وتساعدها على حفظها داخل نسق حكائي، لتكسبها مهارة الحديث، والقدرة على الإنشاد.

والحكاية تعرّف الفتاة إلى عالمها الأنثوي، وإلى عالم الرجل، بأسلوب فني، فيه تلميح وإشارة، فالحكاية لا تخلو من بعض الجرأة في الإبانة عن رغبة الفتاة في الغزل، ورسم صورة مثلى للشاب، لكي تكسر حدّة الخجل عند الفتاة، وتهيئها للقاء الرجل.

وكان من العادات الشعبية أن تلّقن الفتاة مثل تلك المواويل، كما كان من العادة أن يحفظ الشاب ما يماثلها أيضاً من المواويل حتى إذا ما كان الزفاف، وخلا العروسان أحدهما بالآخر، كانت تلك المواويل وسيلة فنية للتقارب والتواصل، بطريقة فيها التلميح والإشارة.

وتبدو هذه الحكاية قابلة لحشد قدر أكبر من المواويل، وفق القدرة على الحفظ، وربما وفق القدرة على الارتجال ونظم مواويل جديدة، ولا سيما ما يتصل منها بوصف السوق والحمام والزهور.

والحكاية تدل على قمع المجتمع للمرأة، وقدرة المرأة، على الرغم من ذلك، على تحقيق ذاتها، وتأكيد وجودها، في مواجهة المجتمع نفسه.

إن البنت في الحكاية متهمة قبل أن تولد بأنها سوف تسيء إلى والدها، وهي إساءة غير محدّدة ولا واضحة، وليس ثمة تفسير لهذه الإساءة غير كونها انثى ستمارس ذات يوم أنوثتها مع رجل.

ولذلك كان الموت هو المقترح، وكانت الطفلة الميتة هي البديلة، وهكذا تمّ منذ البدء تغييب البنت في قصر بعيد، لتعيش مع مربيتها ولا تراها سوى أمها.

وهذا التغييب للبنت هو إبعاد لها عن الذكر، حتى لو

كان متمثلاً في الرجل الأول وهو أبوها، ولذلك هي ميتة بالنسبة إليه، وهي لا تلتقي سوى أمها، ولا ترى سوى مربيتها، أي أنها تعيش في عالم المرأة، مع ذاتها، بعيداً عن الرجل، ولا تعرف عنه شيئاً، أو لا يراد لها أن تعرفه.

ولكن هذا الرجل لا بد أن يبرز لها، من حيث لا يدري أحد، فإذا هو ابن ملك الجان، وكونه كذلك، دليل على أن الذكر كامن في الأعماق الخفية للمرأة، ولا بد من أن يظهر، ولو حبست المرأة وراء سبعة أسوار.

ولذلك أيضاً كان لا بد من أن تسمع البنت عن أبيها، وأن تعود إليه ليتعرف كل منهما الآخر، ويلاحظ إعداد البنت وتهيئتها وتزيّنها للقاء أبيها، فكأنها تتهيأ للقاء الرجل الأول.

وفي لقاء البنت بأبيها، يترسخ الواقع، إذ يتعانقان، ويقر كل منهما بالآخر، كحاجة أساسية، وتلغى تهمة الإساءة، ليتأكد أن الرجل والمرأة صنوان، بعضهما من بعض، ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

ومن الطبيعي بعد ذلك أن توضع التحديات في طريق الشاب الراغب في الزواج، وهذا كثير في الحكايات الشعبية، كما هو كثير في الواقع، يراد به امتحان رجولة الشاب وقدرته المادية والنفيسة والاجتماعية، وقد أصبح عادة اجتماعية متأصلة، تتحول في بعض الحالات إلى محض عراقيل.

وواضح في الحكاية الفرق الكبير بين الشاب والبنت، فهذه تمتلك الجمال وطلاقة اللسان وتحفظ الكثير من الأشعار والمواويل، وخلافها الشاب، فهو يملك القوة والقدرة على الفعل، ولكنه لا يشبهها في طلاقة الحديث، بل يسمعها ما يسيء.

وهذه النقطة الضعيفة في شخصية الشاب، وهو يردّها إلى المربية، هي محاولة انتصار، بصورة لا شعورية، للمرأة وتأكيد تفوقها على الرجل بحيازتها القول الجميل.

ولعل فيما تقدم كله ما يدل على أن هذه الحكاية هي حكاية نسائية، صنعتها امرأة، لتنتصر بها للمرأة، وتظهر ظلم المجتمع والرجل لها، وتؤكد تفوق المرأة، وقدرتها على نيل ما تريده، متجاوزة كل أشكال القيد، منطلقة من كون الرجل والمرأة كلاً واحداً، ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

وهذا كله لا ينفي كون الحكاية ذات هدف تربوي، تتوجه به إلى الفتاة، كي تعزز شخصيتها، وتزودها بما تواجه به الرجل والمجتمع، أو تعدّها، في الحد الأدنى، للقاء الرجل، وهو هدف مشروع، يتخذ من الفن وسيلة للرقي بهذا اللقاء.

وفي الحكاية عناصر بدائية أبرزها إبعاد الولد عن أبيه بسبب نبوءة مزعجة على نحو ما كان من نبوءة أوديب.

❑❖❑

غرائب الأقدار

على أطراف البادية كان يعيش شاب وحيد، مع أمه العجوز، ولم يكن والده قد ترك له سوى خيمة عتيقة، وبضع عنزات، ينتقل بها وبخيمته وبأمه العجوز من مكان إلى مكان، بحثاً عن المرعى، والعنزات لا تدر عليه إلا القليل القليل من الحليب.

ثم مرت بهم سنة عجفاء، لم ينزل فيها المطر، ولم ينبت العشب، فاضطر إلى بيع عنزاته واحدة بعد أخرى، حتى لم يبق عنده شيء. وذات مساء من تلك السنة القاحلة، نزل في ضيافته أربعة رجال كانوا في طريقهم إلى الصيد، فرحب بهم، وقدم لهم ما عنده من خبز ولبن وتمر، ثم مدّ لهم ما عنده من فرش وبسط، وناموا شاكرين له جوده، مقدّرين بؤس حاله.

ولكن النوم جافاه، وأخذ يشاور أمه في الأمر، كيف سيوفر لهم طعام الغد، فنصحت له أن يضرب في الأرض،

فامتطى جواد أحدهم، ومضى به في الصحراء، حتى بلغ مضارب قوم لايعرفهم، فربط الجواد بعيداً عن المضارب، وتسلل إلى خباء متطرف، ودخله، وإذا هو أمام قدور كثيرة وأكياس مملوءة، ففرح بما رأى، وأخذ يكشف هذا القدر، ويرفع غطاء ذاك، وإذا هي مملوءة بالسمن والزبدة، وبينما هو كذلك، إذ سقط من يده غطاء أحد القدور، فأحدث صوتاً، دخلت في إثره صبية، فلما رآها أخبرها بحاله وتوسل إليها أن تساعده، فأشفقت عليه، وملأت كيساً بالدقيق، وعكة بالسمن، ورجته أن يسرع قبل أن يشعر به أحد، فشكرها ومضى.

ورجعت إلى خيمتها، لتنام مطمئنة إلى أن أحداً لن يعرف ما حصل، ولكن تذكرت البئر المهجورة، القريبة من مضارب القوم، وثار في نفسها الخوف على الشاب من الوقوع في البئر، ولم تستطع النوم، فأسرعت إلى حيث البئر، وإذا الشاب واقع فيها، فدلّت إليه حبلاً، وأخذت تجرّه، ولكنها فجأة وجدت نفسها قد وقعت فوقه، وإذا هما معاً في البئر.

ومع الخيوط الأولى للفجر مرّ بهما راع يسوق غنماته، فأنزل حبله ليملأ الدلو، فرآهما، فساعدهما على الخروج، وذهل عندما رأى الصبية، فحدثته بما كان، ورجته أن يصدقها، وتوسلت إليه ألا يحدث أحداً بأمرها، وعادت هي إلى خيمتها، ومضى الشاب يحمل كيس الدقيق وعكة

السمن، وامتطى الجواد وانطلق به عائداً إلى خيمته.

وأعدت العجوز للضيوف طعام الإفطار مما أحضره ولدها، ثم شكروا له ضيافته، وودّعوه ومضوا في طريقهم إلى رحلة الصيد.

ومرت الأيام والراعي يكتم السرّ ولا يحدث به أحداً، وكان إخوة الصبية غائبين عن المضارب، فلما رجعوا أخذ الراعي، يتردد عليهم زائراً، وكانت الصبية في كل مرة تذكره أمام إخوتها بالخير، وتزوده بالسمن والدقيق، وتؤكد لإخوتها أن لديه أولاداً كثيرين، ومن واجبها إكرامه ومساعدته.

ويوماً بعد يوم طمع الراعي، وأخذ السرّ يتحرّك في صدره، فكان إذا رجع من رعي الغنم، والتقى إخوتها ذكر لهم البنات ومسؤولية الأهل عن رعايتهن، وما يجلبن من عار، وأخذ يكرر عليهن ذلك، حتى ضاق به ذات يوم أحد الإخوة ذرعاً، وسأله إن كان قد رأى على أخته شيئاً، أو رابه منها أمر؟

فحدثه الراعي حديث البئر والشاب وكيس الدقيق وعكة السمن، وكانت الصبية وراء الخباء تصيخ السمع، فما كان منها إلا أن ركبت فرساً، وهربت من الديار.

وفي الصباح طلب الإخوة أختهم فلم يجدوها، فأدركوا أنها قد هربت، فازداد تصديقهم لكلام الراعي، وأقسموا

ألايتركوها على قيد الحياة، وأخذوا يجدّون في البحث عنها.

وكانت الصبية تطوي القفاز، حتى لاحت لها من بعيد خيمة منعزلة، فأوت إليها، فإذا هي أمام امرأة عجوز، طلبت منها أن تؤويها فرحبت بها، وفي المساء رجع ابن تلك العجوز، ولما حدثته أمه عن الضيفة رحب بها، ولم يسأل من تكون على عادة العرب في استقبال الضيف، وإذا هو الشاب نفسه الذي كانت الصبية قد ساعدته، فغطت وجهها بالخمار كي لا يعرفها، وإن كانت هي قد عرفته.

وأقامت الصبية في ضيافة العجوز أياماً، معززة مكرمة، وذات يوم طلب الشاب من أمه أن تسأل الصبية إن كانت ترضي به زوجاً، بعدما رأت من حاله وحال أمه، وما هما عليه من بؤس وفقر حال، وأخبرت العجوز ضيفتها برغبة ابنها، فوافقت، وكان الزواج.

ومرت الأيام، والزوجان سعيدان بحياتهما، على الرغم من الفقر، ولم يعرف الشاب أن زوجته هي الصبية نفسها التي كانت قد ساعدته، وهي لم تحدثه بالأمر، ولم تعرفه إلى نفسها، وكانا عندما وقعا في البئر في ظلمة الليل وعتمة البئر.

وذات يوم نزل بهم ضيوف، وإذا هم الرجال الأربعة أنفسهم الذين كانوا قد نزلوا بالشاب قبل نحو عام، فرحب

بهم الشاب، وعرفهم وعرفوه، وذكروا كرمه السابق، وشكروه، وتناولوا معه العشاء، وأخذوا يتبادلون أطراف الحديث ثم صارحوه بأنهم يجدّون في طلب أخت لهم يريدون ذبحها وأخذوا يذكرون البنات ومايجلبن على أهلهن من عار فأكد لهم، وهم يتجاذبون أطراف الحديث أن البنات لسن سواء، ففيهن الشريفة ذات الأصل التي لا تزل، ثم حدثهم عما كان من أمره مع تلك الصبية التي أكرمته وأنقذته، ثم أقسم لهم أنها كانت مثالاً للعفة والشرف والنقاء، حتى إنها وهي معه في عتمة البئر لم ترفع الخمار عن وجهها، ودهش الضيوف لما سمعوا، وأدركوا أن الصبية المقصودة بالحديث هي أختهم.

وكانت زوجته وراء الخباء تصغي إلى الحديث كله، وهنا دخلت تحمل القهوة، لتقول لزوجها، والخمار على وجهها: "والآن إذا برزت لك تلك الصبية فهل تعرفها؟"، فأقسم الزوج أمامها وأمام الضيوف أنه لا يعرفها.

وازدادت دهشة الضيوف لدخول المرأة عليهم على غير عادة العرب، وإذا هي ترفع الخمار عن وجهها وتقول له: "هذه هي أنا، زوجتك"، ثم تلتفت إلى الرجال لتقول لهم: "لقد تبين لكم الحق، وإذا شئتم فهذه هي رقبتي فاذبحوني، وتركع أمامهم، وهي تسلم رقبتها إليهم.

وينهض الرجال ليعانقوا أختهم فرحين بلقائها وببراءتها، وليعانقوا الشاب مهنئين له بالزواج من أختهم.

ويدرك الشاب أن زوجته هي تلك الصبية نفسها، وأن الضيوف هم اخوتها أنفسهم، فيزداد ترحيبه بهم، كما يزداد فرحه بزوجته.

ويقدم الاخوة إلى أختهم وإلى زوجها الأغنام والجمال والرعاة هدايا لهم، وتتحسن بهما الأحوال، ويطيب لهما العيش وتهنأ لهما الحياة.

تعليق:

تؤكد الحكاية انتصار الحق وظهوره على الباطل، ولو بعد حين، ولذلك لا بد من الصبر، كما تؤكد أن الفقر لا يضير المرء، ولا بد لسوء الحال من أن يتغير، وهي تعلق ذلك كله على القدر وتجعله رهين المصادفة.

وتدل الحكاية على عادات البدو من ضيافة وكرم وحسن استقبال، كما تدل على ما يلحق المرأة من ضيم وظلم وحيف بسبب سوء الظن والنية، ولكنها تؤكد نقاء المرأة وبراءتها، وتكشف فساد الواقع من حولها.

والحكاية تثير الخيال بوساطة بيئتها البدوية المتميزة وما فيها من سجايا وخصال، وهي محكمة البناء، آخرها مشدود إلى بدايتها بقوة، وتقوم على قدر غير قليل من المفاجأة والإدهاش.

وتبدو البئر في الحكاية مكاناً متميزاً بالغ الدلالة والتأثير، وهو موضع قاس للاختبار، ويذكر بالبئر التي ألقى فيها يوسف اخوته.

والحكاية تربوية موجهة على الأغلب إلى الرجال تعظهم كي لا يتسرعوا في تصديق أي نبأ يسمعونه، ولعلها من إبداع المرأة كي تدافع بها عن بنات جنسها وتؤكد براءتهن وعفتهن.

❐❖❐

عصفور وجرادة

يحكى أنه كان يعيش في مدينة بغداد رجل فقير وزوجته، الرجل اسمه عصفور، والمرأة اسمها جرادة، وكانا بائسين، لا يملكان شيئاً، الرجل لا يجد شيئاً يعمله، والمرأة لا تجد ما تساعد به زوجها، وقد ضاقت بهما الأحوال، واشتد بهما الفقر.

وذات يوم قالت جرادة لزوجها عصفور: "ما رأيك لو عملت في السحر وقراءة الحظ؟"، فأجابها بأنه لا يعرف شيئاً من ذلك، وهو الرجل الأمي، لا يحسن كتابة حرف، فأكدت له أنها مهنة الجاهل، وحرفة من لا حرفة له، وأنها لا تحتاج لغير الكذب والخداع، ويكفيه أن يخط في وريقة أي شيء، حتى تصدقه النساء.

وأمام الفقر والجوع وضيق ذات اليد، وجد عصفور نفسه مضطراً إلى العمل في السحر، وجلس إلى النساء يخدعهن، ويكتب لهن الوريقات، ويعد هذه ويمنّي تلك، وكانت زوجته توحي له، وتشير عليه، وتخبره بطباع النساء وعاداتهن وطبيعة أفكارهن، وتحدثه بما يرغبن وبما يكرهن،

فاستطاع أن يحقق النجاح، بل إن النسوة أقبلن عليه إقبالاً، حتى اشتهر أمره، وذاع صيته، وكان كثيراً ما يستعين بزوجته، فيستمع مثلاً إلى مشكلة المرأة الداخلة عليه، ثم يطلب منها أن تنتظر قليلاً، ويزعم أنه سيخلو إلى قرينه، ثم يتركها ويدخل على زوجته، فتشير عليه بما سيفعل.

وذات يوم دخلت عليه إحدى جواري الخليفة، لتخبره أنها عثرت على خاتم زوجة الخليفة في حديقة القصر، وقبل أن ترده إليها، شاع في القصر خبر سرقته، فخشيت إن هي ردته إليها أن تتهم بالسرقة وهي حائرة في الأمر، لا تدري ما تفعل؟

وتركها عصفور وحدها وأسرع إلى زوجته يسألها ما يقول للجارية؟ فأخبرته أن يطلب منها أن ترمي بالخاتم في بركة القصر، ورجع عصفور إلى الجارية فأخبرها بذلك، ففعلت.

وبعد يوم أو يومين جاءته خادمة أخرى من جواري الخليفة تدعوه إلى القصر لأنّ زوجة الخليفة تطلبه، فأدرك عندئذ الغاية التي استدعي من أجلها، ولما شكت له زوجة الخليفة سرقة خاتمها، أخبرها أنه غير مسروق، وأنه لا شك قد وقع منها في موضع فيه ماء، وتذكرت زوجة الخليفة بركة القصر، فأمرت الخدم أن يبحثوا فيها، فعثروا على الخاتم، ففرحت بذلك، وكافأته، وأجزلت له العطاء.

وازدادت بذلك شهرة عصفور، وأقبل عليه الناس من كل حدب وصوب، وعرض على زوجته أن يهرب من البلاد، فقد تحسنت بهما الأحوال، ويخشى أن يفتضح أمرهما، فأبت ذلك، وأكدت له أن عليه أن يصمد، وأن يستمر، فسوف تزداد الحاجة إليه.

وفي يوم آخر أرسل إليه الخليفة الخدم يدعونه إليه، فخاف وأخبر زوجته، فشجعته، وأكدت له ضرورة المثول أمام الخليفة، ولما صار بين يديه، أخبره أن خزينة الدولة قد سرقت، وأنه لا علم لأحد بالأمر، وعليه أن يكشف السارق، فذهل عصفور، وخاف، ثم طلب من الخليفة أن يمهله خمسة أيام، ثم رجع إلى زوجته ليخبرها بالأمر، ثم عرض عليها ثانية الهرب من البلاد، فشجعته على التريث والانتظار.

وفي الحقيقة كان خمسة لصوص قد تآمروا، فسرقوا خزينة البلاد، وقد علموا باستدعاء عصفور إلى القصر، فأرسلوا في الليل أحدهم ليتنصت على دار عصفور كي يعرف ما سيفعل، وبينما كان اللص يتنصت من وراء الباب كان عصفور يروح ويجيء في فناء الدار قلقاً، وهو يقول: "ها هو الأول ها هو الأول"، يقصد به اليوم الأول، وظن اللص أن عصفور قد عرفه، وأحس به وهو من وراء الباب، فأسرع إلى صحبه يخبرهم بالأمر، فلم يصدقوا، وفي الليلة الثانية أرسلوا لصاً آخر، وكان عصفور يروح في فناء الدار

ويجيء، وهو في أشد القلق، ويقول: "راح الأول وجاء الثاني، راح الأول وجاء الثاني"، وهو يقصد اليوم الأول واليوم الثاني، وظن اللص أن عصفور قد عرفه وأحس به وهو من وراء الباب، فأسرع إلى صحبه يخبرهم بالأمر، فلم يصدقوه، وفي الليلة الثالثة أرسلوا لصاً ثالثاً، فوقف وراء الباب يتنصت، فسمع عصفور وهو يصيح: "جاء الثالث، جاء الثالث، جاء الثالث"، فذعر اللص وأسرع إلى صحبه يخبرهم بالأمر.

وذعر اللصوص، وظنوا أن عصفور قد عرفهم وكشفهم، وأنه لا بد سيخبر الخليفة عنهم، فأسرعوا إليه في اليوم الرابع، وعرفوه بأنفسهم، وأخبروه أنهم هم اللصوص الذين سرقوا خزينة الدولة، وأنهم يرجونه ألا يكشف أمرهم، ووعدوه برد ما سرقوه، بشرط أن يساعدهم على الأمر، من غير أن يمسهم أذى، وأسرع عصفور إلى زوجته يخبرها بالأمر، ففرحت بذلك أشد الفرح، وأخبرته بطريقة يعيد بها خزينة الدولة إلى الخليفة.

وفي صباح اليوم الخامس مضى عصفور إلى قصر الخليفة واثقاً من نفسه، ولما دخل عليه أخبره أن اللصوص الذين سرقوا الخزينة قد أخفوها في بستان مهجور، لا يملكه أحد، تحت نخلة محروقة، فأمر الخليفة جنده على الفور بالمضي إلى ذلك البستان، وما هي إلا برهة، حتى رجعوا بالخزينة، ففرح الخليفة بذلك أشد الفرح، وكافأ عصفور،

وأجزل له العطاء.

وذات يوم، كان الخليفة يتمشى في حديقة القصر، فأراد أن يتسلى، فأرسل وراء عصفور، وتردد هذا في الحضور، وشاور زوجته جرادة، ولكنها ألحت عليه بالذهاب، وأوصته ألا يخاف.

وكان الخليفة قد رأى جرادة، فأمسك بها، ولما دخل عليه عصفور، أطبق عليها أصابع يده، ثم سأله عما يخبّئ في قبضته، فصاح عصفور مستنجداً بزوجته وهو يهم بالفرار: "جرادة، جرادة" فضحك الخليفة، وفتح قبضة يده، ثم دعاه إليه ظناً منه أن عصفور يخاف من الجراد، ثم كافأه وأجزل له العطاء.

ورجع عصفور إلى زوجته يخبرها بما جرى، ويرجوها أن توافقه على مغادرة بغداد، قبل أن يكشف أمره، ولكنها طمأنته، وأكدت له ضرورة البقاء.

وذات يوم زار الخليفة ملك العجم، فأراد الخليفة أن يعرّفه إلى عصفور، فأرسل في إثره فخاف عصفور هذه المرة أشد الخوف، ورفض المضي مع جند الخليفة، ولكن زوجته دفعته إليه دفعاً، فساقوه إلى القصر.

وكان الخليفة قد حدث ملك العجم عن عصفور وذكر له قدرته على معرفة كل شيء، بل أكد له قدرته على معرفة ما يخبئ وراء جدار، ثم إنه خبأ عصفوراً في غرفة

وراء قاعة العرش، ولما دخل عليه عصفور، قدمه إلى ضيفه الملك، ثم سأله إن كان يعرف ما خبأ وراء الجدار، فصاح عصفور مذعوراً: "عصفور طار، عصفور طار"، ثم أولاهم ظهره وولى هارباً.

فضحك الخليفة وضيفه الملك، وأرسل جنده يحملون إليه الهدايا والعطايا، وكان عصفور قد دخل داره، وأقفل عليه الباب، وأقسم ألا يغادر داره أبداً، ولما قرع عليه الجند الباب، أخذ يصيح مظهراً الجنون، وخرجت إليهم زوجته، فأخذت منهم الهدايا والعطايا، ثم التفت إلى زوجها تقول له: جنونك خير لي من فقرك، وما صار لدينا من مال يكفينا بقية العمر.

تعليق:

تؤكد الحكاية فقر الفقراء، وضيق ذات يدهم، وانسداد سبل العيش أمامهم، حتى إنهم لا يجدون أمامهم سوى النصب والخداع والاحتيال وسيلة للارتزاق، وتبدو وسيلة ناجحة جداً، في المجتمع المتخلف، حيث يستبد فيه الأغنياء بالفقراء، وهي تكشف الزيف في قصور الملوك والحكام، وما فيها من خداع وفراغ وإسراف وتبذير أموال.

والحكاية تدل على ذكاء المرأة، وقدرتها على إنقاذ زوجها ونفسها، وتغيير واقع حياتها، كما تدل على أن الفقر ليس نتيجة الغباء، إنما هو نتيجة الظلم، وهي تدل أيضاً على أن البلاهة غالباً ما تكون نتيجة الفقر وضعف الحال.

والحكاية مرحة، تقوم على المصادفة والمغامرة، وتتخذ من الاسم وسيلة لبناء الحدث، وعنصر الافتعال فيها واضح، ولكنه مقبول فنياً ومقنع لغرض الانتنقاد

والإضحاك.

❐❖❐

الملك الظالم

يحكى أنه كان في أحد البلاد ملك ظالم شديد الظلم، وكان الناس يخافونه أشد الخوف، وذات يوم ذهب إلى الغابة كي يستمتع بالصيد، فرأى شاباً يقطع جذع شجرة فتقدم الملك منه، ولكن الشاب لم يبال به، واستمرّ في ضرب جذع الشجرة بفأسه، فغضب منه الملك، وأمره بالتوقف في الحال، ثم سأله إن كان لا يعرف من يكون؟ فأجابه الشاب بجرأة: "أعرفك، أنت الملك الظالم"، فازداد غضب الملك، وأمر جنده بالقبض عليه في الحال.

ولما رجع إلى القصر أمر بإحضار الشاب، ثم عرض عليه أن يتراجع عما قال: فأبى، فأمر الملك بحرقه بالنار، فطلب منه الشاب أن يذهب ليودع أمه، فأرسل الملك معه الحرس.

وكان للشاب أخوان اثنان، وكان الثلاثة متشابهين أشد التشابه، وكان أحدهما لا تؤثر فيه النار، فطلب منه أخوه أن يذهب بدلاً منه، فمضى الذي لا تؤثر فيه النار مع جند الملك، ولما دخل عليه أمر بإلقائه على الفور في نار كان

قد أعدها له، فدخل الشاب في النار، وقعد فيها، من غير أن يتأثر، فدهش الملك وأمر أن يحبس في صندوق زجاجي لا يدخله الهواء، فطلب منه أن يأذن له في وداع أمه.

وأرسل الملك الجند معه كي يودع أمه، وكان أخوه الثالث يستطيع حبس أنفاسه مدة طويلة، فلا يختنق، فذهب مع الجند بدلاً منه، وكان الملك قد أعد له صندوقاً زجاجياً، فحبسه فيه، فقعد الشاب غير منزعج، حتى ضاق به الملك ذرعاً، ثم أمر بإغراقه في البحر، فطلب منه أن يسمح له بوداع أمه، فسمح له بذلك.

ومضى الشاب إلى الأخ الأول، وكان يستطيع شرب ماء البحر كله دفعة واحدة، فطلب منه أن يعود إلى الملك، فمضى هذا الشاب مع الجند، وعلى الفور أمر بإلقائه في البحر، فمضوا به إليه، فشربه كله دفعة واحدة، ورجع الجند إلى الملك مدهوشين ليخبروه بالأمر.

وقدم الملك بنفسه ليرى حقيقة ما جرى، وكان الشاب قد سار في عمق البحر بعد أن جف حتى بلغ جزيرة قريبة، ولما رأى الملك في إثره، أفرغ ماء البحر الذي كان قد شربه، فأغرق الملك وجنده، ثم ركب سفينة وعاد إلى بلده.

وفرح الناس بخلاصهم من الملك الظالم، وعينوا الشاب ملكاً بدلاً منه، واتخذ من أخويه وزيرين له، وحكموا جميعاً

البلاد والعباد بالعدل.

تعليق:

حكاية طريفة، تؤكد انتصار العدل مهما طال أمد الظلم، ولكنها تجعل الانتصار بوساطة أمور خارقة للعادة، مما يدل على إحساس بالقهر، وشعور بصعوبة تحقيق النصر.

والحكاية تقوم على بنية ثلاثية، وتستند إلى عناصر ثلاثة أساسية، وهي: الماء والنار والهواء.

❒❖❒

حكايات قصيرة

الوطنية

في الطريق الوعرة بين الجبال، كان أحد الرجال مع ولده يسوق حماره المحمل بالمؤن والعتاد للثوار. وبينما هما في بعض الطريق، إذا مجموعة من الجند الأعداء تحيط بهما، وتقتادهما إلى التحقيق.

ووقف الرجل مع ولده أمام الضابط، بعزة وإباء، وطلب الضابط من الرجل أن يدله على مواضع الثوار، فطلب منه أن يقتل ولده أولاً، فدهش الضابط، وسأله عن السبب، فأجابه بأنه يخشى أن يخبر الولد الثوار بأن والده قد دل الأعداء عليهم، فعجب الضابط من الأمر، ثم أقدم على قتل الولد أمام أبيه.

ثم طلب الضابط من الرجل أن يدله على أماكن الثوار، وهنا رفض الرجل، وطلب منه أن يقتله كما قتل الولد، ودهش الضابط، ولم يجد سبباً مقنعاً لقتل الولد من قبل، فردّ عليه الرجل بأنه كان يخشى إن قتل هو أولاً أن يخبر الولد من بعده الأعداء بأماكن الثوار، أما الآن، وقد

قتل الولد قبله، فهو لا يخشى شيئاً، وقد اطمأن إلى أنه لم يخن وطنه.

تعليق:

سمعت هذه الحكاية بروايات مختلفة، ونسبت إلى عهد الاحتلال الفرنسي لسورية، كما نسبت إلى كفاح الشعب العربي في الجزائر ضد المحتل الفرنسي أيضاً، ولعل في هذا دلالة على وحدة الشعب العربي، ووحدة النضال.

❑❑❑

ماذا يقول الماء؟

يحكى أن أحد الملوك أرق في إحدى الليالي، وجافاه النوم، فنهض من سريره، وأخذ يتمشى في شرفة القصر، وهو يفكر ويتأمل، فهداه تفكيره إلى أن يسأل عن الماء، ماذا يقول حين يغلي؟!

وأرسل على الفور وراء وزيره، فتم احضاره من بيته، والنوم ما يزال يملأ عينيه، ولما سأله الملك عما يقول الماء حين يغلي؟ دهش الوزير، وأجابه بأنه لا يقول شيئاً، فغضب الملك، وأمره أن يبحث عن جواب، وأمهله ثلاثة أيام، إن لم يأت بعدها بجواب مقنع، قطع رأسه.

وخرج الوزير مغتّم الصدر، يفكر ويتأمل، فلا يهديه تفكيره إلى شيء، إذ أنه مقتنع بأن الماء لا يقول شيئاً وهو يتردد في سؤال أحد خشية أن يسخر منه الناس، إنْ هو سألهم مثل هذا السؤال.

وقد ظل على مثل هذه الحالة إلى عصر اليوم الثالث، من غير أن يهتدي إلى جواب، ومن غير أن يبوح بمكنون

نفسه لأحد، حتى رقت لحاله زوجته، فنصحت له بالخروج للتنزه، عسى أن ينشرح صدره، ويستريح مما هو فيه.

واستجاب الوزير إلى نصيحة زوجته، فخرج مع أحد معاونيه، متنكّرين في زي سائحين، وقصدا إلى البادية يتفسحان، ومن بعيد لاحت لهما مضارب إحدى القبائل، فقصدا إليها، وما إن بلغا أول خيمة، حتى خرج لهما شيخ عجوز، رحب بهما، وقادهما إلى خيمته، وقدم لهما ما لديه من طعام، في كرم كبير، وكانت تعمل على خدمتهم، وتقدم لهم الطعام ابنة الشيخ العجوز، وهي صبية تبدو عليها مخايل الذكاء.

وبعد تناول الطعام أحضرت الصبية أدوات القهوة، وأوقدت النار وأخذت تغلي الماء لتعد القهوة، وكان الوزير قد أحس بالسرور والانشراح، ولكنه حين رأى الماء يغلي، ندّت عنه، من غير أن يشعر، آهة طويلة، وذكر سؤال الملك، فتكدّر.

وتنبه إليه الشيخ العجوز، فسأله عن الهمّ الذي يحمله، فتبسم الوزير، وأجابه أن لا هم لديه ولا حزن، ولكن خاطرا مرّ في باله، وهو تساؤله عما يقول الماء وهو يغلي، فضحك الشيخ العجوز، وقال له: "لأجل هذا تشغل بالك"، ثم التفت إلى ابنته، وقال لها: "أجيبي عمّك يا بنت عن تساؤله" فقالت على الفور: الماء يا عم يقول:

الحق علي أنا اللي في الوادي جريت

كل عود مني انتشا منه انكويت

فأعجب الوزير بجواب البنت، فشكرها، وشرب القهوة، ثم شكر للرجل العجوز حسن ضيافته، وكرمه، وودعه، وخرج مع معاونه.

وأسرع الوزير إلى الملك يخبره بالجواب، وهو في غاية السرور، فأمر الملك السياف بقطع رأسه، فدهش الوزير، وسأله عن السبب، فرد عليه الملك بأن الجواب الذي قدمه ليس جوابه هو، فاعترف بالحقيقة.

وعلى الفور أمر الملك رجاله بإحضار الصبية، وأبيها، فأُحضرت إليه، فخصص لها جناحاً في قصره، تعيش فيه مع أبيها، وجعلها من كبار جواريه.

تعليق:

حكاية تربوية، موجهة إلى الناشئة، تثير لديهم حوافز الذكاء، وتدربهم على الإجابة عن أسئلة عويصة، وتعلمهم إدراك ما وراء الظاهر من باطن خفي.

والجواب في الحكاية يدل على إدراك التحول في الطبيعة، والوقوف عند الجوهر وإن تغير العرض واختلف، فالماء الذي يغلي بفعل النار، هو نفسه الذي كان قد روى الأغصان التي أصبحت أعواداً تشتعل بها النار، ولكأن الحكاية تتفق مع المقولة العلمية: المادة لا تفنى، ولكن تتحوّل.

كما يدل الجواب على الإحسان الذي قد تنجم عنه في بعض الحالات إساءة، وهو يتفق والقول الشائع: "اتق شرّ

من أحسنت إليه".

وفي الحكاية عنصر متكرر في كثير من الحكايات، وهو سؤال الملك وزيره عن قضية، وإمهاله ثلاثة أيام إن لم يأت بعدها بالجواب قطع رأسه.

وفي الحكاية دلالة على ترف الملوك، وانشغالهم بالتفكير في قضايا ذهنية مجردة، وانصرافهم عن مشكلات العامة.

❑❑❑

أنف القاضي

يحكى أن بنتا صغيرة، كان لها بيت صغير، فيه سرير صغير، وحصيرة صغيرة، ومطبخ صغير، فيه أوان صغيرة، وقدر صغيرة، وملاعق صغيرة، وكانت كل أشيائها مثلها، صغيرة صغيرة.

وذات يوم خرجت إلى السوق، فرأت في الطريق فلساً، فاشترت به دبساً، ورجعت إلى البيت فوضعته على الرف، وغطته بالغربال، ثم قعدت في الشمس تتسلى، منتظرة وقت الظهر، حتى تتغداه.

وهي قاعدة في الشمس الدافئة، ذكرت جارتها الذبابة، فقالت تحدث نفسها: "لا بد أن تأتي جارتي الذبابة، كعادتها، لتستعير الغربال، وعندئذ تأكل الدبس، وتترك لي القذر في الصحن، ولم تمض برهة حتى دق الباب، فمضت تفتحه، فإذا جارتها الذبابة في الباب تقول لها: يا جارتي أعيريني الغربال"، فقالت لها: "هو على الرف، ادخلي فخذيه، ولكن لا تأكلي الدبس"، فأخذت الذبابة

الغربال، وخرجت.

وبعد قليل أحست الفتاة الصغيرة بالجوع، فمضت إلى المطبخ، ونظرت، فإذا الذبابة قد أكلت الدبس، وتركت لها القذر في الصحن، فانطلقت على الفور إلى القاضي، تشكو له أمرها.

فقالت له: أنا بنت صغيرة.

فأجابها: هكذا خلقت.

فقالت له: أسكن في بيت صغير.

فأجابها: على قدك.

فقالت له: فيه مطبخ صغير.

فأجابها: يكفيك.

فقالت له: خرجت إلى السوق.

فأجابها: حسناً فعلت

فقالت له: عثرت على فلس

فأجابها: لقد رزقت.

فقالت له: اشتريت به بعض الدبس

فأجابها: حلوا اشتريت

فقالت له: خبأته على الرف

فأجابها: نعم ما خبأت

فقالت له: فزارتني الذبابة

فأجابها: جارة استقبلت

فقالت له: فطلبت مني الغربال

فأجابها: حاجة سألتك

فقالت له: قلت لها ادخلي المطبخ، فخذيه

فأجابها: حاجة قضيت

فقالت له: وأوصيتها ألا تأكل الدبس.

فأجابها: حريصا أوصيت

فقالت له: ولكنها أكلت الدبس، وتركت القدر في الصحن

فأجابها: لقد آذتك

فسألته: فما جزاؤها؟

فأطرق القاضي طويلاً، ونظر في الأوراق التي بين يديه، وتفكر، وتأمل، ثم فتح فمه، وتكلم فقال: "حيثما رأيتها، إذا استطعت، فاقتليها".

فنظرت إليه الفتاة الصغيرة مبهوتة، لا تعرف بماذا تجيب، وكادت الدموع تنحدر من عينيها وهو يواجهها بوجه صامت، مغمص العينين، مطبق الشفتين، ينتظر انصرافها، وإذا ذبابة تحط على أنفه، فأسرعت الفتاة الصغيرة إلى نعلها، فرفعته، وضربت به الذبابة، فانتفض القاضي

مذعوراً، وصاح بها: "ماذا فعلت؟"، فقالت له: "ألم تقل لي: حيثما رأيتها –إذا استطعت، فاقتليها؟

تعليق:

حكاية طريفة، تمتاز بالرشاقة والذكاء، ويمكن أن تقرأ على عدة مستويات، فهي في مستوى من المستويات محض حكاية بريئة للأطفال، تسلّيهم، وتنشط خيالهم، وتمدّهم بزاد لغوي، وقدرة على الوصف، وتمنحهم شيئاً من الفكاهة والمرح.

وهي في مستوى آخر تنتقد القضاء، فتؤكد بجرأة أن القضاء لا يمكنه على الأغلب أن ينصف المظلوم، أو ينتصر له، وإن كان المفروض فيه أن يفعل، ولذلك ما على المظلوم إلا أن ينتصر لنفسه بنفسه، ولا ينتظر، وفق منطوق الحكاية.

ويلاحظ جرأة الذبابة ووقوفها على أنف القاضي، وهي الظالمة للبنت الصغيرة، وهذا الوقوف نتيجة طبيعية لتراخي القاضي، وعدم إنصافه المظلوم، وتركه الظالم حراً يرتع، مما سيؤدي إلى جرأة الظالم على القاضي نفسه.

ولذلك كله، تحمل لطمة البنت الصغيرة للذبابة وهي على أنف القاضي دلالات شتى، فهي تنتصر لنفسها، وتأخذ حقها من الذبابة، وهي تهين القاضي الذي لم يتمكن من إنصافها، على الرغم من ضعف ظالمها، كما تتخلص البنت الصغيرة بلطمها القاضي من عقدة ضعفها وصغر حجمها، لتؤكد قوتها وقدرتها على أخذ حقها.

والحكاية بذلك كله تثير خيال المتلقي، صغيراً كان أو كبيراً، وتلبي حاجته الفطرية إلى الخيال والرمز واختراق الواقع، وإقامة الحق وتأكيد الذات.

❑❑❑

الذي يسرق بيضة
يسرق جملاً

كان لامرأة عجوز فقيرة، ولد وحيد، ربته على الدلال، فكانت لا تزجره في شيء، ولا تمنعه من شيء، حتى كان يقال له: الدلول، لفرط ما لقيه من دلال أمه، وما يبديه من تعلق بها.

وذات يوم خرج يلعب مع الصبيان، فرأى في خم الجيران بيضة، فدخل الخم فأخذ البيضة ورجع إلى البيت، فسألته أمه عما أرجعه، فأخبرها بأنه عثر على بيضة، فأظهرت الأم فرحها، وأخذت منه البيضة، من غير أن تسأله من أين أحضرها، ثم صنعت له منها طبقاً، وقدمته إليه.

وفي يوم آخر، خرج أيضاً ليلعب مع الصبيان، فرأى دجاجة تنقر وتفحص الأرض برجليها فهجم عليها، وحملها بين يديه، ومضى إلى أمه، وهو ينادي: "انظري ماذا لقيت"، ففرحت الأم بالدجاجة، ومضت فذبحتها وهيأت منها طعاماً شهياً، تناولته وابنها في نهم شديد.

وفي يوم آخر، وقد كبر الولد، مر بالسوق، فرأى وعاء فيه عسل، موضوعاً على قارعة الطريق، وإلى جانبه مكيال، وكرسي صغير، فتلفت حوله، فلم ير أحداً، ويبدو أن صاحب العسل قد ذهب لقضاء حاجة، فحمل الولد وعاء العسل، وأسرع به إلى البيت، يقدم إلى أمه ما عثر عليه في الطريق، ففرحت به الأم فرحاً شديداً، وباركته، وقالت له: "إنك دائماً موفق، ومحظوظ"، فأعجب الولد بنفسه، ومضى يبحث عن أشياء أخرى يعثر عليها، هنا أو هناك.

ومرت الأيام وقد أصبح شاباً، فاعتاد على التقاط ما يغفل عنه الناس، في الطرقات، حتى بات يتحين ذلك، ويترصده، ثم أخذ يرقب أبواب البيوت، فلا يتردد في دخول دار يجد بابها مفتوحاً، كما لا يتورع عن اقتحام دكان غاب عنها صاحبها لحين، ليأخذ كل ما تشتهيه نفسه، من غير أن يشعر به أحد.

فكان يحضر لأمه على الدوام الصحون والطسوت والثياب، والأطعمة والأشربة من شتى الألوان، بل كان يجلب لها بين الحين والحين، شيئاً من المال، وكانت كل مرة تفرح به، وتباركه، وتشجعه على ما هو فيه، وتزينه له، ولا تسأله من أين أحضره؟ وكيف حمله؟ فقد كانت تظن أن كل ما يأتي به كان يعثر عليه.

وهكذا غدا ابنها رجلاً، وصار لصاً، يسرق البيوت

والدكاكين، وينهب الأموال والأشياء، ولا يتورع عن مشاركة أمثاله من اللصوص والشطار، فقد كان دائماً يطمع في الأكبر والأعظم، كما كان يزداد جرأة وحدّة.

وذات يوم اقتحم قصر الملك، ودخل بيت المال، فسرق ما فيه من أموال، وولى هارباً، فما عادت الحيل تعييه، ولكن الحراس شعروا به، فلحقوه، حتى أدركوه، ومعه المال المسروق، فقادوه إلى القصر، وسلموه إلى الملك.

وما هي إلا بضعة أيام، حتى صدر عليه الحكم بالشنق، وفي اليوم المحدد لذلك، نصبت له المشنقة، في ساحة البلدة، وأخذ الناس يتقاطرون عليها من كل صوب، للفرجة على ذلك المجرم، الذي روع الناس بسرقاته، حتى إنه جرؤ على سرقة مال المملكة.

وخرجت أمه للفرجة مع من خرج من الناس، وهي لا تعرف أن المحكوم عليه هو ابنها، فقد غاب عن البيت وقلقت عليه، ولكنها لا تتوقع شيئاً مما جرى.

ولما قدم إلى المشنقة، أرسل الملك يسأله إن كان يريد شيئاً، فطلب أن يودع أمه، فنودي على أمه، وعندئذ ذهلت الأم، وتقدمت تصرخ وتعول، منكرة ما صار إليه، فلما تقدمت منه، طلب منها أن تمد لسانها ليقبلها، فاستغربت منه ذلك، فألح عليها، ففعلت، فما كان منه إلا أن أطبق أسنانه على لسانها، وعضه عضاً، حتى قطعه.

فهاج الناس، واستغربوا الأمر، ونادى عليه الملك، فمثل بين يديه، فسأله، لماذا فعلت ذلك، فأجابه:

–لسانها هو السبب، لأنها كانت لا تسألني من أين أحضر ما كنت أحضر لها من أشياء، وأنا صغير، بل كانت تشجعني كلما أحضرت شيئاً، وتباركني، وتقول إني محظوظ، حتى غدوت سارقاً، فالذي يسرق بيضة في الصغر يسرق جملاً في الكبر.

وعندئذ خفف عنه الحكم، فأمر بالاكتفاء بسجنه لبضعة أعوام، ثم طلب منه أن يعتذر لأمه وأن يسامحها، فعاد إليها يعانقها ويبكي على ما كان.

تعليق:

حكاية تربوية من الممكن أن تكون موجهة إلى الأطفال، ومن الممكن أن تكون موجهة إلى الأمهات، وهي تؤكد خطورة إهمال الولد، وضرورة سؤاله عما يفعل، وتوجيهه التوجيه الحسن، نحو الحق والخير، ونهيه عن المنكر، كما تؤكد أن التساهل في القليل يقود إلى التساهل في الكثير، فالقضية لا تتعلق بالكثرة أو القلة، والكبير أو الصغير، وإنما تتعلق بالمبدأ.

وتؤكد الحكاية مكانة الأم في المجتمع، ودورها الكبير في تربية الأطفال، وتحمّلها المسؤولية الكبيرة، كما تدل على صعوبة تربية الولد الوحيد، وصعوبة تربية الولد في غياب الأب.

ويدلّ عض الولد لسان أمه على أهمية الكلمة ودورها في التربية والنطق بالحق، كما تدل على أن التربية عمادها الكلمة الموجهة بصدق نحو الخير.

❑❑❑

كرة من الذهب

يروى أن أحد الرجال كان على غنى كبير، يملك الدور والأراضي والأموال، وكان يبدو دائماً كئيباً قلقاً ضيق النفس متشائماً، لا يهنأ بشيء، ولا يسعد، وقد جرب السفر، والسهر، وكل أنواع التسلية، فلم يذهب عنه ما هو فيه من كرب وضيق.

وذات يوم أشار عليه أحد صحبه أن يصنع كرة من الذهب، ليتسلى بها مع زوجته في البيت يدحرجها لها، وتدحرجها له، ويتبادلانها، في أثناء السهرة، وفرح الرجل لنصيحة صاحبه، ومضى على الفور إلى أحد الصاغة، وطلب منه أن يصنع له كرة من الذهب الخالص، واستحثه في إنجازها وأجزل له في العطاء، وهو الغني المقتدر.

وأخذ الرجل يلعب مع زوجته بالكرة كل مساء، يدحرجها لها، وتدحرجها له، ويتسليان بها، ولكن لم يذهب عن الرجل شيء من كربه وضيقه، بل لعله ازداد بهذه الكرة ضيقاً وكرباً فمضى إلى صاحبه، يحدثه عما كان معه من

أمر الكرة التي نصح له بها.

وعندئذ ضحك صاحبه طويلاً، وقال له: ما أقصده بكرة من الذهب هو الولد، يملأ حياتك دفئاً وأنساً وبهجة.

تعليق:

تؤكد الحكاية حاجة الإنسان الفطرية للولد، فهو ضروري لحياة الزوجين، ولا يمكن أن يسد مسده شيء.

وهي تدل على أن الإنسان هو القيمة الأولى، وأنه أغلى من الذهب وأسمى، وأنه لا بديل عن الإنسان. والحكاية بسيطة لا تعقيد فيها، وتمتاز بالذكاء، ولا سيما في اختيارها الذهب، وهو معدن نادر وثمين وأساسي في الحياة الاقتصادية، ولذلك كان ناجحاً تأكيدها بوساطته أن الولد أثمن منه وأكثر ضرورة.

❑❑❑

الغني والفقير

يحكى أن أخوين، كان أحدهما غنياً، والآخر فقيراً، وكان لكل منهما ولد اسمه أحمد، وكان الغني يزور أخاه الفقير، بين حين وآخر، مصطحباً معه ابنه أحمد، وكان إذا حان وقت الغداء، أعرب لأخيه الفقير عن رغبته في تناول نوع ما من الطعام، ثم يستأذنه في إرسال ابنه إلى السوق، لشراء ذاك النوع، وكان الأخ الفقير يستجيب لرغبة أخيه، وعندئذ يعطي الغني ابنه بعض النقود، ويقول له اذهب واشتر لنا ذلك النوع من الطعام، فيأخذ ابنه النقود ويخرج.

وما إن يصير الولد خارج الدار حتى يقول الغني لأخيه الفقير: "أحمد يمتطي الآن الجواد"، وبعد قليل يقول: "هو الآن في الطريق إلى السوق"، وبعد حين آخر: "هو الآن في السوق"، ثم يقول: "هو الآن يساوم في شراء الطعام"، ثم يقول: هو الآن يشتري ذلك النوع"، ثم يقول: هو الآن يمتطي جواده ويعود"، ثم يقول: "هو الآن في الطريق إلينا"، ثم يقول: "هو الآن في باب الدار".

وعندئذ ينادي، فيجيبه ابنه، ثم ما يلبث أن يدخل حاملاً ذلك النوع من الطعام الذي أوصاه به أبوه.

وكان هذا دأب الغني، في كل مرة يزور فيها أخاه الفقير، يفخر أمامه بقدرته على شراء ما يشتهي من ألوان الطعام، ويزهى بذكاء ابنه، وحسن تصرفه.

وكان الفقير يحس بالألم والضيق، لفقره، وعدم قدرته على شراء شيء مما يشتهي، ولضعف ابنه، وقلة حيلته.

وذات يوم قرر الفقير أن يزور أخاه، ويفعل مثل ما يفعل، فحمل ما كان قد ادخره لذلك من مال، واصطحب ابنه، ومضى إلى زيارة أخيه، ولما حان وقت الغداء اقترح على أخيه الغني نوعاً من الطعام، واستأذنه في ارسال ابنه لشرائه من السوق، فوافق الأخ، فنادى الفقير ابنه، فأعطاه صرة النقود، وأوصاه، وحذره، وحثه على الإسراع، ولما خرج الولد، التفت الفقير إلى أخيه الغني، وقال له: "أحمد الآن يمتطي الحمار"، وبعد قليل قال له: "هو الآن في الطريق"، ثم قال: "هو الآن في السوق"، ثم أخذ يقول مثلما كان يقول أخاه من قبل، متتبعاً مراحل مضي ابنه إلى السوق، وعودته منه، حتى بلغ قوله: "هو الآن في الباب، عائد من السوق، ثم نادى ابنه، فجاء صوته: "نعم يا أبي"، فقال له: "عجل، هات الطعام، فجاء الصوت ثانية: "أنا هنا يا أبي، ما أزال أحاول وضع السرج على الحمار".

تعليق:

حكاية ساخرة، ولكنها مؤلمة في سخريتها، إذ تنتقد حال الفقير، الذي يؤثر فقره في مستوى ذكائه، وسرعة استجابته، على حين يتيح الغنى للغني القدرة على الفعل والحركة، ويعوده سرعة الاستجابة.

ويزيد السخرية ألماً في الحكاية أن أثر الفقر أو الغنى عند الوالد، إنما يتعدّاه إلى الولد، بل إن ذلك الأثر يظهر في الولد أكثر مما يظهر في الوالد، وهذا يعني من جهة أخرى استمرار شقاء الفقير، واستمرار قدرة الغني، وكأن الصراع بينهما تاريخي، لا ينتهي.

والحكاية تكشف أثر البيئة أو المستوى المادي في شخصية الإنسان، ولا سيما الطفل، وهي تؤكد أن ما هو مكتسب في الطبع والخلق والذكاء أقوى مما هو موروث.

إن ولد الغني سريع الحركة، سريع الاستجابة، قادر على الفعل، ليس لطبع ورثه، وإنما لخلق اكتسبه، من غنى والده وقدرته على الفعل.

والحكاية تدل بصورة غير مباشرة على دور الحظ والقسمة والنصيب في حياة الإنسان، وما يكون من غنى أو فقر، وسعادة أو شقاء، إذ تجعل الحكاية الغني والفقير أخوين، وما كان أحراهما أن يكونا في حالة واحدة من الفقر والغنى، وكونهما أخوين، يؤكد ثانية ما سبق استنتاجه من أن المكتسب أقوى أثراً من الموروث.

ولعل الحكاية تقصد من سخريتها المؤلمة إلى التنبيه، وإثارة الوعي لدى الفقير، وتحريضه على تجاوز واقعه بصورة من الصور.

❑❑❑

اعدل.. عدلوا

كان في قديم الزمان ملك، ولا ملك إلا الله، وكان ذلك الملك يحكم البلاد بالعدل والإحسان، ويقيم الحق، وكان شعبه ينعم بالأمن والسلام، ويعيش في صدق وخير وحب، الابن يبر أباه، والأخ يعين أخاه، والجار محب لجاره، ولا بغض ولا عداء، ولا خصام ولا جدال.

ومرت الأيام تتلوها الأيام، وأخذت الأمور تتغير شيئاً فشيئاً، وبدأت الأحوال تتحول، إذ لا شيء يبقى على حال، فسبحان مقلب القلوب، ومغير الأحوال، فعق الولد أباه، وغدر الأخ بأخيه، وخان الجار جاره، وعم الكذب والغش والخداع، وشاع الفسق والرياء والفجور، فانتهكت الأعراض، وسرقت الأموال، ولم يبق أحد يأمن على نفسه أو بيته أو ماله أو عمله، وباتت الأمور في أسوأ حال.

وزاد في الطين بلة تحول الملك، فظلم وجار، وحاد عن الحق والصواب، وعاث في الأرض فساداً فأطلق يد جنده في البلاد، يبطشون ويظلمون ويفتكون، وشعر الناس

بما ينالهم من عسف، فضجوا وتذمروا، فقمعهم الملك، بما لديه من جند وعيون، وبطش بهم بطشاً، ونكل بهم تنكيلاً، فملأ بهم السجون، وحز رؤوس كثير منهم، وعلقها في الساحات.

ولكن الأمور لم تتبدل، بل زادت سوءاً، فشاع الفساد، ودبت الفوضى، وطغى عسف الملك، فقل الزرع وتعطلت الأعمال، وانتشرت الأمراض والآفات، وطمع في البلاد أعداؤها، فهيؤوا لغزوها الجيوش، وشعر بالخطر نفر من الحكماء، فاجتمعوا، وتشاوروا في الأمر، واستطلعوا الآراء، ونظروا فيما هم مقبلون عليه، ثم رأوا أن يوفدوا كبيرهم إلى الملك، ينصح له بالعدل.

وصار كبير الحكماء إلى الملك، فاستأذن، فأذن له، فدخل على الملك، فإذا هو مع قادة جنده، في اجتماع، يستمع إلى ما يقدمون له من وصف لحالة البلد، فلبث الحكيم ساكتاً، ينتظر انتهاء الاجتماع، وبينما هو كذلك، دخل من نافذة في القبة التي تعلو قاعة الاجتماع طائر كبير، حوم فوق الرؤوس، ثم دنا من الملك وصاح:

اظلم.. ظلموا

اظلم.. ظلموا

اظلم.. ظلموا

ثم خرج ذلك الطائر من حيث جاء.

ولما انتهى الاجتماع، رحب الملك بالحكيم، وأدناه منه، وأحسن استقباله، ثم سأله عما يريد من زيارته، فشكر له الحكيم حسن استقباله، ثم اعتذر إليه، وأكد له أنه لم يقصد زيارته إلا ليجدد له الولاء، وولاء من يمثلهم من حكماء البلد، فشكر له الملك زيارته، وودعه بما يستحق من تقدير.

ورجع الحكيم إلى رفاقه الحكماء، فأطلعهم على ما رآه، وأكد لهم أن جور الملك هو نتيجة لظلم الناس، بعضهم لبعض، وأن ليس للناس إلا أن يعدلوا فيما بينهم، ليعدل فيهم الملك، وتشاور الحكماء فيما بينهم، فرأوا أن يبدؤوا هم بالإصلاح بين الناس، ليعيدوهم إلى ما كانوا عليه من صدق وإخاء، وحب وتعاون، فانطلقوا في أرجاء البلاد، يعظون الناس، وينصحون لهم، ويرشدونهم إلى سواء السبيل، ويحثونهم على العودة إلى ما كانوا عليه من خصال.

ومرت الأيام تتلوها الأيام، والحكماء جادّون في النصيحة للناس، على الرغم مما يرون فيهم من فساد، وهم دائبون صابرون، فأخذت الأمور تتبدل شيئاً فشيئاً، وبدأ يقل ما كان بين الناس من كذب وغش وخداع، ويغيب ما شاع بينهم من فسق وكفر وفجور، وبدأ شيء من الحب والتراحم والتعاون ينمو ويظهر، وشيء من الوفاء والصدق والإخاء يبرز ويكبر، وقل بطش الملك، حتى تغيرت

الأحوال، وتبدلت الأمور، فعاد الأمن والسلام، وزاد الخير وكثرت الأرزاق.

وشعر الحكماء بجدوى ما قاموا به، كما أحسوا بعدل الملك، فرأوا أن يوفدوا كبيرهم إليه ليقدم شكرهم له، لعدله في الناس، فمضى كبيرهم إلى الملك، فاستأذن، فأذن له، فدخل على الملك، فإذا هو في اجتماع أيضاً مع الوزراء، يستمع إلى ما يقدمون إليه من وصف لما في البلد من أحوال، فقعد الحكيم ينتظر انتهاء الاجتماع، وبينما هو كذلك، إذا طائر كبير يدخل من نافذة في القبة التي تعلو قاعة الاجتماع، فحلّق فوق الرؤوس، ثم اقترب من الملك، وصاح:

اعدل.. عدلوا

اعدل.. عدلوا

اعدل.. عدلوا

ثم خرج من حيث جاء، كما فعل في المرة الأولى.

ولما انتهى الاجتماع رحب الملك بالحكيم، وأدناه منه، وسأله أن يعرض عليه ما جاء من أجله، فتردد الحكيم، ثم أكد للملك أنه ما جاء إلا ليجدد أمامه ولاء رفاقه الحكماء، فشكر له الملك وفادته عليه، ثم شيعه بنفسه إلى الباب.

ورجع الحكيم إلى رفاقه الحكماء، وروى لهم ما رآه،

فاستقر في أنفسهم أن عدل الملك في الناس هو نتيجة لعدل الناس بعضهم في بعض، ورأوا أن يستمروا في النصح للناس، ووعظهم، ليبقى الخير والحب والأمن والسلام في البلاد.

تعليق:

تؤكد الحكاية القول الشائع: "كيفما تكونوا يولّ عليكم" فهي تؤكد أن الناس يظلم بعضهم بعضاً قبل أن يظلمهم الحاكم، وأن ظلم الحاكم لهم نابع من ظلم بعضهم لبعض، ومثل ذلك أيضاً العدل.

والحكاية تسعى على ما يبدو إلى الاصلاح وتدعو إلى أن يعدل الناس بينهم حتى يتحقق لهم عدل الحاكم فيهم، ولكنها بمثل هذه المقولة إنما تبرئ السلطان وتدين العامّة.

والحكاية تسند إلى العلماء دوراً أساسياً في تحقيق الإصلاح، ولكنه إصلاح موجّه إلى الناس فقط، ولا يتعرض للسلطان في شيء، مما يتفق بالطبع ومقولة الحكاية، ولذلك لا يقدم العلماء للسلطان شيئاً من النصيحة والوعظ، وإنما يقتصر دورهم على الاتصال بالناس.

وعلى الرغم من قدرة العلماء، كما في الحكاية، على إصلاح الناس، والتأثير فيهم، وتوجيههم نحو الأفضل، يظل دورهم سلبياً، وهو لصالح السلطان، ولخدمته، أكثر مما هو لصالح الناس وخدمتهم.

والحكاية تدل بذلك على دور العلماء بوصفهم تابعين للسلطان راعين لمصالحه ساعين إلى إخضاع العامة.

ويبرز الطائر في الحكاية عنصراً فنياً متميزاً كأنه صوت الحق، أو رمز له، كما يظهر واضحاً انقسام الحكاية إلى قسمين أساسيين، يشبهان مقدمتين تعقبهما نتيجة، في ترتيب منطقي.

والحكاية بصورة عامة محكمة البناء، قادرة على

الإقناع بقوة.

❑❑❑

صديق العمر

يروى أن امرأة اختلفت وزوجها في أمر، وصار بينهما خصام وشقاق، فما كان منها إلا أن حملت بعض ثيابها في صرة، وهي أم لبضعة أولاد، ثم مضت إلى دار أهلها.

وشكت لأبيها الأمر، وأعلنت عن رغبتها في الطلاق، فلامها أبوها على ذلك، ونصح لها بالعودة إلى بيتها، فرفضت، وأصرت على البقاء، فلم يجد بدا من الترحيب بها.

وأمضت في بيت أبيها بضعة أيام.

وذات يوم حمل جدها العجوز إبريقاً من الفخار، ومضى إلى ركن، ليتوضأ، وكانت في أثناء ذلك تكنس أرض الدار، فتعثر الجد، وسقط الإبريق من يده، فانكسر، فأسرعت إليه، وقدمت إليه إبريقاً آخر، فأبدى الجد امتعاضاً شديداً، وقعد يتأمل الإبريق المكسور، ويحزن، لفقده، فعجبت لأمره، وسألته: ألم أقدم لك إبريقاً آخر غيره؟ فنظر الجد فيها طويلاً، ثم تبسم في سخرية، وقال: وهل ترين من

السهل أن أتخلى عن هذا سريعاً، واستبدل به غيره، ثم سرح ببصره بعيداً، وأرسل زفرة طويلة، وقال: لو تدرين يا بنتي، ذاك الصديق، صحبته وصحبني، وشهد كثيراً من أيامي.

فاعتذرت لجدها، ثم عمدت إلى صرة ثيابها، فحملتها، ورجعت إلى زوجها.

تعليق:

حكاية تربوية ذات هدف أخلاقي نبيل، عمادها الوعظ، ولكن بأسلوب ذكي جداً، غير مباشر، وهي موجّهة على الأغلب إلى المرأة.

والحكاية ترسّخ قيم التسامح بين الأزواج والوفاء والارتباط وحفظ العهد، وتدعو إلى الترفع عن الصغائر، وعدم اللجوء إلى التفريق حالاً.

كما تعلم الحكاية الكبار حسن التعامل مع الأولاد والأحفاد، وعدم الانصياع مباشرة إلى رغباتهم أو نزواتهم، وتدل على أساليب للتعامل والتربية فيها قدر من الحنكة والذكاء.

وحكاية الإبريق داخل الحكاية تحمل مستويين، الأول واقعي والثاني رمزي، وكلاهما متضافران، ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

فعلى المستوى الرمزي تشير إلى الارتباط بين الزوجين، وانكشاف كل منهما على الآخر، مما يقتضي حفظ العهد ورعايته.

وعلى المستوى الواقعي تشير إلى عادات شعبية قديمة، وهي نشوء علاقة حميمة بين الإنسان وأشيائه الخاصة، وفي بعض الحالات كان المرء مثلاً طوال حياته لا يغير القلم الذي يكتب به، أو الكأس المعدنية التي يشرب بها، مما يدل على أن الإنسان كان يعيش في مناخ يضفي

عليه من إنسانيته، ويتعامل معه تعاملاً إنسانياً.

❑❑❑

الصيف والشتاء

يحكى أن إحدى الزوجات كانت تبغض حماتها بغضاً شديداً، على الرغم من أنها كانت طيبة المعشر، سمحة النفس، حلوة الحديث، فكانت كلما قدمت إلى بيت ابنها في زيارة، ضايقتها وكادت لها وأزعجتها، فتخرج الحماة كئيبة حزينة، على حين كانت تستقبل أمها خير استقبال، وتستضيفها، وتكرمها، وتوسع لها في كل شيء، وكانت أمها سليطة اللسان، متقلبة المزاج، لا يعجبها شيء، ولا ترضى عن شيء، وتعبر دائماً عن ضيق واستياء، بأقسى الألفاظ.

وكانت تلك الزوجة توغر صدر زوجها على أمه، وتشكوها له، وتصورها في أسوأ صورة، مختلقة في ذلك الأكاذيب، غير متورعة ولا خجلة، حتى إنها طلبت منه ذات يوم أن يأخذ أمه إلى أي مكان، ليذبحها، كي ترتاح منها، ويبدو أن الزوج كان في لحظة ضعف، فأطاع زوجته، ومضى بأمه إلى بستان قريب، متذرعاً لها بطلب النزهة، ثم قعد معها على ضفة نهر، حتى ملت، وأخذتها

سنة من النوم، فأغفت، ونامت، فما كان منه إلا أن تركها، ورجع إلى البيت.

وأفاقت الأم، فوجدت نفسها وحيدة، فلم تغضب، وظنت أن ابنها قد ذهب إلى عمله، ولم تشعر بشيء، من الاستياء، ومضت لترجع إلى البيت، وبينما هي في الطريق، مر بها رجلان، أحدهما شاب، والآخر عجوز، فاستوقفاها وسألاها ما تحب، الصيف أم الشتاء؟! فتبسمت وقالت لهما: "الصيف جميل، بفواكهه وخضاره، والنسمات الحلوة في لياليه الساهرة، والشتاء جميل، بالموقد والحكايات أحكيها للأحفاد، فشكرها الرجلان على جوابها، وذهبا.

ولما بلغت بيت ابنها، قرعت الباب، فخرج لها ابنها، فرحب بها معتذراً لها، فغفرت له، وسامحته، ولكنها فوجئت، مثلما فوجئ، ابنها، فإنها مع كل كلمة تنطقها كانت الدرر والجواهر تتساقط من فمها، فعجب لذلك، مثلما عجبت هي، أما الزوجة فقد كانت دهشتها أشد وأعظم، ولم تلبث أن طلبت من زوجها أن يأخذ أمها إلى الموضع الذي أخذ إليه أمه.

ومضى الزوج بحماته إلى الموضع نفسه، وتركها، ورجع، وبينما هي جالسة قرب النهر، ضاقت نفسها، وملت، فنهضت، ومضت تتمشى في البستان، وهي مستاءة من الأشواك والحصى والتراب، ضائقة بالصمت والهدوء، تحس بالوحشة والضيق، ثم قررت العودة إلى البيت.

وبينما هي في الطريق، التقى بها العجوز والشاب، فسألاها السؤال نفسه، فقطبت وجهها، واشمأزت، وقالت: "لا أحب الصيف، ولا الشتاء، فليس في الصيف سوى الحر والغبار والظمأ، وليس في الشتاء سوى البرد والطين"، ولم يجبها الرجلان بشيء، وتركاها، ومضيا في طريقهما.

ورجعت إلى بيت ابنتها، وما إن استقبلتها ابنتها، ورحبت بها، حتى شتمتها وشتمت زوجها، وفوجئت البنت، بل ذعرت، مثلما فوجئت الأم وذعرت، فقد كانت الأفاعي والعقارب تتساقط من فم الأم، مع كل كلمة تنطق بها.

تعليق:

حكاية طريفة، غايتها الانتقاد الساخر، وهي موجهة إلى المرأة، سواء أكانت حماة أم كنة، فهي توحي لها بالأثر الحسن للكلمة الحلوة، كما توحي بضرورة اصطناع الألفة والمودة وتجنب اللجاج والكلام فقط.

والحكاية تدلّ على الواقع الاجتماعي وما تدور فيه من خلافات بين الحماة وكنتها، وهي خلافات متجذرة، كما يبدو، لا بد من ظهورها، حتى لو كانت الحماة بعيدة عن كنتها وليست شريكة لها في السكن.

والحكاية تقدم نمطين مختلفين الاختلاف كله للمزاج النفسي والطبع البشري وأسلوب الكلام والتعبير، الأول نمط المرأة ذات المزاج المعتدل والطبع الهادئ العادل والكلام العذب، والثاني نمط المرأة ذات المزاج المتقلب والطبع الكدر والكلام فقط.

وقد أفلحت الحكاية في تصوير كلّ من الطبعين كما أفلحت في التمثيل لهما بامرأتين كل منهما حماة، لتظهر الفروق أكثر وضوحاً وأبعد تأثيراً.

كما قامت الحكاية على الرمز للشتاء والصيف بشيخ عجوز وشاب في مقتبل الشباب، وهو رمز أسطوري قديم لعله يرجع إلى أسطورة دوموزو أو تموز إله الربيع في الأساطير العربية القديمة.

وفي مكافأة كل من المرأتين بما تستحق وفق كلامها دليل على الجزاء الطبيعي، ودليل أيضاً على أهمية الكلمة، وما تحمله من مسؤولية، وما تستوجب من جزاء.

وفي الموقف المتباين لدى كل من المرأتين من الصيف والشتاء ما يدل أيضاً على ضرورة التلاؤم وحسن التكيف لامع الطبيعة وحدها، بل مع المجتمع أيضاً.

إن تصلب إحدى المرأتين أمام الشتاء والصيف، وضيقها ذرعاً بهما معاً، صورة عن تصلبها أمام الزوجين والشابين، وعدم قدرتها على التلاؤم مع الوضع، الجديد لابنها أو ابنتها، عندما يدخلان في الحياة الزوجية.

وخلاف هذا المرأة الأخرى التي دلت على تقدير حسن كل من الصيف والشتاء، كما دلت على القدرة على التلاؤم معهما، وهذا الموقف هو صورة عن قدرتها على التلاؤم أيضاً مع الحياة الزوجية لشابين، سواء كان أحدهما ابنها أو ابنتها.

وهكذا، فالحكاية تسعى إلى تأكيد ضرورة التلاؤم الاجتماعي والطبيعي وحسن التكيّف مع فصول الطبيعة وأجيال المجتمع.

❑❑❑

طفح الكيل

كانت إحدى القرى خاضعة لحكم الآغا، وكان هذا الآغا قد حكم القرية في أول أمره بالعدل، وأقام الحق، وساعد الضعيف، ولكنه شيئاً فشيئاً أخذ يظلم ويستبد ويطغى، حتى إنه أخذ يشارك الفلاحين في محصولهم، ويسلبهم أراضيهم، ويفرض عليهم الإتاوات، فضاق به أهل القرية، وصمموا على عزله، وتعيين غيره حاكماً عليهم.

وعلم الآغا بما يدبره الفلاحون في الخفاء، فأقام وليمة كبيرة، دعا إليها رجال القرية كلهم، واحتفى بهم احتفاء كبيراً، وبعد الانتهاء من تناول الطعام، وارتشاف كؤوس الشاي، نهض يخطب فيهم، ويحدثهم سائلاً عن سببب عزمهم على عزله، وتعيين غيره.

وصمت القوم، لا أحد يجيب بشيء، ولكن شاباً ثارت فيه الحماسة، فأجاب: "طفح الكيل"، فتبسم الآغا، ثم غمز لابنه بعينه، فدخل ابنه إلى إحدى الغرف، وخرج يحمل مكيالاً مليئاً بالليرات الذهبية، حتى إن الليرات كانت تتساقط

منه لفرط امتلائه.

ووضع الآغا المكيال على الأرض أمام أعين الرجال جميعاً، ثم قال لهم:

"انظروا إلى هذا المكيال الممتلئ، هل يتسع لمزيد؟! "فأجابه الرجال: "لا" فأضاف يسأل ساخراً: "هل تفضلوا بقائي وقد امتلأ مكيالي، وطفح، أم هل تفضلون عزلي، وتعيين آغا آخر، مكياله فارغ، ولا بد من ملئه؟!

وتهامس الرجال، ثم خرجوا واحداً واحداً، وهم يمرون بالآغا، مجددين له الولاء.

تعليق:

تكشف الحكاية أساليب الحكام المستبدين في تضليل العامة وخداعهم حرصاً على استمرار سيطرتهم وسعياً منهم نحو مزيد من التملك والظلم.

ويظهر في الحكاية واضحاً ضعف العامة وجبنهم وسهولة خداعهم وميلهم إلى المصالحة والتسليم وبعدهم عن الرفض.

كما يظهر فيها واضحاً أن صوت الرفض والتمرد هو صوت الشباب، وهو صوت واحد ووحيد، وسرعان ما ينهزم أمام تراجع العامة وضعفهم.

وثمة توازن مدهش في تقديم الحكاية لطرفي الصراع، من سلطة مستبدة قائمة على النهب والخداع والقمع، وعامة ليس لديهم سوى الضعف والخوف والخضوع، وهو توازن يوحي في الظاهر بصلاح رأي الآغا، إذ أن استمراره في سلطته وقد امتلأ مكياله، خير، في الظاهر، من مجيء آغا جديد، ذي مكيال فارغ، ولكن ثمة سؤال: هل سيكتفي الآغا حقيقة بذلك المكيال الذي

امتلأ؟

وهنا تنطوي الحكاية على مفارقة قاسية، وسخرية مرة، إذ تتضمن في داخلها مثل ذلك السؤال، فتصبح في عمقها إدانة للآغا وسخرية منه، أكثر مما هي عليه في الظاهر من ترجيح لرأيه، وهذه هي براعة الحكاية.

وتبدو الحكاية مستوحاة من مجتمع ريفي متخلف، يسيطر عليه الإقطاع، ويتحكم فيه الآغا، ويعمل الفلاحون أجراء في أرضه، لا حول لهم ولا قوة.

وتمتاز الحكاية بتطورها وتناميها نحو عقدة ثم يأتي الحل مخيباً لكل رجاء، وهي قوية الإقناع قوية التأثير.

□□□

قلب الأم

يحكى أن احدى الزوجات كانت تكره حماتها، وتكيد لها، وتسعى إلى الخلاص منها، ولا تستطيع إلى ذلك سبيلا.

وذات يوم تظاهرت بالمرض والاعتلال، واتفقت مع أحد الأطباء على أن يعودها، فيصف لها قلباً بشرياً، تأكله، فيكون فيه شفاؤها.

ولما رجع الزوج من عمله، كانت قد تمددت في الفراش، وصبغت وجهها بالورس، فأخذت تتأوه، وتشكو، ولما سألها الزوج عما بها، توسلت إليه أن يسرع بإحضار الطبيب، وأشارت عليه أن يحضر ذلك الطبيب، الذي كانت قد اتفقت معه، ولما حضر الطبيب أكد أن شفاءها في قلب بشري تأكله.

وحار الزوج في الأمر، وقلق واضطرب، وأظهرت الزوجة مزيداً من الشكوى والتألم ثم التفتت إلى الزوج، ترجوه وتتوسل إليه، أن يحضر لها ذلك القلب، والدموع

تنسكب من عينيها، وهي تتلوى وتتألم.

وأشفق الزوج، فسألها: "وكيف أحضر لك قلباً بشرياً؟!" فأجابته على الفور: "أمك، فهي عجوز، ومريضة، إن لم تمت اليوم فستموت غداً، فلماذا لا تذبحها، وتشق صدرها، وتخرج القلب، فتشتري بذلك الصبا والحسن والجمال، بالشيخوخة والعجز والهرم؟!"

وذهل الزوج، ولكن الزوجة ظلت تحاوره، وتوحي إليه أنها مشرفة على الموت، وتشكو، وتتأوه، حتى انساق إلى طلبها.

وقاد الزوج أمه إلى بستان قريب مدعياً أنه يريد لها النزهة، وهناك تمكن منها، فقتلها، وشق صدرها، واستخرج القلب، وحمله، ومضى به، راجعاً إلى زوجته.

وفي الطريق، تعثر الزوج بحجر، فوقع، وإذا قلب أمه ينطق، حالة تعثره، ويقول: "الله"، معبراً عن خشية الأم على ولدها، وتنبه الزوج إلى ذلك، وذكر أمه، وأدرك عِظَم خطئه، وشناعة ما أقدم عليه، فما كان منه إلا أن رجع إلى حيث ترك جثة أمه، فأعاد إليها القلب، وكتب حكايته على ورقة، وأمسك بها بيد، ثم طعن نفسه باليد الأخرى، واستقلى إلى جانب أمه، ومات.

تعليق:

حكاية تربوية تحث الولد على الوفاء لأمه وعدم الانصياع لنزوات زوجته، وهي تميل إلى القسوة والغلظة

والمبالغة لتحقيق الأثر المطلوب وتحقيق هدفها الفكري.

والحكاية تؤكد صدق عاطفة الأمومة وقوتها وعظمتها على الرغم من عقوق الولد وغدره.

وهي تعكس حقيقة اجتماعية، إذ تميل الزوجة دائماً إلى الاستقلال بحياتها، ولا تريد من يشاركها فيها، ولا سيما حماتها، كما تعكس حقيقة نفسية أخرى هي انصياع الرجل لنزوات زوجته وانصرافه عن أمه.

والحكاية شائعة، وهي واسعة الانتشار، ومرجع ذلك إلى مبالغتها وشدة تأثيرها، وتعبيرها عن عاطفة الأمومة المقدسة.

❑❑❑

الأخذ والعطاء

كان لأحد الرجال صديق يوده، وذات يوم احتاج الرجل إلى مبلغ من المال، فقصد صديقه، ليستدين منه ما يحتاج، فرحب به صديقه، ولما سأله عن حاجته، قال له: "افتح تلك الخزانة، وخذ منها المبلغ الذي تريد"، وفتح الرجل خزانة صديقه، وأخذ منها المبلغ الذي هو في حاجة إليه، وشكر صديقه، ثم مضى.

وبعد حين من الزمن، تيسر للرجل المبلغ، فمضى إلى صديقه، وقدمه إليه، فقال له: "ضع المبلغ حيث أخذته، في تلك الخزانة"، فمضى إلى الخزانة، ففتحها، ووضع فيها المبلغ، وشكر صديقه، ثم مضى.

ومرت أيام، واحتاج الرجل ثانية إلى شيء من المال، فقصد إلى صديقه، فقال له مثلما قال في المرة السابقة، فأخذ الرجل المبلغ الذي هو في حاجة إليه، وشكر صديقه، ومضى.

ومرت أيام وأيام، ولم يعد الرجل المبلغ إلى صديقه.

وذات يوم احتاج الرجل مرة ثالثة إلى شيء من المال، فقصد صديقه، يسأله أن يدينه مبلغاً يحتاجه، فقال: "افتح تلك الخزانة، وخذ منها ما تحتاج"، فمضى الرجل إلى الخزانة، ففتحها، فلم يجد فيها شيئاً، فالتفت إلى صديقه، وقال له: "ولكن الخزانة فارغة، وليس فيها شيء؟!"، فأجابه صديقه: "وكيف تتوقع أن تجد فيها شيئاً، وأنت لم تعد إليها المال الذي أخذته منها؟!".

تعليق:

حكاية تربوية تحث على ضرورة الوفاء وسداد الدين وعدم التأخر في رده وحسن التعامل بين الناس ولا سيما في أمور المال.

وهي تقوم على التدرج وفق ثلاث مراحل، وفيها قدر غير قليل من الذكاء والمنطقية، وتمتاز بالإيجاز والتكثيف.

والحكاية على الأغلب نتاج مجتمع المدينة وعلاقات السوق، وهي تؤكد المثل القائل: "من أخذ وردّ ما ارتد".

❑❑❑

عيش القصور

خرج مرة أحد الملوك إلى نزهة في البساتين والأرياف، وكان إلى جانبه حكيم القصر، يعرفه إلى أنواع النباتات والأعشاب، فيصف له كل نوع، ويسميه، ويحدثه عما هو نافع، ويحدد وجه الضرر فيه أو النفع، ويبين ما هو سام قاتل.

وبينما هو على تلك الحال، إذ مرّا براع نعاجه تسرح في الحقل، ومضى يقتلع بعض الأعشاب، ويتناولها، ولما اقترب منه الملك لاحظ أنه يأكل عشبة من النوع السام، فدهش، والتفت إلى الحكيم، يطلب منه تحذير الراعي، ولكن الحكيم طمأنه، وأكد له أن العشبة لن تضره في شيء، على الرغم من أنها سامة قاتلة، فدهش الملك، واستفسر عن سرّ ذلك، فأكد له الحكيم أن عيش الفلاة، والاعتياد على تناول مثل تلك الأعشاب، يمنح الجسم قوة، تبطل عمل السم، فأنكر الملك ذلك، وطلب من الحكيم مصداقاً لقوله.

واصطحب الحكيم الراعي إلى القصر، وأنزله في

جناحه، وطلب من الخدم السهر على خدمته ورعايته، وأخذ يجلسه إلى مائدته، ويطعمه من أطايب الطعام، مما يأكله في القصر، ويوفر له الراحة، ويبعده عن العمل والنشاط، حتى مرّ شهر أو شهران، وعندئذ قدم به إلى مجلس الملك، وقدم له بعض الأعشاب مما يأكله في الفلاة، وطلب منه تناولها، على مرأى من الملك، فتناولها الراعي، ولم تمض غير ساعة، حتى أخذت عوارض التسمم تبدو عليه، فتأكد للملك مصداق قول الحكيم، ثم أمر بالإسراع في علاج الراعي ومداواته، ورده بعد ذلك إلى الفلاة، ليعيش حيث كان يعيش من قبل، موفور العافية، لا تضره الأعشاب، ولا تؤذيه، حتى السامة منها.

تعليق:

تؤكد الحكاية نقاء الطبيعة وجمال العيش فيها، وفساد العيش في القصور ومجافاته للفطرة.

والحكاية تعبر عن الصراع القديم بين البدو والحضر، والريف والمدينة، والطبيعة والصناعة، وهي تنتصر للطبيعة والريف والحياة الفطرية.

وهي تقدم بصورة غير مباشرة عزاء للفقير كي يرضى بما هو فيه من عيش، كما تقدم إدانة لعيش القصور كي تزيد من إقناع الفقير بقبول عيشه.

□□□

قطعة من حديد

كان أخوان اثنان ماضيين من الريف إلى المدينة، في الصباح الباكر، لبيع ما لديهما من خضر، يحملانها على ظهر حمار، وكانا قد اتفقا على أن يمتطي أحدهما الحمار في الذهاب، وأن يمتطيه الآخر في الإياب.

وفي الطريق، رأى الأخ الذي يركب الحمار قطعة حديدية صغيرة، فقال لأخيه الراجل: "التقط تلك القطعة، فقد نبيعها، ونستفيد بثمنها"، فأجابه أخوه: "أنا لا أكلف نفسي عناء الانحناء لالتقاط مثل تلك القطعة الصغيرة، فهي لا تساوي شيئاً، وما كان من الأخ الذي يمتطي الحمار إلا أن نزل، والتقط القطعة الحديدية، ومضى بها.

وفي المدينة، باع الأخوان ما لديهما من خضر، وهمّا بالرجوع إلى القرية، ولكن الأخ الذي التقط القطعة الحديدية ذكر القطعة، فعرضها للبيع، فباعها، بثمن معقول، اشترى به بعض الخوخ، ومضى الأخوان، الذي اشترى الخوخ يسير، والآخر يمتطي الحمار، كما اتفقا.

وكانت عودتهما في الظهيرة، وقد قوي الحر، وفي الطريق، أحس الذي يمتطي الحمار بشيء من العطش، فطلب من أخيه أن يعطيه خوخة واحدة، فرمى له الأخ بحبة على الأرض، فاضطر إلى النزول لالتقاطها، ثم عاد إلى ظهر الحمار، ولم يمض بعض الوقت، حتى أحس بالعطش ثانية، فسأل أخاه أن يعطيه خوخة ثانية، فرمى له أخوه بحبة أخرى، فاضطر أيضاً إلى النزول لالتقاطها، ولم يمض بعض الوقت، حتى أحس بالعطش ثالثة، ومرة أخرى رمى له أخوه بالخوخة إلى الأرض، فاضطر إلى النزول لالتقاطها.

ولما التقطها، ورجع إلى ظهر الحمار، سأل أخاه: "لماذا تعذبني، وترمي إليّ بحبة الخوخ إلى الأرض؟!"، فأجابه: "لو أنك كلفت نفسك مرة واحدة الانحناء لالتقاط تلك القطعة من الحديد في الذهاب، لما اضطررت إلى النزول إلى الأرض، ثلاث مرات، في الإياب، ولكان الخوخ كله معك.

تعليق:

تؤكد الحكاية أن لكل شيء، وإن قل، قيمة، وعلى المرء ألا يستهين بقيمة الأشياء، وألا يناله شيء من الغرور، فهو لا يدري، فلعله يحتاج في وقت العسر إلى أمر تافه كان لا يبالي به في وقت اليسر.

فالحكاية تقدم عظة وعبرة، وتعلّم الإنسان ضرورة التفكير في المستقبل، وتقدير الأمور حق قدرها، ومجانبة الغرور والحكاية على ما تبدو موجهة إلى الفتيان، وهي

تمتاز بعدم المباشرة، والقدرة على إظهار المفارقة بين حالتين.

والحكاية على ما يبدو مرتبطة بمجتمع المدينة والسوق حيث كل شيء يمكن أن يباع ويشرى وله قيمة وثمن.

❑❑❑

العسل

يحكى أن لقمان الحكيم كان من أمهر الأطباء في عصره، فقد آتاه الله الحكمة، فكان إذا دخل المريض عليه تحركت، إحدى الزجاجات الموضوعة على رفوف كثيرة إلى جانبه، فيقدم إلى المريض تلك الزجاجة، لأن فيها دواءه، وكان إذا دخل عليه مريض ولم تتحرك أية زجاجة، أدرك أن المريض في مرض الموت، فكان يصرفه بلباقة من غير أن يقدم له دواء ما.

وذات يوم دخلت عليه امرأة تحمل ولداً لها مريضاً، فنصح لها بالعسل، فأخذت ولدها ومضت، وبعد أيام رجعت إليه ثانية، تحمل ولدها، فنصح لها ثانية العسل، فأخذت ولدها ومضت، ومرت بضعة أيام، رجعت إليه بعدها، تعرض عليه ولدها، فنصح لها بالعسل، فأخذت ولدها ومضت.

وبعد أيام أخرى، رجعت إلى لقمان لتخبره بوفاة ابنها، ولتلومه على نصحه لها بالعسل، وتؤكد له أن العسل قتله،

فطلب منها أن تذهب إلى قبره وتقف عليه، وتستحلف العسل بالله أن يجيبها عما فعل بابنها.

ومضت المرأة إلى قبر ولدها، فوقفت عليه، ونادت العسل، تستحلفه بالله أن يجيبها عما فعل بابنها، وإذا بهاتف من القبر يناديها قائلاً: "لقد شفيت ابنك من خمسة وسبعين داء، إلا داء الموت، لم أستطع شفاءه منه.

تعليق:

تؤكد الحكاية العجز المطلق أمام حقيقة الموت، إذ لا يفلح في دفعه أي شيء، حتى العسل الذي ينفع في علاج أدواء كثيرة.

وهي تسند إلى لقمان الحكيم دور الطبيب لتزيد في تأكيد فكرتها، كما تعتمد على المبالغة الظاهرة في تحرك زجاجات الدواء من تلقاء نفسها، وفي نطق العسل ورده على سؤال الأم.

والحكاية موجزة جداً ومكثفة، وهي أشبه بالموعظة.

❑❑❑

ثمن الحمام

كان أحد الرجال يهوى الحمام، وكان لديه عدة أسراب منه، وكان يمضي معظم يومه على سطح الدار، يرش لطيوره الحب، ويقدم لها الماء، ويطيّرها إلى السماء، مستمتعاً بتحليقها أسراباً أسراباً.

وكان ذلك دأبه، يمضي إلى دكانه، فيمضي فيها ساعة أو ساعتين، ثم يقفل راجعاً إلى بيته، ليمضي بقية يومه مع الحمام، وكانت زوجته تعاتبه في إهماله عمله، وتلومه على إفراطه في الاهتمام بالحمام، فيرد عليها، مؤكداً لها أن الحمام أغلى من كنوز الأرض كلها، فكان يشير إلى أحد الطيور، ويقول لها: "انظري إلى هذا الطير، ذي الذيل الأسود، ثمنه اليوم مئة ليرة، ثم يشير إلى طائر آخر، ويقول مزهواً: "أما ذاك الطائر، فهو قوّال، وأنا لا أبيعه، ولو دفعوا لي فيه خمسمئة ليرة، ثم يقول: "وذلك الطائر، الأبيض النقي، دفعوا لي فيه ألف ليرة، ولم أبعه، ثم يضيف: "أما ذلك الطائر المحلق في السماء، فهو قلاّب، وأنا لا أبيعه بثمن، لأن أحداً غيري لا يستطيع

تقدير ثمنه".

وكانت الزوجة تسمع إجابات زوجها، فتصمت، وتصبر على الجوع والحرمان، وتقنع بالقليل، وتلتفت إلى أولادها تعنى بهم، وتجد فيهم لنفسها العزاء.

ومرت الشهور، تلتها السنوات والأعوام، والزوج لا يرعوى عن الإنفاق على الحمام، وشراء ما غلا منه، حتى باع الدكان، وعكف على طيوره، يطعمها ويسقيها ويطيرها في السماء، ويزهى بها، ولا يمنح زوجته وأولاده إلا بعض الاهتمام.

ثم شاءت الأقدار أن تخطف ذلك الزوج، فتوفي، ولم يترك لأسرته شيئاً، غير الحمام، فحزنت زوجته وتألمت، وأصبح من واجبها أن تعيل نفسها وأولادها، ولكنها ذكرت ما كان يحدثها به زوجها عن ثمن طيوره، فأدركت أنها تملك ثروة جيدة.

وأرسلت إلى السوق من يعلن عن عزمها على بيع الحمام، فتهافت عليها هواة الحمام، وتجاره، فأخذت تغلي في ثمن كل طير، وتزهى به مثلما كان يفعل زوجها، ولكنها فوجئت بأن هواة الحمام وتجاره لا يدفعون إلا ثمناً بخساً، يقلّ كثيراً عما كان يحدده زوجها من ثمن لكل طائر، فدهشت لذلك، ولم تصدق.

ثم صارحت بذلك أحد الهواة، وسألته رأيه، فأجابها: "

لقد كان زوجك صادقاً، فالطائر وهو محلق في السماء، غال جداً في عين هاويه، ولكنه وهو في السوق، معروض، بين يدي شاريه، رخيص، رخيص جداً.

تعليق:

تؤكد الحكاية قيمة الشيء لدى من يهواه ويتعلق به، وهي قيمة فردية خاصّة، قد يقف المرء عليها حياته، ويضحي لأجلها بكل شيء.

ثم تؤكد بالمقابل اختلاف سعر الشيء عن قيمته الاختلاف كله، فالسعر يفرضه السوق، وفق قانون العرض والطلب، وكل ما هو مطلوب غال، وكل ما هو معروض رخيص.

وبذلك تكشف الحكاية المفارقة الكبيرة بين السعر والقيمة، وبين المتاجرة والهواية، وبين العرض والطلب.

والحكاية تدل على هواية كانت شائعة في المجتمع وهي تربية الحمام، ولأجلها كان يضحي بعض الأفراد بأعز ما يملكون، وقد تحولت فيما بعد إلى احتراف ذميم كالقمار، وكانت توقع صاحبها في عزلة، وتنحرف به، وتؤدي به إلى الهلاك.

❑❑❑

في بركة القصر

يحكى أن امرأة عاقراً دعت ربها متمنية أن تحمل، ولو بخنفساء، فاستجاب الله دعاءها، فحملت ووضعت خنفساء، ففرحت بها، وكانت تضع لها على باب الدار سجادة صغيرة، تقعد عليها، لتتسلى بالفرجة على الرائح والغادي.

وذات يوم مر الجمل بالخنفساء، فقال لها:

خنيفسة يا خنيفسة[٢]

يا قاعدة ع الطنيفسة

تتزوجيني؟

فأجابته:

خنفس خنفس أمك

ونفوس بنت عمك

حط نقدي[٣] على كمي

---

[٢] *خنيفسة: تصغير خنفساء. والطنيفسة: تصغير طنفسة، وهي السجادة.*
[٣] *النقد: المهر.*

لأدخل أشاور أمي

فأعطاها درهماً، فدخلت على أمها تخبرها به، وتصفه لها، فتقول:

جسمه كبير كبير

عنقه طويل طويل

عينه كبير كبير[٤]

رجله طويل طويل

فقالت لها الأم: "اصرفيه، فهذا الجمل، بخبطة قدم، يقتلك، فخرجت تعتذر له.

ثم مرّ بها الحمار، فقال لها:

خنيفسه يا خنيفسة

تتزوجيني:

فقالت له:

خنفس خنفس أمك

ونفوس بنت عمك

حط نقدي على كمي

لأدخل أشاور أمي

فأعطاها درهماً، فدخلت على أمها تخبرها به، وتصفه

---

[٤] *هكذا تروى، ومثلها الصفات جميعاً.*

لها، فتقول:

رأسه كبير كبير،

أذنه طويل طويل،

عينه كبير كبير

ذنبه طويل طويل

فقالت لها الأم: "اصرفيه، فهذا الحمار، بخبطة قدم منه، يقتلك"، فخرجت تعتذر له. ثم مر بها الجرذ، فقال لها:

خنيفسة يا خنيفسة

يا قاعدة ع الطنيفسة

تتزوجيني؟

فقالت له:

خنفس خنفس أمك

ونفوس بنت عمك

حط نقدي على كمي

لأدخل أشاور أمي

فأعطاها درهماً فدخلت على أمها تخبرها به، وتصفه لها، فتقول:

عينه صغير صغير

أذنه قصير قصير

رجله صغير صغير

ذنبه طويل طويل

فقالت لها الأم: "هذا الجرذ، اذهبي، فتزوجيه"، ثم ودّعتها، وهي تبكي، وتتمنى لها الحظ السعيد.

وخرجت الخنفساء إلى الجرذ، فقالت له: "أمي موافقة، فقال لها: "اركبي على ظهري"، وبسط لها ذيله، فتسلقت عليه، حتى بلغت ظهره، فتشبثت به، ومضى يعبر بها الأزقة والطرقات، ثم دخل في بالوعة، وأخذ يجتاز بها المجاري، عبر الأقذار والأوساخ، حتى بلغ قصر الملك، فخرج من بالوعة في مطبخ القصر، وأنزلها قرب ما يلقيه الخدم من بقايا طعام، وكان عرس ابن الملك قائماً، فأخذ الجرذ والخنفساء ينعمان بأطايب الألوان، ثم أحست الخنفساء بالعطش، فسألت الجرذ أن يدلها على الماء، فحملها على ظهره، ومشى بها حتى بلغ بركة القصر، فوضعها على حافة البركة لتشرب، والناس مشغولون عنهما بالموائد والأفراح، ودنت الخنفساء من الماء لتشرب، ولكن قدمها زلت بها، فوقعت في البركة، وغرقت.

تعليق:

حكاية طريفة، تروى على الأغلب للأطفال، لإضحاكهم وتسليتهم، وهي جميلة جداً، وذات قدرة على إثارة الضحك، وما تمتاز به هو مزجها بين عالم الحيوان وعالم الإنسان، واعتمادها على الحيوانات الصغيرة، مما يساعد على إثارة الخيال، وتحقيق عنصر الإضحاك.

ولكن الحكاية من جهة أخرى تحمل دلالات كبيرة، غير مباشرة، فهي تدل على فقر العامة وضعفهم وحرمانهم وسوء أحوالهم، ويظهر ذلك من خلال المرأة التي حُرمت الولد، فتمنت لو رزقت ولو بخنفساء.

ويتأكد ذلك من خلال رفض المرأة تزويجها ابنتها الخنفساء للجمل أو الحمار، وتزويجها للجرذ، ومرجع ذلك ليس إلى التناسب في الحجم، كما هو في الظاهر، إنما مرجعه في الحقيقة إلى قدرة الجرذ على التسرب داخل السراديب والوصول إلى قصر الملك، ليوفر للخنفساء عيش القصور، على حين لا يستطيع الجمل أو الحمار شيئاً من ذلك، فالأول يعيش في الصحراء، حيث القحط، ويمضي عمره في الأسفار، والثاني يعيش عمره يكد ويكدح ويحمل الأثقال ولا يجني شيئاً.

وبذلك تدل الحكاية على أن القوة في الواقع ليست للعمل والجد والكدح، وإنما لأساليب الغش والخداع والالتواء، والتسرب عبر السراديب والتغلغل داخل المجاري والمنافذ المؤدية إلى القصر.

ويتأكد صحة ذلك من خلال النهاية إذ يحمل الجرذ الخنفساء عبر المجاري والسراديب إلى مطبخ القصر، حيث تنعم الخنفساء بالفتات من بقايا الطعام، وهذا ما لا يستطيع الجمل أو الحمار تحقيقه.

وبذلك يتأكد أيضاً حلم العامة دائماً بقصور الملوك وتخيلهم أن العيش فيها هو النموذج الأمثل، كما يتأكد غياب وعيهم، وتوهمهم أن الخلاص لا يتحقق إلا بمعجزة، ويظهر واضحاً بقاء صورة الملك الحاكم هي الصورة الأمثل في أذهانهم.

ولكن النهاية تأتي مفجعة، إذ تغرق الخنفساء، في بركة القصر، وبذلك ينكسر الوهم والحلم ويتحطم الخلاص، ويظهر أن القصر ليس هو الخلاص الحقيقي.

إن خاتمة الحكاية مفجعة، ولكنها ذكية، وهي ذات دلالات بعيدة أيضاً.

إن الحكاية وهي تتوجه إلى الصغار إنما تدلّ على قهر الكبار، وشعورهم بالحرمان وإحساسهم بالضآلة والضعف، واضطرارهم إلى التعبير إلى الصغار بأسلوب الرمز والحلم والخيال.

❐❖❐

الرشح أصعب

يحكى أن وزيراً، في أحد العصور، أصيب برشح ثقيل، فلزم الفراش، ولم يغادر بيته فافتقده الملك، فقيل له، إنه مريض، فذهب إليه يعوده، ولما سمع الوزير بقدوم الملك عليه، حار واضطرب، وأحس بالخجل، فكيف يكون الرشح ذريعة للزوم الفراش، والبقاء في البيت، فما كان منه إلا أن مد أصبعه إلى عينه، فقلعها، ففي هذه المصيبة، كما تصور، ما يسوغ له البقاء في البيت، ولما دخل عليه الملك، وسأله عن حاله، فاعتذر إليه، وأخبره أن عينه قد قلعت، كما هو واضح، فضحك الملك طويلاً، ثم قال له:

– هذا أمر بسيط، لا يقتضي منك الغياب عن القصر، لو أنك كنت مصاباً بالرشح، مثلاً، لكان يحق لك أن تبقى في البيت وتلزم الفراش.

تعليق:

تؤكد الحكاية شدة وطأة الرشح على الإنسان، إذ

تضطره إلى لزوم فراشه، على الرغم من بساطة ذلك المرض في الظاهر. وهي تقدم عزاء للمصاب بالرشح، وتسلّيه، ولذلك تبدو ذات دور ترفيهي، وقد جاءت قصيرة جداً، أقرب إلى الطرفة.

والحكاية ذات دلالة غير مباشرة على طبيعة العلاقة في بلاط الحكام، ولا سيما العلاقة بين الملك وحاشيته، فهي لا تقوم علي الصدق والصراحة، وإنما على الافتعال والكذب والمبالغة.

❑❖❑

ابن العم

في ضحى يوم ربيعي دافئ، قعدت الأم وابنتها الصبية، في طرف من ساحة القرية، مسندتين ظهريهما إلى الجدار، وهما تنعمان بدفء الشمس، وخدرها اللذيذ.

وفجأة، التفتت البنت إلى أمها، وقالت: "رأيت بمنامي أني تزوجت ابن عمي"، فأجابتها الأم: "تتزوجينه، إن شاء الله."، فقالت البنت: "وحملت منه"، فأجابتها الأم: "تحملين إن شاء الله"، فقالت البنت: "ووضعت ولداً" فأجابتها الأم"تضعين إن شاء الله"، فقالت البنت: "وسميته أحمد"، فأجابتها الأم: "تسمّينه، إن شاء الله"، فقالت البنت: "وكبر أحمد، وصار يروح إلى دار عمه، ويخرج إلى دار عمه، ويخرج إلى ساحة القرية، ويلعب مع الأولاد، وذات يوم راح معهم إلى البئر، فوقع فيه، ومات"، فأخذت الأم تعول وتندب وتضرب وجهها وتحثو التراب على رأسها، وكذلك تفعل ابنتها، ومرت بهما جارة لهما، فسألت عن الأمر، فروت لها الأم ما كان، فأخذت الجارة تشاركهما ما هما فيه.

ثم مر بهن ابن العم نفسه، فسأل ابنة عمه عن الأمر، فسردت له الحلم بالتفصيل، مثلما سردته لأمها، وهي تبكي وتعول، ولما انتهت، سألها: "ومن أجل ذلك تبكين؟!" فأجابت: "أي، نعم"، فشتمها وشتم أمها والجارة، وقال لها: "والله لن أتزوجك أبداً"، وتركها، مع أمها والجارة، يبكين ويعولن ويندبن.

تعليق:

تدل الحكاية على فقر الحياة في الريف، وضيق الأفق، ولا سيما لدى المرأة التي لا يشغلها سوى الزواج والإنجاب، وهي لا تعرف بعد ذلك شيئاً من أمور الحياة وقضاياها، بسبب جهلها وحرمانها وقسوة الحياة الخشنة التي تحياها، مما يقود نتيجة لذلك إلى التعلق بالوهم والحلم والخيال، حتى يغدو الوهم حقيقة، والحلم واقعاً، كما يقود أيضاً إلى المبالغة في العاطفية.

ومثل تلك الصورة للمرأة قاسية من غير شك ومؤلمة، وهي صورة ساخرة، قد تقود إلى الضحك، ولكنه ضحك مفجع، يخفي وراءه دلالات بعيدة.

ويظهر الرجل في الحكاية أكثر واقعية، وأبعد عن الحلم والوهم والخيال، ولكنه لا يملك الوعي الحقيقي، ويظل أسير وحدته وفرديته، كما تظل المرأة أسيرة جهلها واستغراقها في الحلم، ولا يحاول الرجل على الإطلاق إيقاظ المرأة وتخليصها من وهمها، بل يتركها ويمضي متخلياً عنها، وهو يضيف بموقفه ذلك إلى وهمها خيبة وانكساراً وتخلّياً عنها.

وهذا يؤكد ثانية وحدة المرأة وعزلتها، وغياب العلاقة الاجتماعية الصحيحة بين المرأة والرجل، وسوء فهم كل منهما للآخر، واختلاف موقع كل منهما، ومرجع ذلك كله إلى مجتمع متخلف، لا تنشأ فيه علاقات صحيحة وواقعية

بين المرأة والرجل.

إن الحكاية ساخرة، ولكنها في سخريتها مرة لاذعة، وهي تثير الإحساس بالألم، أكثر مما تثير الإحساس بالسخرية.

❑❖❑

ديوان العسكر

كان لرجل فقير سبع بنات كالأقمار، حسناً وجمالاً، ولكن لا أحد يقرع عليه الباب ليخطبهن، بسبب فقره، وكان لهذا الفقير أخ غني، له سبعة أبناء، وكان الغني لا يسأل عن الفقير، ولا يزوره.

وكان الفقير ضعيف الحيلة، قليل ذات اليد، لا يحسن شيئاً، وقد سُدّت عليه مسالك الرزق جميعاً، وقد ضاقت به زوجته وبناته، وذات يوم، قالت له زوجته: "لابد من تبديل الحال"، ثم طلبت منه أن ينفذ كل ما تقوله له، وألاّ يخالفها في شيء، ثم عمدت إلى بناتها، فطلبت منهن أن يتزيَّن ويرتدين أحسن ما لديهن، ثم أرسلت إلى إحدى جاراتها فاستعارت منها"دربكة"، وأخذت تدق عليها، وتغني، والبنات من حولها يرقصن ويزغردن، حتى ملأن الحي بأصواتهن.

وأقبلت عليها الجارات يسألنها عن المناسبة، فأخبرتهن أن زوجها قد صار ذا منصب كبير عند الوالي، وهذا المنصب هو: "عاطول باطول، إمام طابور، لمّام

عسكر"(٥)، وفرحت الجارات بذلك، وأخذن يشاركنها في الرقص والغناء.

وانتقل الخبر من حي إلى حي، فبدأت النسوة يتوافدن عليها، هذه ترتجيها أن يؤخر زوجها دعوة ابنها إلى الجيش، وتلك تتوسل إليها أن يعفي ابنها الوحيد من الجندية، وثالثة تتشفع إليها في زوجها الذي أرسله الوالي مع الجند إلى الحدود، وكل واحدة منهن تقدم لها الهدايا والأعطيات.

ثم أخذت الخاطبات يزرنها، ولم تمض سوى بضعة أيام، حتى تمت خطبة البنات كلهن إلى أكرم الأسر وأوسعها جاهاً وثراء.

وبلغ النبأ الوالي، فأرسل وراء الفقير، فمثل بين يديه، فسأله الوالي عما زعم لنفسه من منصب، فاعترف الفقير بما كان من أمره، وحكى له حكاية فقره، وتوسل إليه ألا يخيبه أمام الناس، وقد وعدهم الوعود، وأخذ على نفسه الالتزامات، فأشفق عليه الوالي، وعينه في ديوان العسكر، وكان لا يعرف القراءة والكتابة، فجعل تحت يده من يقرأ له، ويكتب عنه.

وسمع الغني بذلك كله، فأرسل زوجته تستطلع الأمر، فوجدت سلفتها وقد تغير بها الحال من حال إلى حال، فرجعت إلى زوجها تلومه، لأنه لم يفكر من قبل في خطبة

---

(٥) *عاطول باطول: عاطل عن العمل يعيش في بطالة، إمام طابور: قائد سرية من الجيش، لمّام عسكر: يجمع الجند.*

بنات أخيه لأبنائه، فما كان منه إلا أن رد اللوم عليها، وندما على ما كان منهما من تقصير تجاه الأخ الفقير، ولكن لا ينفع الندم.

تعليق:

تكشف الحكاية عن الفروق الكبيرة بين الغني والفقير، فالأول يملك كل شيء والثاني لا يملك أي شيء، حتى إن الحظ ليقف إلى جانب الغني، فيرزق بسبعة ذكور، على نحو ما يتطلب المجتمع، على حين لا يرزق الفقير بغير سبع إناث، لا يساعدن والدهن في شيء، بالإضافة إلى ما يتطلبن من مصاريف، كما تكشف عن زيف العلاقات داخل المجتمع، وقيامها على المظاهر الخادعة، وليس على العلاقات الوديّة.

إن المفارقة بين الغني والفقير، لتفرّق بين الأخ وأخيه، وهي تدل على التناقض في بنية المجتمع، وفساد تركيبه، كما تدل على مسؤولية الحاكم عن ذلك كله. ويتضح ذلك من خلال الحل الذي جاء بالكذب والادعاء والمظهر الخادع وبحماية الوالي نفسه، وهذا الحل هو من جنس الأسباب التي قادت إلى فقر الفقير وخداع المظاهر وزيف العلاقات، بل إن هذا الحل هو نفسه كان من غير شك السبب.

والحكاية تدل على غياب وعي الرجل في المجتمع بسبب فقره وضيق ذات يده، كما تدل على وعي المرأة، وإدراكها أنه لا حل لمشكلة الفقر إلا بالخداع الذي هو نفسه سبب فقرها وظلمها ولذلك تلجأ إليه، مؤكدة ذكاءها، كاشفة زيف مجتمعها.

وهي بذلك تنتصر لنفسها وبنات جنسها، مؤكدة أن المرأة قادرة على الفعل والتغيير لو أتيحت لها الفرصة.

والحكاية تبدو مرحة طريفة في الظاهرة ولكنها تكشف عن مرارة قاسية في الداخل، وهي تفضح المجتمع، وتدينه، من خلال السخرية.

❑❖❑

الحنين إلى الأصـل

يحكى أن سيدة غنية جداً، كانت تعيش في قصر كبير، ولديها من الخدم والجواري عدد كبير، وكانت طيبة النفس، سمحة كريمة، إلا أن لها عادة غريبة، يكرهها الخدم والجواري جميعاً، وهي أنها كانت إذا أرادت الطعام أقفلت على نفسها باب غرفتها وقعدت تتناول الطعام وحدها، من غير أن تسمح لأحد بالدخول عليها، حتى تفرغ من طعامها.

وكانت إحدى جواريها مقرّبة منها، وكانت أكثرهن ضيقاً بتلك العادة، وكرهاً لها، وقد عزمت ذات يوم على أن تعرف سر إغلاق السيدة الباب على نفسها، في أثناء تناولها الطعام، وما كان منها إلا أن أحدثت في الباب ثقباً صغيراً، وقعدت تنظر من خلاله، وتتسمع إلى السيدة، وقد أدهشها كثيراً أنها رأت، من خلال الثقب، سيدتها وهي تحمل الصحون الموضوعة على المائدة، وتضعها على الأرض، ثم تقعد أمام تلك الصحون، كما يقعد الشحاذون على قارعة الطريق، وتفعل بعد ذلك فعلهم، تطلب

وتستجدي وتتوسل وترجو، وهي تتخيل أناساً يمرون أمامها، وتمد يدها إليهم تطلب العطاء، وبعد أن تفعل ذلك تقبل على التهام الطعام.

وبعد أن رأت الجارية ذلك، زادت دهشتها، مثلما زاد عجبها، وأصبحت لا تطيق البقاء في خدمة السيدة، وهي التي أمضت في خدمتها عشرات السنين، وفيّة لها مخلصة، حتى بعد وفاة زوجها السيد الغني، صاحب القصر، وقررت أن تسألها عن سر فعلها ذلك، ولو اضطرت إلى ترك خدمتها.

وذات يوم دخلت عليها، وهي وحدها في غرفتها، ثم أخبرتها بما رأت من أمرها، وطلبت منها تفسير ذلك كله، فاعترفت لها السيدة بأنها كانت في الأصل شحاذة تتسول على قارعة الطريق، وقد تعرف إليها السيد صاحب القصر، فأعجب بها، وتزوجها، ورفعها إلى تلك المنزلة العالية، ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الحنين إلى أصلها.

تعليق:

تكشف الحكاية حقائق الأمور، وتزيل عنها القشرة الظاهرية، وتؤكد ضرورة عدم الانخداع بالظاهر، وهي تدين طبقة الأغنياء، وتردّها إلى جذورها وتجعلها دون طبقة الفقراء، إذ تجعل أصلها من المتسولين الذين هم في الحقيقة شريحة طفيلية تعيش على جهد الآخرين، وبذلك تعبر الحكاية عن نقمة حادة على طبقة الأغنياء، وتلحق بها أشد الإهانة، كما تعبر الحكاية عن ضرورة التحقق من الأصل، الذي يحدد هوية الإنسان وشخصيته وانتماءه، ولا

يمكن أن يغيب مهما حاول تغييبه.

وفي الحكاية قدر غير قليل من التشويق والإدهاش، وهي على الأغلب من ابتكار امرأة فقيرة تنتقم بالحكاية لنفسها من الأغنياء، وتعوض عن حرمانها وفقرها.

❐❖❐

الخوف من البرد

أمضى أحد الرجال عمره يحلم بشراء عمامة، وهو لا يتمكن من ذلك، فقد كان فقيراً، بائساً، لا يملك قوت يومه.

وبعد مضي العمر، وسقوط الشعر، رزقه الله ثمن عمامة، فمضى إلى السوق، وقصد أول بائع، وطلب منه عمامة.

وأنزل البائع قطعة قماش كبيرة مطوية، فتحها، وأخذ يقيس بالذراع القماش، وكانت العادة أن تكون العمامة من أذرع كثيرة، قد تبلغ العشرين.

وما إن قاس البائع الذراع الأول، وبدأ بالثاني، حتى تناول الرجل طرف القماش، وبدأ يلفه على رأسه، والبائع يتابع قياس القماش، وهو مدهوش لما يفعله الرجل، ولما سأله عن ذلك، أجابه:

"أخشى أن يصيب البرد رأسي."

تعليق:

حكاية طريفة، تدل على ضعف الإنسان وعجلته

وفرحه بما تظفر يداه، ولاسيما بعد طول حرمان، وفيها سخرية بريئة، من غير إساءة ولا إزعاج.

ومبالغة الرجل في الإسراع بلف العمامة على رأسه دليل حرمان قديم، وهي مبالغة جميلة، تشف عن الحالة النفسية للرجل.

وعناصر الحكاية قليلة، وهي منتقاة بذكاء، وأبرزها العمامة، وهي أداة الطرفة ووسيلتها الناجحة.

❑❖❑

الولي والفتاة

كان أحد الرجال يعمل في خدمة مسجد صغير، يسهر على رعايته: يكنسه، ويؤذن فيه، ويقيم الصلاة، وقد اتخذ لنفسه غرفة صغيرة في المسجد، ينام فيها، مع ابنته، التي لا يزيد عمرها على أربع السنين، فقد ماتت زوجته، ولم يكن له أحد، فاضطر إلى اللجوء إلى هذا المسجد، يعمل فيه وينام، وكان في المسجد ضريح لولي من أولياء الله، وكان ذلك الرجل يوقد له كل ليلة الشموع، وينفض الغبار عن الملاءة التي تستر القبر، وكان يأنس بالضريح، ويطمئن إليه، ويجد فيه البديل من الأهل والصحب.

وذات يوم حدث في البلدة فوضى واضطراب كبير، ووقع الناس في هرج ومرج شديد، فقد ثارت فئة على الوالي، وهاجمت قصره، وطالبت بعزله، ولكن الوالي أرسل عليهم عسكره، فأعملوا فيهم السلاح، وكان المسجد قريباً من قصر الوالي، فلما رأى الرجل الناس راكضين هرباً من تنكيل العسكر بهم، خشي أن يقتحم العسكر أو الناس المسجد، فعزم على إغلاقه، والفرار.

ولكن الرجل حار في أمر ابنته، كيف يحملها معه؟ وأين يضعها؟ ولم يطل به التفكير، فرفع طرف التابوت الذي يغطي قبر الولي، وخبأ فيه ابنته، وقال يخاطب الولي: "أودعتك ابنتي أمانة، حتى أعود، فتلكن في حمايتها"، وأقفل باب المسجد، وولى مع الهاربين.

ومرت بضعة أيام، سيطر فيها الوالي على البلدة، وفرض الأمن والنظام، وأعاد كل شيء إلى مجراه، فرجع الرجل إلى المسجد، فوجده مقتحماً، وقد سرق بعض ما فيه، فأسرع إلى الضريح، فكشف عنه الغطاء، فلم يعثر لابنته على أثر ، فأخذه الغضب، والتقط معولاً، ومضى يهدم الضريح، وينبش التراب، حتى بلغ القبر، فأزال الحجارة ورفع المعول، وهم بضرب الولي، فصرخ به الولي:

- قف، وتأمل، تجد أني مكتوف اليدين، مقيد، ولا أستطيع فعل شيء.

تعليق:

حكاية ذكية، تدين بشكل غير مباشر السلبية والعجز والتواكل، وتنتقد بجرأة الوهم القائل بزيارة قبور الأولياء واللجوء إليها لحل المشكلات، وتكشف زيف ذلك الوهم وبطلانه.

إن الرجل في الحكاية ترك الأحياء، وانعزل ليعيش مع الموتى، باسم الدين والتقوى والتعبد، ولكن الحقيقة ليست كذلك، إنما هي عجزه هو الذي قاده إلى ذلك، فأصلح متواكلاً منعزلاً.

وحين ضجت الحياة من حوله، خبأ ابنته في قبر

الولي، وهو يظن أنه تركها في مأمن، والواقع ليس كذلك، فقد أسلمها للموتى، والموتى لا يمكنهم أن يحموا الأحياء أو يفعلوا شيئاً لأجلهم، ولذلك كانت الحياة أقوى، فقد خرجت البنت من القبر، ومضت لتحيا مع الأحياء.

ولقد انتهت الحكاية نهاية واضحة الدلالة على بطلان الوهم وعقمه، وانكشاف الزيف، إذ يكشف الرجل القبر ليرى الوليّ الميت مكتوف اليدين، وهو يقول له بلسان الحال لا لسان المقال: "لا أستطيع فعل شيء".

وهذه النهاية هي الغاية التي صيغت من أجلها الحكاية، إذ تؤكد أن الموتى لا يمكنهم أن يقدموا للأحياء شيئاً.

وهكذا تدين الحكاية بجرأة عادات اجتماعية قديمة وتكشف زيف الوهم الذي يعيش عليه بعض الجهلة حين يظنون أن قبور الأولياء ستنفعهم، وتنتصر الحكاية بالمقابل للحياة وتؤكد قوتها إذ تتحرر البنت من إسار القبر لتحيا بعيداً عن الموت والعزلة والوهم، لتعانق الواقع والحياة.

❏❖❏

الشقي ومحراك التنور

كان أحد الرجال شقياً، بالغ الشقاء، يرتكب الفواحش، ولا يتورع عن إظهار شقائه، وإعلانه، وكان قد أقدم على قتل تسعة وتسعين رجلاً، فكل معصية كانت تدفعه إلى

معصية جديدة، وكل جريمة كانت تدفعه إلى جريمة أخرى، حتى بات قانطاً من المغفرة، يائساً من إمكان توبته، وتعرفه إلى الحياة الصالحة.

وذات يوم قصد ذلك الشقي بيت أحد الشيوخ العلماء، ليسأله هل من مجال له للمغفرة؟، وهل يقبل الله توبته؟ فدق عليه الباب، في وقت متأخر من الليل، فلما خرج له الشيخ، أشهر عليه الشقي خنجره، وأمسك بتلابيبه، من عنقه، وسأله، وهو يهدده: هل يغفر لي ربي؟ فصعق الشيخ، وكاد يسقط في يده، ونظر حوله، فرأى على الأرض قضيباً من حديد، كانت تحرّك به زوجته التنّور، فقال له: "خذ ذلك القضيب، وأغرسه في الأرض، هذه الليلة، ثم عد إليه في الصباح، فإن وجدته قد أفرع وأثمر، فإن هذا دليل على أن الله سيقبل توبتك، ويغفر لك"، فتركه الشقي، والتقط القضيب، ومضى به إلى الفلاة، فغرسه في موضع منها، ثم قفل راجعاً إلى بيته.

وكان في طريقه يمرّ في مقبرة، فلم يتورع عن المرور فيها ليلاً، فدخلها، وبينما هو يقطعها، سمع صوت نبش في قبر، فأبطأ، ودنا من موضع النبش، وقبع وراء أحد القبور، وأخذ يرقب ما يجري، وإذا رجل ينبش قبراً، فانتظر ليرى ما سيفعل، حتى إذا انتهى الرجل من كشف التراب، ووصل إلى الميت، مسح جبينه، وقال: "هاقد وصلت إليك، إذا كان أهلك قد حرموني منك وأنت على قيد الحياة، فلن يستطيعوا

حرماني منك وأنت ميتة"، فأدرك الشقي على الفور أن الرجل يريد اغتصاب فتاة ميتة، فما كان منه إلا أن استل خنجره، وهجم به على الرجل، فأغمده في صدره، وأرداه قتيلاً، ثم أهال التراب على القبر، وسواه، ومضى إلى بيته، ينتظر الصباح.

ولما كان فجر اليوم التالي، مضى الشقي إلى الموضع الذي غرس فيه محراك التنور، فإذا هو أمام شجرة كبيرة، فارعة الغصون، مخضرة الأوراق، فتأكد من الموضوع، فأدرك أن القضيب هو نفسه هذه الشجرة، فما كان منه إلا أن اقتلعها من جذورها، وحملها على كتفه، ومضى بها إلى الشيخ، يدق عليه الباب، ولما خرج له الشيخ ألقى الشجرة أمامه، فبهت الشيخ، ودعاه إلى الداخل، وسأله أن يقص عليه ما فعل، فروى له الشقي ما كان من أمر الرجل الذي قتله، وأكمل به المئة، فقال له الشيخ: "لقد غفر الله لك يا بني"، فقبل الرجل يديه، ورجاه أن يعينه على التوبة، وبدء حياة جديدة، غير التي كان قد عاشها من قبل، فوعده الشيخ بذلك، وكانت عنده ابنة جميلة، ليس له غيرها، فزوجه إياها، وجعله أحد مريديه.

تعليق:

تؤكد الحكاية أن باب التوبة مفتوح، وأن الله عز وجل يقبل دائماً التوبة النصوح من عبده.

وتدل الحكاية على ضرورة الترغيب والتشجيع وتعزيز قوة الخير، كما تدل على ضرورة الذكاء في

التعامل واصطناع الوسيلة الجيدة والموعظة الحسنة ودفع الشر بالخير.

واختيار المحراك والشجرة جميل جداً ومعبر، فالمحراك يدل على أداة حديدية لا حياة فيها ولا روح، بل هي وسيلة للقتل وإعدام الحياة، وخلافها تماماً الشجرة، رمز الحياة. والخصب والعطاء، ولذلك جاء مدهشاً تحول المحراك إلى شجرة، وهذا التحول رمز لتوبة الشقي وتحوله من القتل إلى الحياة.

والحكاية تدل على امتلاك الإنسان قوة جبارة، يمكنه أن يهدم بها ويقتل، كما يمكنه أن يبني ويدافع عن الحياة والحكاية تدل على حرية الإنسان، وقدرته على الاختيار، وهي بذلك تحمله المسؤولية.

وما تمتاز به الحكاية هو ثقتها بالإنسان، وتفاؤلها بإمكان تحوله عن الشر إلى الخير، لتأكيد قيمة الحياة.

❑❖❑

بيت من الملح

يحكى أن رجلاً كان له ابن وحيد، رباه خير تربية، حتى صار شاباً، وكان يوصيه دائماً أن يختار لنفسه خير الصحاب، ممن يتوسم فيهم الصدق والوفاء، وذات يوم سأله عن صحبه، فأخبره أنهم جميعاً من الأوفياء، فعبر له الأب عن رغبته في اختبارهم، فوافق الابن أباه، وأكد له أنه مستعد لإطاعته في كل ما يراه.

وما كان من الأب إلا أن أعد وليمة فخمة، طلب من ابنه أن يدعو إليها صحبه كلهم، فاجتمع الصحاب، ونعموا بأطايب الطعام، حتى كان أوان انصرافهم، فوقف الأب في وداعهم، وكان قد ملأ غرفة وراء الباب بالملح، فكان إذا مر به أحد من أصدقاء ابنه يودعه، دعاه إلى الغرفة، وقال له: "إذا كنت صديقاً مخلصاً لابني حقيقة، فتناول ما في هذا البيت من ملح"، فكان بعضهم يعلن تذمره، وضيقه، ثم يخرج، وكان بعضهم يظهر حماسة كبيرة، ويقدم على الملح إقداماً، فيلتهم ما يلتهم، ولكنه ما يلبث أن يعلن عجزه،

فيعتذر وينصرف.

وكان الابن يرى إلى أصدقائه، وهم يخرجون واحداً واحداً، من غير أن يجد فيهم من هو قادر على الصدق والوفاء، فيحس بالخجل والضيق، حتى لم يبق من صحبه غير واحد، فتمنى على أبيه ألا يسأله ما كان يسأل أصحابه، ولكن الأب أبى، فلما تقدم منه هذا الصديق يريد وداعه، سأله: "إن كنت صديقاً مخلصاً لابني حقيقة، فتتناول ما في هذا البيت من ملح"، فتبسم الصديق، وتقدم من البيت، ثم بلل إصبعه بلسانه، ومسح على الملح، ثم لعق أصبعه، والتفت إلى الأب، فقال له: "يا عم، من لا يحفظ عهد ذرّة من الملح، فلن يحفظ عهد بيت من الملح، ولو أكله كله".

فربت الأب كتف الصديق، وقال له: "بارك الله فيك يا بني"، ثم التفت إلى ابنه، وقال له: "هذا هو الصديق الوفي، فليكن لك صديقاً طوال العمر".

تعليق:

تؤكد الحكاية ضرورة حسن اختيار الأصدقاء الأوفياء، وما هو بالأمر السهل، إذ يحتاج إلى خبرة وتجربة وبعد نظر، كما تؤكد الحكاية ندرة الصديق الوفي.

وتدل الحكاية على أن الأكبر، كالأب مثلاً، هو على الأغلب، الأكثر خبرة، والأقدر على حسن الاختيار، كما تدل على إفادة الأصغر من الأكبر، وضرورة الأخذ بنصائحه وتوجيهاته.

وتدل الحكاية أيضاً على ضرورة الامتحان، لأن

المرء لا يظهر على حقيقته إلا عند الامتحان.

واختيار الملح وسيلة للامتحان قائم على حاجة الجسم الضرورية له، على الرغم من قلة الكمية التي يحتاجها، فهو أساسي، وضروري جداً، وإن كان الكثير منه يضر.

والحال كذلك مع الأصدقاء، فكأنهم الملح، ما قل منه مفيد، وما كثر منه ضار، وكأن دخول الملح في الجسم كمطلب عضوي، هو كدخول الصديق في حياة الصديق كمطلب اجتماعي.

والملح معروف ببياضه ونقائه وندرته وحاجة الجسم له، فكأنه بذلك كله رمز أو معادل موضوعي للصداقة في نقائها وصفائها وندرتها والحاجة الأساسية لها.

وعندما يشترك الصديق والصديق في الطعام، والملح بعضه، فإنما يشتركان في المادة التي دخلت جسدهما وكونته، وبذلك يصبحان قريبين، كقرابة النسب والدم، ومن هنا كانت ضرورة وفاء كل منهما للآخر، ومن هنا أيضاً كان المثل الذي يذكر بضرورة الوفاء للخبز والملح.

والحكاية تدل على أن القيمة ليست في الكم، وإنما في الكيف، سواء في الملح أو الإنسان، ولقد كان التأكيد دائماً على ندرة الصديق الوفي، ولقد جاء في المثل: المستحيلات ثلاثة: الغول والعنقاء والخل الوفي.

❑❖❑

ضعاف السمع

أمضت إحدى الأسر عمرها وهي تنتقل بين دور الآجار، حتى تيسر لها بعد عناء شراء دار، وفي صباح الليلة الأولى التي نامت فيها الأسرة في دار المُلْك، خرج رب الأسرة إلى عمله باكراً، فلقيه جاره، فحياه، وقال له: "منزل مبارك"، فرجع الرجل إلى البيت على الفور، وكان ضعيف السمع، فلقي زوجته، فقال له مغاضباً: "رأيت؟! جاء صاحب الدار يطالبني بالآجار"، وكانت مثله ضعيفة السمع، فتركته غاضبة، ومضت إلى ابنتها، تشكو لها أمرها، فتقول: "رأيت؟! أبوك دائماً يظلمني، قال أحضر هو طبخة، وأنا ما طبختها"، وكانت مثلها، ضعيفة السمع، فتركتها غاضبة، ومضت إلى أخيها، تشكو له أمرها، فتقول: "رأيت؟ أمك دائماً تظلمني، قال أرادت هي تزويجي، وأنا ما أردت"، وكان أخوها مثلها، ضعيف السمع، فتركها غاضباً، ومضى إلى جدته، يشكو لها أمره، فيقول: "رأيت؟! أهلي كم يظلمونني، قال أرسلوني إلى الكتاب، وأنا ما ذهبت"، وكانت جدته مثله ضعيفة السمع، فغضبت، إذ

فهمت أن الأسرة قد ضاقت بها، فحملت صرة ثيابها وخرجت، تاركة البيت، وهي تحدث نفسها فتقول: "ماضيّق في الخان غير ناقتي وجحشي".

تعليق:

حكاية طريفة، الغاية منها التسلية والإضحاك، وهي بسيطة جداً، ولكنها تدل على بؤس الفقراء وشقائهم، إذ لا يكاد أحدهم يطمئن في دار يملكها، حتى يظن أن أحداً جاء يطالبه بالأجرة، لأن ماضيه البائس مسيطر عليه.

كما تدل على شقاء الأسرة الفقيرة ومعاناتها، فليس ضعف السمع إلا شكل خارجي يدل على أن كل فرد في الأسرة مشغوله بذاته، لا يكاد يسمع إلا ما يهمه فقط، فهو غارق في مشكلاته، وكل حديث يسمعه يظنه عنه هو وحده، وهذا يكشف من جهة أخرى ضعف التواصل بين أفراد الأسرة، وعدم تفاهم بعضهم مع بعض.

والحكاية تقوم على تتابع درجي بعضه يقود إلى بعض تفاقم متصاعد من الأدنى إلى الأعلى، حتى يبلغ الجدّة التي هي أكثر أفراد الأسرة إحساساً بالظلم والبؤس.

وواضح ضيق الدار بأفراد الأسرة، وهذا الضيق نفسه يدل على كثرة أفراد الأسرة، وفقرهم، وعدم قدرتهم على شراء دار واسعة.

وهذا الضيق في المكان انعكس في ضيق الصدور، إذ لا يكاد أحدهم يصبر على الآخر، بل كل منهم ضائق ذرعاً بالآخر.

إن الحكاية هي حكاية الفقر وكثرة العيال وضيق ذات اليد بالإضافة إلى ضيق المكان.

❑❖❑

العابد وزوجته

كان أحد العباد ورعاً شديد الورع، وكان كلما وقف للصلاة، متوجهاً نحو القبلة، تمثلت له الكعبة أمامه، فكان يراها رؤية العين، فيفرح بما يحظى به، ويزداد تقى وورعاً، وكانت زوجته مثله في تقاها وورعها، بل كانت أشد منه تقى وورعاً، فكان لا يراها الرائي، ولا يسمع صوتها رجل، وكان كلما حدثها زوجها بما يرى كانت تقول له: "لا تحسب أن ذلك بفضل تقاك وورعك، وإنما هو بفضل تقاي وورعي أنا، بل بفضل صيانتي عهدك، وحفاظي حرمتك"، وكان لا يصدقها فيما تقول، ويؤكد لها أنه يحظى بما يحظى بفضل تقاه هو وورعه.

وذات يوم أرادت زوجته أن تؤكد له دعواها، فعمدت إلى كفها، فأحاطتها بلفافة من قماش، ولم تترك منها بارزاً سوى عقدة واحدة من إصبعها الصغرى، وانتظرت حتى مر بباب الدار أحد الباعة، فاشترت منه شيئاً، وأتاحت له، وهي تدفع له ثمن ما اشترت، أن يرى تلك العقدة من إصبعها، ولما كان المساء عاد زوجها إلى البيت، فتوضأ

كعادته، ونهض إلى الصلاة واتجه نحو القبلة، وهو يتوقع أن يرى الكعبة، ماثلة أمامه، ولكنه لم ير شيئاً، فصلى ركعتين، وركعتين، وركعتين، وكان في كل مرة يرتجي رؤية الكعبة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فسارع إلى زوجته، يخبرها بالأمر، فمدت له أصبع يدها الصغرى، وناولته مدية، وقالت: "هذه أصبع يدي، اقطع منها عقدة، فترى ما كنت تراه من قبل"، فدهش العابد لما سمع، فألحت عليه أن يفعل، فلما سألها عن معنى ذلك، أخبرته بما كان، فأيقن أنه كان يحظى بما يحظى به، بفضل ورع زوجته وتقاها هي، لا ورعه هو، وتقاه.

تعليق:

تؤكد الحكاية دور المرأة ومسؤوليتها في البيت والمجتمع، فلا يكفي أن يكون الرجل تقياً صالحاً، فلا بد أن تكون المرأة كذلك كي يستقيم الصلاح والتقى، وهي بذلك تساوي بين الرجل والمرأة وتجعلهما ندين.

والحكاية تلجأ من غير شك إلى المبالغة من أجل التأثير والإقناع.

❑❖❑

كل حال يزول

كان لأحد التجار صديق في بلد بعيد، وكان يزوره في العام أو العامين، إذا حملته الأسفار إلى بلده، وزاره مرة، فقصد متجره، فلم يجده فيه، فسأل عنه، فقيل له: "إن الزمان مال به، فأعلن إفلاسه"، ولما سأل عما صار إليه، وأين يلقاه؟ دله الناس على حمام قديم، فقد غدا يعمل فيه وقاداً، فمضى إليه، حتى إذا بلغ الحمام، دخل القمين، فوجد صديقه يعمل فيه، فسلم عليه، فرحب به، وأفسح له موضعاً فجلس فيه، حيث هو، بين أكوام الأوساخ والأقذار، ولما حاول صاحبه تعزيته ومواساته، على ما آل عليه، شكره، وأبدى جلداً ورضى، ولم يظهر عليه من الحزن أو الضيق شيء، ثم قال له:

كل حال يزول

ثم ودعه صاحبه، ومضى في سبيله.

ومرت الأيام، وما هي إلا بضع سنين، حتى حملته الأسفار، في أثناء تجارته إلى بلد صاحبه، فقصد إلى

الحمام، يبغي زيارته، ودخل القمين، فرأى فيه رجلاً آخر، غيره، فلما سأله، عنه، رحب به أعظم ترحيب، وأظهر له كل احترام وتقدير، ثم أخبره أن صاحبه غدا وزيراً عند السلطان، وليس له إلا أن يقصده في قصره.

ومضى التاجر إليه، فلما دخل عليه، هنأه وبارك له في منصبه الكبير، وأبدى له فرحاً كبيراً بما صار إليه، فشكر له صاحبه مشاعره، من غير أن يظهر عليه الفرح بمنصبه، ولا أن يظهر عليه الغرور، ثم قال له:

كل منصوب معزول

وقعد قليلاً عنده، ثم ودعه، ومضى في أسفاره.

ومرت بضع سنين أخرى قبل أن يمر التاجر ببلد صاحبه الوزير، في إحدى أسفاره، فلما كان في بلده، قصد إلى قصره، وطلب من الحرس الإذن في الدخول عليه، فاعتذروا له، وأخبروه أنه قد نقل إلى رحمة الله، فحزن أشد الحزن، وسألهم أن يدلوه على قبره، ليزوره، ويؤدي له حق الصداقة، فدلوه عليه، فقصده، فلما بلغه، وقف أمام القبر ليقرأ الفاتحة، فوجد مكتوباً عليه:

"كل حال يزول، وكل منصوب معزول، وكل ميت مسؤول".

تعليق:

تؤكد الحكاية تقلّب الأحوال وتغيّرها وعدم ثبات شيء على ما هو عليه، إذ إن قانون التغير هو قانون الحياة، ثم

تؤكد أن ذلك كله لا يضيع عبثاً، إذ ثمة مآل ومصير، حيث يسأله المرء أمام الله عما فعل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهي بذلك تضع الإنسان أمام مسؤوليته تجاه الله، وتؤكد له أن الحياة مرحلة مؤقتة، عمادها التقلب والامتحان والتغير، من أجل غاية أبعد وأسمى.

والحكاية تقدم نموذجاً إيجابياً لرجل لا ييأس ولا يقنط أمام المصائب، ولا يضعف ولا يستسلم إذا نزل به مكروه، ولا يطغى ولا يستبد بما أوتي، ولا يفرح، مما يؤكد عدله وتوازنه، وإدراكه أن هذه جميعاً عروض مؤقتة.

والحكاية ذات بناء ثلاثي وهو بناء هرمي متدرج يؤكد نمو الحياة وتدرجها من ضعف إلى قوة إلى ضعف، وهذه المراحل الثلاث تعبر عن مفاصل قاطعة في حياة الإنسان.

والحكاية تقوم على صيغة لغوية تنتهي بها لتصنع القفلة أو العبرة أو الختام في شكل مثل أو منظومة سجعية جميلة لا تكلف فيها.

والحكاية تدل على عادة شعبية، وهي كتابة بعض الآيات أو الأشعار أو الأقوال على شاهد القبر.

❒❖❒

سرّ الصندوق

كان أخوان يعيشان معاً في بيت واحد، وكان لأحدهما صندوق عليه قفل، وضعه في زاوية من البيت، وكان كلما عاد من العمل، فتح الصندوق، وقعد أمامه، تاركاً ظهره لأخيه، وانكب على ما في الصندوق ساعة أو ساعتين، يتأمل ما فيه، ويتفقده، ثم يغلقه، ويحكم إقفاله.

وكان هذا دأبه كل يوم، وأخوه يرقبه بصمت، وضيق، ولكنه لا يسأله عما يخبئ في الصندوق، ولا يحاول إخراجه.

ومرت عليهما الأيام، وهما كذلك، فإذا هي أعوام وأعوام.

ثم كان أن مات الأخ صاحب الصندوق، فقام أخوه بواجبه نحوه، فدفنه، وأكرم مثواه، ثم بادر إلى الصندوق ففتحه، فإذا فيه قطع صغيرة من الحديد، عتيقة، صدئة ومسامير، ومفاتيح، وعجلات، وقطع لا أشكال لها، كلها صدئة صدئة.

تعليق:

تكشف هذه الحكاية أنانية الإنسان، وفرديته، وعزلته، وجشعه، فهو ينطوي على نفسه، ويحتفظ بأشياء خاصة، تافهة، لا قيمة لها، لا يريد اطلاع أحد عليها، ويؤثر العيش مع تلك الأشياء على العيش مع أخيه، مؤكداً عزلته.

والحكاية تؤكد سخف تلك الحياة وفراغها، إذ تتعلق بأشياء تافهة، وما هي في الحقيقة بحياة، لأنها لا تحقق شيئاً في الحياة، ولا تبقي شيئاً للآخرين بعد الممات.

والحكاية موجزة جداً، وهي تدل علي مجتمع المدينة حيث البيوت والصناديق والأشياء المعدنية، والحكاية على الأغلب قريبة العهد، وليست عريقة ولا موغلة في القدم.

❑❖❑

من أجل أخي

يحكى أن أخوين اثنين كانا قد ورثا عن أبيهما قطعة أرض، فكانا يعملان فيها معاً، يزرعانها ويحصدانها، ثم يقتسمان غلالها، وكان أحد الأخوين متزوجاً، ذا عيال كثير، على حين كان الآخر ما يزال عزباً.

وفي أحد المواسم، اقتسما المحصول، وحمل كل منهما نصيبه إلى داره، وأودعه في مخزنه، وفي الليل، أوى كل منهما إلى فراشه، فقال الذي ما يزال عزباً يحدث نفسه: "إن أخي متزوج، وذو عيال، وهو يتحمل من الأعباء أكثر مما أتحمل، وأنا العزب، فليس من الإنصاف أن نقتسم الغلال، فمن حقه أن يكون نصيبه أكثر من نصيبي" ثم ما كان منه إلا أن نهض، ومضى إلى مخزنه، فحمل منه كيساً ومضى به إلى دار أخيه، فدخلها، وألقى بحمله في مخزن أخيه، ورجع إلى داره مرتاحاً مطمئن النفس.

وفي تلك الأثناء كان الأخ الآخر، يحدث نفسه، فيقول: "إن أخي ما يزال عزباً، وهو مقبل على الزواج، وعليه ستقع أعباء كثيرة، وليس من الإنصاف أن أقاسمه الغلال مناصفة"ثم ما كان منه إلا أن نهض، ومضى إلى مخزنه، وحمل منه

كيساً، ومضى إلى دار أخيه، فدخلها، وألقى بحمله في مخزن أخيه، ورجع إلى داره مرتاحاً، مطمئن النفس.

وفي النهار رجع الأخوان إلى العمل الذي خلفه لهما والدهما، بتعاون، وصدق وإخلاص.

تعليق:

حكاية ريفية جميلة، تعبر عن طبيعة العلاقات النقية في المجتمع الزراعي، وتؤكد ما بين الأخ وأخيه من حب وتعاون وإخاء صحيح.

وهي تؤكد ضرورة التعاون والتسامح كما تؤكد التضحية والإيثار، وتدل على التفكير في الآخر، لا في الذات، فكل أخ من الأخوين يفكر في أخيه، ولا يفكر في نفسه، كما تدل على صدق النية وسلامتها، وأن الأساس في الفعل هو النية، وليس محض الفعل.

وهي تؤكد أن المال لا ينقص من الزكاة أو الصدقة أو التعاون، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما نقص مال من زكاة قط".

والحكاية تدل على الريف والمجتمع الزراعي، في صورته النقية، وهي حكاية موجزة مكثفة، عميقة الفكرة بعيدة الدلالة، وهي من غير شك عريقة موغلة في القدم.

❒❖❒

أيام السعادة

كان أحد الرجال، ويدعى"بكراً"، قد عاش عمره كله بائساً شقياً، لم يهنأ في حياته يوماً واحداً، لفقره وشقاء حاله، وذات يوم ارتحل كي يريح نفسه ويسليها، وبينما هو في سفره، رأى بلدة، فقصد إليها، وقبل أن يدخلها مر بمقبرتها التي كانت خارج أسوار البلدة، فلفت نظره ما هو مكتوب على القبور، فهذا قبر كتب عليه أن صاحبه عاش يوماً واحداً، وذاك قبر كتب عليه أن صاحبه عاش أربعة أيام فقط، وذلك قبر كتب عليه أن صاحبه عاش يومين، وكذلك سائر القبور، لم يعش أطول أصحابها عمراً، كما هو مكتوب على القبر، سوى بضعة أيام، على الرغم من أن القبور ذات حجوم كبيرة، تدل على أنها لرجال، وليست لأطفال، فدهش للأمر وتعجب، ثم مضى إلى المدينة فدخلها، فوجد الناس فيها مثل باقي الناس، فيهم الشاب والشيخ والطفل والكهل والولد، من نساء ورجال، فزادت دهشته، ولم يستطع صبراً، فاقترب من أحد الرجال وسأله عن سر ما كتب على القبور، فأجابه الرجل: "نحن نكتب على القبر عدد أيام السعادة التي كان الميت قد عاشها، لأنها هي عمره الحقيقي"، وعندئذ زفر"بكر" زفرة طويلة، ثم قال للرجل: "أنا

غريب، دخلت بلدتكم، وأظن أني سأموت فيها، ولذلك أرجو إذا مت عندكم أن تكتبوا على قبري:

"هذا قبر المرحوم بكر من بطن أمه إلى القبر"

تعليق

تدل الحكاية على شقاء الإنسان وبؤسه في الحياة، وهي تؤكد أن العمل الحقيقي لا يقاس إلا بأيام السعادة، ولكنها تؤكد أيضاً أن تلك الأيام قليلة، وبذلك تزداد قوة ورسوخاً دلالتها على شقاء الإنسان وبؤسه.

والحكاية موجزة مكثفة، وعناصرها قليلة، اختيرت بدقة وعناية، وأبرزها القبر، وما كتب عليه من شعر، وهو تجسيد مادي لقصر عمر الإنسان وشقائه.

والحكاية تمتلك طاقة كبيرة على إثارة مشاعر الحزن واليأس والألم، وهي تعكس نظرة تشاؤمية لا تفسير لها، ولكنها على الأغلب ليست صادرة عن الموت، ولذلك يرجّح تفسيرها بالفقر والحرمان والقهر.

وإذا كانت الحكاية لم توضح بالمقابل مفهوم السعادة ولا معناها، فإن ذلك زاد في مساعدة الحكاية على إثارة الإحساس بالشقاء.

❐❖❐

وإذا سألت فاسأل الله

يحكى أن ملكاً ضاقت به نفسه ذات يوم، فخرج مع وزيره، وقد تنكر كل منهما في زي درويش، وسارا قاصدين البادية طلباً للنزهة، وتفريج الكرب.

ولاحت لهما من بعيد خيمة وحيدة، فمالا إليها، يلتمسان الماء والراحة، فخرج لهما رجل عجوز وزوجته، فرحبا بهما، وقدما لهما حليب عنزة، ويبدو أنهما لا يملكان غيرها، ثم أقدم الرجل على ذبحها، وقامت المرأة بإعدادها طعاماً للضيفين.

وأدرك الملك ضعف حال الرجل وفقره، وقد لاحظ كرمه وجوده، فدفع إليه بورقة وقال له: "خذ هذه توصية بك لدى الملك، إذا نزلت يوماً إلى المدينة فاقصده، فسوف يكرمك حين يطلع على الورقة، فإن لي حظوة عنده. " ثم شكر الملك للرجل كرمه، وحسن ضيافته، وخرج مع الزوير، من غير أن يعرفه إلى حقيقته.

ومرت الأيام، وإذا سنة قاحلة قد حلت بالبلاد، عم فيها

الجوع وكثر المرض والموت، وزاد الأمر نكدا العواصف والزلازل.

وذات يوم هبت عاصفة هوجاء، اقتلعت خيمة العجوز، ولم تبق لديه شيئاً يملكه، فأوى إلى الكهف، ونصحت له زوجته بزيارة الملك، وذكرته بكتاب التوصية، وكان قد نسيه، ورفض الرجل الانصياع لطلبها، ولكنها ألحت عليه، وزينت له الأمر، فاستجاب، ومضى إلى المدينة في يوم جمعة، يقصد الملك.

وكان وصوله إلى المدينة وقت صلاة الجمعة، فدخل المسجد ليصلي، فوجد الملك وراء الإمام، فاجتاز الصفوف حتى صار وراءه، فقعد ينتظر حتى يتم صلاته.

وبعد أن أنهى الملك صلاته، رفع يديه إلى السماء، وأخذ يدعو الله بصوت مسموع، طالباً منه أن يرزقه، وأن يمنحه الصحة والعافية.

ولما سمع الرجل دعاء الملك، رفع يديه إلى السماء، وأخذ يدعو الله، ثم نهض وخرج من المسجد، ورجع إلى زوجته، فبادرت تسأله عما أعطاه الملك، فأجاب بأنه لم يسأله، فأنكرت ذلك، فأجابها: "رأيته يسأل الله، فعرفت أنه سائل مثلي، وأدركت أن علي إذا أردت السؤال أن أسأل الله وحده، وقد فعلت، فاستغنت بالله عنه، وهو حسبي".

تعليق:

تؤكد الحكاية أن الرازق هو الله، وأنه هو المصدر الأول لكل الأفعال، وهو سبب كل الأسباب، وهو وحده الملجأ والملاذ، وهي تدل على العزة والأنفة، كما تدل على المروءة والوفاء.

❒❖❒

سم الأفعى

يحكى أن عجوزاً فقيرة تهدّم جانب من جدار دارها، فاستدعت أحد البنائين، وطلبت منه ترميمه، على أن يمهلها في أجرته.

وأمضى الرجل نهاراً كاملاً في ترميم الجدار، ولما حل المساء رأت العجوز أن تقدم له طعام العشاء، فدخلت إلى المطبخ، وإذا أفعى قد تحلّقت فوق الوعاء الذي وضعت فيه كل ما لديها من طعام، فحارت في أمرها، وهي العجوز الفقيرة، فعزمت على تقديم الطعام للرجل، وليكن ما يكون، ولم تلبث الأفعى أن تحركت وانسلت زاحفة نحو جحر في الجدار غابت فيه، وحملت العجوز الطعام للرجل، فأقبل عليه، وهو التعب الجائع، فالتهمه كله، والعجوز ترقبه خائفة، ثم ودعته وهي تعده أن تعطيه أجره بعد أيام.

وبعد أسبوع أو أسبوعين قرع الباب، فخرجت العجوز لتفتحه، وإذا هي تفاجأ بالبنّاء، فذهلت، وضربت يدها على صدرها، وقالت: "أهذا هو أنت؟! أما متّ"، فدهش الرجل،

وسألها: "ولماذا أموت. " فروت له ما كان من أمر الأفعى، وقبل أن تتم حديثها، سقط الرجل ميتاً.

تعليق:

تؤكد هذه الحكاية التأثير القوي للوهم في نفس الإنسان، فالرجل لم يمت بسبب طعام تناوله، كانت الأفعى ترقد فوقه، وهو لا يعلم، ولكنه مات بسبب توهمه وجود السم في ذلك الطعام الذي تناوله قبل أيام.

ومما لاشك فيه أن رقود الأفعى فوق الطعام لا يعني بالضرورة وجود السم فيه، كما لا يعني ضرره للإنسان، ولكن مفاجأة الإنسان بالخبر وتوهمه بوجود السم وذعره، كل أولئك أقوى أثراً من السم نفسه.

والحكاية تؤكد المثل القائل: "سم بني آدم أقوى من سم الأفعي"، وهو مثل يدل مثلما تدل الحكاية على شدة تأثير الكلمة في الإنسان، ولا سيما الكلمة المؤلمة، وقد تكون أكثر تأثيراً من السم نفسه.

وواضح لجوء الحكاية إلى المبالغة والإدهاش والمفاجأة لتحقيق التأثير الفني في المتلقي بالإضافة إلى ما فيها من تكثيف وإيجاز.

❒❖❒

نصف الحصير

كانت إحدى الزوجات تضيق بحميها، والد زوجها، ضيقاً شديداً، إذا كان لا عمل له، سوى القعود في البيت، والتدخل في الأمور جميعها، وكانت تشكو ذلك لزوجها، فكان يصبّرها ويواسيها، ويحامي عن أبيه، ولكنها كانت يوماً بعد يوم تزداد ضيقاً، حتى أصبحت لا تطيق وجوده، فوضعت زوجها أمام خيار: إما هي وإما أبوه.

واضطر الزوج إلى الانصياع، فحمل من البيت حصيراً، ثم قاد والده إلى مسجد قريب من البيت، وطلب منه أن يأوي إلى المسجد، ووعده أن يزوره كل يوم، ويقدم له ما يحتاجه من طعام.

وأدرك الأب أن زوجة ابنه لا ترغب فيه، وأن ابنه قد انصاع إلى رغبتها، فرضي بما هو مقدر له، وصمت.

وذات يوم دخل عليه حفيده، وهو قاعد على الحصير في فناء المسجد، ففرح به، وضمه إليه، وأخذ يبكي، ولكنه دهش حين رأى حفيده يحمل مقصاً، أخذ يقص به

الحصير، حتى قصمه إلى قطعتين ، ثم حمل إحدى القطعتين وهمّ بالذهاب، فازدادت دهشة الجد، وسأل حفيده عن سبب فعله، فأجابه الولد: "سأحتفظ بنصف الحصير هذا لأبي، كي أضعه عليه في المسجد، حين يكبر. "

تعليق:

تصور هذه الحكاية ضيق الكنة ذرعاً بحميها، وضجرها من تدخله في حياتها الخاصة، بسبب مشاركته لها في السكن مع زوجها، ورغبتها في التخلص منه، واستقلالها بمعيشتها، لتحقق ذاتها بحرية.

ولابد من الاعتراف بحق المرأة في سكن خاص بها، وعيش مستقل، من غير أن يشاركها فيه غير زوجها، ولكن الظروف تقتضي في كثير من الحالات مشاركة والدي الزوج أو أحدهما لها في المسكن، من قبيل رعاية الزوج لوالديه، وههنا يظهر دور التضحية والعطف، ولكن ليس كل الناس قادرين على التضحية والعطف.

ولكن في الأحوال كلها لا يحق للمرأة أن تعامل حماها بمثل تلك القسوة التي تصورها الحكاية.

ومهما يكن، فالحكاية لا تلقي باللوم أو التبعة على الزوجة، وإنما تلقيها على الزوج، الذي أطاع زوجته، وعقّ أباه، مما يدل على ضعفه.

والحكاية تؤكد أن عاقبة ذلك الزوج ستكون من جنس فعلته، إذ تنبئ أن ولده سيعقه مثلما عق هو أباه، إذ يخبئ له ولده نصف الحصير، استعداداً لطرده في المستقبل من منزله.

وهكذا فالحكاية تؤكد أن الولد سيلقى من ابنه المعاملة نفسها التي عامل بها أباه، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهي تقدم بذلك أمثولة، تربوية، تتوجه بها إلى الرجل ليحسن معاملة والده، كي يلقى مستقبلاً معاملة حسنة من

ولده.

والحكاية تنطلق من المنفعة، فهي لا تحض الولد على الإحسان إلى ولده لأنه يستحق الإحسان، وإنما تحض على الإحسان إليه بدافع من المصلحة، كي يحظى مستقبلاً من ولده بالإحسان الذي قدمه لوالده.

❒❖❒

مدينة لا يدخلها غزاة

يحكى أن أحد الملوك أراد غزو إحدى المدن، وإلحاقها بمملكته، فأرسل العيون لينظروا له أمرها، فرجعوا ليخبروه أنها مدينة لا يمكن أن يدخلها غزاة، فلم يصدق، وأخذ يرسل إليها العيون في إثر العيون، وكانوا جميعاً يأتونه بالجواب نفسه، فعزم على أن يدخلها متنكراً، ليستطلع أمرها بنفسه، فتزين بزي درويش سائح، ومضى إليها، فلمّا دخلها قصد إلى بائع فيها طلب منه رغيف خبز، وقطعة حلوى، فأعطاه البائع رغيف خبز فقط، فطلب منه قطعة حلوى، فأجابه البائع: "اشتر الحلوى من جاري، فلا يحق لي أن أبيع شيئين، على حين لا يبيع جاري شيئاً، ولما سمع الملك الجواب غادر المدينة، ولم يعد إلى التفكير في غزوها.

تعليق:

تؤكد الحكاية أهمية التعاون وتعاضد أبناء المجتمع وتماسكهم، وبعهدهم عن الأثرة وحب الذات، وهي تصور ما يدعى في العصر الحديث بالجبهة الداخلية، مؤكدة

تماسكها، بحيث لا تسمح للغزاة بالطمع فيها.

والحكاية تنطلق من الإيمان بأن الرزق مقسوم، وأن على المرء أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهي تجافي بذلك منطق السوق، وقانون الاستغلال والمضاربة بالأسعار والاحتكار.

والحكاية بعيدة عن المباشرة، وتعتمد على التكثيف والإيجاز، ولا شيء فيها من النصح والوعظ، وهي أشبه ما تكون بحكايات المدن الفاضلة.

❒❖❒

الوالد والولد

تحت شمس تموز اللاهبة، وفي وقت الظهيرة، وقف أحد الرجال أمام البئر المحفورة في فناء الدار، ينزح الماء منها، ورآه والده العجوز في وقفته تلك، فعاتبه ولامه، ثم طلب منه اللجوء إلى الظل، خوفاً عليه من حر الشمس، ولكن الابن لم يستجب لطلب والده، وأنكر عليه عطفه وحنانه، وأكد أنه أصبح رجلاً.

أحس الوالد العجوز بالامتعاض لجواب ابنه، فمضى إلى أحد أحفاده، وهو طفل صغير، فأمسك به من يده، وجاء به إلى فناء الدار، ولما رأى الرجل والده وهو يجيء بابنه إلى الحر، ترك البئر، وأسرع إلى والده غاضباً، يرجوه أن يعيد ابنه إلى الظل.

وعندئذ قال الجد لابنه، والد الوالد: "مثلما خفت على ابنك، خفت عليك، ومثلما هو ابنك، فأنت ابني أيضاً، فأحس الرجل بخطئه، واعتذر إلى والده.

تعليق:

تحمل هذه الحكاية دلالات كثيرة، مباشرة وغير مباشرة.

فهي تدل على نزوع الولد إلى عصيان أبيه تأكيداً لاستقلاله وتحقيقاً لشخصيته، على نحو ما يظهر من عصيان الرجل لأبيه العجوز.

وهي تدل على استمرار نظرة الأب لولده على أنه ولده مهما بلغ من العمر، على نحو ما يظهر من نظرة الأب العجوز إلى ولده الرجل، ولقد جاء في المثل: "من رآك صغيراً فلن يراك كبيراً".

كما تدل على اختلاف نظرة المرء إلى الأمر باختلاف موقعه منه، ويتضح ذلك من خلال عصيان الرجل لنصيحة أبيه العجوز، لأنه كان ينظر إليه من موقعه بوصفه رجلاً كبيراً لا تؤثر فيه أشعة الشمس، ولكن حين وضع هذا الرجل نفسه في موضع أبيه، ونظر إلى ولده، أدرك مصداق نصيحة أبيه له.

والحكاية تؤكد ضرورة استمرار الاحترام للأب والطاعة لرأيه، كما تؤكد أن الأكبر هو على الأغلب الأكثر معرفة والأكثر رجاحة في الرأي بفضل التجربة.

والحكاية تقوم على تسلسل تاريخي، وترتيب منطقي، وتبدو قوية الحجة والبرهان، وهي قوية الإقناع والتأثير، كما تدل أخيراً على مجتمع متماسك تتواصل فيه الأجيال، ويرتبط فيه بعضها ببعض.

❒❖❒

التجارة

سُدَّت أبواب الرزق على أحد الرجال، ما عمل في شيء إلا خسر، وما تاجر في بضاعة إلا كسد سوقها، حتى ضاقت عليه نفسه، ويئس من كل شيء.

وذات يوم سمع أن الموت كثير في إحدى المدن، فاشترى بضعة أكفان، وشد الرحال إلى تلك المدينة، يقصدها، لعله يبيع فيها الأكفان، أو يموت، حيث الموت كثير.

ولما اقترب من أبواب المدينة، رأى الرايات والأعلام وآثار الزينة، وسمع أصوات الأفراح، فدهش، وسأل أحد الخارجين من المدينة عن سبب ذلك كله، فأجابه: "لقد بطل الموت، ومنذ مدة لم يمت أحد، وكثير من الذين ماتوا رجعوا إلى الحياة".

تعليق:

تؤكد الحكاية فقر الفقير، وبؤسه ويأسه، وهي تقوم على قدر كبير من السخرية، المرّة، والإدهاش العجائبي،

الذي يبلغ حدّ اللامعقول، حيث يبطل الموت، وينهض الموتى من القبور.

والحكاية تكتفي بالسخرية المرة، والتفسير القدري للفقير، دالة على غياب الوعي لدى الفقير، إذ يردّ فقره، إلى حظه العاثر وإلى قدره، ولا يدرك أن المسبب الحقيقي لفقره إنما هو استغلال الأغنياء وظلمهم.

فالحكاية إذن تقف عند التفريج عن النفس بالسخرية، ولا تولّد شيئاً من النقمة أو الحقد لدى الفقير، ولا تبصّره بواقع فقره وسببه الحقيقي، بل لعلها تؤكد له أن هذا هو حظه، ولابد من التسليم، حيث لا سبيل إلى التغيير.

❑❖❑

الأمير كلمني

أسرع الولد إلى أبيه فرحاً يخبره أن الأمير كلمه، فسأله أبوه: "أين رآك الأمير؟! وماذا قال لك؟" فأجاب الولد: "كنت في ساحة القرية، ألعب مع الأولاد، ودخل الأمير إلى الساحة على جواده، فركضنا نحوه، واقتربت أنا منه، وحاولت لمس عنق جواده، فقال لي: "اذهب، يلعن أبوك."

تعليق:

تؤكد الحكاية تسلط الإقطاع على الريف وقهر الفلاحين وظلمهم وتركهم يعيشون وأولادهم في جهل وفقر.

والحكاية تكشف غياب الوعي لدى ذلك الطفل البريء الذي لا يفقه معنى الشتيمة، لأنه محدود الأفق، محاصر بالقهر، مأخوذ بمظهر القوة والأبهة والسلطة لدى الأمير.

والحكاية تدل على شقاء الأطفال وبؤسهم، كما تدل على استمرار الشقاء أجيالاً، فالآباء خاضعون لسلطة الإقطاع، وأكثر منهم خضوعاً أطفالهم، لأنهم ولدوا في كنف الظلم ونشؤوا في ظله.

ومما لاشك فيه أن الحكاية تنطوي على إحساس مرّ بالظلم، وهي تفجر ذلك الإحساس، وتولد الشعور بالرفض، من خلال الإشفاق على ذلك الطفل.

❑❖❑

الحلاوة[٦]

يحكى أن فلاحاً نزل مرة إلى المدينة، ولما رجع إلى قريته، أخذ يحدث الناس عما رآه في المدينة، مما بهر نظره، ثم قال لهم متعجباً:

"كم الحلاوة طيبة في المدينة؟!!"

فسألوه:

"وهل أكلت منها؟!"

فأجابهم:

"لا، ولكن عباءتي مسّت عباءة الذي أكلها."

تعليق:

تؤكد الحكاية الفرق الكبير في مراحل سابقة بين الريف والمدينة، وهوما ينعكس في مظاهر من الجهل والفقر والمرض والحرمان والقهر، وليس مرجع ذلك إلى بعد المسافة المكانية بين الريف والمدينة، وإنما مرجعه إلى الإقطاع وتسلط الأغنياء على الفقراء.

والحكاية تكشف حرمان القروي وسذاجته، في قدر

[٦] *نوع من الحلوى الرخيصة، تصنع من السمسم.*

غير قليل من السخرية منه، ومن غير التعاطف معه، أو الإشفاق عليه، مما يزيد الأمر قهراً.

والحكاية تروى أحياناً للدلالة على من يدعي المعرفة بالأمر على حين أنه لا يعرف منه شيئاً، سوى الادّعاء.

❑❖❑

رأس القط

يحكى أن أخوين اثنين خطبا أختين اثنتين، ثم كان زفافهما في ليلة واحدة، وكان لكل من الأختين، في بيت أهلها، قطة، تعنى بها، وتدللها، وتتسلى معها، وقد أبت كل واحدة منهما إلا أن تصطحب معها قطتها إلى بيت زوجها.

وفي الليلة الأولى دخل أحد الأخوين مع عروسه إلى غرفتهما، فرأى القطة معها، فسألها عنها، فقالت: "هي قطتي المدللة، لا أستطيع الاستغناء عنها"، فحاول إقناعها بضرورة الاستغناء عن القطة، وتركها، فقد جدّ في حياتهما ما سيشغلها عن القطة، وأنه من الأجدر بها أن تهتم به هو، لا بالقطة، ولكن العروس لم تقتنع، وأصرّت على الاحتفاظ بالقطة، فقال لها: "كما تشائين"، ثم غافلها، ودفع بالقطة إلى الباب، حتى إذا صارت بين مصراعيه، أغلقه بقوة، فقطع رأس القطة، وذعرت العروس لما رأت، ولكن وجدت نفسها أمام الأمر الواقع، فاستسلمت، وخضعت لمشيئة زوجها، والتفتت إليه، توليه اهتمامها، وقد عاهدته

على ألا تذكر القطة بعد ذلك أبداً.

أما الأخ الثاني فقد دهش أيضاً لمرأى القطة مع عروسه، فسألها عنها، فأكدت له تعلقها به، ورغبتها في الاحتفاظ بها، فلم يمانع، وتركها تمرح في الغرفة.

وفي صباح اليوم التالي فوجئ بالقطة وقد تركت بعض القذر في أرض الغرفة، ثم كان عليه أن يسعى لتوفير الحليب لها، ولما كان الضحى عاتبته أمه، في قطة زوجته، فقد نبشت بأظافرها تراب أصص الزرع التي تعنى بها، وقلبت بعضها، وحطمتها، ولم يلبث أن عاتبه أبوه، ولامه لوماً عنيفاً على قطة زوجته، فقد ضايقت الببغاء الذي يطعمه كل صباح بيده، ويوماً بعد يوم كان الضيق بقطة الزوجة يزداد مع ازدياد عبث القطة، ففي يوم قلبت المزهرية وكسرتها، وفي آخر دخلت بيت الأم، وتركت فيه القذر، وفي ثالث طردها أبوه، فتذمرت الزوجة.

وهكذا بدأت الهموم والمشكلات بسبب هذه القطة، أبوه وأمه يتذمران من عبثها في البيت، وزوجته تضيق من زجر حميها لها، وهو عليه أن يوفر للقطة الحليب في كل صباح، واللحم الخاص بها، عند الظهيرة، وأن يسمع في المساء شكاوى أمه وأبيه، وتذمر زوجته.

وذات يوم حدث الأخ الثاني أخاه الأول عما يعانيه من مشكلات بسبب القطة، وسأله عن حل، فقال له: "لا

حل الآن، لو فعلت مثلي، وقطعت رأس القطة ليلة العرس، لما كان ما كان ".

تعليق:

حكاية تهكمية ساخرة، غالباً ما تساق في النيل من الزوج الذي لا يقدر على القيام بمسؤوليته تجاه زوجته ويضعف أمام رغباتها، وأحياناً تساق للتوجيه والوعظ والإلحاح على أهمية امتلاك الرجل ناصية الأمور في بيته، ولكن في قدر غير قليل من المبالغة.

والحكاية تدل على مجتمع قمعي، تقوم فيه العلاقات على أساس من الإرهاب والسيطرة والاستبداد، ويتجلّى ذلك أبرز ما يتجلى في العلاقة بين الزوج وزوجته، وعلى مثلها يمكن أن تقاس باقي العلاقات، حيث لا احترام ولا تقدير، ولا قوانين ولا مبادئ ولا أعراف تحكم مثل تلك العلاقات وتوجهها.

وهي من غير شك تدل على تخلف اجتماعي وفساد في فهم حقيقة العلاقة السامية بين الزوجين وحقيقة كونهما معاً شريكين في حياة واحدة.

وتبرز القطة في الحكاية لتعبر عن نوازع المرأة ورغباتها الخاصة، وكأنها رمز للمرأة نفسها، والحكاية تلح على ضرورة قمع تلك الرغبات وخنق المرأة.

والحكاية لا تخلو من مفارقة بيّنة، كما لا تخلو من قسوة واضحة، وهي تدل على غلظة وفجاجة في الطبع.

❐❖❐

ظواهر الأمور

كان أحد التجار يثني كثيراً على زوجته، ويحمد لها تقاها وورعها، ويعبر دائماً عن إعجابه بأخلاقها النبيلة، فهي لا تخرج من البيت، ولا تزور أحداً، ولا يزورها أحد، ولا تتزين، ولا تغادر سجادة الصلاة، ولكن، ذات يوم، أنكر عليه أحد أصدقائه حسن ظنه في زوجته، وثقته بها، ونصح له أن يختبرها، بادعاء السفر، ومراقبة البيت من بعيد، وعمل الزوج بنصيحة صديقه، فرأى شاباً يطرق باب داره، فتخرج له زوجته، فتستقبله أحسن استقبال، وتدخله إلى الدار، وعندئذ أدرك الزوج خطأه، وأصابه غم وحزن شديد، فقرر هجر زوجته وبيته وبلده، والزهد في الدنيا، والسياحة في البلاد، وعدم التفكير في شيء من متاع الحياة.

وذات يوم، وهو في ارتحاله من بلد إلى بلد، نزل في بلدة، فقصد إلى دكان شواء، ليتناول غداءه، وإذا شيخ يقف أمام دكان الشواء، ويطلب بعض اللحم، فقطع له الجزّار

قطعة من شقة خروف معلقة، فلم تعجبه، فقطع له غيرها، فلم تعجبه، فقطع له ثالثة، فلم تعجبه أيضاً، حتى قطع الجزار اللحم كله، وبينما هو يرقبه، إذا مناد ينادي معلناً سرقة خزينة الملك، طالباً من الناس الإخبار عن السارق، فنهض على الفور، وصاح بالمنادي وقال له: "أنا السارق"، فأحاط به رجال الشرطة، وهموا باقتياده، فقال لهم: "خذوا معي شريكي"، ثم أشار إلى الشيخ، فدهش رجال الشرطة، واستنكر الشيخ ذلك، ولكن الرجل أكد لهم أنه هو السارق، وأن الشيخ شريكه، فاقتادوهما معاً إلى الملك.

وهمّ الملك بالتحقيق مع الرجل، ولكنه طلب منه التحقيق مع الشيخ أولاً، لأنه هو السارق، فدهش الملك، ولكنه استجاب لرغبة الرجل، وما إن بدأ التحقيق، حتى اعترف الشيخ بأنه هو السارق، وأن الرجل ليس شريكه، وأنه بريء من التهمة، وازدادت دهشة الملك، وطلب من الرجل أن يوضح له كيف عرف أن الشيخ هو السارق، فسرد الرجل على الملك حكاية زوجته، ثم أضاف أنه بعد أن عرف الحقيقة التي كانت تخفيها عنه زوجته، أخذ يعرف جواهر الأمور، لا ظواهرها.

تعليق:

تؤكد الحكاية اكتساب المرء الخبرة والمعرفة بالحياة والناس والعالم من خلال معاناته الشخصية وتجربته

المباشرة، فقد كان الرجل مخدوعاً بظاهر زوجته، فلما عرف باطنها، بدأت الحقائق تتكشف له، وأخذ يعرف ما وراء الظاهر.

وتدل الحكاية على مقدار ما في الحياة من زيف ورياء وخداع، فالزوجة تخون زوجها، والشيخ يسرق، وقد دلّ الشيخ على زيفه من خلال تفريمه اللحم.

والحكاية طريفة، وفيها قدر غير قليل من الذكاء، وهي تهدف إلى تربية الناشئة ووعظهم، وإن كانت لا تخلو من مبالغة وافتعال.

❑❖❑

شقة العصفور

يروى أن أحد التجار كان غنياً وافر الغنى، ولكنه كان بخيلاً شديد البخل، يقتر على نفسه وعلى زوجته وعلى أولاده، وكان كل شيء عنده بقدر وحساب، وكان أصحابه من التجار في السوق يعاتبونه على بخله ويلومونه، ويطلبون منه دائماً، على سبيل المزاح، أن يدعوهم إلى طعام، وهو يتردّد، ويسّوف، ويؤجّل، حتى كان يوم صارح فيه زوجته بضيقه من إلحاح أصحابه، وتذمره منهم، فطمأنته زوجته، وطلبت إليه ألا يقلق، وأكدت له أنها تستطيع تدبير الأمر، فسألها كيف يمكنها أن تفعل ذلك، فأخبرته أنها تستطيع إطعامهم جميعاً من شقة عصفور واحد، فلم يصدق الزوج، فأكدت له ذلك، فتردد وحار في أمره، ولكنها طمأنته، فاقتنع.

وفي اليوم الثاني اشترى عصفوراً، وذبحه، ثم أرسل به إلى زوجته، ثم مضى إلى أصحابه من التجار في السوق، فدعاهم إلى تناول العشاء في بيته، أما زوجته فقد حملت أشياء من بيتها، وذهبت بها إلى السوق فباعتها، واشترت بثمنها الخبز والأرز واللحوم والفواكه والخضراوات، وكل ما لذ وطاب من ألوان الطعام والشراب، وهيّأت كل شيء، وأعدته أفضل إعداد، وبالغت في الألوان والأصناف، ولما انتهت من كل شيء، علقت شقة العصفور على باب الدار، وقعدت تنتظر الضيوف.

ولما كان المساء أخذ المدعوون يتقاطرون إلى الدار، زرافات ووحدانا، ومُدَّت الموائد، وبُسطت السماطات، والتهم القوم الطعام، ونعموا بالأطايب، وقد شفوا غليلهم من بخل التاجر، وهم لا يصدقون ما يرونه.

ولما انتهى العشاء، وانصرف المدعوون، سأل التاجر البخيل زوجته: "كيف فعلتِ هذا؟!" فأجابت: "كما وعدتك، من شقة العصفور"، ثم أشارت إلى شقة العصفور المعلقة على باب الدار، وكان قد عرف ما فعلت، فأقلع عن بخله، وصار إلى الكرم والسخاء.

تعليق:

تدل الحكاية على ذكاء المرأة وحسن تصرفها في مواجهة بخل زوجها وشح نفسه. وتعمد إلى السخرية المرة والتهكم الفاجع، وتقوم على قدر غير قليل من اللامعقول، فهي تبالغ في تصوير قدرة المرأة على التصرف في مجتمع لا قدرة لها فيه على التصرف، كما تبالغ في إظهار قدرتها علي الفعل أمام زوج يضيق عليها الخناق، وهذه المبالغة تمثل انتقاماً لوضع المرأة، وتعبر عن رغبة حالمة في تحقيق الخلاص، وتأكيد الذات.

❒❖❒

البحيرة والحمار

يحكى أن حمامة وبطة وحماراً اشتركت جميعاً في زراعة قطعة من الأرض، شعيراً، وتولتها بالرعاية والاهتمام، حتى نما الشعير، ونضج، وأوشك أن يستحصد.

ولقد خشي الثلاثة أن يُسرق الحقل، فكان الاتفاق على حراسته بالتناوب.

وفي الليلة الأولى حرست الحقل الحمامة، فلم تنم، وهي ترقبه، وتحلق فوقه، حتى كان الصباح، وفي الليلة الثانية، حرسته البطة، فلم تنم أيضاً وهي ترقبه، وتحوم حوله، حتى كان الصباح، وفي الليلة الثالثة، تولى حراسته الحمار، ولما طلعت الشمس، وقدمت الحمامة والبطة إلى الحقل، لتطمئنا عليه، شاهدتا الحمار مستلقياً على الأرض، منفوخ البطن، يغط في نوم عميق، والحقل لا سنبلة شعير فيه، بل لا عشبة واحدة، فعمدت الحمامة والبطة إلى إيقاظ الحمار، وبعد لأي نهض، ولما سألتاه عمن سرق الحقل، أبدى دهشةً وإنكارا.

ولم يكن للثلاثة سوى اللجوء إلى البحيرة، لكشف السارق، وبدأت الحمامة، فوقفت على طرف البحيرة، وقالت:

أو أو أنا الحمامة   أو أو أكلي قضامه

أو أو إن أكلتها   أو أو أو شربتها

أو أو أقع في البحيرة   أو أو أغط ما أطلع

وغطّت في البحيرة، ثم خرجت، ترف بجناحيها المبللين، ترش عنهما الماء، مزهوة، مؤكدة صدقها، وعدم سرقتها الحقل.

ثم تقدمت البطة، فوقفت على طرف البحيرة، وقالت:

بط بط أنا البطيطة   بط بط أكلي حنيطة

بط بط إن أكلتها   بط بط أو شربتها

بط بط أقع في البحيرة   بط بط أغط ما أطلع

وغطت في البحيرة، ثم لم تلبث أن خرجت، بعنقها الطويل، ومنقارها الأحمر، منفوشة الريش، مزهوة، مؤكدة صدقها، وعدم سرقتها الحقل.

وأخيراً، تقدم الحمار، بطيء الخطا، منفوخ البطن، مطأطئ الرأس، فوقف على طرف البحيرة، متردّداً، ثم أخذ يقول:

هيء هيء أنا الجحيش	***هيء هيء أكلي حشيّش***
هيء هيء إن أكلتها	***هيء هيء أو شربتها***
هيء هيء أقع في البحيرة	***هيء هيء أغط ما أطلع***

وغطّ في البحيرة، ولم يخرج.

تعليق:

حكاية تربوية طريفة، شخصياتها من الحيوان، ولكن يراد بها الوعظ والتوجيه. وهي تؤكد ضرورة التعاون، والإخلاص للأصدقاء، والوفاء بالوعد، وعدم خيانة الصحب. كما تؤكد أن الجاني لابد من أن يكشف ويلقى العقاب، وفي الحكاية قدر كبير من الذكاء، إذ اختارت شخصياتها من الحيوان. فأحسنت الاختيار. وفي الأشعار التي تزين الحكاية عفوية وبساطة، تجعلها محببة للأطفال، وواضح أنها موجهة للأطفال الصغار.

❐❖❐

للملك قرون

كان في قديم الزمان ملك، ولا ملك إلا الله، وكان لهذا الملك قرنان نابتان في رأسه، مثل كل القرون، وكان يغطيهما بتاج الملك، فلا يراهما أحد، وكان إذا أراد أن يحلق رأسه، دعا إليه الحلاق، فاختلى به، ثم يأمر السياف بقطع رأسه.

وقد ظل الملك على هذه الحالة أمدا، كلما حلق رأسه، قطع رأس الحلاق، حتى لم يبق في البلد غير حلاق واحد، فأرسل وراءه، فمثل بين يديه، فقال له: "إني مطلعك على سرّ، أوصيك بألا تبوح به"، فوعده الحلاق أن يحفظ السر، فكشف الملك عن رأسه، فذهل الحلاق لما رأى، وأدرك أنه مقبل على امتحان خطير، فحلق للملك رأسه، وودعه، وخرج، وهو يعده أن يكتم أمر ما رأى.

ومضى الحلاق إلى بيته، وهو يفكر في أمر الملك، ويتذكر القرنين، ويعجب لهما، ويسأل نفسه كيف نبتا في رأس الملك، وظل على هذه الحالة أياماً، حتى ضاق بأمره،

فعزم على أن ينسى، ومضى إلى دكانه يستقبل زبائنه، ولكن أمر القرنين ظل يشغله.

وذات يوم مضى إلى بستان من البساتين، لعله يتسلى، وينسى، وبينما هو في البستان، مر بصفّ من شجر القصب، وكان عالياً، تميس أوراقه الرفيعة الطويلة، مائلة على ساقية جارية المياه، كأنها تناغيها، فارتاح لجمال المشهد، ولكنه ذكر القرنين، فتكدّر، وأحس بضيق شديد، وعندئذ قرر أن يبوح بما في نفسه، فهو في خلوة، ولا يسمعه أحد، فمال على شجيرات القصب، وأخذ يهمس: "للملك قرون، للملك قرون"، فعاد إليه الشعور بالارتياح، فقعد بعض الوقت، ثم رجع إلى البيت.

ولكنه ما إن صار أمام باب داره، حتى رأى رجلاً من رجال الملك في انتظاره، فقلق، واضطرب، ولم يلبث هذا الرجل أن أخبره أن الملك يطلبه في الحال، فاستأذنه في الدخول على زوجته وأولاده، فأذن له، فدخل عليهم، فودعهم، ثم مضى إلى الملك، فقد أدرك أنه مشرف على الهلاك.

ولما صار أمام الملك، أمر السياف بضرب عنقه على الفور، فرجا الملك أن يسمح له بالسؤال عن ذنبه، فقال له الملك: "لقد بحت بالسر"، فأكد للملك أنه لم يفعل، ولكن الملك قال له: "لا تنكر، فالمدينة كلها تذكر القرون"، فدهش الحلاق، وأقسم أنه لم ينطق بما رأى أمام أحد، ولا بينه

وبين نفسه، إلا مرة واحدة، أمام شجيرات القصب، فبهت الملك، وأمر أحد وزرائه أن يذهب على الفور إلى الموضع الذي أفشى فيه الحلاق السر، فذهب الوزير، ورجع، ليخبر الملك أن القصب يميل بعضه على بعض، ويهمس: "للملك قرون، للملك قرون".

وعندئذ أدرك الملك أنه لا ذنب للحلاق، وأن سره لابد منكشف، فعفا عنه، وظهر للناس بقرنيه.

تعليق:

تؤكد الحكاية ظهور الحقيقة وانكشافها مهما طال الزمن، أو كثرت محاولات إخفائها.

والحكاية تدل على حرص الملوك على إخفاء ما يتعلق بهم من حقائق شخصية خاصة تضرّ بهم، لأنها تتناقض مع مظاهر القوة والأبهة التي يسعون دائماً إلى الظهور بها، وهي على الأقل حقائق لا تسرّ العامة.

كما تدل الحكاية على مدى قسوة الملوك وعسفهم من أجل ستر مثل تلك الحقائق، إذ لا يتورع الملك في الحكاية عن قتل كل حلاق رأى قرونه.

والحكاية تختار بذكاء شخصية الحلاق، لما عرف به الحلاقون من ثرثرة وحب للكلام، ولإطلاعهم بحكم مهنتهم على الأشخاص ومعرفتهم بهم وبخصوصياتهم.

ونطق القصب بالحقيقة في نهاية الحكاية يؤكد قوة الطبيعة وانتصارها على أشكال الزيف والتغطية.

وتبدو القرون عنصراً فنياً متميزاً، وهي في الواقع المحور الذي بنيت عليه الحكاية، واكتسبت بها خصوصيتها.

ويمكن أن تدل الحكاية على ضيق الإنسان ذرعاً

بالسرّ، وعدم قدرته على كتمانه، كما هو واضح في شخص الحلاق، وهذه الدلالة لا تردّ، ولكنها محدودة، وهي تقتصر على الحلاق، وتغفل دور الملك وقرونه.

❑❖❑

الحماة حين كانت كنّة

يحكى أن إحدى الزوجات كانت تقية ورعة، وعلى قدر كبير من الخُلُق الحَسَن، وكانت تحب حماتها وتحترمها وتقدرها،وتخلص لها، وترعاها خير رعاية، وكانت في ذلك مثل زوجها، الذي كان برّاً بأمه، مطيعاً لها.

وذات يوم مرضت الحماة، بسبب الشيخوخة والضعف، فوصف لها الطبيب دجاجة مسلوقة، تتقوى بها.

وأحضر الزوج دجاجة مذبوحة، وطلب من زوجته أن تغسلها وتسلقها، وتقدمها لأمه، فأعدت الزوجة الدجاجة خير إعداد، وحملتها إلى حماتها في طبق، ووضعتها بين يديها، وإذا هي تفاجأ بأن في الطبق كلباً صغيراً لا دجاجة، فذعرت، وحملت الطبق، ورجعت به إلى المطبخ، مدعية أنها نسيت الملح.

ولما رجعت إلى المطبخ، زادت دهشتها، إذ رأت أن في الطبق دجاجة، فرجعت إلى حماتها، ووضعت الطبق

بين يديها، وإذا الدجاجة تتحول إلى كلب أسود صغير، ومرة ثانية رجعت بالطبق إلى المطبخ، مدعية أنها نسيت البهار.

وفي المطبخ رأت أن في الطبق دجاجة، فعجبت للأمر، وذهبت بالطبق إلى حماتها، ووضعته بين يديها، وإذا في الطبق كلب، ولما حملت الزوجة الطبق، وهمّت بالعودة به إلى المطبخ، أوقفتها الحماة، وقالت لها: "لا، لا ترجعي به، تعالي، أعرف أن في الطبق دجاجة، ولكنها تتحول بين يديَّ إلى كلب".

ثم روت الحماة للكنة حكايتها، فأخبرتها أنها كانت تكره حماتها، وتكيد لها، وتتمنى موتها، وأن حماتها قد مرضت ذات يوم، فوصف لها الطبيب دجاجة مسلوقة، فأحضر إليها زوجها دجاجة مذبوحة، وطلب منها أن تسلقها وتقدمها لأمه، ولكنها عمدت إلى كلب أسود صغير، فذبحته، وسلقته، وقدمته إلى حماتها، بدلاً من الدجاجة.

وكانت الحماة تروي ذلك لكنتها، وهي مرهقة أشد الإرهاق، تعاني من سكرات الموت، والدموع تنحدر من عينيها، ثم استغفرت ربها، وأسلمت الروح.

تعليق:

تؤكد الحكاية أن ما يزرعه الإنسان يحصده، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر وهي حكاية وعظية، يبدو أنها موجهة إلى الفتيات، كي يعتنين بالحماة، ويخلصن لها، ولعلها من وضع أمّ تسعى إلى توجيه بناتها ووعظهن.

والحكاية تقوم على مفارقة واضحة بين الكنة الطيبة والحماة الماكرة، كما تقوم على العجب والإدهاش في تحولات الدجاجة.

❒❖❒

الأخت والكنز

يحكى أن أخوين اثنين، ولداً وبنتاً، توفي أبوهما، ولم يتركا لهما شيئاً، وكانا ما يزالان صغيرين، وإن كانت الأخت أكبر من أخيها قليلاً.

وذات يوم، كان الولد وأخته يلعبان على البيدر، في طرف القرية، مع أولاد آخرين، وحدث أن تعثرت الأخت ووقعت، وقبل أن تنهض رأت شيئاً ما، كأنه فوهة جرة، ونبشت التراب، فإذا هو ينكشف عن جرة صغيرة ملأى بالنقود الذهبية، فحملتها تحت ثيابها، وأسرعت بها إلى الدار، وحفرت في ركن من الفناء، ودفنت الجرة، ثم رجعت إلى أخيها، تتابع اللعب مع باقي الأولاد.

ولما انتهى اللعب، وحان أوان العودة إلى البيت، سألت أخاها: "إذا رأينا بعض النقود، فماذا تفعل بها؟! "فأجابها: " نشتري بها قطع الحلوى ونأكلها"، فقالت تحدث نفسها: "إن أخي ما يزال صغيراً، ويجب ألا أخبره بأمر الكنز".

ومرت أيام، تلتها شهور وأعوام، كبر الأخ فيها،

وكبرت الأخت، وذات يوم، أعادت عليه السؤال، فأجابها: "نشتري الثياب الجديدة، والطعام اللذيذ"، فقالت تحدث نفسها: "إن أخي ما يزال صغيراً".

ومرت الأيام أيضاً، حتى صارت أعواماً، وذات يوم سألت الأخت أخاها السؤال نفسه، فأجابها: "أشتري قطعة أرض، وأعمر داراً، وأتزوج"، وأدركت أن أخاها قد كبر حقيقة، فقادته إلى حيث دفنت الكنز، ونبشت التراب عنه، ثم قدمته إليه.

تعليق:

تدل الحكاية على روح المودة والإخاء والتفاهم بين الإخوة، كما تدل على وعي الفتاة، وقدرتها على اتخاذ القرار المناسب، وتدل أيضاً على الخبرة التي يكتسبها المرء مع تقدم العمر، وكما يقال في المثل: أكبر منك بيوم أخبر منك بسنة.

والحكاية ذات رؤية إيجابية، تؤكد الثقة بالمرأة وتبرز دورها في تحمل المسؤولية، وهي حكاية تربوية ناجحة، قوية الدلالة والتأثير.

❏❖❏

العبادة أنواع

يحكى أن أخوين اثنين كانا يتعبدان الله ويخافانه، ولكنه كان كل منهما يتعبد الله على طريقته، فقد كان أحدهما يتعبد الله على رأس جبل، اتخذ لنفسه فيه بيتاً، لا يغادره، اعتزل فيه العمل والناس، وقعد يعبد الله ويسبحه، وكان الآخر يتعبد الله وهو يعمل، ويبيع ويشتري، وقد اتخذ لنفسه زوجة ومسكناً، وكانت له دكان صغيرة، في أحد الأسواق، يبيع فيها ما تحتاجه النساء من الثياب والحلي وأدوات الزينة والعطور، وكان كل من الأخوين يدّعي أنه أكثر تعبّد! من الآخر، وأشد منه تقوى وورعاً.

وذات يوم مرض الذي يعمل في السوق، فأرسل وراء أخيه، يرجوه أن يحل محله في الدكان، ريثما يشفى، فتمنّع الذي يتعبد في الجبل، ثم لم يلبث أن أجاب طلب أخيه، فقدم إليه، وأخذ منه مفاتيح الدكان، ومضى إلى السوق، وكان أخوه قد أوصاه بالحذر من فتنة النساء، وذكره بما لديهن من مغريات، ونبّهه إلى سلة معلقة في السقف، فوق

رأسه، مليئة بالماء، والماء لا يتسرب منها، دليلاً على ورعه وتقواه، فأكد له الذي يتعبد في الجبل أنه أقوى منه عبادة، وأشد منه تقوى وورعاً، ووعده أن يجعل الماء في السلة متجمداً، زيادة منه في التقوى.

ومضى الأخ إلى الدكان، وقعد فيها، وأخذ يستقبل النساء، هذه تطلب ثوباً، وتلك تريد زينة، وثالثة تبغي عطراً، وكل واحدة منهن أجمل من الأخرى، وأكثر منها فتنة، ولكل واحدة أسلوب في الطلب والمساومة والشراء، وطريقة في المحادثة والمداورة والكلام، واحدة تغمز له بعينها، وأخرى تبسم، وثالثة تتغنج.

وهكذا تعرض الأخ الذي كان يتعبد في الجبل إلى الفتنة والإغواء، وأحس بنفسه تستجيب إلى بسمة من هذه، ولفتة من تلك، وإذا نقطة من السلة المعلقة فوق رأسه تسقط على وجهه، ورفع رأسه إلى السلة، ونظر، وإذا قطرة أخرى توشك على السقوط، وشيئاً فشيئاً أخذ الماء يتسرب من السلة.

وفي المساء رجع من الدكان، إلى أخيه، وأقر له بأنه أكثر منه عبادة وتقوى وورعاً.

تعليق:

تؤكد الحكاية أن العبادة الحق إنما هي بين الناس، ومن خلال التعامل معهم والاختلاط بهم، وليست من خلال العزلة، كما تؤكد ضرورة العيش مع الناس.

وهي تدل على أن معدن الإنسان وجوهره وصدقه لا يظهر إلا عند الاختبار على المحك.

❒❖❒

الديك والدجاجة

طلبت الدجاجة من زوجها الديك أن يأخذها في نزهة، فاشترى الديك قصبة طويلة، وركبها، وأردف وراءه زوجته، وطارا بها، وفي الطريق صادفهما عصفور، فسألهما عن قصدهما، فأخبره الديك أنهما ذاهبان في نزهة، ثم دعاه إلى مصاحبتهما فركب العصفور وراءهما، وبعد قليل صادفتهم بطة، فسألتهم عن قصدهم، ولم تلبث أن انضمت إليهم، ثم صادفتهم حمامة، فانضمت إليهم، وظل الجميع في تحليق مستمر فوق القصبة، حتى صار المساء، فنزلوا فوق تل صغير، وقرروا البقاء فوق التل حتى الصباح، وأوصت الدجاجة زوجها ألا يصيح، حتى لا يسمع صوته الثعلب، فكتم الديك صوته، وظل صامتاً، ولما لاح الفجر حنّ الديك إلى الصياح، فصاح صوتاً، وإذا الثعلب، فهموا بالفرار، ولكنه كان أسرع منهم، فهجم عليهم، فالتهم الديك والدجاجة والبطة والحمامة، ولم ينج سوى العصفور، فقد طار هارباً، ولحق به الثعلب، وظل يطارده حتى تعب،

فوقع في كومة قش، فدخل وراءه، فعلقت شوكة كبيرة ببطن الثعلب، فشقته، وخرج الجميع من بطنه سالمين: الديك والدجاجة والبطة والحمامة.

وفرح الجميع بالنجاة، وطلبوا من العصفور أن يحضر لهم شيئاً ليأكلوه، فطار العصفور، ورجع إليهم بالخبز، فقال الديك: الخبز وحده لا يكفي، فطار العصفور ورجع بالبيض، فقال الديك: هذا لا يكفي، فطار العصفور وأحضر السمن، فقال الديك هذا لا يكفي، فطار وأحضر النقود، فقال الديك هذا لا يكفي فسأله العصفور: ماذا تريد؟ فقال له الديك: هذا كله لا يكفي، لأننا لا نملك البيت لنحتمي فيه، فقال لهم العصفور: هذا شيء لا أقدر عليه، ثم طار، وتركهم بعيداً، ولم يرجع إليهم.

تعليق:

تدل هذه الحكاية على حاجة الكائن الحي إلى التجمع وما يكون في هذا التجمع من ائتلاف وتعاون لتحقيق حاجات الحياة ومتطلباتها المتعددة، ولمواجهة العدو المشترك.

كما تدل الحكاية على حاجات أساسية، منها التجمع والدفاع والطعام والمأوى، وتؤكد في الختام أهمية المأوى، الذي يحقق الحماية.

ولعلها تدل على التغنّي بالتخفف من أعباء الحياة ومتطلباتها، وهي متطلبات كثيرة، والذي يحقق ذلك التخفف أجمل تحقيق هو العصفور، وهو وحده الذي ينجو ويساعد الآخرين على النجاة، وهو وحده الذي يحلق بحرية.

❑❖❑

دقة بدقّة

كان لأحد الرجال زوجة صالحة، وذات يوم اضطر إلى السفر، فأوصاها أن تصون نفسها في غيبته، فأنكرت عليه هذه الوصية، وردّت عليه قائلة: "إذا أردت أن أكون مصونة في غيبتك، فصن أنت نفسك"، فوعدها بذلك، ثم ودّعها ومضى في سفره.

ومرت الأيام، وهي في دارها تربّي الأولاد، وترعى شؤونهم، وتسهر عليهم، وما كان ليعن على بالها أبداً أن تفكر في شيء، وهي التقية الورعة.

وذات يوم جاء السقّاء ليحضر لها الماء، كعادته، فناولته السطول، ليحملها، ويرجع بها مملوءة، ولما عاد، دعته كالعادة إلى الدخول، ليضع السطول المملوءة في فناء الدار.

ولكن السقاء رجاها أن تساعده في إنزال أحد السطول عن كتفه، فقد هدّه التعب، فأشفقت عليه، وخرجت إليه، ومدت يدها لتتناول السطل منه، فقرصها في ساعدها.

فنفرت منه، وطردته في الحال، وطلبت من أبيها أن يرسل إليها سقاء آخر، من غير أن تخبره بشيء، مدعية أن ذلك السقاء مريض.

ولما رجع زوجها من السفر، بادرته على الفور بالسؤال إذا كان قد صان نفسه في غيبتها، فلم يجب بشيء، فألحت عليه، فلزم الصمت، فاستحلفته بالله أن يصدقها القول.

فأخبرها أنه كان ذات مرة في السوق يعرض ما معه من أثواب على إحدى النساء، فلما مدت يدها لتلمس الثوب، وترى جودته، قرصها في ساعدها.

فقالت له على الفور: "دقة بدقة، ولو زدتها، كان زادها السقا".

ثم حدثته عما كان من أمر السقاء، ولامته على ما فعل، فاعتذر إليها، وتأكد لديه صدق قولها.

تعليق:

تؤكد الحكاية أن المسؤول عن الخطيئة ليس المرأة، كما يظن غالباً، وإنما هو الرجل، بل إن الحكاية تبرّئ المرأة، وتؤكد نقاءها، وتحمل الرجل المسؤولية كلها.

كما تدل الحكاية على قانون العدل، إذ لكل جريمة عقوبة من جنسها، السنّ بالسنّ والعين بالعين، والعقوبة ههنا لا يوقعها القضاء، وإنما يوقعها قانون العدل، وهذا أقوى، لأن الجريمة قد لا تكشف ولا تعرف، وكذلك فإن عقوبتها قد تأتي من حيث لا يدري المجرم أو لا يتوقع، وهذا أدعى إلى إثارة الخوف من الجريمة، وأقدر على خلق رادع داخلي.

الثعلب المحتال

كان الثعلب يتجول في البيدر، وقد نال منه الجوع، فرأى ديكاً ودجاجة وحجلة، فهمّ بالوثوب على الديك، ولكنه فكّر قليلاً، ورأى أنه يحتال، حتى ينال الجميع. وهكذا أعدّ لنفسه مسبحة من بعر الغنم، وأخذ يمشي أمامهم بهدوء، مصطنعاً التقوى والورع.

وثار الفضول في نفس الدجاجة، فسألته: إلى أين أنت ذاهب؟ فأجابها إنه ذاهب لأداء فريضة الحج، فطلبت منه أن يصطحبها معه، فلم يوافق في الحال، وأخذ يعتذر إليها، لكي تتودّد إليه أكثر، وأخيراً وافق، فسارت في إثره.

ثم انضم إليهما الديك والحجلة، وأخذ الثعلب يصعد بهم جبلاً وينزل بهم وادياً، حتى نال منهم التعب، فطلبوا منه أن يستريحوا، فقادهم إلى وكر يعرفه، وأدخلهم فيه، ثم وقف أمام الباب، وصاح فيهم معبراً عن رغبته في التهام الدجاجة.

وخرجت إليه الدجاجة تسأله عن ذنبها، فقال لها: "أنت

تضعين بيضة واحدة، ثم تملئين الدار صياحاً"، وقبل أن تجيب بشيء هجم عليها، وفصل رأسها عن جسدها.

ثم طلب من الديك أن يخرج إليه ليلتهمه، فسأله الديك عن ذنبه، فأجابه: "أنت تستيقظ مع الفجر، وتصيح، فتوقظ النائمين، فتزعجهم"، وجزاؤك الذبح"، وقبل أن يجيبه الديك بشيء، هجم عليه، وفصل رأسه عن جسده.

ثم نادى الحجلة، فلم تخرج له، بل سألته، وهي ما تزال في الوكر: "وما ذنبي حتى تأكلني، وأنا التي أعيش في الحقول، بعيداً عن الناس، ولا أؤذي أحداً؟". فأجابها الثعلب: "ذنبك أعظم إذ يجري في إثرك الصياد، فتقفزين غير بعيد عنه، ويحاول ثانية، وثالثة، ولا ينجح، فأنت لا تهربين بعيداً، إلى حيث لا يراك، فيرتاح، ولا تبقين قريبة منه، حتى يتمكن منك، وهكذا يظل وراءك في تعب، من غير جدوى".

وتفكرت الحجلة في أمرها، ثم قالت للثعلب: "إذا كان لابد من أكلي، فأرجو أن تقرأ الفاتحة قبل أن تلتهمني"، فردّ عليها الثعلب: "هذا أمر سهل".

ثم تظاهر الثعلب بقراءة الفاتحة، وأخذ يتمتم ببعض الكلمات، ثم رفع يديه إلى وجهه مدعياً الانتهاء من القراءة، وهنا خرجت الحجلة من الوكر، ومرت أمام الثعلب، وأخذت تعدو، وقد نجحت بحسن ذكائها.

تعليق:

تكشف الحكاية ببساطة ما يصطنع القوي من حيل، وما يختلق من حجج للنيل من الضعيف، كما تؤكد بالبساطة نفسها إمكان نجاة الضعيف من براثن القوي بالحيلة والذكاء.

❐❖❐

العجائز الثلاث

التقت ثلاث عجائز تحت شجرة الأمنيات، وهي شجرة إذا قصدها أحد وتمنّى شيئاً ما تحت ظلها تحقق له ما تمنّاه، وهكذا بدأت كل واحدة من العجائز تتمنى شيئاً.

وتمنت الأولى فقالت: أطال الله عمر ولدي، ليشتري لي الثوب والعصابة. وتمنت الثانية فقالت: أطال الله عمر ولدي ليشتري لي الخبز والكباب، وتمنت الثالثة فقالت: أطال الله عمر ولدي ليزوجني من شيخ الشباب، ثم رجعت كل واحدة منهن إلى بيتها.

واستجاب الله دعاء العجائز، فإذا ولد الأولى قد اشترى لها ثوباً وعصابة تعصب بها رأسها، وإذا ولد الثانية يدخل عليها ذات يوم وهو يحمل الخبز والكباب المشوي، وإذا ولد الثالثة يقول لها ذات يوم: "لقد علمت برغبتك يا أمي في الزواج من شيخ الشباب، فهيا لأحملك إليه".

ثم إن الولد حمل أمه على ظهره، ومشى بها، وهي تسأله من حين إلى آخر إن كانت قد وصلت، وهو يجيبها

بأن الطريق ما تزال طويلة، ثم إنه وصل بها إلى مغارة كبيرة، أدخلها إليها، ثم أنزلها عن ظهره، وقال لها: "هذا هو بيت شيخ الشباب"، فعجبت الأم من العتمة التي فيه، فأجابها بأن الزوج الذي تنتظره سيأتي بعد حين يحمل قنديلين يتوهجان، فيضيء المكان، وستلحق به الطبول، ثم ودّعها وخرج.

وبعد قليل جاء الزوج المنتظر، ولم يكن سوى الضبع، ودخل المغارة، وعيناه تقدحان شرراً، فظنتهما قنديلين، وضرب الأرض بذيله، فظنته صوت الطبل، ثم أقبل عليها، فضربها بقدمه في صدرها، فظنت أنه يغازلها، ولكنه عاجلها بضربة ثانية فقضى عليها، ثم أخذ يلتهمها.

وفي اليوم التالي جاء الولد ليطمئن على أمه، فلم ير سوى ثيابها الممزقة وبقايا عظامها، فحزن عليها كثيراً، فحمل العظام، وواراها القبر، وهو يرجوها أن تسامحه.

وفي طريق العودة التقى بالعجوزين اللتين كانتا معها تحت شجرة الأمنيات، فلما سألتاه عن أمه، أخبرهما بمصيرها، فضحكتا كثيراً، وقالتا: "من كانت في مثل عمرنا فما عليها أن تتمنى سوى لقاء وجه ربها"، ثم أكدتا له أنه لم يخطئ فيما كان قد فعل.

تعليق:

تدل الحكاية بشكل واضح على ازدياد التعلق بالحياة لدى بعض العجائز من رجال ونساء، وكلما تقدم بهم

العمر، وأحسوا بدنو الأجل، وكأنهم يريدون أخذ نصيب أوفى من الدنيا، والتمتع بها قبل الزوال، فيكون هلاكهم في رغبتهم، لأنهم أضعف من أن يقدروا على تحقيقها.

وقد يبدو في الحكاية شيء من القسوة، إذ يسلم الولد أمه للضبع، ولكن تلك القسوة مبررة، لأنها في الحقيقة على مستوى الرمز والفن، وليست على مستوى الحياة والواقع.

إن الشجرة هي رمز الحياة بتجددها، وعطائها، ولذلك كانت شجرة الأمنيات المتحققة. أما الرغبة في الثوب والعصابة فهي رمز الاكتفاء بالستر والصون، وأما الرغبة في الرغيف والكباب فهي رمز الاكتفاء بالصحة والعافية، وقد تحققت الرغبتان للعجوزين، لأنهما رغبتان منطقيتان، وتتناسبان وعمرهما.

أما الرغبة في الزوج، رمز الخصب والولادة، فهي لا تناسب إلا الشباب القادرين على المنح والعطاء، أما حين يعلن عنها الشيوخ العجائز، فهي على الأغلب لا تدل إلا على شهوة غريزية تنحط بهم، ويكون بها هلاكهم، وهذا ما كان من أمر العجوز الثالثة.

ويلاحظ أن العجائز الثلاث لا تتمنى كل واحدة منهن تحقيق رغبتها بنفسها، وإنما بواسطة ولدها، مما يؤكد عدم قدرة الجميع على تحقيق أي من تلك الرغبات، إلا بوساطة الشباب، الذي له الدور، على حين انتهى دور العجزة.

وما المغارة إلا رمز للرحم أو القبر، فهي الرحم للشباب، والقبر للعجائز، ولذلك كان إدخال الولد أمه إلى المغارة، فعلاً صحيحاً، ووضعاً لها في المكان المناسب، على مستوى الفن والحكاية أيضاً.

أما الضبع، فهو رمز للجانب الحيواني الغريزي المنحط، ولذلك كان لقاء العجوز به، لأنها انحطت برغبتها إلى مثل هذا المستوى.

وهلاك العجوز بين يدي الضبع هو هلاك المرء في تهافته على محض اللذة، وإعدامه للجانب الروحي في وجوده الذي لا يتحقق باللذة وحدها، بل فيه يكون هلاكه، ولابد له من السمو الروحي.

ومما لاشك فيه أن تلك الرموز جميعاً لم تكن مقصودة، ولم يكن للمبدع الشعبي أن يعيها، وإنما هي كامنة في أعماق اللاشعور لدى الجميع، ويكون التعبير عنها وتلقيها لا شعورياً.

ومن هنا يكون هلاك العجوز بين يدي الضبع مسوغاً، لأنه هلاك فني، وليس هلاكاً في الواقع والحياة.

ولقد اتضح رمز الضبع من قبل في حكاية: "الضبع والشباب"

الفأرات الثلاث

يحكى أن ثلاث فأرات شقيقات فرّق بينهن الزمان، فكانت واحدة تعيش عند جزار، والأخرى عند خباز، والثالثة عند حلّاق.

أما التي عند الجزار فكانت تشبع من العظم وبقايا اللحم، وأما التي عند الخباز فكانت تشبع من فتات الخبز، أما التي عند الحلاق فكانت دائماً جائعة، لا تشبع من شيء.

وذات يوم التقت التي عند الجزار بالتي عند الخباز، وذكرتا أختهما الثالثة، وأشفقتا عليها، واتفقتا على دعوتها إلى نزهة، تتكفلان فيها بالطعام، لعل أختهما تشبع وتهنأ.

وهكذا أعدت الأختان حقيبة صغيرة، ملأتاها ببقايا اللحم، وفتات الخبز، ومرتا بأختهما التي عند الحلاق، ومضت الثلاثة نحو متنزّه قريب.

وفي الطريق صادف قط الفأرات، فسألها عن قصدها، ثم عرض عليها المساعدة، وتطوع بحمل الحقيبة.

ثم أخذ القط يسير بالفأرات في طرق متعرجة، حتى نال التعب من الجميع، وجلست الفأرات في ظل جدار طلباً للراحة، على حين خلا القط بالحقيبة، ففتحها وأكل كل ما فيها، ثم هجم على الفأرات.

وفرت الأولى إلى بئر اختبأت فيها، وفرت الثانية إلى بركة واسعة غطست في عمقها، على حين لجأت الثالثة إلى مجرى ضيق دخلت فيه.

وأتى القط إلى الأولى، فقال لها: "هيا اخرجي لألتهمك"، فأجابته: "لولا عقلك الصغير ما لحقتني إلى البير"، فتركها ومضى إلى الثانية، فقال لها: "هيا اخرجي لألتهمك، فأجابته: "منع الله أسنانك من الحركة، حتى لا تلحق بي إلى البركة"، فتركها وذهب إلى الثالثة، فقال لها: "هيا اخرجي لألتهمك"، فأجابته: "لعن الله أذنك البترا، لولا حظي العاثر، ما دخلت إلى المجرى"، فأخذ يمدّ يده إلى المجرى، ويطيل مخالبه، ويعاود المحاولة ثانية وثالثة، لعله يطالها، وهي تكاد تختنق في المجرى، إلى أن ملّ، فتركها

ومضى في شأنه.

وخرجت كل فأرة من الفأرات الثلاث، وعادت إلى ما كانت عليه من عيش، واحدة عند الجزار، والثانية عند الخباز، والثالثة عند الحلاق.

وفي يوم آخر، مرت الفأرتان الأوليان بأختهما الفأرة الثالثة التي هي عند الحلاق، وقالتها لها: "يا أختنا العزيزة، لم نسعد في المرة السابقة بنزهتنا، حتى إن القط أكل طعامنا، وكاد يلتهمنا، فما رأيك بالانتقال من دكان الحلاق للعيش مع واحدة منا نحن الاثنتين".

وأرسلت الفأرة الثالثة زفرة حزن ثم قالت: "جربت النزهة فعرفت حظي، ولذلك سأبقى في محلّي، ألحس مسنّي، وأبات متهنّي".

تعليق:

الحكاية واضحة الدلالة على البائس الفقير، الذي يخيب سعيه مرة، فيحس بالصدمة، ويصاب بالعجز، ويسلّم لحظه النكد، ولا يفكر في السعي أو المحاولة مرة ثانية.

ومما لاشك فيه أن الحكاية تصور حالة الخيبة والعجز والتسليم، لا لتقرّها وتدعو إليها، وإنما لتدينها وتنفّر منها.

واختيار القط والفأرة رمزاً للقوي والضعيف اختيار جميل، وقد وفّقت الحكاية في تصوير مناخ العلاقة بين القط والفأر، كما وقفت في جعله معادلاً لمناخ العلاقة بين القوي والضعيف.

❑❖❑

من سيعلق الجرس

يحكى أن مجموعة فئران كانت تعيش في أحد البيوت هانئة سعيدة بما تحظى به من بقايا الطعام، ولكنها فوجئت ذات يوم بقط كبير ينغص عليها عيشها، يحرمها الطعام، ويطاردها، ويوقع الأذى بها.

وتشاورت مجموعة الفئران فيما بينها، وقررت أن تشتري جرساً، لتعلقه في عنق القط، وهو نائم، حتى إذا ما غافلها ذات يوم، سمعت رنين الجرس، ركضت، لتنجو.

وهكذا تبرعت كل فأرة بما تملك، وتمّ شراء الجرس، وتحيّنت مجموعة الفئران فرصة نوم القط، لتعلق في عنقه الجرس، ولكن ههنا واجهتها مشكلة كبيرة، إذ من سيقوم من الفئران بمثل تلك المهمة الصعبة؟

تعليق:

تدلّ الحكاية دلالة واضحة على جبن الجماعة، الضعيفة، التي تقدر على القول واتخاذ القرار، ولكنها تعجز عن الفعل والتنفيذ، لضعفها وجبنها وعدم وجود من يضحي بذاته في سبيل الجماعة.

ومما يزيد الأمر سخرية أن جماعة الفئران تعجز عن محض تعليق الجرس في عنق القط، فكيف بها إذا كان عليها أن تقاومه؟

كما يزيد الأمر سخرية أن القط واحد على حين أن الفئران كثير.

ومهما يكن من أمر، فالحكاية موفقة في اتخاذ القط والفئران رمزاً للقوي والضعفاء.

❒❖❒

الحِكم الثلاث

يحكى أن أحد الملوك قد خرج ذات يوم مع وزيره متنكرين، يطوفان أرجاء المدينة، ليروا أحوال الرعية، فقادتهم الخطا إلى منزل في ظاهر المدينة، فقصدا إليه، ولما قرعا الباب، خرج لهما رجل عجوز دعاهما إلى ضيافته، فأكرمهما.

وقبل أن يغادره، قال له الملك: "لقد وجدنا عندك الحكمة والوقار، فنرجوا أن تزوّدنا بنصيحة"، فقال الرجل العجوز: "لا تأمن للملوك ولو توّجوك"، فأعطاه الملك وأجزل العطاء، ثم طلب نصيحة أخرى، فقال العجوز: "لا تأمن للنساء ولو عبدوك"، فأعطاه الملك ثانية، ثم طلب منه نصيحة ثالثة، فقال العجوز: "أهلك هم أهلك، ولو صرت على المهلك"، فأعطاه الملك، ثم خرج والوزير.

وفي طريق العودة إلى القصر أبدى الملك استياءه من كلام العجوز وأنكر كل تلك الحكم، وأخذ يسخر منها.

وأراد الوزير أن يؤكد للملك صحة ما قاله العجوز، فنزل إلى حديقة القصر، وسرق بلبلاً كان الملك يحبه كثيراً،

ثم أسرع إلى زوجته يطلب منها أن تخبئ البلبل عندها، ولا تخبر به أحداً.

وبعد عدة أيام طلب الوزير من زوجته أن تعطيه العقد الذي في عنقها كي يضيف إليه بضع حبات كبيرة من اللؤلؤ، فسرت بذلك، وأعطته العقد.

ومرت الأيام، ولم يعد الوزير إلى زوجه العقد، فسألته عنه، فتشاغل عنها، ولم يجبها، فثار غضبها، واتهمته بأنه قدم العقد إلى امرأة أخرى، فلم يجب بشيء، مما زاد في نقمتها.

وأسرعت زوجة الوزير إلى الملك، لتعطيه البلبل، وتخبره بأن زوجها هو الذي كان قد سرقه، فغضب الملك غضباً شديداً، وأصدر أمراً بإعدام الوزير.

ونصبت في وسط المدينة منصة الإعدام، وسيق الوزير مكبلاً بالأغلال، إلى حيث سيشهد الملك إعدام وزيره، وفي الطريق مرّ الوزير بمنزل أبيه وإخوته، فدهشوا لما رأوا، وأعلن والده عن استعداده لافتداء ابنه بكل ما يملك من أموال، بل أكد أمام الملك أنه مستعد ليفديه بنفسه.

وأصرّ الملك على تنفيذ الحكم بالوزير، وقبل أن يرفع الجلاد سيفه، طلب أن يؤذن له بكلمة يقولها للملك، فأذن له، فأخرج العقد من جيبه، وقال للملك، ألا تتذكر قول

الحكيم:

لا تأمن للملوك ولو توّجوك

ولا للنساء ولو عبدوك

وأهلك هم أهلك ولو صرت على المهلك

وعندئذ أدرك الملك أن الوزير قد فعل ما فعل ليؤكد له صدق تلك الحكم، فعفا عنه، وأعاده إلى مملكته وزيراً مقرّباً.

تعليق:

تدل الحكاية بادئ ذي بدء على غرور الحكام وصلفهم وعدم تصديقهم المواعظ على الرغم من طلبهم لها، وكأنهم يبغونها لمحض التسلية، بل لمخالفتها وعدم تصديقها، وإن كانوا في الواقع يحققون مقولاتها من غير أن يعوا.

والحكاية تقدم ثلاث حكم، قد يأخذ المرء بها كلها أو ببعضها، ولكن على أية حال تبقى ذات دلالة على ثلاثة أمور: العلاقة بالحاكم، والعلاقة بالمرأة، والعلاقة بالأقارب، أي إنها تمس ثلاثة جوانب في المجتمع: السلطة والجنس والقرابة.

والبنية الثلاثية ظاهرة طاغية في الحكايات الشعبية سواء في الأقوال أو الأفعال أو الأشخاص.

❐❖❐

أبو الكنافة

يحكى أن أحد الملوك كان يتناول الكنافة مع وزيره، فسأله فجأة: "هل تظن أنّ في مملكتي من لا يعرف الكنافة: "فأجابه الوزير بعفوية:" من غير شك، هناك من لا يعرفها، يا مولاي"، فغضب الملك، وأقسم أن يأتي الوزير بمن لا يعرف الكنافة، أو يقطع رأسه.

وندم الوزير على ما فرط في القول، وما كان عليه إلا أن يجيب أمر الملك، فتنكر بزي رجل بسيط، واكترى حماراً، واشترى رطلين من الكنافة، ومضى يطوف القرى النائية، وما إن يدخل قرية حتى يسرع أهلها إليه فرحين، لعله يحمل إليهم بعض ما يحتاجون من أشياء اعتاد الباعة أن يحملوها على ظهور حميرهم. ولكن كانوا دائماً يحسون بالخيبة حين يجدون أنه لا يحمل سوى الكنافة.

وهكذا حتى يئس الوزير من وجود أحد لا يعرف الكنافة، وقفل راجعاً، وهو حزين بائس، ولكنه لمح من بعيد بضع خيام منعزلة، فقصدها، فخرج إليه رجل عجوز، ليسأله: "ماذا تحمل إلينا أيها الرجل؟"، فأجابه الوزير: "كما ترى"، ونظر العجوز في الخرج الذي على ظهر الحمار، ثم قال: "لماذا تحمل معك كل

هذه الخيطان؟ وما حاجتنا إليها؟".

وعندئذ سرّ الوزير السرور كله، وأخبر الرجل بأن هذه الخيوط تؤكل، فدهش الرجل، ثم إن الوزير طلب منه أن يحضر له اللبن والسمن والسكر، وصنع له ولعياله الكنافة، فأحبها الجميع، ولا سيما العجوز.

وعندئذ أغراه الوزير بالذهاب معه إلى المدينة ليطعمه المزيد من الكنافة، ففرح العجوز وأسرع إلى المضي مع الوزير، وهو لا يعرف حقيقته.

ولما وصل الوزير مع العجوز إلى المدينة، قاده إلى قصر الملك، فدهش لمرأى القصر، ولما رأى الحرس والخدم والأبواب والقاعات تملكه الذهول، وعندما دخل قاعة العرش، ورأى الملك في صدر القاعة متربعاً على كرسي العرش، والخدم من حوله، خاف وارتعش، ثم خرّ ساجداً، وهو يقول: "السلام عليكم يا الله"، فدهش الملك، وقال: "استغفر الله، انهض يا رجل، فأنا لست الله"، فنهض العجوز، ثم قال: "السلام عليكم يا محمد"، فازدادت دهشة الملك، وقال للرجل: "أنا لست بمحمد"، فقال العجوز: "السلام عليكم يا عيسى"، فتبسّم الملك وقال له: "لست بعيسى".

وعندئذ التفت العجوز إلى الوزير مدهوشاً، ثم قال له: "إذا لم يكن هذا هو الله ولا محمد، ولا عيسى، فمن يكون؟"،

فهمس له الوزير: "هذا هو أبو الكنافة"، وعندئذ اطمأنت نفس العجوز، وهمس للوزير: "صدقت"، ثم التفت إلى الملك، وقال له: "السلام عليكم يا أبو الكنافة"، ثم إنه هجم عليه، وأخذ يعانقه ويقبله وهو يقول: "أنا أحب الكنافة وأبو الكنافة".

وضحك الملك طويلاً، ثم قال للوزير: "طلبت منك أن تحضر لي رجلاً لا يعرف الكنافة، ولم أطلب منك رجلاً لا يعرف الله".

ثم أمر الملك الخدم بإحضار الكنافة، وأقام العجوز في قصر الملك سبعة أيام وثماني ليالٍ، وهو لا يريد مغادرته حباً في الكنافة.

تعليق:

تدل الحكاية على التفاوت الكبير بين مستوى معيشة الحكام ومستوى معيشة الرعية، كما تدل على جهل أولئك بواقع هؤلاء، حتى إن التفكير بهم كأنّه محض تسلية وتزجية للفراغ، وهي تدل أيضاً على مقدار ما يحيط الحكام أنفسهم به من مظاهر، يكاد يذهل بها المرء عن نفسه، فتختلط عليه الأمور.

وسؤال الملك للوزير عن قضية وتحديه بها عنصر شائع في كثير من الحكايات، وكذلك شخصية القادم من البادية، والذي لا يعرف شيئاً عن حياة المدينة.

❑❖❑

شفتك فوق وشفتك تحت

يحكى أن شحاذة فقيرة، قرعت الباب ذات مرة على قصر أميرة، فأطلت عليها الأميرة من نافذة قصرها، ثم قالت لها:

"آه، لو كنت في أسفل القصر، لأعطيتك، ولكن أنا فوق، كما ترين، ولا يمكنني النزول"

فتركتها الشحاذة ومضت.

وفي يوم آخر مرت بالقصر نفسه، فقرعت الباب، فخرجت لها الأميرة بنفسها ثم قالت لها:

"آه، لو كنت فوق لكنت أعطيتك، ولكن أنا هنا في أسفل القصر كما ترين، ولا يمكنني أن أصعد إلى فوق".

فرددت الشحادة قائلة:

"شفتك فوق، وشفتك تحت، هذه هي أنت"

ثم أشارت إليها بيدها، مؤكدة أن الأمرين سيان، ثم مضت تقرع أبواباً أخرى.

تعليق:

تدل الحكاية على ما يختلقه القويّ الغني المقتدر دائماً من أعذار كي لا يساعد الآخرين، وهي أعذار واهية.

والحكاية من حكايات الأمثال.

وشاف يشوف شوفاً: أشرف ونظر، واشتاف الشيء: تتبعه بنظره. وتشوَّف إليه: تطلّع.

❐❖❐

الراعي والذئب

كان أحد الرعاة يسعى على غنم قومه، يرعاه، ويسوقه مع الفجر إلى المرعى، ويرجع به مع المغيب، يخدم قومه، وقومه يحبونه، ويأتمنونه على أغنامهم، ويعطونه، فيجزلون له العطاء، وهو هانئ بعيشه سعيد، وهم مطمئنون إلى أمانته وحسن رعايته لأغنامهم.

ولكن ذات يوم أراد ذلك الراعي أن يختبر قومه، ليرى مكانته عندهم، ويعرف إن كانوا حقيقة يحبّونه، ويصدقون ما يقوله لهم، وما كان منه إلا أن صعد هضبة مشرفة على القرية، وصاح بالناس يستنجدهم: "الذئب، الذئب".

وهرع القوم إليه، يتراكضون من كل حدب وصوب، يحملون عصيهم وهراواتهم، ولكن ما إن وصلوا إليه، حتى أخذ يقهقه ضاحكاً، وهو يؤكد لهم أنه لا ذئب ولا خطر، وإنما هي رغبته في اختبارهم.

ورجع القوم خائبين، ناقمين على الراعي.

ومرة أخرى، فكر الراعي بالموضوع نفسه، ولجأ إلى

الحيلة نفسها، وأخذ ينادي"الذئب"، "الذئب"، وأسرع إليه القوم أيضاً، ورجعوا خائبين، وهو يقهقه ويضحك فرحاً، بقدرته على خداع القوم، والكذب عليهم، وداخله الاطمئنان إلى أنه ذو مكانة عندهم، وأنه مصدّق لديهم.

ولكن ذات يوم، بينما هو يرعى الغنم، وإذا بذئب أغبر يقترب منه، فأسرع نحو الهضبة، يعتليها، وهو ينادي"الذئب، الذئب"، ولكن أحداً لم يجبه، واقترب منه الذئب، وحاول الراعي مقاومته، وهو ما يزال ينادي، ولكن ما من مجيب، لأنه عرف بكذبه، ولم يعد أحد يصدق كلامه، وهكذا افترسه الذئب، وذهب نداؤه أدراج الرياح.

تعليق:

تؤكد الحكاية أهمية الصدق، وتكشف خطورة الكذب، على الفرد والمجتمع، وهي تقدم مصداقاً للقول الشائع: "يمكنك أن تخدع إنساناً واحداً، ولكن لا يمكنك أن تخدع الناس كلهم، ويمكنك أن تخدع الناس كلهم مرة واحدة، ولكن لا يمكن أن تخدعهم في كل مرة".

والحكاية تدل أيضاً على حاجة الفرد إلى المجتمع، وضرورة انتمائه إلى المجتمع، وارتباطه به، وصدقه معه، كما تدل على خطر الغرور، وتوهم الفرد أنّ حياة القوم معلقة عليه، كما تدل أيضاً على خطأ الفرد حين يحاول امتحان قومه، واختبار مكانته لديهم، ولا سيما بالكذب والخداع.

والحكاية ذات عناصر قليلة، ولكنها قوية التأثير، وقد تبدو مفجعة، إذ يؤول الفرد فيها إلى الهلاك، ولكنها من خلال هذه الفجيعة تسعى إلى تأكيد فكرتها، وتحقيق التأثير القوي.

والحكاية كما هو واضح تنتمي إلى مجتمع رعوي، ولكنها تصح في كل مجتمع، وفي كل زمان ومكان، وهي معروفة، وواسعة الانتشار.

❐❖❐

الرشيد والبهلول

يحكى أن هرون الرشيد أصيب مرة بحصر في البول، فأحضر الأطباء، فما أفلحت أدويتهم في علاجه، بل زاد المرض تفاقماً، وأحسّ بمثانته تكاد تنفجر.

وما كان منه إلا أن أرسل في طلب البهلول الذي كان يمازحه دائماً ويسليه، فسأله:

"هل عندك علاج لحالتي".

فسأله البهلول:

"وما حالتك؟"

فوصفها له الرشيد، فسأله البهلول:

"وإذا شفيتك فما هي مكافأتي؟"

فقال له هرون الرشيد، وهو ضائق ذرعاً بالألم الشديد:

"اطلب ما تشاء"

فأجابه البهلول:

"أطلب تاجك وعرشك"

فقال الرشيد:

"لك ما طلبت"

وعلى الفور أحضر البهلول زقاً مملوءاً بالماء، ثم بعجه، فجعل الماء يسيل منه، وهرون الرشيد ينظر مدهوشاً إلى الماء السائل من الزق.

ولكن ما هي إلا هنيهة، حتى أسرع هرون الرشيد إلى الخارج، ثم عاد بعد قليل وعلائم السرور والرضا بادية عليه.

ثم خلع هرون الرشيد التاج عن رأسه، وقدمه إلى البهلول؟ وهو يقول:

"هاك تاج الملك فخذه، وهذا عرش المملكة هو لك، فاحكم البلاد والعباد".

وعندئذ ضحك البهلول، وقال:

"بحسبي الصحة والعافية، ولا أريد تاجاً وعرشاً".

تعليق:

تبرز الحكاية أهمية الصحة والعافية، وتؤكد أنهما أغلى من التاج والعرش، حتى إن الرشيد ليتخلى عنهما في سبيل الصحة والعافية.

وهي تدل على ما يصطنعه العامة من مبررات لحرمانهم من ممارسة الحكم، وهي مبررات لإقناع الذات، وتقوم على قدر غير قليل من المغالطة، ولكأن الصحة والملك لا يجتمعان.

وفي الحكاية قدر غير قليل من الذكاء، إذا تصطنع موقفاً تنسبه إلى الرشيد ومثل هذه المواقف المصطنعة كثير، حتى أصبح للرشيد شخصيتان، إحداهما تاريخية حقيقية، والأخرى أسطورية متخيلة.

أورد الحكاية بأسلوب آخر ابن القارح في رسالته إلى المعري التي أجابه عنها برسالته الشهيرة:" رسالة الغفران".

❑❖❑

الطبيب وبغلته

يروى أن أحد الأطباء دعي إلى معالجة مريض، فامتطى بغلته، ومضى إليه.

وبعد أن عالجه، دعاه أهل المريض إلى الطعام، فاعتذر، ولكنهم ألحوا عليه، فقبل،

وقعد إلى المائدة، وتناول ما يكفيه، ولكن أهل المريض ألحوا عليه كي يتناول المزيد، وكان كل منهم يدعوه، ويبالغ في دعوته، إكراماً له، واضطر الطبيب إلى الاستجابة، لما رأى من كرم القوم، وحفاوتهم به.

ثم قدموا له الشراب، وألحوا عليه في شرب المزيد، وهو يتردد، ولكنه أمام إلحاحهم، وجد نفسه مسوقاً إلى المزيد.

وبعد قليل أخذ الطبيب يحسّ بألم في معدته، ولكنه كان يحاول أن يخفي ما يحس، حتى لا يخجل أمام القوم.

ثم اعتذر إليهم، وطلب منهم أن يأذنوا له في المضي، وهم يلحون عليه بالبقاء لديهم، ولكنه أكد لهم أن هناك مرضى آخرين يحتاجون إليه.

وهكذا ودّعه القوم ومضى.

وفي الطريق اشتد به ألم في بطنه، من فرط ما تناول من طعام وشراب، فنزل عن ظهر بغلته، وأخذ يمشي لعله يجد في المشي ما يخفف من ثقل الطعام، ويذهب عنه الألم.

ثم مرّ بسبيل ماء، فمالت البغلة إليه، تريد الشرب، فأدناها من الجرن، وجعلت تشرب، ولما ارتوت واكتفت، همت بالمضي، ولكنه ساقها إلى الماء ثانية، وأخذ يلحّ عليها، ويحثها على الشرب، هي تأبى، وأخذ يبالغ في ذلك، ويلحّ والبغلة تأبى أن تشرب، بل أخذت تبتعد عن الماء.

وعندئذ امتطاها ومضى، وهو يغمغم قائلاً: "والله أنت أعرف مني بما ينفعك أو يضرّك".

تعليق:

تنتقد الحكاية عادة شعبية سائدة وهي الإلحاح على الضيف كي يتناول المزيد من الطعام والشراب إظهاراً للكرم والحفاوة وحسن الضيافة، وهي عادة غير صادقة ولا أصيلة.

كما تنتقد بصورة غير مباشرة نهم بعض الأفراد. ولعل في الانتقاد بعض القسوة إذ تعتمد المفارقة بين الإنسان والحيوان، فتجعل الأخير أكثر وعياً من الأول.

❐❖❐

ضربة أعمى

كان أحد العميان يسير على الطريق وحده، وهو يتلمس مواقع خطاه بعصا طويلة، وصادفه رجل آخر، سليم البصر، ولكنه ادعى العمى، وعرض عليه صحبته، فرحب به، وسارا معاً.

وبعد قليل عرضت للرجل السليم حاجة، وكان يحمل صرة نقود، فأعطاها للأعمى، كي يحتفظ بها، ريثما يقضي حاجته.

وانتحى الرجل السليم جانباً، فاغتنم الأعمى الفرصة، وابتعد عن الرجل السليم، طمعاً منه بصرة النقود، ثم إنه تلمس خطاه بالعصا، فوجد حفرة، فنزل فيها وقبع في قاعها، مطمئناً إلى أن الرجل الآخر أعمى مثله، وأنه لن يكتشف مخبأه، مهما حاول البحث عنه.

وبعد أن انتهى الرجل السليم من قضاء حاجته، التفت يبحث عن الأعمى فلم يجده، ولكن بحثه لم يطل، وهو المبصر، فسرعان ما وجد الأعمى مختبأ في قاع الحفرة،

فظل متظاهراً بالعمى، وأخذ ينادي موهماً الأعمى بأنه أعمى مثله، ثم حمل حجراً قذفه بعيداً عن الأعمى حتى لا يتنبه إلى أنه مبصر، وأخذ ينادي طالباً من الأعمى أن يعلن عن مكان وجوده.

ولما سقط الحجر بعيداً عن الأعمى، وهو قابع في أسفل الحفرة، اطمأن إلى أن ذلك الرجل أعمى مثله، ولن يراه، فلبث ساكناً لا يتحرك.

ولكن الرجل السليم حمل حجراً آخر، وقذفه قريباً من الأعمى، ثم حمل حجراً ثالثاً وقذفه أقرب.

وكان الأعمى في قاع الحفرة ما يزال مطمئناً إلى أن الرجل الآخر أعمى مثله، وأنه لن يصيبه، ولن يعرف مكانه، وأنه لابد يائس في النهاية منه، وعندئذ سينصرف، ويظفر هو بصرة النقود.

ولكن حجراً أصاب رأسه، فتزحزح من مكانه، وإذا بحجر آخر أيضاً قد أصابه ثانية في رأسه، فقال: "هذه والله ليست ضربة أعمى"، وأدرك أن الرجل الآخر بصير، وإنما كان يخدعه، فلما أراد هو أن يخادعه، فما أفلح.

وعندئذ أعلن الأعمى استسلامه، وردّ إلى البصير صرة نقوده، واعتذر إليه.

تعليق:

حكاية بسيطة تدل بعفوية على أن الإنسان ميال إلى

الخداع بطبعه، فنزعة الشر كامنة فيه، سواء كان أعمى أم بصيراً، قوياً أم ضعيفاً، كبيراً أم صغيراً، كلّ يحاول أن يخدع بقدر ما يستطيع.

كما تدل على أن كل مخادع لابد سيلتقي بمن هو أكثر منه خداعاً، فلا يبقى ثمة خادع أو مخدوع، فالكل في الخداع سواء، وأن طريق الحياة لا يحتاج إلى شيء من ذلك البتة، إنما يحتاج إلى الصدق والتعاون.

❑❖❑

حكاية لا تنتهي

يحكى أن أحد الملوك أرق ذات ليلة، فأيقظ الوزير، وطلب منه أن يقص عليه حكاية لا تنتهي، وإلا قطع رأسه.

وحار الوزير في أمره، أي حكاية لا نهاية لها؟ ثم ذكر حكاية كانت جدته تحكيها له لينام، فشرع في روايتها للملك فقال:

يحكى أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، ملك عظيم الشأن، أراد أن يأتي بأمر لم يأت بمثله أحد، فجمع قمح العالم كله، في مكان واحد، وجعله كومة عالية، ثم أمر البنائين، فبنوا على ذلك القمح قبة كبيرة، أحكموا بناءها، ولم يجعلوا فيها كوة ولا نافذة.

ولكن نملة من النملات اهتدت إلى ثغرة صغيرة جداً في تلك القبة، فدخلت فيها، ثم أخذت حبة، وخرجت لتدعو النمل إلى قبة القمح.

وهكذا بدأ النمل بالتقاطر، فدخلت نملة، أخذت حبة، ثم خرجت، ودخلت نملة، أخذت حبة، ثم خرجت، ودخلت

نملة، أخذت حبة، ثم خرجت، ودخلت نملة، أخذت حبة، ثم خرجت....

وهكذا ظل الوزير يحكي للملك على المنوال نفسه، والملك يصغي إليه، مشدوهاً، فاغر الفم، إلى أن نام الملك، والحكاية ما تزال مستمرة:

دخلت نملة، أخذت حبة، ثم خرجت، دخلت نملة، أخذت حبة، ثم خرجت، دخلت نملة، أخذت حبة، ثم...

تعليق:

تقوم الحكاية على مبدأ الحكاية داخل الحكاية، فثمة حكاية خارجية هي حكاية الملك الذي أصيب بالأرق، وحكاية داخلية هي حكاية الملك الذي ابتنى قبة فوق كومة قمح العالم، والحكاية الأولى كالإطار بالنسبة إلى الحكاية الثانية.

وهذا المبدأ الفني قديم، أوضح مثال له حكايات ألف ليلة وليلة، وهي حكايات داخلية، تضمها كإطار خارجي حكاية شهر زاد وشهريار.

والحكاية تؤكد انشغال الحكام في العصور القديمة بقضايا فردية مجرّدة بعيدة عن قضايا العباد والبلاد، فهذا يأرق فيطلب الوزير ليسليه، وذاك يبتني قبة فوق قمح العالم.

وهي تدل من خلال النوم أخيراً على أن الملك سيزول، وكأن نومه هو موته، على حين تدل، من خلال النملات وحبات القمح، على أن الحياة سوف تستمر، كاستمرار الحكاية، التي هي رمز للحياة نفسها، مثلما أن النملات وحبات القمح هي رمز للشغل والقوت وحركة الحياة.

والحكاية عفوية جداً وبسيطة، وتبدو كأنها محض

حكاية تروى للأطفال كي يناموا، لكنها في عمق اللاشعور تحمل دلالات أبعد، ومن خلال هذا التوتر بين عفوية الظاهر وعمق الباطن، تتأكد جمالية الحكاية.

وتبقى الحكاية، بل الحكايات مستمرّة... كالحياة.

❑❖❑

بين الذهاب والإياب

يروى أن أحد الطلاب قد درس الفقه والشريعة في بلده، ثم قرر أن يرتحل إلى الأزهر في مصر، ليتابع تحصيله العلمي.

وفي الطريق مرّ بقرية صغيرة نائية، فاستراح فيها يوماً، وصادف أن كان يوم الجمعة، فتوجه مع المصلين إلى المسجد الجامع، وأخذ يصغي إلى الخطبة، وإذا الخطيب لا يفقه شيئاً، يقع في أخطاء كثيرة، فنهض محتجاً، وصاح بالخطيب: "أخطأت أيها الرجل، ليس الأمر على نحو ما قلت".

وقبل أن يتم كلامه صاح الخطيب بالمصلين: "أسكتوا هذا الكافر"، فانهال عليه القوم بالضرب، حتى كاد يلفظ الروح.

وغادر القرية، وتابع طريقه إلى مصر، حيث الأزهر، وهناك روى لأحد زملائه الطلاب ما كان من أمره، فلامه

زميله، وقال له: "تلك القرية نائية، وأهلها يحسبون خطيبهم أعلم العلماء، لا يمكن أن يحسبوه مخطئاً.

ثم دله على طريقة ينتقم بها لنفسه، لدى عودته إلى بلاده.

وبعد بضع سنين أنهى الطالب تعليمه، ورجع قافلاً إلى بلاده. وفي طريق العودة، مرّ بالقرية نفسها، فنزل فيها طلباً للراحة، وصادف نزوله يوم الجمعة، فقصد إلى المسجد واعتلى المنبر الخطيب نفسه، وأخذ يخطب بالمصلين، ووقع في مثل ما وقع فيه من أخطاء من قبل.

وقبل أن يتم الخطيب خطبته، نهض الطالب وقال للمصلين: "أنا أهنئكم بهذا الخطيب، فهو رجل مبارك، وأنصح لكل منكم أن يأخذ شعرة من ذقنه للتبرّك بها". وأسرع القوم إلى الخطيب، وقبل أن ينجو من بين أيديهم، كانوا قد نتفوا شعر ذقنه.

تعليق:

تشير الحكاية إلى بعض الخطباء ولا سيما خطباء القرى النائية وما يكون بعضهم عليه من الجهل، في مرحلة تاريخية غير محددة، كما تشير إلى استجابة العامة وردة فعلها للمؤثر. وهي تدل على ما يكون عليه الشباب من صراحة وفجاجة ومباشرة، ثم ما يمتلكونه من أساليب خلاف ذلك بعد تقدم العمر.

وغاية الحكاية الطرافة المتولدة من المفارقة بين حالة الشاب في الذهاب وحالته لدى الإياب، وما امتلكه من قدرة على الاحتيال والإيقاع.

❒❖❒

جرّة السمن

كان لرجل عجوز بضع غنمات، كان كل يوم يأخذ حليبها ويصنع منه بعض السمن، ويخبئه في جرة، وظل على هذه الحال أياماً، حتى امتلأت الجرة، إلا قليلاً، عندئذ حملها ومضى بها إلى المدينة، وهناك باع السمن، وقبض ثمنه ليرة ذهبية، وضعها في الجرة، وكان التعب قد نال منه، فاستلقى في ظل شجرة وأسند الجرّة إلى قطعة حجر، واستغرق في نوم عميق.

ولما استيقظ العجوز، حمل جرّته، ومضى بها إلى السوق ليشتري بعض الحاجات، ولكنه مدّ يده في الجرة ليطمئن إلى الليرة الذهبية، فلم يجدها، عندئذ تألم أشد الألم، وقرر المضي إلى قاضي البلاد يشكو له الأمر.

ولما سمع القاضي حكاية الفلاح العجوز، أرسل المنادي في المدينة يدعو الناس إلى حضور محاكمة الحجر السارق، وعندما عقدت المحكمة حضر ناس كثير، وكانت على منصة القضاء قطعة حجر، وكان الناس

يتأملونها وهم يغمغمون متسائلين هل سرق الحجر؟ وكيف ستكون محاكمته.

وتأخر القاضي عن قصد، ولما دخل، أعلن أنه سيحاكم هذا الحجر، وعندئذ ضج الناس في قاعة المحكمة ساخرين، فأظهر القاضي غضبه، وحكم على الحاضرين أن يدفع كل منهم ليرة غرامة.

ثم أمر الحرس أن يقف بباب المحكمة، ووضع قدراً مملوءة بالماء، وكان على كل خارج من المحكمة أن يلقي في تلك القدر ليرته، ووقف القاضي يرقب الخارجين واحداً واحداً، وكاد يخرج الجميع، ولم يبق سوى عدد قليل، ثم تقدم أحد الرجال، متثاقل الخطا، وألقى بليرته متردداً، وبعد أن ألقاها، صاح القاضي بالحارس: "أمسك اللص"، فتعجب الرجل وسأله: "وكيف عرفت أني اللص"، فأجاب القاضي: "انظر إلى السمن الطافي على وجه الماء".

وأقرّ الرجل بذنبه، فسيق إلى السجن، وأعاد القاضي إلى الفلاح العجوز ليرته، فشكره، ومضى إلى السوق، فاشترى بعض حاجاته، ثم رجع إلى قريته سعيداً.

تعليق

تكشف الحكاية بساطة الفلاح وخبث السارق وذكاء القاضي، وهي تؤكد العدل بوصفه قيمة مطلقة، تأخذ على يد الجاني، وتعيد الحق إلى صاحبه.

وهي تدل على نقاء الريف، فالفلاح ينام ويترك الجرة إلى جانبه مطمئناً كعادته في الريف، ولا يعرف شيئاً عن

فساد المدينة، مما يؤدي إلى سرقة الليرة.
كما تدل على أن المال الحلال لا يضيع.

❒❖❒

الفأس الذهبية

يحكى أن أحد الحطابين قصد الغابة كعادته كل يوم ليجمع من الحطب ما يبيعه ويشتري به طعاماً لعياله. وبينما هو يضرب جذع الشجرة طارت الفأس من يده وسقطت في النهر، فخلع ثيابه، ونزل في إثرها يبحث عنها، وغاص إلى قاع النهر، ولكنه لم يجدها، فخرج مغتمَاً حزيناً، ثم أخذ يدعو ربه أن يساعده على استرجاع فأسه.

وبينما هو كذلك إذ خرج من النهر ملك يحمل فأساً ذهبية، وقال للحطاب: "أهذه فأسك؟"، فأجاب الحطاب: "لا"، فغاص الملك في النهر، ثم خرج، وهو يحمل فأساً فضية، ثم قال للحطاب: "أهذه فأسك؟"، فأجاب الحطاب: "لا"، وغاص الملك ثانية، ثم خرج، وهو يحمل فأساً حديدية، ثم قال للحطاب: "أهذه فأسك؟"، فأجاب الحطاب: "نعم، هذه هي فأسي"، وعندئذ أعطاه الملك الفؤوس الثلاث، جزاء صدقه وأمانته.

وفرح الحطاب بعودة فأسه إليه، كما فرح بالفأسين

الأخريين، وتابع جده في جمع الحطب، ثم حمل كومة كعادته كل يوم، ومضى بها، وقد شدّ الفؤوس الثلاث بالحبل إلى طرف الكومة.

وفي الطريق صادفه تاجر غني، فلما رأى التماع الفأس الذهبية والفأس الفضية، ذهل، وسأله كيف حصل عليهما فحدّثه الصياد عما حدث.

وفي صباح اليوم التالي أسرع ذلك التاجر الغني، وهو يحمل فأساً حديدية، ولما بلغ النهر، رمى بالفأس، وأخذ يدعو ربه، أن يعوضه عنها، فخرج له الملك من النهر، وهو يحمل فأساً حديدية، ثم سأله: "أهذه فأسك؟"، فأجابه التاجر الغني"لا" ليست هي، فأسي من ذهب، ولا أريد عنها بدلاً"، فردّ عليه الملك، "لا ضرورة للكذب أيها الرجل، فهذه هي فأسك، وعلى كل حال فأنت لست بحاجة إليها، والأفضل أن ترجع الفأس إلى قاع النهر، وأن تعود أنت خائباً، جزاء طمعك وكذبك"، ورمى الملك الفأس بالنهر، ثم غاب.

ورجع التاجر الغني إلى بيته خائباً.

تعليق:

تنتصر الحكاية للصدق، الذي يقود إلى الحق والخير، على حين تدين الكذب الذي يؤدي إلى الخسران والخيبة.

وهي تظهر بساطة الفقير وقناعته وصدقه، كما تكشف خبث الغني ومكره وجشعه، كما تدل على عناء الفقير في تحصيل رزقه، وقناعته بالقليل، على حين تدل

على طمع الغني وبحثه دائماً عن المزيد.

والحكاية تنتهي مثل سائر الحكايات نهاية مرضية، فتعاقب الخبيث، وتكافئ الطيب.

❑❖❑

كل السبب في فرخ السمك

يحكى أن عجوزاً سمعت بائعاً ينادي معلناً عن السمك، فاشتهت أن تأكل وجبة سمك، فطلبت من كنتها أن تخرج لتشتري منه فرخاً، ولكن كنتها اعتذرت، وذكرتها بأنها لم تخرج إلى السوق قط، ولم تشتر شيئاً من قبل.

ولكن حماتها ألحت عليها، وأخبرتها أنها ستموت إذا لم تأكل السمك، فحارت الكنة في أمرها ثم أكدت أنها لا تملك شيئاً من ثمنه، فاقترحت الحماة أن تمنح البائع قبلة مقابل فرخ واحد. فذهلت الكنة مما سمعت، ولكن حماتها هددتها بأنها ستشكوها إلى زوجها. وستتهمها بأنها تخرج كل يوم في غيابه للقاء عشيق لها، ووجدت الكنة الحماة جادّة كل الجد فيما تقول، فاضطرت لتنفيذ رغبتها.

وهكذا منحت الكنة البائع قبلة، وحصلت على فرخ السمك، ورجعت إلى البيت، فنظفته وغسلته، ثم وضعته في المقلاة، وجاء الزوج، فسألها عن مصدر السمك، فأشارت إلى أمه، فنظرت إليها حماتها، ثم أخرجت مغزلها، وأخذت

تخاطبه قائلة: "دور يا مغزلي دور، أقول إلا ما أقول"، وتشاغل الزوج عن كلام أمه، ولكنها أعادته مرة ثانية، وثالثة، وعندئذ تنبه إليها، فقال لها غاضباً: "قولي".

وفي تلك اللحظة علا في الخارج صوت رجل ينادي الزوج، فخرج إليه ينظر ما يريد، فالتفتت الكنة إلى حماتها، وقالت لها: "كيف يطاوعك قلبك، حتى تخبري ابنك بما فعلت"، فردّت عليها الحماة مؤكدة: "والله سأخبره، حتى يفرمك مثل فرخ السمك".

وعندئذ أسرعت الكنة إلى السمك، فحملت قطعة كبيرة، وحشت بها فم حماتها، فغصت بها الحماة، ثم أسرعت تنادي زوجها، ولما رجع، رأى أمه ميتة، فلما سألها عن سبب موتها، قالت له: "كل السبب في فرخ السمك".

تعليق:

تعكس الحكاية حالة اجتماعية تتمثل في الخصام التقليدي بين الحماة والكنة، وهو خصام يظهر غالباً في البيئات المتخلفة.

ويظهر الخصام في هذه الحكاية في شكل حاد جداً وبصورة غير معقولة، وينتهي نهاية لا تخلو من قسوة تؤكد لا معقولية الحكاية ومبالغتها.

والحكاية تحمل دلالات نفسية بعيدة تكشف عن أغوار العجوز، التي تغلبها شهوة الطعام ولا سيما السمك فتدفع كنتها إلى ما تدفعها إليه.

وللسمك في عمق اللاشعور دلالات شائعة، إذ يرمز إلى العضو المذكر، وغالباً ما تكني العامة عنه بفرخ السمك، وبصيغة التذكير "فرخ"، وبذلك يمكن أن تدل

الحكاية على غيرة من الكنة من جهة، وعلى حرمان من جهة أخرى، ومما لاشك فيه أن هاتين الحالتين غائرتان في عمق اللاشعور.

ومهما يكن فإن شهوة الطعام ليست أقل من شهوة الجنس، بل لعلها أقوى منها وأبقى، وحسب الحكاية بناؤها في الظاهر على تلك الشهوة.

والحكاية تنتهي نهاية فنية محكمة وقوية، إذ يتم إلقام العجوز بالسمك الذي تشتهيه نفسها ويكون موتها في إشباع شهوتها.

❒❖❒

البيع بمئة والشراء بعشرين

ضاقت الأحوال بأحد القرويين، فحمل ديكاً لم يكن عنده غيره، ليبيعه، فأخذ يطوف به الأسواق والأحياء، ولا أحد يسأله كم ثمنه، فمضى إلى بعض الحارات، وأخذ ينادي، وكان في الشرفة سيدة تتأمل الغادين والرائحين، كي تسلّي وحدتها، فرأت الفلاح وهو يحمل الديك، فأعجبتها سمرته الريفية، وقوته، فنادته، وأشارت إليه كي يصعد إليها، ثمْ أخذت تساومه في ثمن الديك، وهو على بساطته وعفويته، لا يفهم شيئاً مما تريد، ثم إنّها دعته إلى الداخل، وهيأت مائدة فيها مالذ وطاب من الطعام والشراب، ودعته إلى المأدبة، فأدهشه الأمر، ثم أخذت تتودد إليه وتلاطفه، وهو ذاهل لا يعي من الأمر شيئاً.

وبينما هما على هذا الحال إذ قرع الباب، فقالت له: "ويلي، لقد جاء زوجي، والله لو رآك لذبحك" حار في أمره ما يفعل؟ ثم اقترحت عليه أن يختبئ في خزانة الثياب،

فأدخلته الخزانة، وأغلقت الباب.

وكان القادم في الحقيقة عشيقها، لا زوجها، فقعد إلى المائدة، وأخذ يشاركها الطعام والشراب، ويتودد إليها ويغازلها، والقروي البائس محبوس داخل الخزانة، وبينما هما على هذه الحال، إذ قرع الباب، فقالت للعشيق مثل ما قالت للقروي ثم أدخلته إليه في الخزانة، وأغلقت الباب.

وعندما رأى القروي الرجل، وسمع وهو في الخزانة صوت الزوج في الخارج، أدرك عندئذ جلية الأمر، وعرف ما هو واقع فيه، وعندئذ همس للرجل: "هل تشتري مني هذا الديك؟"، فدهش الرجل وهمس مجيباً: "وهل هذا وقت البيع والشراء؟"، فقال الفلاح: "إذ لم تشتر الديك مني رفعت صوتي وفضحتك" واضطر الرجل للقبول، وسأل: "بكم تبيعني الديك؟" فأجابه: "بمئة ليرة"، فرد الرجل: "ولكنه لا يساوي عشرين"، فهمس الفلاح: "إذا لم تشتر بمئة صحت وفضحتك"، واضطر الرجل إلى شراء الديك، فدفع للقروي مئة، وناوله هذا الديك فوضعه في حجره، وقعد لا يتحرك.

وبعد برهة سأل القروي: "هل تبيعني الديك؟"، فردّ الرجل: "منذ قليل اشتريته منك"، فأضاف القروي: "إذا لم تبعني الديك فضحتك"، فقال الرجل: "لا بأس، أبيعك الديك، هات مئة وخذه"، فقال القروي: "أشتريه منك بعشرين"، فدهش الرجل وقال: "كيف أبيعك الديك بعشرين، وأنا الذي اشتريته منك قبل قليل بمئة"، فقال القروي: "إذا لم تبعني

الديك بعشرين فضحتك"، فاضطر الرجل إلى بيع الديك إلى القروي بعشرين.

وهكذا اشترى القروي الديك بعشرين، ثم ما لبث أن باعه إياه بمئة، وعاد واشتراه بعشرين، وهكذا دواليك، بين بيع وشراء، والزوج في الخارج مع زوجته يتناولان الطعام والشراب.

ثم أشفقت المرأة على القروي وعلى العشيق، فتظاهرت بالدوار، وطلبت من زوجها أن يسرع إلى السوق لشراء دواء لها، وما إن خرج حتى فتحت الخزانة، ثم قالت للقروي وللرجل: "هيا، أسرعا بالهروب، قبل أن يعود".

ورجع القروي إلى قريته يحمل الديك، وقد امتلأ جيبه بالنقود، فعاش بضعة أيام هانئاً سعيداً، ولكن لم تلبث تلك النقود أن نفدت، فحمل الديك مرة أخرى، وأخذ يطوف الأسواق ينادي لعله يحظى بمن يشتري الديك، وبينما هو كذلك إذ مرّ بمحل فخم، رأى في صدره رجلاً عليه ملامح الوقار، وقد اجتمع من حوله القوم، والخدام يطوف عليهم بالقهوة، وأعاد النظر إليه، فعرفه، إذ إنه ذلك الرجل الذي التقى به داخل الخزانة، فسأل عنه، فعلم أنه كبير التجار، فدخل عليه، وألقى السلام، ثم سأله أمام القوم: "هل تشتري الديك مني؟".

فأحس الرجل بالإحراج، فأجابه: "نعم، أشتريه"، ثم

أخرج من جيبه مئة ليرة، وناوله إياها، ولكن القروي قال: "لا، ثمنه الآن خمسمئة"، فتململ الرجل في موضعه وأحسّ بالضيق، فقال القروي: "إذا لم تشتر الديك بخمسمئة"، وقبل أن يتم الكلام، نقده الرجل خمسمئة ليرة، وهو يقول له: "ولكن لتعلم أنني لن أبيعه بعد ذلك ولا بخمسة آلاف".

فضحك القروي، وأخذ النقود ورجع إلى قريته هانئاً سعيداً.

تعليق:

حكاية مرحة، لا غاية لها سوى التسلية والإمتاع، وهي بسيطة جداً، وتمتاز بالعفوية، ولكنها تدل بصورة غير مباشرة على نقاء الريف وفساد المدينة، فهنا الغنى والعهر والتجارة والبيع والشراء، وهناك البراءة والفقر والطيبة.

❐❖❐

مطعم الهناء

افتتح أحد الأشخاص مطعماً أسماه"مطعم الهناء"، وأعلن عن تقديمه"الشوربة" مجاناً.

ورأى الإعلان رجل فقير، فحمل رغيف خبز يابساً، ودخل المطعم، ولما سأله النادل، طلب صحن"شوربة"، ثم فتّ فيه رغيفه اليابس، وأكل وهنئ، وخرج من غير أن يدفع شيئاً.

وكان هكذا دأبه كل يوم، إلى أن ضجر منه النادل، فشكاه إلى صاحب المطعم فأوصاه أن يضع في صحنه مادة"مسهلة".

وهكذا قدم الفقير كعادته كل يوم، وطلب صحنه المعروف، وفتّ فيه الخبز، وأخذ يلتهمه، وقد وجده هذه المرة أشهى.

ولكن ما إن أتى على الصحن، حتى أحسّ بمغص في بطنه، ثم بحركة شديده في أمعائه، ثم برغبة كبيرة في الإفراغ فنهض، وأسرع إلى الباب، وإذا بسرواله قد امتلأ،

وأخذ يسيل على الرصيف، وحثّ الرجل الخطا نحو مأواه.

واعترضه شخص سأله عن مطعم"الهناء"، أين يكون؟، فالتفت الفقير وراءه، ونظر إلى خط على الرصيف كان يسيل من سرواله، ثم قال له: "اتبع هذا الخط، فهو يدلك إلى معطم الهناء".

تعليق:

حكاية مرحة، تمتاز بالبساطة والعفوية، ولا غاية من ورائها سوى الإضحاك، وإن كانت تدل على بؤس الفقير وبخل الغني، وهي تعكس بصورة غير مباشرة حال مجتمع المدينة.

❑❖❑

الشجاعة

يحكى أن رجلاً سأل عنترة: "ما الشجاعة، وكيف تعلمتها؟". فطلب منه عنترة أن يضع إصبعه في فمه، ووضع هو أيضاً إصبعه في فم الرجل، ثم قال: "سيعض الآن كل منا إصبع الآخر، والأكثر شجاعة هو الذي يصبر أكثر على تحمل الألم".

وهكذا أخذ عنترة يعض إصبع الرجل، على حين كان الرجل يعض إصبعه، وكل منهما يتحمل الألم، ولكن بعد هنيهة صاح الرجل، من شدة الألم، وترك إصبع عنترة.

وهنا قال له عنترة: "هل رأيت؟ هذه هي الشجاعة".

تعليق:

حكاية عفوية بسيطة جداً، تدل على أن الشجاعة في الصبر والقدرة على تحمل الألم.

والحكاية على ما يبدو موجّهة إلى الشباب لتعلمهم الصبر وقوة الإرادة والقدرة على التحمل، وهي تعتمد على تجسيد مفهوم مجرّد في شكل محدود قوامه عض الإصبع، وغالباً ما يقصد بالحكاية ما هو أبعد من مفهوم الشجاعة

والقدرة على التحمل الجسدي، من نحو الصبر والشجاعة والقدرة على تحمل آلام الحياة.

❐❖❐

فردة الحذاء

يحكى أن أحد الأتقياء كان على خلق حسن، وكان جاره سكّيراً، وفي كل ليلة كان هذا الجار يرجع إلى داره متأخراً، وهو في حالة من السكر يرثى لها، حتى إذا مرّ بدار جاره التقي، خلع حذاءه، ورمى به من فوق الدار.

وكان التقي يصبر على جاره، ويعامله بالحسنى، ففي صباح كل يوم يحمل إليه فردتي حذائه، فيقرع عليه الباب، ويناوله إياهما فيعتذر إليه الجار السكير، ويأسف أشد الأسف، ويؤكد أنه في حالة من السكر لا يعي فيها ما يفعل، وأنه لم يكن يقصد إلى الإيذاء أو الإزعاج.

وذات يوم ضجر التقي، فعاتب جاره، وذكّره بحق الجوار، ونصح له، فوعد السكير ألا يعود إلى فعلته.

ونام التقي مطمئناً إلى وعد جاره، ولكن فوجئ بفردة الحذاء تسقط كالعادة في فناء الدار، فاستيقظ غاضباً، ولكنه أمسك نفسه، وتذرع بالصبر.

وكان السكير قد ثمل ونسي وعده، فلما مرّ بدار جاره

قذف فردة حذائه كعادته، ولكن بعد أن قذفها تنبّه إلى وعده، فدخل داره وهو نادم، وأخذ يفكر كيف يعتذر إلى جاره.

وقعد الجار التقي، وقد جافاه النوم، وهو يتوقّع بين برهة وأخرى أن تسقط فردة الحذاء الثانية، ولكن انتظاره طال، حتى ضجر، فما كان منه إلا أن مضى إلى جاره، وقد قرّر أن يصطنع الوسيلة الحسنة.

ولما خرج إليه السكير، قال له: "أقلقتني أيها الجار، وشغلتني لأجلك، وقد جئت لأطمئن عليك".

ثم قدم إليه فردة الحذاء، وهو يقول: "هذه فردة حذائك، ولكن أين الأخرى؟ أرجو أن لا تكون قدمك قد أصيبت بمكروه".

وعندئذ أسف السكير، واعتذر عن كل ما كان منه، ووعد جاره التقي أن يقلع عن الخمرة، وتوسّل إليه أن يقبله صاحباً وصديقاً، كما رجاه أن يوافق على لزومه له، كي ينهج نهجه في التقى وحسن الخلق.

تعليق:

حكاية تربوية تعلم الصبر وحسن الخلق واصطناع الوسيلة الحسنة في معاملة الناس، وتحث على مراعاة حق الجوار، كما تظهر مساوئ الخمرة وما تقود إليه من شرور وفساد، وتدعو بصورة غير مباشرة إلى هجرها.

والحكاية واضحة وجميلة ومختصرة، وهي على ما يبدو مستوحاة من سيرة الرسول محمد صلى الله عليه

وسلم، إذ يروى أن جاراً له كان يهودياً، وكان يضع الأوساخ كل يوم أمام داره فكان الرسول يرفع الأوساخ ولا يعاتب جاره، وذات يوم لم يجد الرسول الأوساخ أمام داره، ثم علم أن جاره اليهودي مريض، فعاده في مرضه، فارتدع الجار اليهودي، واعتذر إلى الرسول، ودخل في الإسلام.

❑❖❑

لقمان الحكيم

يروى أن لقمان الحكيم علم أن عمره سينتهي مع انتهاء رزقه، فطمع في طول العمر، فصار يأكل في النهار مرة واحدة بدلاً من مرتين، حتى لا ينفذ رزقه، ثم صار يقسم كسرة الخبز إلى كسرتين، واللقمة الواحدة إلى لقمتين، ويؤجل طعام اليوم إلى الغد، ثم لم يبق له من الرزق سوى حبة حمص واحدة، أدرك أنه متى أكلها فسوف يموت، فوضعها تحت لسانه أربعين يوماً يتبلّغ بها، حتى رقت وذابت، ولم يبق إلا قشرتها، وعندئذ عرف أنه لا مفر من الموت، فلفظها من فمه، وتمنّى لو أنه استنفذ رزقه من قبل، ولم يعمّر ما عمّر.

تعليق:

تدل هذه الحكاية على طمع الإنسان في طول العمر، حتى إنه ليبخل على نفسه، كي يطول عمره، ولكن طول العمر لا ينفعه في شيء، إذ ليست القيمة في المدة التي يعيشها الإنسان، سواء طالت أم قصرت، وإما القيمة في الأفعال التي يملأ بها تلك المدة.

كما تدل على خطل التعلق بالدنيا، والعيش لمحض

العيش المؤقت، دونما نظر إلى هدف أسمى، وغاية أبعد.

❒❖❒

أشدّ النـاس حمقا

كان لأحد الملوك ولد وحيد، رباه خير تربية، وعني به، ولما كبر، وأصبح شاباً، أراد أن يعرفه إلى البلاد والعباد، ليكتسب خبرة، فأعطاه صرة نقود، وزوّده بكلّ ما يحتاجه في السفر، ثم طلب منه أن يجول في البلاد، وأوصاه أن يعطي صرة النقود لمن يراه أشد الناس حمقاً.

وهكذا أخذ الفتى ينتقل من بلد إلى بلد، يراقب الناس في الحقول والأسواق، يراهم يبيعون ويشترون، ويزرعون ويحصدون، وكلما رأى رجلاً أحمق همّ بإعطائه صرة النقود، ولكنه كان يتريث، لعله يرى من هو أشد حمقاً منه.

مرة رأى رجلاً يرعى بقرة على سطح الدار، وأخرى رأى رجلاً يصب السكر في البحر ليعذب ماؤه، وثالثه رأى رجلاً يصنع للجمل جناحين على أمل أن يطير، ولكنه ذات مرة رأى رجلاً يركب حماراً بالمقلوب، وجهه إلى مؤخرته، وهو يمسك بذيله، والناس من حوله يقرعون الصحون بالملاعق، وهم يصخبون ويضجون شاتمين لاعنين الرجل، فسأل

عنه، فعلم أنه كان مختاراً للقرية، ثم انتهت ولايته عليهم، فإذا هذه هي عاقبته.

ثم إن الفتى دخل القرية، فرأى قوماً يدخلون منزلاً، متزاحمين، وآخرين يخرجون منه، فسأل عن الأمر، فعرف أنهم يدخلون ليباركوا للمختار بتسلّمه عمله مختاراً جديداً للقرية.

وعندئذ تنبه الفتى إلى الأمر، ودخل على المختار الجديد مع الداخلين، ولما صار بين يديه، قدّم له صرة النقود، فسأله المختار الجديد عن سبب تقديم الصرة له، فأجابه:

"طلب مني أبي أن أقدّمها إلى أشدّ الناس حمقاً".

تعليق:

تؤكد هذه الحكاية حمق من لا يتعظ بغيره، ولا يستفيد من تجارب الآخرين، ويظهر هذا مرتين، مرة بصورة سلبية، ساخرة، تتمثل في المختار الجديد الذي لم يتعظ بمصير المختار القديم، ومرة ثانية بصورة وعظية غير مباشرة تتمثل في الفتى الشاب الذي عليه أن يتعظ بما يرى، ويستفيد من تجارب الآخرين.

والحكاية تدل على النهاية البائسة التي ينتهي إليها الوالي عند انتهاء ولايته، وهي بذلك تقدم عظة لكل والٍ، حتى يدرك أنه لابد ذات يوم معزول، فيحسن إلى الناس، حتى لايسيئوا إليه عند نهاية ولايته.

وعلى كل حال، فالحكاية ترتبط بشكل بدائي من أشكال الولاية، حيث لا قانون ينظم العلاقة بين المختار وأهل القرية، سواء لدى توليته أو لدى خلعه، وحين تكون

ثمة قوانين ناظمة فلا شيء يحصل مما ورد في الحكاية.

والحكاية محكمة البناء، مكثفة، نهايتها مدهشة، ومفاجئة، وفيها قدر غير قليل من الذكاء، وإرسال الفتى، ولا سيما ابن الملك، في رحلة يتعرف فيها إلى البلاد والعباد عنصر متكرر في كثير من الحكايات.

❐❖❐

الولد الذكي والشمعة

كان لأحد الرجال ولدان اثنان، ربّاهما خير تربية، وعني بهما، وذات يوم أراد امتحان ذكائهما، فأعطى كل واحد منهما بعض النقود، وطلب منه أن يشتري ما يملأ به غرفة من غرف الدار.

وذهب الأول إلى السوق، وبعد طول تأمل وتفكير، وتجوال في السوق، وسؤال عن الحاجات والأسعار، رأى التبن أرخص شيء، فاشترى بكل ما أعطاه والده من نقود أكواماً من التبن، وملأ بها إحدى غرف الدار.

وذهب الثاني إلى السوق، فاشترى شمعة واحدة، ولم يدفع فيها سوى بعض ما أعطاه والده من نقود، ووفّر قدراً غير قليل.

وفي المساء رجع الأب من عمله، فرأى الأول قد ملأ إحدى الغرف بالتبن، على حين ملأ الثاني غرفة أخرى بالنور.

تعليق:

تؤكد الحكاية تفاوت الناس في الذكاء، حتى بين أخوين نشأا في بيئة واحدة، وتلقيا تربية واحدة، مما يؤكد التفاوت والاختلاف، ويؤكد أن الذكاء موهبة، وإن كان للتربية دور في تنميته وتوجيهه.

وتدل الحكاية على الفارق بين من ينفق نقوده فيما هو رخيص في سعره وتافه في قيمته، التبن مثلاً، وهو رمز لكل ما هو مادي منحط، لأنه محض غذاء للحيوان، وبين من ينفق نقوده فيما هو نافع وله قيمته الكبرى، كالشمعة، وهي رمز للنور والتضحية والمعرفة، لأنها تحترق كي تضيء، فتملأ الدنيا نوراً وهداية، وهي رفيقة طلاب العلم.

ويظهر المال في الحكاية قوة محايدة، يمكن أن يوظف فيما هو تافه حقير، كما يمكن أن يوظف فيما هو نافع، وفرق بين هذا وذاك، والقيمة ليست للمال، وإنما للإنسان، وعليه أن يحسن التصرف.

والحكاية ذات هدف تربوي، فهي تسعى إلى حض الناشئة على الاهتمام بالأسمى، والترفع عما هو مادي زائل، وهي موجزة مكثفة، واضحة الدلالة، قوية التأثير.

❒❖❒

الملك والمجنون

يحكى أن أحد الملوك أرق ذات ليلة، فأخذ يفكر في لذة النوم، كيف تكون؟ ولم يشأ أن يوقظ الوزير ليسأله، بل قرر أن يذهب إلى مستشفى المجانين، ليسأل أحدهم.

وفي حديقة المستشفى رأى أحد المجانين وهو غارق في التأمل، فقال: "لابد أن أجد عند هذا المجنون الجواب".

واقترب الملك من المجنون، فسأله: "متى تشعر بلذة النوم؟ "فأجاب المجنون" أشعر بلذة النوم عندما أحسّ بالنعاس، وتثقل أجفاني، ويتسرّب إليّ الخدر، فأشتهي النوم".

فقال الملك، "ولكنك ما تزال في مرحلة ما قبل النوم، فكيف يمكنك أن تشعر حقيقة بلذته؟" ففكر المجنون قليلاً، ثم قال: "أنت على حق، إنما أشعر بلذة النوم عندما أستلقي على الفراش، وأستسلم للرقاد، وأمضي في سبات عميق، مستغرقاً في النوم".

فقال له الملك: "ولكن لا يمكنك أن تشعر بلذة النوم،

وأنت نائم لأن كل قواك معطلة".

دهش المجنون، وفكر قليلاً، ثم قال: "أنت على حق، وإنما أحسّ بلذة النوم عندما أصحو من النوم، ويكون صحوي هادئاً، بطيئاً، فأستيقظ، ثم أنهض، وأنا نشيط".

فقال الملك: "أنت في هذه الحالة تكون قد غادرت النوم، وأصبحت بعيداً عنه، فكيف يمكنك أن تشعر بلذته؟".

دهش المجنون: وفكر قليلاً، ثم قال: "أنت على صواب، إنما أجد لذة النوم، عندما أحرم منه، وأمتنع عنه، فأطلبه فلا أجده، وأنا قلق أرق".

فصاح الملك غاضباً: "هذا غير صحيح، كيف ذلك، وأنت محروم من النوم؟ كيف يمكنك أن تجد لذة النوم وأنت لا تجد النوم نفسه".

فصاح المجنون بالملك، وهو يبتعد عنه: "ابتعد، ابتعد عني، أنت مجنون، وتريد أن تجعلني مجنوناً مثلك". وتنبه الملك إلى كلام المجنون، ثم قال له: "حقيقة، المجنون هو أنا، لا أنت، وما أحراك أن تكون خارج هذا المستشفى، وأكون أنا داخله".

تعليق:

تقوم الحكاية على استيفاء حالات أربع، استناداً إلى المنطق، وهي حالات تتفاقم شيئاً فشيئاً، حتى تبلغ الذروة. كما تجعل الحكاية الحوار بين الملك والمجنون، لإظهار

المفارقة، إذ من المفترض في الملك أن يكون في أقصى درجات التعقل، وأن يكون الثاني خلاف ذلك، ولكن العكس هو المتحقق.

والحكاية تعبر عما كان يعيش فيه الحاكم في العصور القديمة من فراغ فكري، يدفعه إلى التفكير في قضية ذهنية مجرّدة، يوحي بها أرقه، ويعالجها بأسلوب السؤال والتفنيد، استناداً إلى المماحكة، كالسؤال عن الدجاجة والبيضة، أيهما أسبق، ولا يفكر في شيء من قضايا البلاد والعباد.

وتدل الحكاية على عدم ثقة الحاكم بأحد، فهو لا يستعين بوزير أو مستشار، إنما يقصد مستشفى المجانين، الذي هو صورة خارجية عن عالمه الداخلي بل كأنه مرآة ذاته.

والحكاية تنتهي بإقرار الملك بأنه مجنون، مما يؤكد أنه يعرف حقيقته، ولكنه ينكرها، ويتنكر لها، يقرّها بينه وبين نفسه، ويقرّها بمحض القول، على حين لا يعلنها، ولا يعمل بها، مما يؤكد تفرّده.

❑❖❑

خسرنا اليوم

كانا جارين في السوق، دكان هذا لصق دكان ذاك، وكلاهما كانا يبيعان الثياب، وهما على قدر كبير من الودّ والوفاق.

وكل يوم مساء، وقبل الانصراف، يسأل أحدهما الآخر: "كيف الحال؟"، فيجيبه: "خسرنا اليوم"، وكان هذا دأب الثاني، كلما سأله الأول السؤال، أجابه الجواب نفسه، مع أنه يرى المشترين يقبلون عليه، بل يتزاحمون.

وذات مرة، أغلق الأول دكانه عشرة أيام، عن عمد، لم يأت فيها إلى السوق، وفي اليوم الحادي عشر، فتح الدكان، وفي آخر النهار سأله جاره السؤال نفسه: "كيف الحال؟" فأجابه: "خسرنا اليوم".

وذهل الرجل لجواب جاره، وقال له: "أمرك غريب، عشرة أيام أغلقت دكاني، وتركت لك السوق كله، وأنا أرى المشترين يتزاحمون عليك، فكيف تقول: "خسرنا اليوم؟"، فأجابه جاره: "حقيقة، نحن نكسب المال، ولكننا نخسر اليوم

الذي يمضي من عمرنا".

تعليق:

تؤكد هذه الحكاية نموذجين مختلفين الاختلاف كله للإنسان، أحدهما لا يفكر بغير المال والكسب والربح، فهو لا يرى من الحياة إلا جانباً واحداً، هو المال. والآخر يرى الحياة بغناها وسعتها وامتدادها، ومالها من قيمة، فيتألم لانقضاء اليوم، لأنه مضى من عمره، وكان فيه حبيس دكانه، وأسير البيع والشراء، ولم يحقق فيه شيئاً. فهو يرى الحياة من زاوية واسعة شاملة، على حين يراها الأول من زاوية ضيقة، فلا يدرك سوى اللحظة الراهنة.

والحكاية موفقة في اختيارها بائعين في السوق، حيث تطغى المادة، ويسيطر التفكير بالكسب، وتكاد تضيع القيم والمثل، ويكاد يغيب مثل ذلك التفكير بالحياة خارج إطار اليوم العابر والسوق الضيق.

ويبدو البائع الواعي المدرك لغنى الحياة وقيمتها نموذجاً نادراً بين تجار السوق.

❐❖❐

الملك وصناديق الكتب

توفي أحد الملوك، فورثه ولده، وكان في نحو العشرين من العمر، فدعا إليه العلماء والحكماء، وطلب منهم أن يؤلفوا في تاريخ الملوك والممالك وفلسفة الحكم، حتى يتمكن من حكم البلاد والعباد.

وانصرف العلماء والحكماء إلى التأليف، فأمضوا عشرين عاماً، عادوا بعدها إلى الملك بسبعة صناديق مملوءة كتباً، فدهش الملك، وأخبرهم أنه مشغول بالحكم وليس لديه من الوقت ما يساعده على قراءة هذه الكتب، ولذلك طلب منهم أن يختصروها.

ومضى العلماء بالصناديق السبعة، وأخذوا باختصار ما وسعته من كتب، واستغرق منهم ذلك عشر سنين، وعادوا إلى الملك بثلاثة صناديق مملوءة كتباً، وكان الملك قد بلغ الخمسين من العمر، وزادت أعباء المملكة، فأخبرهم أنه ليس بوسعه قراءة ما في الصناديق الثلاثة، وطلب منهم اختصارها.

ومضى العلماء بالصناديق الثلاثة، ورجعوا إليه بعد خمس سنوات ومعهم صندوق واحد، مملوء كتباً، فقال لهم الملك: لقد بلغت الخامسة والخمسين، وحكمت ما حكمت، وتعلمت أضعاف ما ستعلمني هذه الكتب، ولم أعد بحاجة إليها.

تعليق:

حكاية مركبة، تحمل دلالات كثيرة، فهي تدل على جهل أبناء الملوك، وعدم استعدادهم للملك، وعدم أهليتهم له، وهم يحكمون البلاد والعباد لا عن جدارة وأهلية واستعداد، وإنما بحكم الوراثة.

كما تدل على انشغال الملوك بأمور الحكم عن الثقافة والاطلاع وامتلاك المعرفة، فهم دائماً في شغل، وليس عندهم وقت، ويريدون الحكمة سهلة جاهزة مختصرة.

كما تدل على المفارقة الكبيرة بين الملوك الجهلة الذين يحكمون والعلماء والحكماء العالمين الذين لا يحكمون، بل يضطرون إلى العمل في خدمة الملوك وتقديم الحكمة لهم مبسطة ميسّرة.

كما تدل على مقولة تتلخص بأن الحياة تعلّم أكثر مما تعلم الكتب، وهي مقولة قد تصح، ولكنها لا تعني ألبتة إلغاء دور الكتب، كما قد يفهم منها أول وهلة.

والدلالة الأخيرة تبدو هي الأكثر وضوحاً في الحكاية، ولذلك تبدو الحكاية خطيرة، لأنها تصطنع التناقض بين خبرة الحياة، وثقافة الكتاب، وكأنهما على طرفي نقيض، مع أنهما في الواقع ليسا كذلك، فهما مترابطان ومتكاملان.

❑❖❑

شر الحاسد إذا حسد

كانا أخوين، ولكنهما كانا في خصام دائم، دكان هذا إلى جوار دكان ذاك، وكل يوم يجتمع أهل السوق ليفضوا ما ينشأ بينهما من نزاع، هذا يقول أنت بعت أكثر مني، وذاك يقول أنت بعت الأكثر، ولا ينتهي بينهما الخصام.

وذات يوم أرسل إليهما الحاكم، فمثلاً بين يديه، وقد عرف حسد كل منهما للآخر، فأراد أن ينهي هذا الخصام، فقال لهما:

"سأعطي الثاني ضعف ما سيطلب الأول"

وحارا في الأمر، وتردّدا كثيراً، ثم تقدم أحدهما، وقال للحاكم:

"أطلب أن تقلع إحدى عينيّ، لكي تقلع لأخي كلتا عينيه".

تعليق:

تدل الحكاية على قوة الحسد وخطورته، فهو يفرّق بين الأخ وأخيه، ويؤدي إلى إيقاع الأذى بالنفس

وبالآخرين، ولا يقدر على نزعه أحد، لأنه مستقر في أعماق النفس.

والحكاية قصيرة وعناصرها قليلة وهي قوية التأثير.

❑❖❑

الوزير وسائس الخليل

يحكى أن أحد الوزراء ضجر ذات ليلة، وأحسّ بالأرق، ولم يجد من يؤانسه، أو يسلّيه، فأرسل وراء سائس الخيل في القصر، فلما مثل بين يديه، دعاه إلى ملاعبته في الشطرنج كي يتسلّى. فدهش سائس الخيل، كيف يدعوه الوزير إلى ملاعبته؟ واضطر إلى النزول عند رغبته.

وكان سائس الخيل في حالة من القلق والاضطراب، وهو بين يدي الوزير، لا يعرف كيف يلاعبه، وكان ينظر في البيادق، ويفكر، ويتأمل، ويطيل التفكير، وإذا الوزير يقول له:

– تفضل باللعب يا مولاي

فذهل السائس، واعتذر إلى الوزير، ثم حرك أحد بيادقه، ومرة أخرى عاد إلى التأمل، وطول التفكير، وإذا الوزير يقول له ثانية:

– تفضل باللعب يا مولاي

فخجل السائس، واعتذر إلى الوزير، وذكَّره بأنه محض

سائس للخيل في القصر، ورجاه أن يناديه باسمه، فأجابه الوزير:

– لقد تعوّدت على مثل ذلك الخطاب، وأنا ألاعب الملك، وأخشى أن أتعوّد على خطاب آخر، فيزلّ لساني إذا ما لاعبت الملك.

تعليق:

تدل الحكاية على فراغ الحياة في قصور الملوك، وتحولها إلى محض مظاهر تتكرّر من غير ما صدق، وما هي إلاّ تعبيرات جاهزة يحفظها اللسان ويرددها، من غير أن تنبع من القلب.

كما تدل الحكاية على غياب العلاقات الإنسانية الصحيحة في قصور الملوك، إذ يضجر الوزير، ولا يجد من يؤانسه، وتظل العلاقة بينه وين سائس الخيل محض علاقة عابرة، لا عمق فيها، ولا تحمل أي شيء من القيمة الإنسانية، إذ ليس السائس سوى أداة بالنسبة إلى الوزير مثلما أن الوزير نفسه هو محض أداة بالنسبة إلى الملك.

إن الحكاية تكشف الخواء في قصور الملوك والحكام، حيث تمحى شخصية الإنسان الفردية، ويغيب استقلاله، وتنعدم كرامته، وحيث السائد هو التكرار والمظاهر الخادعة وأساليب الخطاب الجوفاء والثابتة التي لا تحمل شيئاً من صدق، فالخداع والملق والرياء هي الأمور السائدة، حتى إن المرء ليخشى أن يخرج عن مثل ذلك الإطار فيسقط.

والحكاية قصيرة، ودالة، وقوية التأثير، وجريئة في الانتقاد.

❐❖❐

المال الحلال

كان أحد الرجال يعمل في صناعة السروج، وكلما باع سرجاً خبأ جزءاً من ثمنه في سرج عتيق كان يضعه بجواره، وهو يريد أن يدّخر من المال ما يعينه على شيخوخته.

وذات يوم ترك المحل لولده، وذهب لشراء بعض الحاجات، وفي غيابه جاء رجل وسأل الولد عن أسعار السروج، ثم عرض عليه أن يشتري منه السرج العتيق، بسعر لا يقل عن السرج الجديد إلا بقدر قليل.

ورجع الرجل إلى المحل، فأخبره الولد ببيعه السرج العتيق، وناوله ثمنه وهو فرح، فجن جنون الرجل، لأنه كان قد خبأ فيه تعب عمره.

وأخذ السرّاج يصنع السروج كعادته، وكلما غرز في السرج غرزة كان يقول: "ماراح راح، ماراح راح، ماراح راح"، والناس يمرّون به، ويسمعونه وهو يكرر ذلك، ولا يعرفون قصده.

ومرت السنون والأعوام، وإذا رجل على حصان مطهم، يقف أمامه، ويطلب سرجاً من أجود الأنواع، فأعطاه السراج أفضل ما عنده، فمنحه الرجل ثمنه، ثم رفع عن ظهره جواده سرجاً قديماً وهو يقول:

"منذ بضع سنين اشتريت من محلك هذا السرج العتيق، واليوم، وقد رزقني الله ثمن سرج جديد، فإني أترك لك هذا السرج العتيق".

ثم ناوله إياه، ومضى في حال سبيله، ونظر السراج إلى السرج العتيق، وإذا هو السرج نفسه الذي كان يخبئ فيه النقود، وأسرع إلى فتق جانبه، فرأى النقود فيه على ما كانت عليه، فسرّ بذلك أبلغ السرور، وأخذ كلما غرز في السرج غرزة يقول: "ما هو لك لك، ما هو لك لك".

والناس يمرّون به، ولا يعرفون القصد مما يقول.

تعليق:

تؤكد هذه الحكاية أن المال الحلال لا يضيع، وأنه لابد عائد إلى صاحبه، مهما طال الزمن، وأن على الإنسان ألا ييأس أو يقنط، بل عليه أن يعمل دائماً بجد وصبر، وأن يظل معلقاً بالأمل.

وهي تدل على عهد كان الإنسان يدّخر فيه المال نقداً، لما كان للمال النقد من قيمة ثابتة، ولم يكن من وسيلة للإفادة منه أو استثماره، فلا مصارف ولا مشروعات.

كما تدل على عهد كان الإنسان فيه يعمل في المجتمع وحيداً، فلا مؤسسة تحميه، أو تضمن له عيشه في شيخوخته، فكان المرء يضطر إلى إدّخار المال، وغالباً ما

كان الوقت يدرك المرء ويظل المال مخبوءاً حيث هو، ولا أحد يدري به حتى يتم العثور عليه بعد زمن مصادفة، ويقال عن المال المكتشف عندئذ إنه كنز.

❒❖❒

ابن الحرامي

توفي أحد الرجال وترك لزوجته ولداً وحيداً، ولم يترك لها شيئاً تعيش عليه، فقد كان لصاً، ولم يكن يملك شيئاً، وقد صبرت زوجته عليه، وعلى حياة البؤس والفقر والشقاء، وقد آلت على نفسها أن تربي ولدها خير تربية، فلا يصبح مثل والده، لصاً.

وأخذت تلك المرأة تعمل في خدمة البيوت كي تعيل ولدها، وأرسلته إلى الكتاب كي يتعلم القراءة والكتابة، وكانت دائماً تتعهده بالعناية والرعاية، وتوصيه بالسلوك الحسن، وتعلمه مكارم الأخلاق، وتحدثه أحاديث الصدق والوفاء، وتذكره بالله والثواب والعقاب.

وكان الولد على قدر من النباهة والذكاء، وكان متفوقاً على أقرانه في الكتاب، حتى إنه كان أسرعهم إلى حفظ القرآن الكريم، وأكثرهم تقوى وورعاً، وأحبهم إلى قلب الشيخ الإمام.

ولما أتمّ تعليمه في الكتاب، سأله الشيخ عما يمكنه أن

يعمل، فأجابه الشيخ الإمام أن اعمل في مهنة والدك، وأسرع الفتى إلى أمه يسألها عن مهنة أبيه، فترددت الأم، وحارت في أمرها، ثم رأت أن تصدقه القول، فأخبرته بأن والده كان لصاً، لا عمل له، سوى تسوّر الجدران، وفتح الأبواب والأقفال وسرقة البيوت، ثم لما ألح عليها في السؤال، دلته على صندوق كانت تخبئ فيه عدة أبيه، وهي سلسلة حبال، ومجموعة مفاتيح وأقفال.

ولما صار آخر الليل، حمل الفتى سلسلة الحبال، ومجموعة المفاتيح، ومضى يبحث عن دار يسرقها، حتى إذا رأى داراً معتمة لا ضوء فيها ولا نور، تسوّرها، متسلقاً الحبال، ثم نزل فناء الدار، ودخل إحدى الغرف، فرأى صندوقاً، عالج قفله ببعض ما يحمل من مفاتيح، فانفتح، فإذا هو أمام أكوام من الليرات الذهبية، فأخرجها من الصندوق، وأخذ يعدها، وجعل يوزعها مئات مئات، ثم جعل يخرج من كل مئة مقدار ما عليها من زكاة.

ثم تناهى إلى سمعه من بعيد صوت الأذان للفجر، فخرج إلى فناء الدار، فتوضأ وصلى ركعتين، ثم أخذ يؤذن للفجر، ثم جعل يقرع أبواب الغرف وينادي الناس إلى الصلاة.

فخرج إليه صاحب الدار مع أولاده ذاهلين، ولما سألوه عن أمره، أخبرهم أنه جاء يسرقهم، فلم يصدقوه وازدادوا ذهولاً، فأكد لهم، ثم قادهم إلى الغرفة، وأخبرهم بمقدار ما

لديهم من مال، ومقدار ما يستحق من زكاة، ووضع بين يديهم سلسلة الحبال والمفاتيح وأكد لهم أنه تسوّر عليهم الدار بقصد السرقة، وحكى لهم حكاية الشيخ وأمه وأبيه، وأخبرهم أنه يريد أن يعمل في مهنة أبيه.

وعندئذ قدّر صاحب الدار صدق الفتى وأخلاقه، فصلّى وراءه مع أولاده، ثم أكد له أنه ليس من الضرورة أن يعمل في مهنة أبيه التي ما هي بمهنة، ثم دعاه إلى العمل عنده في مخزنه.

وعمل الفتى في مخزن الرجل مع أولاده بمثل ما ربي عليه من صدق ووفاء، وتقوى وإيمان، فكسب المال الحلال، وازداد إعجاب الرجل به، فعرض عليه الزواج من إحدى بناته، وكان له ذلك، فسعدت به أمه، وقرت عيناً، واطمأنت إلى حسن تربيتها، وعوضها الله عما لقيت مع زوجها من بؤس وفقر وشقاء.

تعليق:

تؤكد الحكاية أن الأخلاق ترجع إلى التربية والتعليم والتوجيه، وليس إلى الوراثة، وكما يقال في المثل: "وردة خلفت شوكة"، ويضرب للرجل الصالح يخلف ولداً شقياً.

كما تؤكد قدرة المرأة على تربية الولد وإعداده للمستقبل خير إعداد، ولو في غياب الأب، وذلك بخلاف المثل القائل: "المرأة ربت ثوراً فما حرث"، ويضرب للمرأة لا تقدر على إعداد الولد للمستقبل، وهو ما تنفيه الحكاية.

وتؤكد الحكاية أيضاً أن العلم والصدق والأخلاق

القويمة والتقوى هي جميعاً طريق الإنسان إلى الخلاص، ونفي الفساد والشرور، والانعتاق من واقع البؤس والفقر.

والحكاية تدلّ من طرف خفي على مسؤولية الغني عن الفقير، لو أنه كان يخرج زكاة أمواله، ويتعرف إلى الفقراء، لما كانت السرقة ولا الجريمة.

كما تدل الحكاية على صدمة الشباب عندما يتم تحصيله العلمي، ويخرج إلى الحياة حاملاً علمه وثقافته، فيصدم بالواقع، حيث لا يجد ما يعمل، ولكن ينقذه من التردي في مهاوي السقوط علمه وأخلاقه القويمة وإيمانه، ويكون له بها جميعاً الخلاص.

وتدل الحكاية على دور المرأة في المجتمع وفعلها فيه وتأثيرها، فهي صانعة الأجيال وبانية المستقبل.

والحكاية تحمل قدراً غير قليل من البراءة والفكاهة، وهي محكمة البناء، قوية التأثير، وتهدف إلى التربية والوعظ والتوجيه، ولعلها من إنشاء المرأة تنتصف بها لنفسها، وتؤكد مكانتها في المجتمع.

❐❖❐

كل يد فوقها يد أقوى

قدم أحد القرويين إلى المدينة، وهو يجر وراءه فرسه، وقصد إلى دكان حداد، وطلب منه حدوة لحصانه، فقدم له الحداد حدوة، أخذها الفلاح، تأمّلها قليلاً، ثم ثناها بيده، وطلب غيرها، وقدم له الحداد حدوة ثانية، ففعل بها مثلما فعل بالأولى، وقدم له ثالثة، فثناها أيضاً، وعندئذ انتقى الحداد حدوة غليظة، وناوله إياها، فحاول القروي ثنيها فلم ينجح، وعندئذ نالت رضاه.

ثم إن القروي ناول الحداد قطعة نقد معدنية ثمن الحدوة، فتناولها منه الحداد، وفركها بإصبعيه، فمحا رسومها، ثم أعادها إليه قائلاً: "نقودك هذه لا تصلح"، وناوله القروي قطعة نقد أخرى، ففعل بها الحداد مثل الأولى، وهكذا فعل ببضع قطع أخرى حتى شفى غليله منه، ثم قال: "كل يد فوقها يد أقوى".

تعليق:

تؤكد الحكاية أن القوة نسبية، وأن كل قوي فوقه أقوى منه، وأن على المرء ألا يخدع بقوته، وأن يعامل الناس

معاملة حسنة.

وهي تدل على الفرق بين قوتين، الأولى زراعية والأخرى صناعية، أو ريفية والأخرى مدنية، وتؤكد في الحالتين أن الثانية هي الأقوى.

❐❖❐

درس في الظلم

كان لأحد الملوك ولد وحيد، وكان يتعهده بحسن التربية، ويعدّه ليرث الملك من بعده، وكان يجلب له دائماً كبار الأساتذة والمربين، ويوصيهم أن يحسنوا تعليمه وتربيته، وألا يترددوا في عقوبته إذا قصّر أو أخطأ.

وكان الولد ذكياً، وذات يوم، وبينما هو أمام أستاذه، يصغي إليه، ويحسن الإصغاء، وإذا بالأستاذ يضربه بعصا كانت في يده، من دون ذنب، فدهش الولد، واستاء كثيراً، ولكنه كظم غيظه، ولم يظهر استياءه، كما لم يخبر والده بالأمر.

ومرت الأيام، تلتها السنون والأعوام، وتوفي الملك، وورث من بعده العرش ولده، وأصبح ملكاً، يسوس البلاد والعباد.

وذات يوم ذكر أستاذه، فأرسل في طلبه، ولما مثل بين يديه، ذكّره يوم ضربه من غير ذنب اقترفه، وسأله عن سرّ ذلك؟ فأجابه الأستاذ: "لقد ضربتك ظالماً، حتى تعرف

معنى الظلم، فلا تظلم أحداً".

تعليق:

حكاية تنضح بالمرارة والألم، وتدل على معاناة المظلوم، كما تدل على أن الملوك لا يعرفون طعم الظلم، لذلك لا يتورعون عن ظلم الناس.

وهي تدل على حاجة الملوك إلى إعداد وتربية قبل توليهم الملك، كما تدل على دور الأستاذ التربوي وقدرته على التأثير بفضل ذكائه.

والحكاية تعبر عن إحساس بالظلم من جهة، كما تعبر عن هدف تربوي من جهة ثانية، وهي مكثفة، قوية التأثير، محكمة البناء.

❑❖❑

التاجر البخيل

أضاع أحد التجار كيس نقوده، فحزن أشد الحزن، ونصح له صحبه من التجار أن يرسل منادياً في المدينة، يعد من وجد الكيس، ويعيده إليه أن يمنحه نصف ما فيه، وتردد التاجر في الأمر، ثم لم يجد سوى ذلك من حل.

وما هي إلا ساعة حتى تقدم رجل فقير من التاجر يخبره أنه عثر على كيسه، وأنه في حوزته، ففرح التاجر، وطالبه به، ولكن الفقير طلب منه أن يمنحه نصف ما في الكيس، فرفض التاجر ذلك، وأكد أنه لن يعطيه أي شيء، فأبى الفقير أن يرد إليه الكيس.

وأسرع التاجر يشكو أمره إلى القاضي، وادعى أن في الكيس جوهرة ثمينة، وحضر الفقير، ودهش عندما سمع ادعاء التاجر، وأكد أنه لم يعثر في الكيس على غير النقود.

وسأل القاضي التاجر عن الجوهرة، ما شكلها وما حجمها وما لونها؟ فتلجلج التاجر واضطرب وهو يخترع

أوصافاً لجوهرة غير موجودة، وألح القاضي على الفقير، فأقسم هذا أنه لم يجد في الكيس غير النقود، وعندئذ قال القاضي للتاجر بأن ذلك الكيس الذي عثر عليه الفقير ليس بكيسه؟ وإنما هو كيس آخر غيره، وأمر بصرف الفقير.

وندم التاجر على ما فعل، واعترف للقاضي بكذب ادعائه، ووعد أن يعطي الفقير نصف ما في الكيس إن هو ردّه إليه، ولكن القاضي رفض تصديقه، وطلب أن يحتفظ الفقير بالكيس عنده أربعين يوماً، فإن لم يجد صاحبه أصبح حلالاً له، ثم أمر بعقاب التاجر البخيل لأنه ادعى كذباً على رجل بريء.

وما كان من الرجل الفقير إلا أن ردّ الكيس إلى التاجر، ورفض أن يأخذ أي ردهم، لأنه لا يريد مال رجل بخيل مثله.

تعليق:

تؤكد الحكاية بخل التاجر، وتكشف أساليبه في الكذب والغش والخداع، كما تؤكد عفة نفس الفقير وصدقه وسماحة نفسه.

والحكاية تربوية، تحث على الصدق والوفاء بالوعد والتسامح، ويرجح أن تكون من ابتكار إنسان فقير.

❒❖❒

ذكاء الحكيم

أرسل أحد الملوك وراء حكيم، وسأله:

"متى أموت، أيها الحكيم؟"

وحار الحكيم في الجواب، ثم فكر في الأمر، وتدبر، ورأى الملك عجوزاً شائخاً، قد أكلته العلل والأمراض، فقال له:

"تموت قبلي"

فغضب الملك، وأمر بسجن الحكيم.

وما هي إلا أشهر وأيام، حتى مات الملك، وورث من بعده ولده الملك، وكان قد سمع قول الحكيم، فأخرجه من السجن، وسأله السؤال نفسه:

وتفرّس الحكيم في وجه الملك الشاب، فرأى فيه ملامح الغضب، وأدرك أنه يضمر له الشر، وأنه على وشك قتله، فأجابه:

"تموت بعدي"

فعفا عنه، وأطلق سلاحه، وأمر بتعهده ورعايته، وأحاطه بالعناية والتكريم.

تعليق:

حكاية طريفة، تؤكد تعلّق الملوك بالحياة، وخوفهم من الموت، كما تدل على ضعف تقديرهم، وحاجتهم دائماً إلى الحكماء والعرافين.

كما تدل الحكاية على ذكاء الحكيم، وضرورة تحلّي الإنسان بالذكاء، وحسن التصرف والجواب.

❒❖❒

المحتوى

مقدمة ٥
مدخل ٨
التراث الشعبي ١٠
الحكاية الشعبية ١٨
دهاليز ٣٦
عود على البدء ٣٨
بنت الجيران ٤١
فرش معكوس ٤٤
الحكايات الطويلة ٤٦
ساقية من عسل ٤٨
وساقية من سمن ٤٨
الفتى نديم الملك ٦٠
التاجر حسن ٧١
عمود من الذهب ٨٣
الأخوات الثلاث ٩٤
الفأرة والذهب ١٠٢
حكاية الصديق ١١٢
حماة من خشب ١١٩
علبة الأضراس ١٢٦
ذكاء الزوجات ١٣١
حماة ولو من غير كنه ١٣٦
الكأس والمنديل ١٤١

ثمن الذهب ١٤٥
الوصية ١٥٠
الخمخوم ١٥٥
الطائر الأبيض ١٦٤
قلعة من رؤوس ١٧٢
بنت الملك ١٨٠
الفقير والوزير ١٨٦
الغزالة ١٩١
الحلاق ٢٠٦
المال والبنون ٢١٣
الحظ المقسوم ٢١٩
الغولة والإخوة الثلاثة ٢٢٣
ليلة الغنجة ٢٢٨
ابن الحطاب ٢٣٥
شعر العجوز ٢٤٣
وحصان ابن الملك ٢٤٣
قفل ومفتاح ٢٤٦
الفعل يدل على الأصل ٢٥٧
البغي الطهور ٢٦٢
الشقي والتقي ٢٦٦
عقدة الإصبع ٢٧٠
الزوجة الوفية ٢٧٢
كل إنسان يعمل بأصله ٢٧٩
صالحة ٢٨٤
الضبع والشاب ٢٩٠

أبو عيشة ٢٩٥
أمك الشمس وأبوك القمر ٣٠٤
ست الحسن والمارد ٣٠٨
الزيت والقرد ٣١٢
الصياد والمارد ٣١٥
بنت الداية ٣١٩
بنت البازركان ٣٢٤
الأمير حسن والغول ٣٣٤
فطوم بنت الشحاذين ٣٤٠
الولد الأقرع ٧٥٩
أجير الصائغ ٧٦٣
قسمة ونصيب ٧٦٧
حكاية الكذب ٧٧١
عروس بجاموس ٧٧٧
أرزة وقنبر ٧٨١
الملك وابن أخيه ٧٩٠
الشحاذ وبنت الملك ٧٩٧
الفقير والبئر ٨٠٦
ابن الملك ٨١٢
جحا وزوجة أبيه ٨١٩
بركة الذهب ٨٢٧
ابن الملك وبنت الراعي ٨٣١
الجمل والأخوات الثلاثة ٨٣٥
أولاد الملك ٨٤٢
الغول والأخوات الثلاث ٨٤٧
الخرزة الزرقاء ٨٥٣
الحطاب والأفعى ٨٥٩

الملك وبنت الحمّامي ٨٧٠
حكاية مئة موال ٨٨٠
غرائب الأقدار ٨٩٩
عصفور وجرادة ٩٠٦
الملك الظالم ٩١٣

حكايات قصيرة.. ٩١٦

الوطنية ٩١٨
ماذا يقول الماء؟ ٩٢٠
أنف القاضي ٩٢٤
الذي يسرق بيضة ٩٢٩
يسرق جملاً ٩٢٩
كرة من الذهب ٩٣٤
الغني والفقير ٩٣٦
اعدل.. عدلوا ٩٤٠
صديق العمر ٩٤٦
الصيف والشتاء ٩٤٩
طفح الكيل ٩٥٣
قلب الأم ٩٥٦
الأخذ والعطاء ٩٥٩
عيش القصور ٩٦١
قطعة من حديد ٩٦٣
العسل ٩٦٦
ثمن الحمام ٩٦٨
في بركة القصر ٩٧١
الرشح أصعب ٩٧٧
ابن العم ٩٧٩
ديوان العسكر ٩٨٢

الحنين إلى الأصل ٩٨٦
الخوف من البرد ٩٨٩
الولي والفتاة ٩٩١
الشقي ومحراك التنور ٩٩٣
بيت من الملح ٩٩٧
ضعاف السمع ١٠٠٠
العابد وزوجته ١٠٠٣
كل حال يزول ١٠٠٥
سرّ الصندوق ١٠٠٨
من أجل أخي ١٠١٠
أيام السعادة ١٠١٢
وإذا سألت فاسأل الله ١٠١٤
سم الأفعى ١٠١٧
نصف الحصير ١٠١٩
مدينة لا يدخلها غزاة ١٠٢٢
الوالد والولد ١٠٢٤
التجارة ١٠٢٧
الأمير كلمني ١٠٢٩
الحلاوة ١٠٣١
رأس القط ١٠٣٣
ظواهر الأمور ١٠٣٧
شقة العصفور ١٠٤٠
البحيرة والحمار ١٠٤٣
للملك قرون ١٠٤٦
الحماة حين كانت كنّة ١٠٥٠
الأخت والكنز ١٠٥٣
العبادة أنواع ١٠٥٥
الديك والدجاجة ١٠٥٨

دقة بدقّة ١٠٦١
الثعلب المحتال ١٠٦٤
العجائز الثلاث ١٠٦٧
الفأرات الثلاث ١٠٧٠
من سيعلق الجرس ١٠٧٣
الحِكم الثلاث ١٠٧٥
أبو الكنافة ١٠٧٨
شفتك فوق وشفتك تحت ١٠٨١
الراعي والذئب ١٠٨٣
الرشيد والبهلول ١٠٨٦
الطبيب وبغلته ١٠٨٩
ضربة أعمى ١٠٩٢
حكاية لا تنتهي ١٠٩٥
بين الذهاب والإياب ١٠٩٨
جرّة السمن ١١٠١
الفأس الذهبية ١١٠٤
كل السبب في فرخ السمك ١١٠٧
البيع بمئة والشراء بعشرين ١١١٠
مطعم الهناء ١١١٤
الشجاعة ١١١٦
فردة الحذاء ١١١٨
لقمان الحكيم ١١٢١
أشدّ الناس حمقا ١١٢٣
الولد الذكي والشمعة ١١٢٦
الملك والمجنون ١١٢٨
خسرنا اليوم ١١٣١
الملك وصناديق الكتب ١١٣٣
شر الحاسد إذا حسد ١١٣٦

الوزير وسائس الخليل ١١٣٨
المال الحلال ١١٤١
ابن الحرامي ١١٤٤
كل يد فوقها يد أقوى ١١٤٨
درس في الظلم ١١٥٠
التاجر البخيل ١١٥٢
ذكاء الحكيم ١١٥٤

❐❖❐

المؤلف

* من مواليد مدينة حلب عام ١٩٤٩
* تخرّج في قسم اللغة العربية وآدابها من جامعة حلب عام ١٩٧٢.
* نال الماجستير في الأدب العربي الحديث من جامعة حلب عام ١٩٨١
* حاز الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام ١٩٨٤
* عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام ١٩٨٣
* عضو هيئة تحرير جريدة الأسبوع الأدبي منذ عام١٩٩٦.
* رئيس قسم اللغة العربية في جامعة حلب منذ عام١٩٩٨.
* أستاذ لمادة الأدب العربي الحديث في جامعة حلب

❑❖❑

مؤلفاته المنشورة

- حركة التأليف المسرحي في سورية،(دراسة):

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢، ٤٣٠ صفحة، قطع كبير

- يوم لرجل واحد، (مجموعة قصص قصيرة)

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦، ٢٠٠ صفحة، قطع وسط

- المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر،(دراسة)

دار طلاس، دمشق ١٩٨٩، ٣٧٤ صفحة، قطع كبير

- حجارة أرضنا،(مجموعة قصص قصيرة)

مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٨٩، ١٠٩ صفحات، قطع صغير

- الكوبرا تصنع العسل، (رواية)

دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ١٤٥ صفحة، قطع كبير

- بدر الزمان، (مسرحية)

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦، ٣٣٥ صفحة، قطع وسط

- عريشة الياسمين، (مجموعة قصص)

دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ٢٥٦ صفحة، قطع وسط

- دراسات في المسرحية العربية، (دراسة):

مطبوعات جامعة حلب، حلب، ١٩٩٧، ١٨٥ صفحة، قطع كبير

❑❖❑

رقم الايداع في مكتبة الأسد - الوطنية

حكايات شعبية : قصص/ أحمد زياد محبّك –دمشق اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩– ٧٦٨ص؛
٢٠سم

١– ٣٩٨٠.٢٠٩٥٦ م ح ب ح

٢– ٨١٣.٠١ م ح ب ح ٣– العنوان.

٤– محبك

ع –١٩٩٩/١/٢٢ مكتبة الأسد

❐

هذا الكتاب

للحكاية الشعبية قيمةٌ كبيرة، فهي مادة خصبة لبحوث شعبية واجتماعية و-تاريخية وفكرية ودينية وأدبية وثقافية وإنسانية، وقد عنيت بها شعوب كثيرة، جمعاً وتوثيقاً ودراسة، وتكاد في العصر الحاضر تنسى بسبب ما استجد من وسائل الترفيه والتسلية والتعليم، ولقد كانت إلى وقتٍ غير بعيد الوسيلة الأولى لذلك كله.

وليست الغاية من تدوين هذه الحكاية إحياءها، وإنما حفظها وتوثيقها، ووضعها مادةً أمام الدارسين، فقد يتيح هذا الحفظ إمكان توظيفها في أشكالٍ جديدة ولذلك قد تبدو في بعض الحكايات عناصر أو مفاهيم أصبحت غير مناسبة لهذا العصر، ولكن هذا لا يحول دون حفظها تدويناً وتوثيقاً لما لها من أهمية وقيمة.

❑